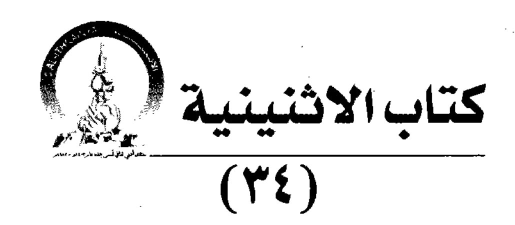


(٣٤)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

أحمد قنديل

الجزء السادس

النثر

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ح عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

قنديل ، أحمد

الأعمال الكاملة ./ أحمد قنديل .- جدة ١٤٢٧هـ

(٦ مج ٣٤٣٢ ص) الجزء السادس ٥٦٠ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٣٤)

ردمك ٥-٥٦٤-٥٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

X-٥٧٠-٥٦-٩٩٦٠ (ج٦)

١ - الأدب العربي - السعودية - مجموعات أ- العنوان

ديوي ٨١٠,٨٠٠٩٥٣١ ١٤٢٧/٥٥١٤

رقم الإيداع : ١٤٢٧/٥٥١٤

ردمك : ٥-٥٦٤-٥٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

X-٥٧٠-٥٦-٩٩٦٠ (ج٦)

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

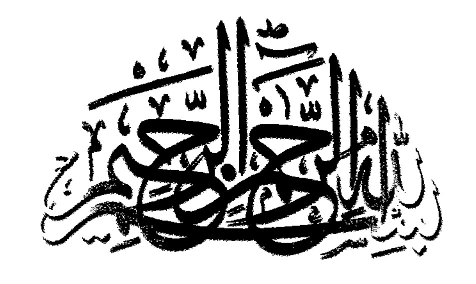


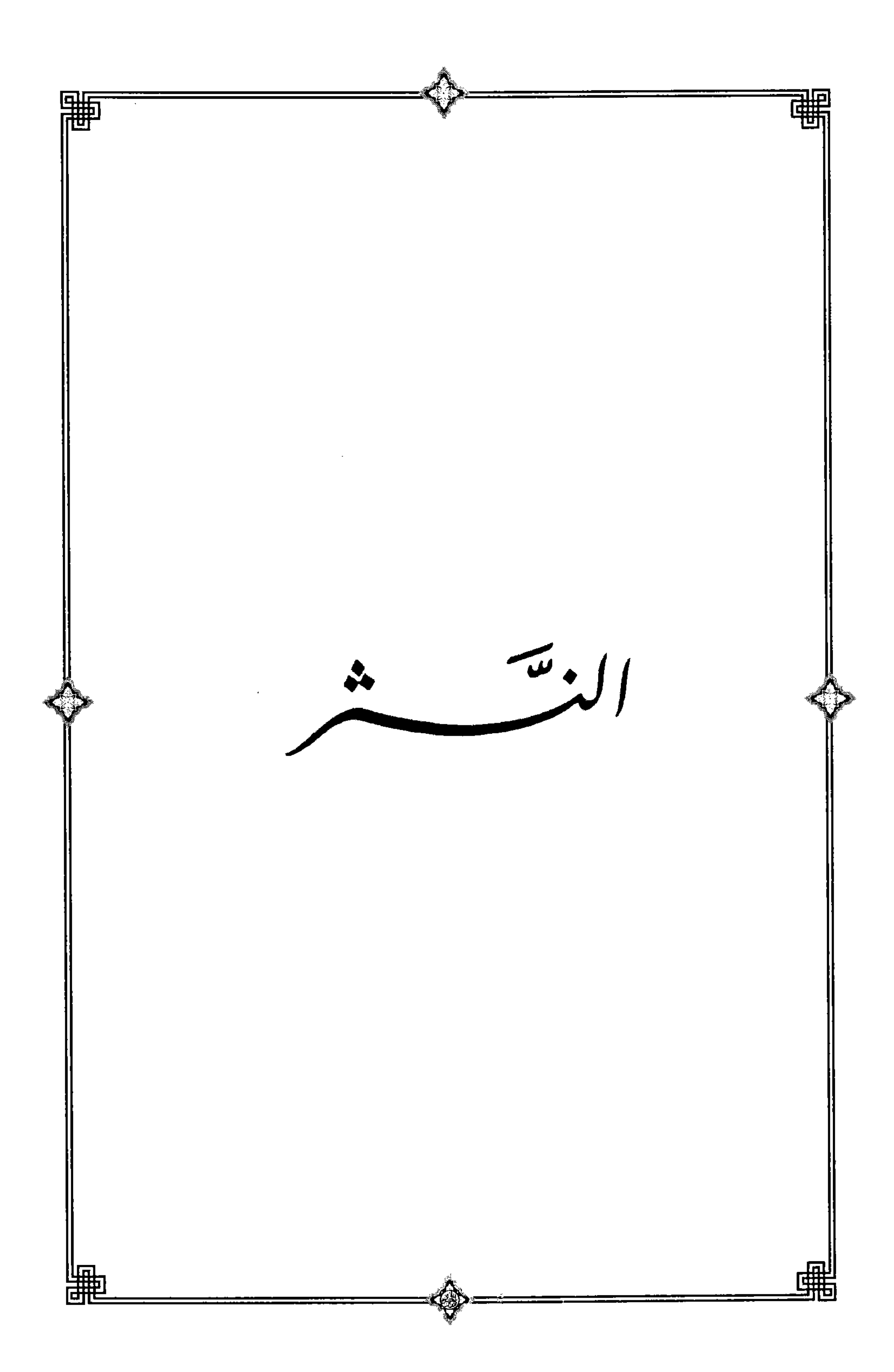
منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ أحمد قنديل

الجزء السادس

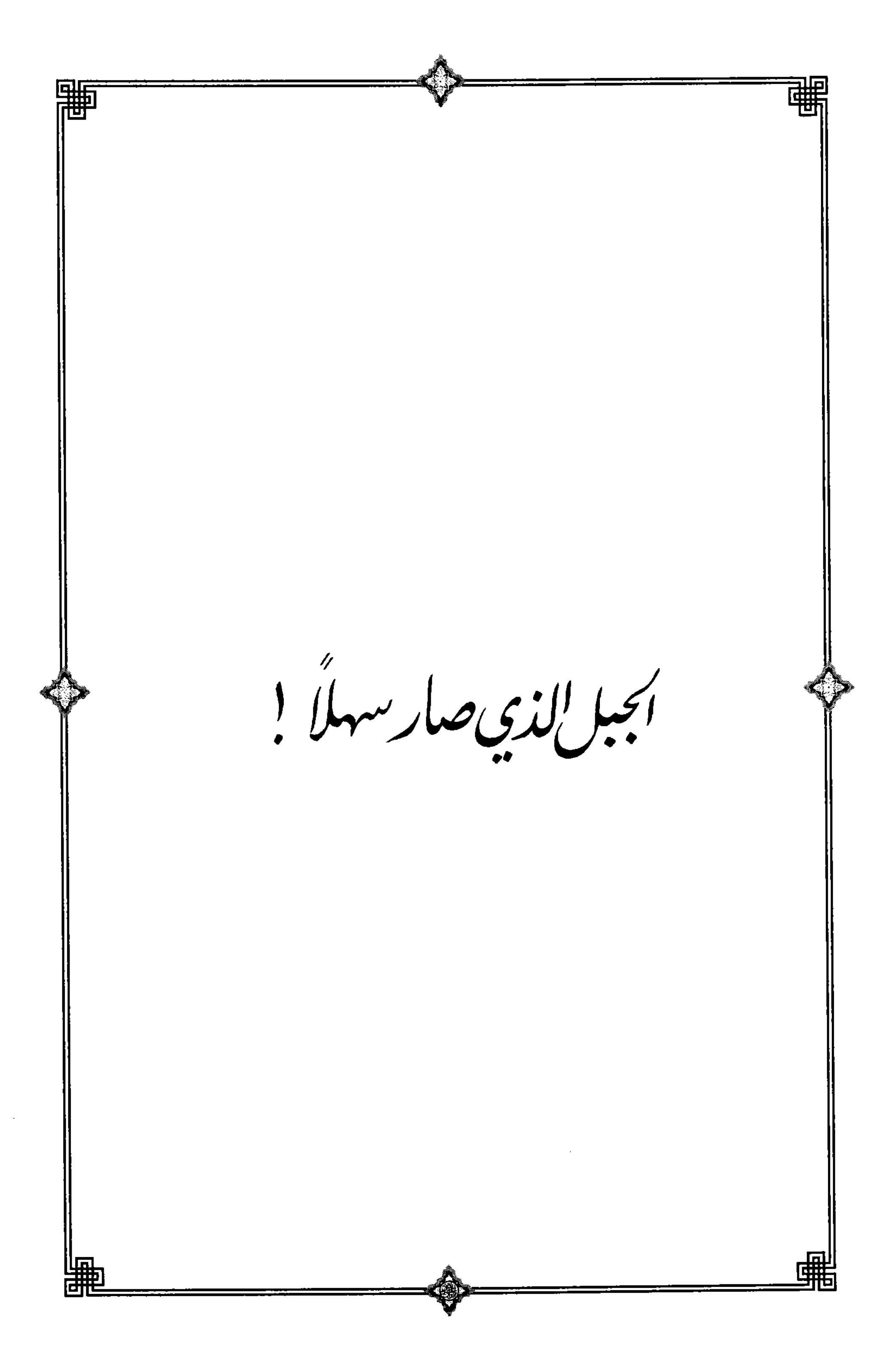
النثر


بسم الله الرحمن الرحيم



النثر





الجبل الذي صار سهلاً !



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

"الجبل الذي صار سهلاً" يسعدنا أن يكون بداية لمرحلة من مراحل نمو تهامة، ويسعدنا أيضاً أن يكون عنوانه عنواناً لتجربة قررنا أن نخوضها.. فعلى الرغم من أن أديبنا الراحل الأستاذ أحمد قنديل يصوّر فيه تجربة ذاتية عميقة تنطلق من واقع الانتماء وتبرز في جلال محلق صورة من صور الإنجازات الكبيرة، إلا أننا أردنا أن نخوض به تجربة مماثلة.. ولكن في ميدان النشر.

إننا ندخل هذا الميدان لا لمجرّد نزوة عارضة.. وإنما لرغبة عارمة تولّدت عن قناعة أملتها ظروف ومتطلبات التنمية البشرية في هذا الوطن الغالي، وتستمد هذه التجربة أهدافها من حقيقتين رئيسيتين:

أولاهما: أننا أمّة حضارية تمتلك رصيداً ضخماً من التراث الإسلامي في مختلف المجالات، وأن علينا أن نستحدث ما أمكن من القنوات المختلفة للعمل على تحقيقه ونشره وتداوله في أرجاء الأرض.

وثانيهما: أن واقعنا المعاصر يتطلّب عناية فائقة في الاهتمام ببناء الإنسان.. وأن متطلبات التنمية البشرية تحتاج إلى كل الوسائل الناجحة

لبناء الإنسان المسلم بناء يستمد أصوله من المبادئ الخلقية والإنسانية لعقيدته الإسلامية.

وفضلاً عن ذلك، فإن القناعة بضرورة نشر المعرفة، وإتاحة الفرصة لرجال الفكر لنشر أعمالهم من خلال مؤسسة وطنية كانا من أهم الدوافع للتفكير في ارتياد هذا الميدان.

ولقد استلزم الأمر في البداية أن نفكر في مفهوم النشر من خلال تعريفاته المقننة، فوجدناه لا يقتصر على تأليف الكتاب أو تصنيعه أو تسويقه، بل يجمع كل هذه الأطراف الثلاثة معاً، وأن هذه العناصر الثلاثة مجتمعة تمثل حجر زاوية في الحكم على الملامح الثقافية في أي مجتمع من المجتمعات.

ومن هنا كان علينا أن ندرس حركات النشر في مختلف دول العالم، ما هي ظروف نشأتها؟ وما الذي وصلت إليه؟ وما الذي تمثِّله اقتصاديات الكتاب في كلٍّ ثقافة من الثقافات المختلفة؟

وعند دراسة واقعنا المعاصر في مجال النشر في المملكة العربية السعودية كانت تسيّطر علينا حقائق كثيرة أهمها:

١ ـ أن التنمية البشرية والاجتماعية تعدان من أهم الأولويات في خطط الدولة، وأن ترجمة هذه الأولويات يتطلب إسهاماً فكرياً من قبل المفكر السعودي.

٢ ـ أن فلسفة التعليم العام بمراحله المختلفة سواء المدرسي أو العالي أو المهني تقوم على مبادئ دينية وأخلاقية إسلامية.. وأن من الضروري متابعة تطبيق تلك الفلسفة وبلورتها في الأدوات التعليمية والتثقيفية وأهمها الكتاب المدرسي والكتاب الجامعي.

٣ ـ أن الدولة تستثمر كل جهودها في إعداد الكفاءات والكوادر العلمية المؤهلة تأهيلاً عالياً كي تضطلع بأدوار التوجيه أولاً، ثم بأدوار المتابعة والتطوير عن طريق البحث العلمي، وأن من الضروري أن تقوم مؤسسات متخصصة للنشر تعمل جنباً إلى جنب مع المؤسسات العلمية لتنشيط حركة البحث العلمي وتطويره.

٤ ـ أن كثيراً من المفكرين المعاصرين يواجهون صعوبات جمّة في تمويل ونشر أعمالهم الفكرية، وأن المؤسسات الوطنية القائمة ليست كافية لاستقطاب هذه الأعمال.

٥ ـ أن رأس المال السعودي الذي استثمر في مجالات شتى، عليه أن يساهم في مجالات النشر ويشارك في المجالات التي تعمل على بناء الملامح الحضارية لهذه الأمة.

٦ ـ أن الدور الريادي الحالي للملكة العربية السعودية، وخاصة في ظلِّ ظروفٍ دولية متغايرة ومتفاوتة يتطلّب بذل جهود كبيرة لتأكيد الملامح الخاصة لمجتمعنا المسلم.. وأن أوعية الفكر وأهمها الكتاب يمكنها أن تبلور تلك الملامح.

٧ ـ أن الاقتصاديات الحالية للكتاب السعودي لا تتناسب وأهمية الدور الذي تلعبه المملكة على المستوى الدولي في مختلف المجالات.

ومن هنا كان علينا أن نخوض هذه التجربة.. نخوضها لأننا على يقين من أهميتها.. كما نخوضها لأننا نؤمن أن من واجبنا كمؤسسة وطنية أن تساهم مع الدولة في كل ما من شأنه رفعة وتقدم هذه البلاد.. وسنجد في سبيل ذلك كل دعم وتأييد بإذن الله. وسنخوض التجربة في مجالات عديدة.

في مجال المعرفة العامة، ستتولى تهامة للنشر إصدار عدد من

السلاسل كسلسلة الأعمال الأدبية السعودية، وسلسلة الدراسات التاريخية، وسلسلة الدراسات الاقتصادية، وسلسلة الدراسات الاجتماعية وغيرها.

وفي مجال المؤلّفات الجامعية ستستقطب تهامة للنشر جهود أعضاء هيئات التدريس من السعوديين عن طريق نشر مؤلفاتهم وتسويقها.

وفي مجال البحوث العلمية ستتولى تهامة للنشر إصدار سلسلة الرسائل العلمية، كما ستقوم بنشر البحوث العلمية التي يعدها الباحثون في المملكة العربية السعودية.

وفي مجال المؤلفات الخاصة للأطفال، فإن تهامة للنشر ستعمل على نشر سلسلة للأطفال تستمد أصولها من واقع البيئة السعودية وتقوم على المبادئ الخلقية والإنسانية للدين الإسلامي.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن التراث المخطوط سينال العناية الخاصة، وسوف تستثمر المؤسسة جهودها في سبيل تحقيقه ونشره.

وحتى لا نكون مغالين في تصوّرنا، فإن إنجاز مثل هذا المشروع يتطلّب جهداً ووقتاً كبيرين، لا سيما وأن الكثير من التجهيزات الأساسية كالمطابع والعمالة وقنوات التوزيع الداخلي والخارجي ليست بصورة متكاملة، وحسبنا أن نبدأ بداية جيدة، ونخطو خطوتنا الأولى، فطريق الألف ميل يبدأ بالخطوة الأولى..

وإذا كانت تلك آمالنا، فإن تحقيقها يعتمد بالدرجة الأولى على التعاون الصادق الذي يمكن أن يتم فيما بين المؤلّف الجيد والقارئ المناسب والناشر الكفؤ.

وإلى "الجبل الذي صار سهلاً" . . .

تهامة

مقدمة

أهل الأدب في هذه البلاد طبقات كأهل الأدب والعلم والحِرَف والهوايات في كل زمان ومكان.. ويأتي أحمد قنديل في مقدمة الطبقة الثانية مع حمزة شحاته ومحمد حسن فقي وحسين سرحان وغيرهم، كما يأتي في مقدمة الطبقة الأولى محمد حسن عواد ومحمد سرور الصبان وعبد الوهاب آشي، وغيرهم أيضاً.

وليس الزمن وحده هو مدار الفرق بين الطبقات، فربما كان في الجيل الثاني من لا ينقص عمره كثيراً أو قليلاً عن بعض من في الجيل الأول أو العكس، وإنما يؤخذ في الحساب، بعد الزمن والعمر، عامل الظهور والانفعال بالحركة الأدبية التي يرجع الفضل، ولا شك، في إيقاظها وإشعال جذوتها إلى الرعيل الأول.. أما الزمن فإنه قد يذوب تدريجياً بين الطبقات، إذ يبدو أبناء الخمسين والستين والأربعين وما بينها وكأنهم جميعاً أبناء جيل واحد!.

وليس من همّي الآن استعراض الطبقات كلها إلى الجيل الأخير الذي يطفو على السطح في هذه الأيام، فذلك يتطلّب دراسة شاملة وبحثاً متفرغاً هدفه النقد والتاريخ والإحصاء على نحو دقيق يتحرّى الصواب، ويتفادى الهوى ومزالق الخطأ والارتجال، وإنما أردت أن أضع أحمد

قنديل في الطبقة التي هو منها وإليها كما أظن. .

وإذا كان لي شأن يذكر فإنني كآخرين في مقدمتهم حسين عرب وعبد الله عريف وسيف الدين عاشور وسواهم ـ من أبناء الطبقة الثالثة التي تأتي بعد طبقة أحمد قنديل، فلقد كان يرأس تحرير صوت الحجاز التي كانت تصدر بهذا الاسم حينذاك، وتصدر حالياً باسم "البلاد" بعد تطورات متلاحقة بين الاسمين. . وكنت يومها ما أزال طالباً أدرس وأتابع حركة الأدب ـ وأحمد قنديل في مدارها ـ بشغف وانسجام. .

ثم تحولت علاقتي بهِ إلى خط الصداقة من نحو أربعين عاماً، وأحسب أنها كانت بيننا شيئاً يتخطّى الصداقة إلى الاندماج فيَ بعضنا في علاقة صَمِيميَّة دائمة لا تكاد تفتر، ثم لا نكاد نفترق عن بضعنا إلا فيما ندر. . وكان هذا في ريعان الشباب. . يرحمه الله. .

كان يعمل بوزارة المالية، وكنت أعمل بمطبعة الحكومة. . ثم بديوان "فيصل بن عبد العزيز" نائب الملك في الحجاز حينذاك. .

ثم تشعبت بنا كعادتها خطوط الحياة، فلم نعد نتلاقى إلاَّ قليلاً، ولكن ما بيننا ظلّ حيث هو في مكامِنِه وطواياه. .

وكما هو واضح بالبداهة لا يعني تعداد الأجيال وتوزيعها على نحو ما أسلفت أنها تأخذ الترتيب نفسه في التفوّق والإتقان، وإلاَّ لكان حظ أجود الشعراء والأدباء والفنانين في العصور الأخيرة حظاً سيئاً إذا وضع قبلهم بعض من سبقهم في العصور السابقة هم دونهم في ميزان التقييم الصحيح. وهناك من تخطوا عالم الجيل المحدود، فلم يعودوا ينسبون إلى جيل ما إلاّ لمجرّد العلم والتاريخ، وإنما يحسبون من الأفذاذ على مرِّ الأجيال. .

ولعلي لا أبالغ إذا قلت: أن أحمد قنديل الشاعر العربي واحد من هؤلاء، فإن له شعراً عربياً لا يكاد يهبط في مستواه عن مستوى فحول الشعراء في العالم العربي عموماً..

أما هو فيما عدا ذلك من الشعر "الحلمنتيشي" الذي عرف وتفوق به على كل من حاولوه، وهو الشعر الذي يخلط الفصحى بالعامية، فإنه شاعر "بلدي" و "البلدي يؤكل" كما يقول المثل المعروف..

نعم.. كان شعره "البلدي" أو "الحلمنتيشي" يؤكل إذا جاز أن يؤكل الشعر، ولئن كان معظم القراء يتجاهلون أو يلقون نظرة باردة على معظم الصحف وأبوابها فإن شعره هو يظل مادة مقروءة على مختلف المستويات..

وهو فيما عدا الأول والثاني في دنيا الشعر كاتب "بلدي" بكل معنى الإخلاص التلقائي للبلد، لغة وتاريخاً، وروحاً، وفكاهة يغلب عليها وعلى الأدب والفن عموماً فيه ـ مزاج "الكاريكاتير" وهو مزاج يسخر ويضحك ويستعرض المفارقات ويستطرد إليها عضواً لا اصطناع فيه، وعلى نحو فكه لا يخلو من النكتة ومن طرافة الصورة، ولهذا يلوح أثره وتأثيره أقوى بين أهل البلد..

وإذا كان من يكتب أو ينظم بأسلوب هذا المزاج لا يتحرّى المثالية فإنه هو لا يبعد كثيراً عنها.. على الأخص إذا كتب بالفصحى..

بلدي بمعنى الكلمة ومقوّماتها على ما تمتّع به من اطلاع واسع في دنيا الأدب وسواه، ولقد كان قارئاً لا يكاد يمل القراءة في أي جو كان، ومع أي كان أحياناً..

ولقد سبقني حمزة شحاته إلى إطلاق هذا التعريف البلدي عليه[١]، فما أضيف به جديداً، ولكنني أتسلل منه إلى موضوع هذه المقدّمة، وكان قد زارني قبل نحو سنتين بملف في داخله أوراق معدة للنشر بعنوان (الجبل الذي صار سهلاً) وسألني أن أكتب مقدمته، فاستبقيته عندي.. وتبيّنت بعد مراجعته أنني قرأت معظمه فصولاً منشورة في صحيفة (عكاظ) ولكن ما بين يديَّ منها لم يكن يخلو من التشويش، ومن رداءة الطبع، وغموض بعض الألفاظ والعبارات، وكأنما التنسيق غير حاصل بينها.. إلى آخر ما تحدثت إليه عنه.. وأعدت له "الملف" لمراجعته وتنسيق محتوياته، وتصحيح أخطاء الطباعة، وسرعة الأداء التي كان لا يبالي أن يجري بها فيما يكتبه، ثم لا يحاول إعادة النظر فيه، وألزمته بها أخوياً، وأقتنع وأخذ الملف.. ثم أصبحنا نلتقي لماماً، وعلى سطور ما ينشر له شعراً ونثراً في بعض الصحف.. وقد مضى على آخر لقاء به نحو عام..

وفوجئت وأنا أقلب الصحيفة بخبر وفاته.. وخيّل إليّ أن أفكاري توقفت عن الحركة، وغابت نفسي عن وجودي لحظات طالت وطال جمودي فيها على "الحوقلة" وعلى شيء أكثر من الاحتدام في صدري..

ولكنه مات.. وانتهى كعشرات الملايين التي تذهب من وجودنا إلى وجود آخر لا يعرف حقيقته وتفاصيله إلا خالق العدم والوجود.

وطويت أحزاني وخلجاتي كما طويت وأطوي مثلها كلما ذهب من وجودي واحد من طراز أحمد قنديل..

---

(١) كان حمزة شحاته ينشر مقالات متسلسلة بعنوان "حنفشعيات" من ضمنها مقال عن أحمد قنديل في هذا التعريف .. وأحسبها قد ظهرت في كتيب صغير بعنوان (حمار حمزة شحاته) وليتها ظهرت بعنوانها القديم في "صوت الحجاز".

ومضت الأيام عليه رفاتاً أسأل الله الرحمة له ولكل من ذهبوا من "أمة محمد ﷺ" ولكن صداه لم يمض، فما زال حيًّا وسيظل كذلك ما دام في الدنيا بلد وأدب، وشعر و"كاريكاتير" وإخاء وصميمية يكاد يتلاشى غطها في أيام كالتي نعيشها تطورت الحياة فيها إلى الأعلى ظاهراً، وإلى الأدنى فيما دون الظاهر اللماع!

وجاءني (الجبل الذي صار سهلاً) من "مؤسسة تهامة" وعلى وجه التحديد من الأستاذ الصديق محمد سعيد طيب مدير هذه المؤسسة، ومن يلوح كمحركات الطائرة فيها، وقال إنها ستخرج (الجبل الذي صار سهلاً) في كتاب على نحو ما كان سيفعل مؤلفه لو امتدت به الحياة، وسألني كتابة المقدمة التي كنت سأكتبها بناء على رغبة المؤلف سابقاً، ثم رغبة أبنائه لاحقاً ـ حفظهم الله.

وأرسل إليَّ ملف الكتاب قصاصات من الصحيفة.. وفي الجواب على تساؤلي عمّا إذا كان أحمد قنديل (يرحمه الله) قد أعاد النظر في محتوياته على نحو ما ذكرته من قبل ـ قال الطيب يلوح أنه قد فعل، وأن النسخة التي هي تحت الطبع منه مصحّحة بقلم المؤلف على نحو دقيق.. ولم يشجعني واقع القصاصات كما طبعت في (عكاظ) على قراءته إلا بالنظرة العابرة والاستعراض السريع، فلقد كان بعض الألفاظ والعبارات تتداغم فيه بما يجعل المعنى أو الترابط شيئاً غير مفهوم.. وهذا يعود لرداءة الطباعة وأخطائها، كما قد يعود لطريقته في الكتابة والاستعجال إذا كتب، وأحسب أنه وآخرين ممن أعلم أو لا أعلم لا يعودون بالقراءة الفاحصة لما يكتبونه، ولعلّ ظروف النشر المتواصل لغرضه الأدبي أو المادي أو كليهما لا تساعدهم على ذلك لو أرادوه، فما يبالون أن يدفعوا

لموعد النشر وحيّزه المقرّر ما قد يكون في حاجة إلى إعادة النظر باستهداف الإخراج الملائم! والمفروض أن القنديل قد فعل ذلك وصحح الكتاب في النسخة التي تحت الطبع عن مؤسسة تهامة إذا صحّ ما فهمه عنها مدير المؤسسة.

على أنني كنت قد قرأته أو قرأت معظم فصوله التي كانت تنشر تباعاً في "عكاظ" حيث لم تكن تكلف متابعتها وتصحيح مفهومها ـ كلما اقتضى الأمر ـ جهداً كالذي ينبغي لمتابعتها جملة واحدة تهيأت للنشر، على ما بالنسخة التي لديّ منها مما أرجو أن يكون المؤلّف قد تفاداه بإعادة النظر كما أسلفت، كما أرجو أن لا تهمل المؤسسة واجبها تجاه تصحيح ما ستخرجه للناس على نحو دقيق.

والمهم هو أنها ـ على أي حال ـ فصول طريفة تنقل القارئ إلى ذكريات بعيدة كذكريات الحج في الماضي قبل عصر السيارات، وذكريات الصعود والنزول من الطائف وإليه عن طريق جبل "كرا" الذي صار سهلاً، وعن جو الحياة ومظاهرها وقصصها حينذاك. . و ما أحسب أن كاتباً قبله قد تحدّث عن شيء من ذلك، وأحسب أنه قد سدّ فراغاً ما زال يتطلّب المزيد من جهود القادرين على تصوير واقع الحياة بمظاهرها المختلفة في أيام مضت، كجزء من تاريخنا سوف تجهله الأجيال القادمة إن لم تجد في مواجهتها ما يصوّره، كما كان، في أي عمل فني كالذي ساهم به القنديل في سدِّ شيء من ذلك الفراغ!

ولم يَخْلُ كتابه من استطرادات كثيرة إلى الأدب، والشعر، وإلى ذكريات شتى، وإلى أكثر من لمسة فنية لأكثر من واحد من أصدقائه. . في إطار واحد هو إطار ذلك الماضي كما عاشه هو وعاشه الناس في

عهد الجمل والحمار، والفوانيس، وأسلوب الحياة إجمالاً في ذلك العهد.

وأسلوب أحمد قنديل في هذا الكتاب هو أسلوب تلك الحياة مع هذه التي نعيشها اليوم، وقد انطبعت ملامح "البلد" بمزاج "الكاريكاتير" فيه، حتى إذا كان ينقصه الاحتفال أو التصنُّع لروعة الأداء أو أناقته فإنه يشد القارئ إلى متابعته والاندماج معه وفي جو ما يتحدث عنه بشغف واهتمام!

ولعل أحسن وأخصر تعريف لكتاب (الجبل الذي صار سهلاً) هو الذي كتبه مؤلفه بقلمه في نهاية صفحات الكتاب حيث قال عنه:

"ليس هذا الذي قرأت هنا.. قصة.. ولا هو رواية.. بالمعنى الحديث.. ولعله نوع من.. حكاية مطلقة.. حكاية من نمط ساذج مبتكر.. نابت فيه القفزة.. والاستطراد مناب قاعدة التسلسل.. والوحدة.. والموضوعية.. فلا حبكة.. ولا عقدة.. ولا مفاجأة فيه إطلاقاً".

"هو.. بهذا المفقود.. من الموجود.. خواطر.. وسوانح مبعثرة.. ذكريات متناثرة متباعدة كالأيام ذاتها.

ربما كان أقرب شبه لهذا الذي قرأت.. أنه أوراق خريف تَتَحاتّ.. وتتساقط من شجرة عمر مكتوب" . . .

محمد عمر توفيق

الجبل . .

قصيدة للشيخ محمد صالح القزاز

هذه أبيات قلتها بمناسبة الانتهاء من فتح الطريق عبر جبل كرا الذي قام به الشيخ محمد بن لادن بتوجيه من صاحب الجلالة الملك فيصل . . وقد تم العمل في هذا المشروع في أوائل عام ١٣٨٥هـ وأقيم احتفال كبير لهذه المناسبة في ٣ صفر ٨٥هـ برئاسة صاحب الجلالة الملك فيصل "حفظه الله" . .

قلت مخاطباً الجبل:

أيُّها المُشَمخِر ويحك خبِّر ... بالذي شقّ فيك دربا وعبّد

والذي خطط الطريق وسوّى ... في ثناياك ـ جادة ـ تتصعد

والذي ذلَّلَ الصعاب وأمضى ... فيك أمراً به الإله تَوَعد[1]

والذي حطّم الصخور فَمَادت ... وغدت صفصفا وَهى تَبدد

يعبر الركب متنه دون خوف ... إن مشى هابِطاً وإن هو صعد

يتمطّى عبر الجبال وئيداً ... إن غدا متهماً وإن هو أنجد

❊ ❊ ❊

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة "طه": ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ (طه: ١٠٥ ـ ١٠٧).

أيُّها الصاعد المغذ تمهل ... واقتصد في المسير ـ فالعود أحمد

يوم كنا نسير فيه الهوينا ... ثم صرنا نعدو عليه ونصعد

أيهذا التاريخ بالله حدث ... بالذي قد رأيت ـ لا تتردد

وعلى صفحة الخلود فسجِل ... صادق القول عنك يروى ويسند

هل هي الجن من "سليمان" جاءت ... فهوى شامخ.. ومُزِق جلمد

أو هو السحرُ حَول الصَخر تُربا ... لا ولا ذاك بل هو العلم والجِد

بل هو الرأي والعزيمة والصبر ... وذو الرأي فضله ليس يُجحد

رائد الخير ـ فيصل ـ من تسامى ... فوق هام العلا على كل فرقد

نعمة الله أسبغت للبرايا ... منجزات تحققت لمحمد[1]

أيها الشامخ الأبيُّ لقد عشـ ... ـت قروناً ينوء عن حصرها العد

مسبَطِرا تختال في كبرياء ... فإذا جاءك النذير يُهَدِد

مشرعا رمحه سقطت صريعا ... مثخنا بالجراح يومك أسود

فترنح (أيا كرا) في صغار ... تحت وطى الحديد قد خانك الجَد

يَسرّ الله فيك للناس دربا ... كان حلماً فصار أمراً مؤكّد

عمل صالح ونفع كبير ... يشهد الله والخلائق تشهد

---

(١) هو المعلم الشيخ محمد بن لادن (رحمه الله) الذي كافح وصمد في المشروع حتى تحقق هذا المشروع الجبار.

ليس قصة ولا رواية!!

ليس هذا الذي تقرأ هنا ـ قصة ولا هو رواية.. بالمعنى الحديث.. ولعله.. نوع من.. حكاية مطلقة.. حكاية من نمط ساذج مبتكر.. نابت فيه القفزة والاستطراد مناب قاعدة التسلسل ـ والوحدة ـ والموضوعية.

فلا حبكة.. ولا عقدة.. ولا مفاجأة فيه.. إطلاقاً..

هو.. بهذا المفقود.. من الموجود: خواطر.. وسوانح مبعثرة.. ذكريات متناثرة.. متباعدة كالأيام ذاتها..

ربما كان أقرب شبه لهذا الذي تقرأ.. إنه أوراق خريف تتحات.. وتتساقط من شجرة عمر مكتوب!!

أحمد قنديل

(١)
الجبل الذي صار سهلاً

ستكون حكايتنا عن الجبل الذي صار سهلاً.. بمثابة مسلسلة استعراضية.. على طريقة المسلسلات البوليسية.. ترد فيها الذكريات ـ موصولة كاملة.. أو مبتورة الأطراف..

ونتعشم بتلك الصفة ـ أو بهاتيك.. أو بكلتيهما معاً ـ أن تصور هذه السلسلة بعض جوانب الماضي البعيد القريب في بلادنا.. وتشمل.. فيما تشتمل عليه.. تسجيل بعض ما زال واندثر من أماكن وشخصيات.. وعادات مأثورة.. ومسميات. وسيكون الاستطراد كشرط أساسي ـ حجر الزاوية فيها ـ سواء طال به اللف والدوران أو قصرت به الجادة.

وربما جاءت هذه السلسلة.. غير الفقرية.. في فصلين أو في ثلاثة.. أو في أربعة فصول أو أكثر إن لزم الحال ـ وإنا لنرجو مخلصين أن تكون فصولاً حارة.. متفقة مع حرارة الجو الآن.. ونعتذر ـ بحرارة أيضاً ـ أن أتت باردة.. لقدمها.. فهي كالأكل ـ أي الطعام ـ البايت كما نقول لا تنفع فيه كشكشة أو تسخين.. وشفيعنا إن أتت باردة حينذاك ترويجاً لاستساغتها وتجاوزاً على قدمها.. ما جاء في الأثر.. اللّذة في الحار.. والبركة في البارد!!

ولقد كان باستطاعتنا. . أن نرويها بالطريقة الساندويتشية. . وحتى نكون على بصيرة من معاني الألفاظ ترد سواء في دهليز حكاية الجبل. . أو في الحكاية نفسها فيما بعد. . أن نحدد تاريخ الكلمات الدخيلة المستعملة منا. . سواء دخلت الفصحى في الاستعمال اليوم من الباب الخلفي لها. . أم من بوابتها الأمامية. . وتحت أبصار الأساتيذ: الأنصاري، الجاسر، أبي تراب، ممن حضروا والعطار ممن انزووا وأبي مدين ممن غابوا عنا.

فكلمة ساندويتش منسوبة يقيناً أو إشاعة إلى اللور د ساندويتش وهو رجل إنجليزي أدمن الانكباب على لعب الورق. . حتى لا يستطيع هو ورفقاؤه في اللعب أن يغادروا مائدة اللعب إلى مائدة الطعام. . فكان أن طلب من خادمه يوماً أن يعمل لكل منهم أكله السريع الجاهز الخفيف في قطعة من خبز. . بينها ما تيسر من جبن، لحم، زيتون، وفيها شيء من ملح، أو خص. . ويخص من شاء من أفراد الجماعة بما شاء. . فأصبحت هذه الوجبة الرمزية تسمى باسم مؤلفها وهو اللورد ساندويتش في بعض الأقوال. . ومن ذلك التاريخ أطلق على الساندويتش من أي نوع من الأنواع ـ اسم الساندويتش وكثيراً ما ترد الكلمة مع كثرة التداول ـ بالسين بدلاً من الصاد للتخفيف. . والأناقة في النطق. .

ولقد استعملناها قريباً للذكرى. . عنواناً لحلمنتشية لنا استطعنا بواسطة شيوعها أن نحدد الغرض ببساطة تامة. . فأصبح مفهوماً. . ببساطة كذلك. . ونوردها لما سلف وللتأكيد في الآتي:

ولقد دخلت على الفتاة   الخدر. . في اليوم المطير

قالت: علامك[١]؟ ما تبي[٢] منا.. خمير.. أم فطير؟
قلت: ادهني ساقي.. فقد أزرى بها طول المسير
وتنشدت مني الحكاية.. قلت: موضوعي قصير
السندوتش.. اليوم.. مو ضا.. للصغير.. وللكبير
شقفا من العيش المقمر بينها النزر اليسير
جبناً بملح.. بين خص .. أو بزبدا.. كالحرير
كالفن في ركن الجرايد ـ سلق بيض ـ أو شعير
أو كالغنا.. خطفا من الكلمات.. في السوق الصغير
حتى الموظف.. بين أوراق المعاملة الكثير
تكفيه آخر صفحة.. فيها تآشير المدير!

❊ ❊ ❊

وبعد هذا الفاصل غير الموسيقى نعود لما كنا فيه.. من أننا كنا نستطيع أن نروي سندوتشياً حكاية هذا الجبل الذي صار سهلاً.. في سطور معدودات.. معلقة في عمود أو نصف العمود من صفحة أو ركن اليوميات.. كأن نقول مثلاً عنه.. أنه جبل كان به طريق للدواب يسلكه الناس بالصيف لزيارة الطائف، وأصبح طريقاً يومياً للسيارات وللناس مسفلتاً.. وبه كبارى.. أي جسور.. وفيه المعسل يقف عنده الركاب للاطمئنان على أن الدنيا بخير، وأن الماء الحلو.. موجود وبهذا الأسلوب التلغرافي الموجز نكون قد سلكنا طريق سيدنا الفقيه الذي أجاب حين أريد

(١) ما بِك.
(٢) ماذا تريد.

إشغاله بالرواية وبالكلام عن موالاة الأكل وتتابع ازدراد اللقمات الكبيرة من كل صنف من أصناف المائدة دون رحمة.. وقد سأله أحد الخبثاء.. ما هي قصة سيدنا يوسف.. يا سيدنا؟ فلم ينقطع عن الأكل.. بل أجاب في سرعة بديهية.. وبإيجاز يحسد عليه.. ولد ضاع من "أبوه" والتقاه..

ومن المناسب.. لتحقيق بعض فصول التاريخ الأدبي الحديث أن نذكر أن أول من أطلق تعبير ـ الأسلوب التلغرافي بمحيطنا العربي ـ رمزاً للإيجاز في الأسلوب، على أساس أن يجيء وافياً بالغرض، مصوراً للفكرة، خالياً من الزوايد، ومن الحشو، لا فضول فيه لفظياً ـ أو ذهنياً.. كان هو الأستاذ سلامه موسى، شأنه في هذا التعبير شانه في كلمة "الثقافة" وهنا الحرص منا على نسبة الأمر لصاحبه.. لم يأت لمجرّد الإنصاف وجدية التحقيق فحسب، وإنما بسبب ذكرى مدرسية ـ فقد كنا جماعة من الشبان المتأدبين تنقسم صفوفهم الأدبية إلى العقادزمية ـ وإلى الطحسنية ـ وإلى ما عداهما فروعاً من المدرستين الأدبيتين المشهورتين.. وصادف أن تحدانا أحدنا يوماً ما.. ببعض كتب سلامه موسى هذا.. فكان أبرز ما لفت نظرنا إليه دعوته الأدبية إلى مزايا الأسلوب التلغرافي ـ كما سماه ـ قتلاً مشروعاً لأسلوب العك والإطالة المضنية وقد شهدنا نوعاً من التعصب له.. فيما بعد ذلك التاريخ بزمن.. على يد الأخ الأستاذ حمزة شحاته.. فقد حافظ عليه دون حذافيره، حتى اللحظة الأخيرة لدخول الأستاذ زيدان من البوابة الرافعية الزرقاء.

(٢)
صيد الفيل

قلت.. لقد كان باستطاعتي أن أورد حكاية الجبل الذي صار سهلاً بأسلوب سيدنا الفقيه.. عن سيدنا يوسف.. أنه ولد ضاع من أبيه والتقاه.. ولكن في إيجاز كإيجاز سيادته بالنسبة لنا.. تيسيراً لشيوع الأسلوب التلغرافي بين الكتاب من جديد وتضييقاً لباب الرزق اليومي.. ومخالفة صريحة لطبيعتي في التصفية وفي التحتيل.. كما أن فيه إلجاماً لأقلامنا القابضة.. والدارجة على حالات الإسهال الكتابي المنتشرة في الأوساط الأدبية.. وبالأخص لدينا نحن الكهول من الأدباء بحكم السن وعدم القدرة على الإمساك.. وعن الثرثرة والتمطيط.. تزجية لفراغ.. أو تسلية لأحفاد.. كما أنني مجبر لانتهاج هذا الطريق الطويل في سرد حكايتي عن الجبل.. لأنني معجب إلى حدِّ الغرام الذاتي.. بالطريقة الألمانية في صيد الفيل.. وخلاصتها كما تعيها الذاكرة كالآتي:

تخيل أحدهم أساليب بعض الأمم المصورة لطريقتهم في الحياة.. عندما يتهيَّأ فرد من أفرادها للخروج من المدينة لصيد الفيل.. فشرح طرائقهم بالنسبة لأجناسهم.. ومع شيء من التوشية منا وحذف ما لا بد من حذفه لعدم ملاءمته الجوية لطقسنا العام قال:

الإيطالي: سيقوم عندما يقرر اصطياد الفيل.. بأخذ الماندولين.. وهي آلة موسيقية كما هو معلوم.. وكذلك اصطحاب فرشاة الرسم.. وقبل وبعد أي شيء.. برميل صغير من عصير نابولي.. وشيئاً من المكرونة الاسباجتي.

الإفرنسي: سيصطحب معه سكرتيرة سفره.. ومجلته اليومية.. ولحية مدببة ربى شعراتها لهذا الغرض بصورة خاصة وذلك تمهيداً للعودة بها مشعثة طويلة بها شعرات بيضاء غير ممشوطة للتدليل على ما لاقاه من أهوال.. على أن تكون معه قبل كل شيء أيضاً بعض زجاجات مفضوضة من ماء بلده..

الإنجليزي: سيأخذ علبة الطباق ـ ودستة منوعة من البايب ـ وكتاباً قديماً عن الأمم، مع أطلس جغرافي.. وورقاً حساساً لرسم خريطة مستوفية للأماكن الاستراتيجية هناك.. أي في مواطن صيد الفيل.. بالحيلة.

الألماني: أما الألماني فقبل خروجه فعلاً لصيد الفيل.. فسيعكف في غرفة خاصة ليكتب ستة مجلدات علمية بخط دقيق.. يقول عنها ـ إنها تمهيد ابتدائي.. لدراسة الفيل!

وهذا الأسلوب الألماني في روحه ومدلوله.. هو شاهدنا من هذه الرواية.. تمثيلاً موجزاً لما سيكون عليه أسلوبنا.. مع الاختصار القسري بقدر الإمكان كذلك.. في حكايتنا عن الجبل الذي صار سهلاً..

وبعد..

.. ففي يوم ما.. من عام ما.. وعدم التحديد هنا ضروري للتشويق للقيام بعملية معرفة السن.. من خلال الحوادث وظروفها.. على طريقة حاوريني يا طيطا..

وكنت قد أكملت دراستي بمدرسة الفلاح بجدة بفصلها الأخير الذي كان مقره بها حينذاك يسمى (القبة) طلبت من والدي أن أحج.. ولم أطلب شططاً بل كان طلبي هذا في حقيقته.. تنفيذاً لعادة الآباء في الأعوام السابقة حيث درجوا على الحرص على تأدية أبنائهم حجة فرضهم بمجرّد بلوغهم سن الرشد.. ولما كانت الحمير حينذاك ـ أعز الله القارئين ـ من بين وسائط النقل الدابي أسرعها فقد كنت عصر ذلك اليوم الما.. من العام الما.. راكباً بالطول حيناً.. وبالعرض أحياناً.. أحد بهائم العم "الحتحوت".. وكان الحتحوت هذا.. حماراً ـ بتشديد الميم ـ شهيراً في زمانه.. حتى لتضارع شهرته آنذاك.. شهرة أكبر أجنس للسيارات اليوم.. فقد كان لدى المرحوم أنواع.. وموديلات مختلفة من الحمير الأصيلة في حميرتها ـ والمعروفة بأسمائها المتداولة.. ومن ضمنها الأبجر، البرق، البطران. والمعادلة تماماً.. تماماً.. في الشهرة والسرعة وقتها.. للمرسيدس والموستانق والرامبلر، والإمبريال والفولفو الآن..

وخرجنا ـ ضمن بقية ركاب حمير الحتحوت.. من باب مكة والرجل يسعى على قدميه إكراماً لنا من مركز شيخ الحمارة أمام زاوية المغربي الباقية حتى الآن من ناحيتها الشرقية إلى أن تجاوزنا البوابة الوسطى.. وقد عاد من أمام مقبرة الأسد بعد أن أوصى علينا.. وعلى البهائم كتعبيره ـ العقبة! ـ والعقبة حمار فوقه رجل ينتدبه صاحب الحمير نيابة عنه.. ليكون في المؤخرة لتعهد البهائم.. ثم الركاب ويلوح لي من حركات الكلمة أنها عربية قحة يأتي تصريفها من لفظة العقب.. وهو المؤخرة.. من القدم.. أو من أي شيء.

وهناك نوع من التداخل العقبي بين الحمار وراكبه فكلمة العقبة تطلق

على الحمار.. والحمار ـ غطرسة من الركاب على من يخدمهم واستخفافاً بشأنه في المساواة في التسمية بين الراكب والمركوب.

وراكب الحمار.. يلتذّ بالمراحل الأولى من سيره.. حتى إذا طال المشوار ابتدأ بحكم المشي الروتيني يتململ.. ثم لا يلبث بعد أن تبدأ بوادر التسلخ ـ أن يحن إلى الراحة بعض الوقت ـ ومن معرفة هذه الحقيقة البسيطة فيما يظهر نشأت فكرة ـ أو مشاريع فتح المقاهي على طول طريق مكة ـ جدة ابتداء من الرغامة حتى مدخل أم القرى.. ولكل مقهى اسمه المشهور حينذاك.. وكنت في بداية المسير أحب الراكبين إلى استمرار السير.. ولكن بعد أن ذقت حلاوة الراحة في المقهى لبعض الوقت.. أصبحت أول المتطلعين إلى نور المقهى يبدو خافتاً ضئيلاً كحلم من أحلام اليقظة.. في أول الليل..

وهكذا تتابع السفر بنشاط جديد ـ بعد استراحة طويلة ـ في استراحة بحرة ـ وكانت تعتبر المحطة الرئيسية الكبرى ـ لوقوعها في منتصف الدرب تقريباً.. أو أنها بالتعبير المرادف العصري الرشيق.. الرست هاوس.. الوحيد..

وقد حدث ـ لكيلا أنسى ـ أثناء سيرنا وقبيل وصولنا إلى بحرة حادث عرضي بسيط ـ لكنه جدير بالإشارة ـ وهو أن الركب لم يلاحظ وجود ـ العقبة ـ وصاحبه وراءنا فقد انقطع صوت غنائه.. فتوقفنا بإشارة من راكب أفخم حمار، لاستطلاع الخبر ـ وعاد بعضنا ـ ورجع بعد قليل ومعه الرجل.. وفهمنا أن البردعة قد تزحلقت ـ وسقط الراكب عقب نعاسه ـ نتيجة إرهاقه.. فهو يذهب إلى مكة ويعود يومياً إلى جدة.. تقريباً فأسعف بما يجب.. وتلك إشارة لها خطرها في باب المقارنة بما

يحدث الآن لجماعة من السيارات تبنشر الأخيرة منها وتعود أقوى السيارات وتنشط البقية لإسعاف السائق ومساعدته في تركيب البنشر.. وهكذا، فلا جديد.. في الليل.. أو تحت الشمس!

(٣)
يا رويكب..!

وجنوحاً إلى عدم الإسهاب!.. فقد كانت الرحلة موفقة من كل الوجوه.. وسريعة في ذاتها.. وذلك لعدم قيامنا بعمل دراسة طويلة الأجل في التخطيط للرحلة مخالفين بقرارنا هذا ما رآه أحد الركاب.. وخالفته الأغلبية الساحقة ـ فوصلنا بفضل ـ الدعم ـ كتعبير العقبة بعد أن نشط.. إلى مشارف أم القرى.. في مطلع الفجر.. وهذا في حدٍّ ذاته يعطيك فكرة عن نتائج الدعم ـ أي الإقدام ـ وأنك بمقدار ما تبتعد عن أن تكون زمنياً تستطيع أن تختصر المسافة والأزمان وأن تلوي رقبة التاريخ ليكون طوع أمرك سواء كان هذا الأمر رحلة من جدة إلى مكة أم هو رحلة في طريق العلا والمجد..

ولقد كانت نتيجة الرحلة الحمارية الخاطفة وإن استمرّت لليلة بطولها تقريباً مع أخذ قسط من صفارى الشمس وقت خروجنا من جدة.. كانت هذه النتيجة على ظهر الأبجر.. والبرق.. والبطران وسواهم تصلبات مؤلمة في الساقين.. وتسلخات واضحة في الفخذين وتقوساً في الظهر شكل انحناءة جسدية رشيقة.. بالإضافة إلى فشخ واسع في السير.. يزول كل ذلك إن شاء الله.. بالنسبة للشباب.. بعد ليال من "التمريخ" أي

المساج المتواصل لما يذكر من أعضاء الجسد العضلية. ولما لا يذكر من الأعضاء الرقيقة اللينة.. من ذوات الحشمة والستر.. أما بالنسبة للشيوخ فتمتد آثارها إلى شهور بعد الحج.

وأنا مضطر هنا لوصف ما سلف من آثار ركوب الحمير.. حتى تعلم نابتة اليوم وناشئته.. وشبابنا ما كان يقاسيه أسلافهم من مواصلات الأمس.. ليشكروا المولى جلّ وعلا.. على ما تهيأ لهم من المواصلات الحديثة لا ضرر منها بصرف النظر عن الجيوب، على الأجساد.

ولا عبرة طبعاً في المواصلات الحديثة بما تسجله حوادث الموت والإصابات في حالات التصادم بين السيارات ـ مثلاً ـ فإن مرد ذلك كما تؤكّد محاضر التحقيق إلى السرعة الجنونية.. وإلى ما تدل عليه بعض حالات الاستكناه.. كما أن حوادث الموت بالسيارات عالمياً.. أقل بكثير من حوادث الوفاة بين جدران البيوت فضلاً عن أن أدوات إزهاق الأرواح كلها كالسيف وسواه قديمة جداً.. مما أضطر الشاعر العربي القديم.. تخفيفاً لأثر الموت به أن يقول:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد!

والشاعر صادق إلى حدٍّ كبير.. فقد سمعت في نفس ذلك العام الذي أديت فيه فريضة الحج ـ أو حجة فرضي كما كنا نقول ـ أن إحدى جاراتنا في العلوي حين نشب بينها وبين زوجها خصام بسبب الغيرة، لما علمت بأنه مَلَّك ـ ولم يدخل ـ على غيرها.. ضربته بتاسومة رقيقة ـ والتاسومة نوع من الأحذية النسائية ـ فكان أن توفي بسبب هذا الصفع الناعم.. بحذاء.. لا بسيف.. أو في حالة تصادم شنيع.

ونعود ـ بعد هذه الاستطرادة الإرشادية والإعلامية ـ لما انقطع من

حديث.. عن أثر الرحلة من جدة إلى مكة موقنا من تقدير الجيل الجديد للنعمة الكبرى تسبغها على الجميع مواصلات اليوم.. بالقياس إلى ركوب الدواب التي كانت أسرعها الحمير.. حينذاك.

وهكذا.. فبعد استراحة حوالي يومين في مكة مضيا بين طواف.. طليعي حديث وكتابة جواب الوصول كما كان يسمى.. لطمأنينة العائلة في جدة عن وصولنا بالسلامة مع إغفالي عمداً وضع كلمة "بدوح" كتابة.. والرقم الخرافي المبارك على الظرف كما كان متبعاً لضمان وصوله إليها.. دليل تحرر فكري.. طليعي حديث.. فقد باشرنا في ترتيب الطلوع إلى عرفات واستقر الرأي.. دون تداول مرتب فيه.. أن أخف المواصلات لعرفات بالنسبة للزحام وحوادثه.. استعمال يا رويكب.. ويا رويكب.. في الشائع تاريخياً نداء معروف، آنذاك لطالب الركوب.. وهو كما لا يحمد التنويه هنا عنه.. تصغير لكلمة راكب.. أي يا من تريد الركوب. ومرد التصغير فيه كما يلوح لي التحبيب والدحلسة لاستجلاب أكبر عدد من الركاب أي الحجاج.

أما نفس المركوب.. الذي غلب عليه اسم يا رويكب نفسه ـ فهو في مجموع النداءات عليه.. نكرات من الحمير الريفية القميئة يتصيد بها إخواننا البدو، وبالأخص الوافدين موسمياً من ضواحي الطائف وقراه، الحجاج من الخارج والداخل من أمثالنا.. كما يتصيدون الجراد بالضبط في موسم الأمطار، ومن الغريب أن أولئك اليارويكب من الحمير الريفية القميئة تشبه الجراد في ضآلة حجمها وخصائصها الجسدية الضامرة بالنسبة للحمير البلدية الفارهة الأجساد والوسيمة المناظر.

ومع أنها خفيفة الحركة.. وكثيرة المروق في الصفوف والزوغان

بينها فإنها معرضة دائماً للسقوط بذواتها وبركابها معاً ـ كلما زاحمتها أخواتها من ذوات الأربع ـ أو حينما كانت تتوه بين قوافل الجمال عليها الشقادف والشبارى والكجاوات والهوادج..

وأطرف ما في موضوعها.. أنها في نفس الوقت الذي تسقط فيه يختفي صاحبها الحمار بين الزحام ـ كأنما هناك اتفاق سابق بينها وبين صاحبها على أنه لا يلبث بعد ذلك أن ينتصب واقفاً أمام الراكب الذي سقط به حماره فساعد نفسه بنفس واستعاد مقامه وهيئته بالركوب من جديد على طريقة (هلب يور سلف) أي ساعد نفسك.

كما كانت السمة البارزة في حمارة هذا النوع ـ يا رويكب ـ إننا لا نجدهم في وقت الحاجة إليهم ـ كالسقوط مثلاً ـ وإنما يظهرون لك من وسط الزحام.. قبيل أوقات الاستراحة المقررة بإحدى المقاهي لمشاركتك شرب الشاي.. أو تناول شيء من الزاد الحصري الخفيف.

وكانت لهم لازمة ظريفة في المواقف النهائية الحاسمة.. فهم ينادونك أثناء الطريق إلى عرفات بيا حاج.. وبيا.. ويا ها.. أنت يشيخ.. ولكن ما تكاد تصل إلى غايتك.. حتى يستحيل النداء إلى كلمة ـ يا عميمى! ـ وعميمى طبعاً تصغير لفظة ـ عمي ـ يقولونها للتقرب ولإرضاء الغرور. وإرخاء الأعصاب. وذلك تمهيداً نفسياً مرتباً لأن يضيفوا على الأجرة المقررة والمتفق عليها بعد استلامها في حينها.. مبلغاً إضافياً باسم شرب القهوة على حساب عميمهم الراكب.. ولا يتركونه إلا بعد استلامه.. ومبلغ شرب القهوة هذا يعادل اليوم بالضبط الإضافة الخاصة على مبلغ العشرة بالمائة بالعصر الحديث يضاف باسم خدمة على فاتورة الحساب في الفندق، وفي الكازينو.. والمطعم.. فهو يؤخذ مكرراً بعد

تسديد الفاتورة المشتملة على الأصل بسيف الحياء نقداً مستقلاً من كل زبون حسبما تجود به نفسه فكما يعمد الجرسون بعد أو حين تسديد الحساب إلى ندائك بأحب الأسماء إليك وأفخمها مستر.. مسيو اكسلانس.. وإلى تمسيح آثار المائدة أمامك وإلى بقية الحركات الجرسونية.. والنمر المتداولة عالمياً بالتلقي والاصطلاح.. يعمد هؤلاء الحمارة إلى ندائك بيا عميمى وما شابه.. وعليه، فلا فارق إطلاقاً بين ما كان عليه أسلوب الحمار في الموسم سابقاً في بلادنا وبين الأسلوب العصري بعد تسديد الحساب الأصلي والسرفيس في تقاضي البقشيش الخاص.

ومرّة أخرى يستطيع من كان يدفع بعد سقوطه من حماره ووصوله لقصده، ومن يدفع بعد إهمال طويل من الجرسون.. وحضوره في اللحظة الحساسة الحاسمة حين تسديد الفاتورة أن يقول كلّ منهما للآخر.. لا جديد في تحت.. أو من فوق..

(٤)
الحُسْكُلْ

وعلى طريقة ما علينا من ذلك.. فإننا بعد أن وصلنا إلى عرفات.. وأدينا الحج ـ فالحج عرفة ـ ونزلنا إلى مزدلفة.. ثم مِنى ثم على حد قول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا.. وأعطينا الأحاديث بيـ ... ـنا وسالت بأعناق المطى الأباطح

* * *

فقد أخذت وأعطيت الأحاديث مع الوالد.. وأخيراً سألته في أدب وحب وشوق أن نصعد من منى رأساً إلى الطائف بالطريق القصير المعروف من الياوريكب.. وهو طريق عرفات، فشداد فالكر فجبل كرا.. لأرى هذا الجبل الذي صار سهلاً.

الجبل الذي كنت أحلم دائماً بصعوده.. تشبهاً ببعض الرحالين الأجانب الذين كنت أقرأ لهم وعنهم صبياً وتلميذاً في فراغي أيام دراستي وأثنائها عن قيامهم برحلات جبلية فيها المغامرة.. واللّذة.. والشعور بالكبرياء.. وفي كشف المجهول.. ومعاناة الصعاب، وركوب الجبال..

ومما حفلت به سير مغامراتهم المتعلقة بصعود شوامخ الجبال المشهورة في بلادهم.

واستطعت في النهاية بشيء من ملق الفتيان المحبوب لذويهم، ومن إدلالي بحيازتي الشهادة النهائية ونجاح تجربتي أستاذاً ناشئاً مع قيامي بواجب التلمذة، في نفس الوقت، كعادة الفلاح حينذاك أن أستميل الوالد الطيب وأنت تعرف الوالد كما يقول أخونا حسن قزاز كركزة له معروفة عنه فتفضل أطال الله حياته الغالية.. وأجابني إلى طلبي مضيفاً تعليلاً وهو انتهاء زحمة الحج في الأيام التي نقضيها هناك فالحج ثقيل هذا العام وما أن أخذت الموافقة منه حتى طلبت من القهوجي برادا شرطت أن يكون حسابه من مدخري البسيط الخاص ـ على حسابي.. احتفالاً بتحقيق غرضي..

وبعد ضمان الموافقة والاحتفال.. بدأنا تواً في التنقيب بأسلوب اكتشاف آبار الزيت في جاهليته بأمريكا. فبعد تجهيز اللوازم الخفيفة باشرنا عملية اختيار الحمار الطيب والحمير الأصلية.. فقصدنا بذلك سوق العرب.

فقد كان من عادة بني سفيان أصحاب (يا رويكب) في الحج.. أن يفرغوا في اليوم الثاني والثالث من أيام منى بهذا السوق جميع ما في حساكلهم.. وقبل أن أذهل فإن الحسكل بضم الحاء المهملة والكاف وسكون السين المتوسطة بينهما.. ونطق اللام بالسكون لتكون لام فوقها سكون "الـ" وذلك على طريقة الكاتبين الالمعيين: عبد العزيز الرفاعي وعبد الله مناع في تسجيل نطق بعض الكلمات بالشد والضمة.. وبقية الحركات إياها.. الحسكل: كيس جلدي ذو عراوي تنتظمها سيور جلدية

للفتح والإغلاق.. مخصص لحفظ النقود.. ويعلق في العنق الكريم.. بعكس محفظة النقود الحديثة ومقرها الآن الجيب الأمامي من الثوب.. والجيب الخلفي من "التراوزر" أي البنطلون.. حسب ترجمة المستشرق المعروف المستر براد بأسلوب شرح الماء.. بالماء!

ولقد كان معظم ما تذهب فيه نقود أولئك المواطنين القادمين وراء حمرهم.. في أيام مِنى، بعد قضاء الميرة من غذاء وكساء، ما يسمونه "الفرّيحة" بتشديد الراء المكسورة.. من الفرح.. وهي عبارة عن اللوز، والحمص، والفصفص والفشار، والحلوى الحمصية، أيضاً.. بالإضافة إلى بعض الخرز الملوّن.. يزخر بكل تلك الأصناف "سوق العرب" في مِنى..

وسوق العرب في حينه بمِنى.. من أشهر أسواق الحجاج عامة ـ لا العرب وحدهم.. لما يباع مما يعرض فيه من شتى الحاصلات.. ومن أعجب أنواع الصناعات المحلية.. المخالفة كليا لما كان يعرض "عكاظ" من آراء، وأفكار، وشعر، وخيال.

ومن طرفي سوق العرب وعكاظ الكبيرين اليوم والأمس تستطيع أن تدرك كيف طغت حاجات المعدة العاجلة على مطالب الروح الخالدة.. ويمكنك أن تعتبر هذا التغاير بين التجارة المادية بالأغراض الدنيوية.. والتجارة الأدبية بالمعاني والصور والخيالات سبباً من أسباب رجوع العرب القهقرى في الصف الأممي الطويل.. وباختصار.. فقد ذهبنا إلى سوق العرب.. واخترنا الحمَّار واسمه محمد الجِدابي، واتفقنا معه على الرحلة إلى الطائف مرجعاً إلى مكة.. فقد رأينا أن من باب الاحتياط جعل الاتفاق مرجعاً.. لضمان وجود الركوبة في موعدها وللتخفيض الناشئ عن

ذلك. تماماً كما نفعل اليوم للتوفير في قطع تذاكر الطائرات ذهاباً وإياباً مما يدلك على أن اللؤم الفكري في مواضيع الحساب قديماً وحديثاً واحد لم يتبدل جوهره وإن تبدل نوع الممارسة فيه.

وعلى ذلك، فقد سمينا المبلغ الأصلي أجرة للحمارين وأضفنا ـ للإغراء ـ بعض غمزات العيون التي ينفرد قومنا بها في لغة الغزل.. وأدرك فوراً وبذكاء كما بدا من موافقته أننا عنينا أن يكون أكله وشربه وقهوته، ودخان غليونه الأخضر.. وبرطيله ـ أي بخشيشه ـ علينا طيلة الرحلة باستثناء البرطيل فإن حسابه المؤخّر سيكون دفعاً بعد العودة ـ بالسلامة إلى مكة المكرّمة.

وهكذا.. في يوم من أيام مِنى المباركة ـ تحقق حلم الصغير الكبير في صعود جبل كرا.. كرائد من رواد الجبال الوطنية.. وكان هذا القرار التاريخي بالنسبة لي.. في صباح اليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة في عام ما.. من أحد الأعوام الهجرية.. المجهولة النسب والميلاد في عالم الأرقام وهكذا.. أيضاً.. ألقى الوالد على عاتقي الصغير مهمّة تحضير الزوادة من بقايا مدخراتنا الموسوقة من جدة أصلاً باسم الحج فتوليت نشطاً فرز البقية الباقية من الكحك والمعمول والغريبة، والشابوراء، أم الكمون وحبة البركة، والجبن والزيتون مع إحكام ربط بقجة العدس الصعيدي، والرز المزه، وصرر الفلفل الأسود والملح ـ وأخيراً السكر والشاهي.. وقمت فوراً بتوزيع الزوائد مما لم يعد صالحاً بعد انقضاء الحج لأن يكون ضمن زادنا المرتب الخفيف إلى الرحلة الجديدة ودخول مدينة الطائف بعد استهلاك آخر دفعة من موجوداتنا باعتبار إمكان التجديد وشراء ما يلزم.

وتحدد وقت السفر بعصر هذا اليوم.. وبعد أداء الصلاة جماعة وتم الأمر سريعاً بعد عقد هيئة مكوّنة من الوالد رئيساً علي والجدابي الكبير رئيساً ثانياً على أخيه الجدابي الصغير.. وبعضويتي وعضوية شقيق الحمار الصامتة كمستمعين لهما حق التصفيق والاستحسان والتهليل وترديد آمين لما يقال.. دون تجاوز حدودهما في لفت نظر.. أو اقتراح أو تعديل.. وهكذا أضحينا على سفر.. سفر مرغوب مجهول.. لرحلة تاريخية هامة..!

(٥)

حج وبيع مسابح

وهكذا.. وبعد عصر الثالث عشر من شهر ذي الحجة.. ومن قلب منى. بعيداً جداً عن مقر الشيطان الكبير وبجوار الشيطان الصغير صارت تتهادى ببطء ورهبة في البداية، ثم بربع واستخفاف قافلتنا المكوّنة من الوالد وولده.. وكلاهما له حماره الخاص..و من جماعة الحمارة الذي أتموا حجهم التقليدي.. وبلغوا مناهم.. طلبوا من السيد الكريم أعطاهم.. كما كانت تملأ أسماعنا فنطرب لها هذه الجملة وأمثالها تترنّم بها حناجر الباعة والوطنيين في أعقاب كل موسم.. توديعاً للحجاج من جميع الألوان والأجناس..

وعلى فكرة.. فإننا نستطيع هنا أن نورد كفكرة لليوم.. على أن تكون خاصة وموجهة لفنانينا الناشئين.. فما هو رأيهم يا ترى لو تصدّى أحدهم.. وتصيد تلك النداءات الموسمية القديمة للباعة وعمد إلى بعض الآلات الموسيقية.. وحشد لها رهطاً من بطانته.. وأتمّ تلحينها وأداءها بأصوات محلية من موجودات قسم الفولكلور الشعبي.. ثم توسّع فوراً في المشروع فعبأها في أسطوانات بأحد استوديوهات بيروت.. وعلى الطريقة البيروتية إياها.

إنه بإنجاز ما خطر لنا عفواً ودون تكلّف يكون قد أنجز بما اقترحناه عملاً بلدياً ضخماً سيدخل به التاريخ من بعض أبوابه الخاصة بعالم الفن ـ للفن ـ والبلد ـ للبلد. ويكون قد استفاد هو وبطانته مادياً بما يدره وارد هذه الأسطوانات من أريل.. ربحاً حلالاً مشروعاً ـ تماماً على طريقة: حج وبيع مسابح.

إنني لأتخيل على طريقة الأب عزيز ضيا عفا الله عنه.. إقبال أفواج الحجاج من وفود بيت الله الحرام على تلك التسجيلات.. اقتناء وحفظاً للذكرى لحجهم.. بل لا أبالغ إذا تخيلت أنه سيحصل على دخل فني منظور وغير منظور من بعض الإذاعات العربية وغير العربية التي سترددها في أيام الحج للمتخلفين عنه بما في هؤلاء وأولئك أهالي المملكة نفسها في أيام الخليف مستعيضين بها عن أغاني أسمهان وليلى مراد الخاصة بالحج فإن صوتي هاتين الفنانتين القديمتين وسواهما لا يبلغان في إيمانهما غير النظيف ما يبلغه فنانونا أبناء البلد نفسها.

إنها خبطة فكرية.. واقتراح معقول.. وهي بعد وقبل صفقة تجارية تضمن لنا دخلاً شعبياً.. وتطرد ببساطة تامة مبدأ التطفل على مائدتنا الدسمة من أتباعها الدخلاء..كما أنها تحقيق وتنفيذ عملي للمثل القديم الدارج ـ جحا أولى بلحم ثوره.

ومعذرة لهذا الاستطراد.. فإن حماسة الوطنية قد ركبتني قسراً من فروة شعر الرأس حتى أخمص القدم.. فلنهتبلها فرصة واقتراحاً ـ ويلاحظ هنا.. للتاريخ أن كلمتي الاهتبال والأخمص هما من تسجيلات الأستاذ الشيخ أحمد السباعي وأولياته المحفوظ له بالتسامع دون تسجيل الحق الأدبي له ـ فيهما بالطبع.

وأعود ـ في موضوعنا لما سبق للضبط وللربط ـ فأذكر ثانية أن قافلتنا المكوّنة من سيدي الوالد ومني ومن جماعة الحمارة العائدين قد شقت طريقها في قلب منى متجهة إلى درب عرفات حيث نقصد أنا والوالد لغايتنا المرسومة.. وحيث أصبح هؤلاء الحمارة القافلين.. وقد عادوا بجر الحقائب بعد أن كانوا خفافها.. يذوبون شوقاً وفرحة للقاء أهاليهم بالأودية المنتشرة فوق هام الجبل العالي.. جبل كرا المحب المحبوب..

وانتظم الركب خارج مِنى، حتى إذا أمسى في وادي النار ومحسر أصبحت الحمير ظلالاً وأشباحاً شعيرية تتراقص أماميا وفي اندفاع على نغمات الحدري الرقيق من ركابها، حتى لقد أصبح ركوبها منا نوعاً فطرياً من أنواع الرقص العصري على اختلاف كبير طبعاً في الكيفية والقواعد بينها وبين رقصة التانجو ـ على سبيل المثال!

أشهد صادقاً كذلك أن الركاب أنفسهم كانوا في حالة انسجام روحية خيالية.. تجاوزت نطاق الماديات فعطيط الله الحمَّار الكهل كان يرسل "المجرور" من قلبه وهو يتصور بعد غيبته بالحج جلسته العائلية بين زوجته وأولاده في دفء منزله بالمربعة الصفراء.. وبينهما منشورات من الفريحة التي جلبها لهم من حمص وفشار وتوابعها يتناقلونها في التذاذ، تناقلهم الأحاديث يسردها الوالد عما صادفه في الحج من مفارقات وحوادث عن الحاج السليماني ذي الذقن المتجاوزة في إسبالها صرة بطنه، وطعم الشباتي الذي ذاقه منه مكتفياً الحاج بتقديمه الشباتي له نائباً مناب البخشيش أريلا أو هللات، أو يروي لهم عن الجاوي الرشيق الحركة رشاقة الكربؤ الذي أتاهم ببقايا منه للذكرى والاستذاقة صنف من آكال

سكان جزر الهند الشرقية التي لا يعرف العطيط الله منها إلا كلمة جاوى بصرف النظر عما إذا جاء تخيله الجغرافي لها صحيحاً.. فاعتبرها.. جزيرة كما هي.. أو رآها بعين خياله وادياً كوادي الغديرين.. وهنا يحلو له أن يفاجئهم برؤية عملة جديدة لا يستعملونها في الجبل ولا في الوادي بالطبع، ولا في الطائف نفسها.. ويخرج لهم "الكتب" بتشديد التاء المكسورة وسكون الباء.. ينتقل من كف إلى كف.. ويخضع طويلاً للفحص من بصر.. وبصر..

وهناك الحَمَّار سالم الشاب الذي سرح مع خياله الجامح.. يتصور فرحة ابنة عمّه.. وخطيبته مزنه.. وقد فاجأها مع الفجر.. لدى البئر.. وقد وضعت القربة جانباً دون أن تملأها.. لتتملّى من منظره وقد أسمرّ لونه قليلاً من سموم مكة.. وشموس الحج.. ولتطلق صيحة الفرح بما قدمه لها من عقود الخرز تتصورها عقوداً من لآلئ وجمان غالية الثمن تضعها على أعلى صدرها للقياس التقريبي.. ثم ترسل إليه نظرة طويلة حانية تحملها معنى الشكر لا تطمس لآلائه ألفاظ دارجة.. وتؤكد بها إصرارها على الوفاء لوعده وعهده.

فلا يكاد سالم يصل إلى هذه النقطة من تصوراته حتى يندفع في التغني "بفرعي" عاطفي لذيذ يتموّج به صوته العميق الأصيل عمق وأصالة الرجولة والبراءة في عاطفته المكبوتة.. وفي حبه الصادق..

وهناك ـ غير الكهل عطيط الله ـ والشاب سالم من الرجال رفقاء الطريق من الحمارة الكاد حيث طيلة العام في زراعتهم وبالموسم لكراء حمرهم ـ يا رويكب ـ على الحجاج.

وكان بِودِّي أن أصور حالة الانسجام لكل فرد منهم ـ لولا خشية

المباعدة بين ما نحن فيه من مسايرة للرحلة ـ وما يشط بنا لمسافات شعرية بعيدة.. ولا أستثنى من تلك الحالة الوالد نفسه، ولا نفسي وإن كان كل منا هو أو أنا في دور المستمع لما ترسله بالليل حناجر هؤلاء الحمارة العائدين إلى أهليهم وديارهم، والناعمين بما توفره لهم من كسب حلال بعد جهد مرهق ـ شاق ـ وعنيف.

ولقد واصلنا السير على هذا المنوال اللطيف.. حتى تجاوزنا عرفات ثم وصلنا أخيراً إلى "الكر" وهو سفح جبل كرا.. كما هو معلوم. وكانت هناك قديماً به بضعة أرضام من الحجارة.. يسمونها القهاوي والمنازل فاختار الوالد لي وله بعد وشوشة مع القهوجي وتفاهم خاص إحدى تلك المنازل بل أجملها.. حيث انطرحنا حالاً.. من الإعياء على أرضها العارية، إلا من بقايا خصفة قديمة وضع كل منا فراشه عليها وهو عبارة عن لحاف مبيت بقماش من نوع الساتان ومخدتين لهما نفس الشعار..

وانطرحنا.. متقابلين.. متجاورين في انتظار العشاء.. وقد أخذ الوالد ليطرد عني النوم يسرد لي بعض ذكريات فتوته في جدة.. حينما كان في عرف أهل حارته أحد المشاكل في الحارة.. ولكن لتلك الذكريات مجال آخر.

(٦)

أكلة معدوس

وهنا.. أود أن أستأذن القارئ.. للبقاء معنا بالكر حيث كنا في انتظار العشاء، غير متجن عليه، فقد شرطت في بداية هذه الحكاية؛ حكاية الجبل الذي صار سهلاً، أنني سأذعن لمقتضيات الاستطراد ما بين حين وآخر ما قد يجعل الحكاية نفسها عبارة عن عبارات.. أو ذكريات من الاستطرادات الموصولة المتكررة. لا رابطة فيها بين لون ولون، أو نوع ونوع.. ولقد سرد عليَّ الوالد لطرد الكرى الذي يهاجمني في عنف وثقل ولئلا يفوتني العشاء.. بعضاً من ذكريات فتوته بصفته أحد المشاكلة في الحارة.. فقال: إنه نشأ نشأة خشنة لا تمتّ بصلة إلى ما نشأ عليه جيلنا.. حيث كان منقطعاً في أوقات فراغه ـ وما أكثرها ـ إلى تلقى فنون المطارحة، نوع من المصارعة الحديثة، باطاً بباط أو بباطين ـ على أيدي شبان أشد قوة وأعلى مراساً منه ـ ثم إلى التدريب العنيف على القشاع ـ واستعمال العصا ـ أي النبوت ـ في شتى أنواع استعمالاته.. مدنيا للمزمار.. وقشاع للمصاولة.. وكنسا للمضاربة في نطاقه الجدى الحامي والواسع بين أهالي حارة، وحارة.

وتلك كانت خلة الرجولة لأبناء الشعب من طبقته وما دونها وكانت

غالبية أبناء المدن الرئيسية من المملكة اليوم ـ وبالحجاز آنذاك ـ في جدة، ومكة، والمدينة بالذات من هاته الطبقات الممارسة لما مرّ لا يستثنى منها إلا طبقة أبناء الأتراك.. أو المتتركين من أبناء البلد المجاورين، من المهاجرين الراسبين بعد كل موسم حج.

وكانت المحلات ـ الحوائر ـ مدنا مستقلة داخل كل مدينة فإن لكل حارة حدودها المصطلح عليها بعد الحارات القديمة والتي انتهت بتقرير ضم زقاق جديد. أو برحة إلى المحلة الغالبة، ولا يجوز إطلاقاً لأهل أية محلة أن يتسامحوا في ضياع شبر من حدود محلاتهم.

ومن هنا نشأت أصول الوطنية الحاروية وجيش دفاع كل محلة من المشاكلة الممتازين.. رجالاً وكهولاً وشباناً، من أبناء العائلات ومن يلحق بهم من المواليد، أو من العبيد في درجة الأبناء في حسن المعاملة وفي المساواة في كثير مما يتمتع به الأبناء أنفسهم.. يتضاربون.. ويتهاوشون مع نظرائهم من أبناء المحلة الأخرى.. كلما اقتضت حالة معيّنة إلى قيام ـ الهوشة ـ كما كانوا يسمونها بسبب حادث تافه أو جلل ـ والتوافه في تاريخ الهوشات وأسبابها هو الغالب الأعم.

وعلى هذه القواعد وسواها من الفهم، أخذ الوالد يسرد ذكرياته في هذا الباب من المضاربات الفردية بين أولاد المحلة ذاتها.. ومن الهوشات الجماعية بين أبناء محلة وأخرى وباعتباره من فتيان العلوي ـ سوق جدة ـ ومن مشاكلة محلة اليمن فإن حوادث هوشاتهم تتم على نطاق متكرر واسع مع أبناء محلة المضلوم ـ المظلوم ـ وعلى نطاق ضيق غير متواتر مع أبناء حارة البحر التي تعتبر بوم الغارة الكبرى جزءاً أساسياً من محلة اليمن.

كما كانت الأمور نفسها تسير في الهوشات بين أهالي محلة الشام والمضلوم ـ ولكل من هاته المحلات حلفاء من أهالي محلات النزلة اليمانية ـ والرويسين الأعلى والأدنى وبنى مالك وسواها ـ ومن ذلك نستطيع أن نفهم للتاريخ أن في وسع من شاء من الباحثين على أضواء تكوين المحلات وحروبها الشعبية والحاروية وتفاصيلها الواسعة جداً.. وعلاقاتها المتنوعة أن يدرس الحالات الأممية في حروبها الغابرة عامة ـ وفي الحرب الكونية الأولى والثانية.. كنقاط ابتداء.. تماماً وبالضبط كما سلسل بعض الباحثين تاريخ الحروب ابتداء من غارات العشائر بسبب دلو.. فالقبائل، بسبب فرس أو بعير.. ومن هنا ـ فقد كانت ذكريات الوالد المسرودة عن الحارة وتاريخها ومشاكلتها ومشاكلها، ولم أستوف هنا بعضاً من كل، بل أن ما ذكرت أشبه كثيراً بشعرات من رؤوس أقلام، وفي هذا الباب وفيما ذكر الكفاية ولو مؤقتاً فيما يلوح لي.. وما أحس ذوقياً وجوب الوقوف عنده.. كما أحس الوالد نفسه، عندما عرف بأن العشاء على وشك الانتهاء، من طبخه.

وبالنسبة لعشائنا هذا في الكر.. أحب أن أقول أنه حين وصولنا هناك نحن وجماعة الحمارة العائدين.. لم يكن أمام جماعتنا الصغيرة الوالد وأنا والجدابين الكبير والصغير ـ أسوة بالبقية وكل منا على حسابه ـ أي مجال لاختيار نوع وجبة العشاء هذه.. فليس أمام كل منا تمشياً مع حيثية المكان ـ الكر ـ والمقهى والمكين ـ ونحن والحمارة وجوهما الشعري الأصيل إلا أن تكون الوجبة أكلة "المعدوس".. بحصاه!.

ولقد أكلناه كذلك ـ أي بحصاه ـ فعلا متلذذين ـ غير مشاركين للأسف ـ برؤية الأعمال الجليلة الهامة في تحضيره.. من إشعال

الحطب.. وتحضير القواعد المثلثة من الأحجار لوضع القدر عليها ـ فالقدر كما يقول المثل ما يقعد إلا على ثلاثة ـ فوضع القدر ـ وفوران الأرز والعدس صديقين متلازمين طيلة العمر.. مركبين تركيباً مزجياً.. ولد لهما هذا الاسم المعجب المطرب.. "المعدوس".. علماً بارزاً في عالم أكلاتنا الشعبية.. وخصوصاً أيام الغيم يتلبد في الجو.. دون نزول المطر.. فهو أي الغيم كالأمل العذب الباسم يلوح في حياة الفرد لاستساغتها على رجاء تحسن أحواله فيها.. أو هو كالعزاء بهذا الاعتبار السالف ذاته.

وربما جاء حب المعدوس والحنين إليه كلما ذكر لدينا حواضر وبوادي من اختلاسه كثيراً من الملامح والمشابه والمضامين للأمل.. وللعزاء.

أما في حين نزول المطر فعلاً على ـ ندرة نزوله ـ فالمعدوس غالباً وجبة كل دار ـ أو خدر.. وأذكر ـ بطريقة اللقط السريع ـ أننا عندما كنا موظفين بوزارة المالية بمكة المكرمة بمقرها بالعرضي كما تسميه.. وعندما كانت تغيم ـ أي السماء ـ يبتدئ أوتوماتيكياً طلب كل موظف السماح له بالخروج بانتحال أية علة أو سبب حتى ليبقى القسم عاملاً بموظفين أو ثلاثة على الأكثر ـ ويتضح فيما قبل وفيما بعد أن الجميع قد ذهبوا لتناول المعدوس في "المصافي" الصامح مثلاً وتناول المعدوس في الخلاء مما يعتد به في تاريخ مواطنينا.

فالمعدوس أكلة خلوية شعرية.. حتى في الليل ـ أمام اللهب الأحمر ـ من الحطب يتخلّل دخانه شعرات أذقان القائمين بعملية طبخه، وعلى ضوء القمر الساري، من جماعة الآكلين..

(٧)

مرابع الجمل.. ومراتع الغزلان

ولقد قال الجدابي الحَمَّار.. والعهدة عليه.. أن من بين تلك الحيوانات: الثعالب، والذئاب، والكلاب، والغيلان تمرح في اخاء.. وبدونه.. مع الغزلان والحمر الوحشية.. والأنعام.. وأخشى أن أذكر تتمة روايته وأسماء من ردد أسماءهم من الحيوانات الأخرى فأكون ملحقاً به في الاختراع والتنميق.. مع علمي التام بأن ناقل الكفر ليس بكافر..

وعلى كل حال ـ كما نقول دائماً ـ فقد كان من ضمن العبر والمعلومات والحقائق الجديرة بالذكر والتي كوناها وسردنا بعضها في هذا المجال.. أن الغناء الحدري والأهازيج الجماعية كما هي مظاهر سرور واغتباط.. وأداة تنشيط للمزارع أثناء تأدية عمله الشاق في حقله وسواه.. فإنها كذلك سلاح دفاعي محمود في تنفير الحيوانات المفترسة والحيوانات المؤذية أو المقلقة للراحة على الأقل.

وأن كثيراً من تلك الحيوانات وأهمها أصناف من الغزلان والحمر الوحشية وسواهما.. قد انقرض أو كاد في بلادنا لأسباب خارجة عن سياق استطراد حكايتنا اليوم.

وأنه قد آن الأوان جدياً لسن القوانين الحكومية الصارمة لحماية البقية الباقية من حيواناتنا الإقليمية.. فإن من المفارقات الشائنة أن يأتي اليوم الذي يقال فيه أنه لا يوجد جمل.. في بلاد الجمل.. ولا يوجد غزال.. في بلاد مرابع.. ومراتع الغزلان.. والآرام.

وهكذا كان.. فبعد أن تناولنا وجبتنا بالكر، الوالد وأنا مع جماعة الحمَّارة يداً بيد ولقمة بلقمة.. ذهبنا في رحلة أخرى.. رحلة نوم عميق، لذيذ الأحلام العدسية.. ومتنزهاتها السحرية.. ونومتنا هذه ـ وإن لم تكن طويلة في حساب الزمن والتاريخ.. إلاّ أنها هجعة مريحة منعشة بعد اليقظة للجسم وللذهن معاً.. فقد استيقظنا كذلك في أعقابها حيث قمنا بأداء صلاة الفجر في نشاط وابتهال، وخشوع، وأديناها صلاة حقيقية تمت في أداء ساذج، مقبول ـ بلا شك ـ لحرارته، ولصدقه، ولعمق مبناه ومعناه عند الله.

وكتقليد محبب ـ أو غير محبب.. للعبة المعروفة خارجياً باسم "نطة الإنجليزة".. والمشهورة داخلياً لدينا وفي الحارة.. كلعبة شعبية واسعة الانتشار قديماً بالأزقة والبرحات من مدننا المباركة باسم لعبة ـ يا مسانكا وديني وانكا ـ وأروح وجي عند النبي.. إلى آخر اللازمة المسجوعة الحلوة التي كان يرددها اللاعبون حين ممارسة هذه اللعبة.. كفرع واحد من فروع أخرى من ألعاب ساحاتنا الشعبية آنذاك مثل.. الكبت.. القال ـ وهو الجولف ـ دآنى نروه.. الإِنِني وسواها من ألعابنا المحلية البحتة والتي لا تفوتنا دعوة المسؤولين تأكيداً لما سبق منا إلى إحيائها بأسلوب عصري منسّق ـ على ألا يذهب بتسميتها الأحياء الجديدة.. والدوبلاج الحركي المضبوط..

أقول.. طال عمرك!.. كتقليد محبب لهذه اللعبة فإنني قبل أن أنسى ـ وكثيراً ما أنسى.. أرجو بالإذن أيضاً أن أسجل هنا وقبل مباشرة صعودنا للجبل من الكر أنه حصل حين عودتنا من الطائف إلى مكة وبعد نزولنا من كرا ومغادرتنا الكر على نفس حمارينا وبصحبة الجدابين الكبير والصغير.. وفي مسرانا ليلاً وكان الوقت ظلاماً دامساً.. إننا كنا نسمع عالياً وفي وضوح تام وقع الحوافر من ذواتها الهاربات من طريقنا تبتعد مؤقتاً لحين مرورنا عن الجادة المطروقة.

ولقد كنت أشعر فعلاً ببعض رهبة عندما أسمع تلك الأصوات وعندما قيل لي أنها وقع حوافر وأقدام وأظلاف حيوانات بعضها مفترس بالطبيعة وبالغريزة وبالفطرة.. وبعضها مفترس بحكم الجوع الكافر حين لا يجد مأكله السهل المعتاد.

ولقد كانت وسائل دفاعنا أمام تلك الحيوانات المتنوعة والمنتشرة أن يعمد الحمارون إلى رفع أصواتهم الجهورية بالغناء وقوامه الحدري وهو غناء ساذج وحلو.. ورقيق في أسماع بني آدم.. ولكنه بالنسبة لتلك الحيوانات إنذار مباشر مسموع.. بأننا.. هنا!..

ولا شك أنها ـ أي الحيوانات ـ تحسب حساب الجماعة المتكتلة صفاً واحداً.. فإن يد الله مع الجماعة.. وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية. فبسماعها الأصوات الجماعية الهازجة.. ورتابة وقع حوافر الحمير.. تفر هي.. لنسمع نحن وقع خطواتها الهاربة.

أما خط الدفاع الأصلي ضدها.. فإنه لم يكن من صنع أفواهنا بل من صنع الحجيج في عرفات.. فإن تلك الحيوانات المتجمّعة منها سرت أفواجها من الجبال والشعاب على طول وادي نعمان والأودية قبله وفي

جواره.. رغبة في التزوّد من البقية الباقية من مخلّفات الحج بعرفات.. بما في ذلك بقايا اللحوم المجهولة الهوية من بقايا الذبائح.. وسواها.. مما كفل درء الشر عن رواد هذا الطريق عقب الحج مباشرة.. بهذا البديل..

والمغزى من هذه الإشارة العابرة.. الإشارة إلى ما كان من توفر أصناف الحيوانات المنتشرة في باديتنا.. يومذاك.. حتى مجيء الوقت الذي بادت فيه إما بفعل الإبادة البشرية منا لها، أو الموت صبراً.. أو جوعاً لعدم وجود مخلّفات موسمية لموسم الحج بعرفات ومِنى.. بفضل تقدم وسائل النظافة والتطهير..

ومن المستحسن في رأيي للجهة المختصة عن نظافة الحج الآن أن تتخذ من هذه الواقعة التاريخية دليلاً ساطعاً على ذلك.

(٨)

قصيدة

ومع شعوري الواضح بثقل الدم في امتداد نفس هذا الاستطراد فإنني أحب ـ من باب العشم والمحبة ـ أن أعرج بصفة خاصة على موضوع الجمل ـ في بلاد الجمل ـ فاستعرض هنا.. مع استعراض عضلاتي الشعرية بعض ما قلته شعراً.. ونشرته جهراً.. بالأسلوب الفصيح والحلمنتيشي عن هذا المخلوق الرفيق.. الأليف بحياته وبتاريخه امتزج بحياتنا وبتاريخها الطويل العريق..

وأبدأ بمقتطفات من قصيدتي التي أسميتها.. أبا الصبر!.. وأولها:

يا أبا الصبر.. والصحارى بلاء	وابتلاء.. والصابرون قلائل
الليالي أضمرن حبك سراً	أبدياً.. بين الجوانح ماثل
والدراري أتلعن نحوك أعنا	ق دلال على الحنو دلائل
يتلامحن بالبصيص.. فيهدين خطاك	المسري.. الخفي.. ذوابل
والحصا.. والرمال عشن خدودا	لك بالموطئ الرقيق حوافل
يتناثرن غبطة. واختيالاً	بين عينيك كالعذارى جوافل

* * *

ومن أواسطها:

والغواني حين الوداع تجلّت — واستقلت منك الظهور ذواهل
والمحبون بالهوادج هاموا — أينما سرت بالهوادج راحل
يتواصون بالعصى من الصبر — ويبكون دمنة ـ وحوائل
والمغاوير شاركوك لدى الذكر — فخاراً بطيب ذكرك آهل
والمغاني تزوّدت بمغانيك — وروحاتك استقمن.. قوافل
والصحارى دانت إليك حزوناً — ملء حصبائها جوى ومقاتل
فتقحمتها.. مغاليق كون — وتبينتها.. سرى ومجاهل!
يا أبا الصبر.. بكرة.. وقعوداً — وبعيراً ـ وناقة ـ وحوامل
عشت في أرضنا مناخ رجاء — ومطايا.. وبغية.. ومآمل
فتربعت في القديم عروشاً — بين أجدادنا ترد الغوائل
وتمتّعت ما تمتعت بالعطف — وبالذكر عاطراً.. غير خامل!..

* * *

وآخرها.. بعد المقارنة الطويلة بينه وبين السيارة:

يا أبا الصبر.. كيف مرّت بك الوحدة — أتخفى بها السكون القاحل
وأثارت بك الشجون وأغرت — بك سوط الذكرى صدى وهياكل!
يا أبا الصبر.. أيها العود.. — والفرد.. وماضي الصحراء.. والركب حافل
عزّ ما تبتغيه.. قد فاتك الركب — وضنت بالذكريات المحافل
فاقض أيامك القليلة حتى تنتهي — بعدها سلالة زائل!!

* * *

وأعقب على قصيدة الجبل الفصيحة بنبذ من مونولوج عملناه في هذا المخلوق الصحراوي العربي الأصيل.. مؤكِّداً أن الكثير جداً من أبنائنا وأحفادنا من الجيل الصاعد لا يعرفون.. ما هو الجمل؟

وهذا ثقب معيب ـ وفجوة مهينة ـ ونقطة سوداء في تاريخ أبناء بلاد الجمل وقد أهدينا هذا المونولوج في حينه للأستاذ الأب عزيز ضيا.. تقديراً منا لجهله التام المطبق بالألفاظ البلدي:

الهوارى.. والشقادف.. كيف كانت	ياعزيزي.. لست أدري.. لست أعلم!
قد سمعت اليوم بابا	حين حاكى طنط زيزي
قال عن تلك الهواري	إنها عود مسمسم
كان وسط البحر.. يجري	ليعيد الحوت بدري!..
والشباري.. والشقادف؟	أبلا.. شوشو.. عيشه.. قالت:
إنها في روما شافت.. رسمها في كتالوج	وضعوها فوق "شيء"..

* * *

حيوان.. كان يرعى.. في البراري

إنه.. إن انقلش، أي ثنك.. يدعى.. في اعتباري..

وات "كمل"؟؟ وازمينت يعني

يعني: إيش هو يا أكرم؟

قال أكرم حين برطم

يا ابن زمزم..

لست أدري..

لست أعلم!..

(٩)
أحجار وماء وقرود

أما بعد.. فبإشباع رغبتنا.. يا عباد الله ـ وبتحريك أعضائنا الهامدة.. بممارسة نطة الإنجليز ـ يمسانكا.. وديني وانكا.. في استطرادنا المكرور.. حيث بقينا طيلة هذا الوقت.. قضيناه في سرد بعض ذكريات الحارة.. وفي حكايات فرعية عن الحيوانات المنقرضة وعن سيدها بالنسبة لتاريخنا الجمل ـ أو أبى الصبر ـ فقد آن لنا أن نواصل السير في رحلتنا من الكر.. السفح إلى الكرا ـ الجبل والقمة..!

ففي صباح اليوم الثاني من مساء يوم الرحلة السابق.. بدأنا من الكر الرحلة الجديدة مع أفراد الركب العائدين لمنازلهم.. من سكان الوديان الواقعة فوق الجبل الأشم، أحدنا ـ وهو الوالد مع الركب على ظهر حماره الذي كان موزون الخطى ـ خبيراً بتجنّب المزالق والمهاوي باعتباره من خبراء الطريق إلى "الديرة" علماً بأن الجدابى الكبير حمّارنا سائر بجانبه وربما جاءته الخبرة من وجود ابن الديرة الأصيل وراءه.. وإنما نسبت إليه عشما في استدرار أكبر قسط ممكن من جهده.. ونشاطه.

أما الثاني ـ وهو أنا ـ كفانا الله شرّ كلمة أنا ـ على حدِّ تعبير عمّتي يرحمها الله. فقد كنت بإعطائي حماري إجازة شخصية سائراً على متن

قدمي الحافيتين من أي فعل مجاراة لزميلي الأخ الأصغر للجدابي الحمَّار. . وتشيعاً لمبدأ المساواة والحرية والاخاء الذي كنت حديث العهد بمعرفته. . عن طريق روايات الجيب التي كان يقوم بتعريبها الأستاذ عمر عبد العزيز أمين. . ومعظمها حافل. . بل ومختص بحوادث الثورة الإفرنسية. . وهي روايات كنا نتبادلها بالزنابيل مع أصدقاء القراءة للمبادلة والمشاركة باعتبارها مالئات فراغنا الرهيب ومطالب دمائنا الفائرة آنذاك. ولعلَّ رخص أثمانها أولاً وتوفير بعض الأثمان وبطريق الإعارة. . ثانياً ـ دون الإيجارة ـ فيها دافع الإقبال عليها. .

وعلى ضوء من هذا المبدأ المثالي آنذاك فقد سرت حافياً مع زميلي. . وإبرازاً للمواهب المدفونة. . واختصاراً للطريق في الجبل وللزمن كذلك. . فقد أخذنا كلانا في تسلّق الصخور أو التسلل من بينها منفردين. . متحاشيين بحكم الغرور الصبياني أن تكون مع بقية الركب نشاهده دوننا. . سائراً على الطريق الممهد بقلب الجبل. . لا تجمعنا به تلك البسطات، أو الأزقة الترابية تقع من قلب الجبل موقع الواحة من الصحراء؛ حيث ينتظم فيها سير الركب دون اهتزاز ـ أو تأرجح قابل للسقوط. . ودون الأوامر متكررة لركابها بالنزول والسير على الأقدام خشية الإنزلاق لمدة تتراوح بين الدقائق وأرباع الساعة. .

وقد تسنّى لنا أن نرى فيما رأينا بوسط الجبل تقريباً تلك الصخور التي ينبجس منها الماء. . والتي تلونا لديها الآية الكريمة إكباراً لعظمة الخالق الملموسة ولجلال القرآن "وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء" . . وترشفنا فعلاً من زلالها.

وكنا ظمأ. . مع همنا إطفاء حرارة "المعدوس" التي استمرّت شعلته

من عشاء الليلة الماضية والعة في معدتنا.. كما يستمر اللهيب متوهجاً في شعلة قبر الجندي المجهول تحت قوس النصر في باريس.. وتلك مزية للعدس.. بالإضافة إلى مزاياه الأخرى ـ تذكر.. فتشهر كدليل على فيتامينيته الحديدية النارية.

وفجأة.. أشار زميلي.. فرأيت على مسافة بعيدة بإرشادات المنظار المكبّر وهو عينه الحادة النظرات بعض القردة التي لم أتبينها بوضوح إلا بعد إرشادات متكررة منه بالسبابة المنتصبة والمؤشرة في دوران متصل لبعض الاتجاهات حيث تبينتها.. تماماً متجولة فيها.. وكانت القرود تسير في جماعات متفرقة منتظمة.. منها الكبير الهائل الحجم، ومنها الصغير الضئيل.. والناشئ، والغلام، والفتى من الجنسين بالطبع.

ولقد أعجبتني خيلاؤها ـ وشعورها بالسيادة في موطنها.. ترمقنا نحن الآدميين في نظرات استنكار.. وكأنما نحن دخلاء على مناطق نفوذها.. حتى لكأنها تقول لنا.. لقد كان لا بد لكم قبل أن تصلوا إلى هنا أن تطلبوا منا الإذن بالمرور في قلب الجبل.

وبواعز من الخيال الروائي الناشئ عن قراءة روايات الجيب.. فقد أخذت أتصورها أمة قائمة بذاتها في جوانب.. وأطراف، وأعالي هذا الجبل العتيد.. أمة تحكمها عادات وتقاليد.. وعرف متوارث.. تماماً كبعض بني آدم في نشوء تكوينها الحضاري.. ولا أدري كيف قفزت إلى ذاكرتي آنذاك نظرية المستر داروين القائل بالحلقة المفقودة، وأصل الإنسان.. ولكنني سارعت بالاستغفار.. وإزاحة هذه النظرية من ذهني.. في تقزز واستنكار، أو استكبار أن تجمعنا وإياهم أرومة واحدة.

ولذلك ولإشغال دماغي بالمفيد الجيد.. فقد بدأت الاستعلامات من

مصدرها من زميلي الحمار الصغير باعتباره صاحب دراية وعلم بأمورها وكأنني أطلقت بسؤالي إياه عنها.. صنبوراً من الماء الدافق.. فقد شاء له خياله البدوي الواسع المجال أن يسرد على بعضاً من تلك العادات القروية والتقاليد والعرف المتداول في سلاسة وتدفق جعلاني أشك في أن مردد ببغاوي لما يسمعه من كبار ذويه وأهل صنعته.

ولكن ما أن قصّ على بعض القصص المشهورة لدى أهالي الوديان المجاورة للجبل على قمّته.. حتى بدأت في تصديق رواياته، حين تذكرت حكاية عمّتي عن قرود جبل كرا ونوادرهم فيه..

(١٠)

حكاية عمّتي

فقد حدث ذات ليلة في بيتنا بجدة.. وعلى ضوء خافت من الفانوس الصغير أن اتكأت عمّتي في فراشها وأنا انسدحت بجوارها مبحلقاً فيها وكلّي أذن صاغية لما ترويه من حكايات مسلية طريفة لمن كان في مثل سنّي..

وهنا لا بد قبل الحكاية من وقفة قصيرة جداً فيما أخمن أن تكون ـ فقد كانت العادة في بيوتنا أن تتعهد إحدى سيدات العائلة الكبيرات في السن في حواديت روايات قصيرة مثيرة مغرية توسع في الأطفال دائرة الخيال وتربى ملكاته فيهم..

وهن غالباً ما يعمدن زيادة في التشويق، إلى جعل الجان والمردة والغيلان عناصر رئيسية ثابتة في أقاصيصهم فتجد الأطفال مسمّرين حولها وكأنهم تماثيل جامدة أو دُمى مبحلقة أعيانها.. متسلّطة على فم الروائية الشعبية..

بل أنني أذكر حينما كانت تقتضي بعض المناسبات أن يبيت قسم من عائلتنا لدى بعض أقاربنا تحرص العائلة المضيفة لنا أن تتولى السيدة الكبيرة

بها مهمة السيدة الكبيرة في بيتنا وإن كانت لا تصل سيدة البيت المضيف غالباً في المكانة لما تصل إليه عمتنا أو خالتنا وتلك إحدى خبايا الألفة للصوت الواحد المعتاد وللطريقة الرتيبة مهما كانت ميزاتها..

وأخال أن تلك العادة المنقرضة من بيوتنا، عادة قيام الست الكبيرة بسرد الحكايات للأطفال، راجعة في الدرجة الأولى إلى الشيطنة كما كانوا يسمونها احتراماً لرب البيت وتوفيراً لراحته وهدوئه وهي ولا شك خطوة ماكرة لجذبه وقضاء وقته بدلاً من قضائه إياه بالمقهى أو خارجه.. أياً كان..

ومن هنا فإنني أخال كذلك أن المفكر في اختراع الراديو أولاً ثم التلفزيون أخيراً إنما كان أصلاً من شعب كشعبنا كانت السيدات الكبيرات فيه تقوم بالحكايات لإشغال الأطفال وهذا ليس مهماً بقدر الأهمية في إغراء واجتذاب الزوج رب البيت لقضاء السهرة في بيته، ثم إن مزايا عادة الحكايات البيتية للصغار كانت لمن يسمح سنهم بالفهم فهي تقوم مقام التهنين للأطفال الرضع جلباً للنوم. وللتهنين كلام آخر.

وعوداً على بدء فقد حدث ذات ليلة وعلى نور الفانوس الخافت الضوء أن كانت حكاية عمّتي تلك الليلة خاصة بالقردة، بل بقرود جبل كرا بالذات.

والحكاية بالصراحة مشهورة ومتداولة بين أبناء جيلنا ومن قد يليهم ومجملها في غير داع للمضايقة بتفصيلاتها الجزئية الدقيقة كالآتي:

الزمان ـ على طريقة المسرحيات العالمية.. أيام الأتراك في الحجاز.

المكان ـ منتصف جبل كرا تقريباً وفي أحد الأماكن المنبسطة نوعاً ما..

جوها ـ غائم كثير السحب الداكنة المتلبّدة في كبد السماء..

أشخاصها ـ تاجر طرابيش تركي ودليل بدوي من ثقيف وجماعات من القردة..

موجوداتها ـ وهذا من تجديداتنا.. بعض البغال.. وبضاعة عبارة عن صناديق ملأى بالطرابيش.. للبيع..

ويقول المجمل: أنه بينما كانت القافلة تسير بالطرابيشي التاجر ورفيقه وبضاعته فوق البغال، حدث حدثاً طبيعياً بحكم الغيوم.. أن أفرغت بعض السحب الكثيفة بضاعتها مطراً غزيراً تسرّب جزء كبير من مائه إلى الصناديق ومنها بالطبع إلى الطرابيش داخلها فأصابها ببلل ثقيل وكانت القافلة قد توقّفت عن السير أثناء هطول المطر.. وحين أن كفّت الأمطار تماماً عن الانهمار زالت السحب بطلوع الشمس وصحو الجو. قام التاجر إلى الصناديق ففتحها وأخرج ما بها من طرابيش ثم تولى نشرها على الحجارة.. وفوق الصخر حتى تجف تحت الشمس، وتحت أنظاره المسلّطة عليها..

ولما كان هذا التاجر قد أنزل طربوشه الذي لا يفارق رأسه إلاّ مضطراً، وقيل أنه كان ينام به على طريقة صديقنا المرحوم الأفندي في احتفاظه بالشطافة والغترة على رأسه في السمرة وفي بيته بل وعلى سرير النوم.. دليل ألفة وشعار إخلاص للعادة وولاءلها.

ولما كان هذا التاجر قد أنزل طربوشه عن رأسه مع بوادر الرذاذ الأول مضطراً لعدم إعطاء المطر فرصة لبلله فقد احتفظ الطربوش ـ لا رأسه ـ بجفافه وبحالته الطبيعية ـ ولهذا وللنزول على حكم العادة ـ فقد سارع إلى ارتدائه فوراً وبمجرّد كف المطر عن النزول وجلس مختالاً به

يراقب طرابيشه المبلولة والمنتشرة على الصخور والأحجار.. وللشهرة العالمية عن القردة في حبها البالغ حد الصبابة والهيام بالتقليد والمحاكاة.. ولاستظرافها لأسباب خاصة بها هذا القالب الأحمر يقي الرأس أو وسطه على الأصح بعض حرارة الشمس.. ويزينها زينة الطاووس بهذا الذيل الأسود الذي كان يسمّى زر الطربوش والمدلى من الوسط حتى أطراف القذال ـ بالفصحى ـ أو حبال الرقبة ـ العامية فقد رأت القردة أن تجرب استعمال هذه الزينة مقلّدة صاحب الطربوش ومحاكية هذا البني آدم.. في تيهه بهذا القالب الأحمر ذي الزر الأسود الطويل ـ غطاء للرأس.. وبزة آدمية جديدة.. لم تألفها على رؤوس الأشهاد من أبناء الجبل سكان الوديان.. وفي قمته وبالسفح منه.

وفي مهارة القردة وخفتها.. أخذ جماعاتها تتسلل لواذاً في رشاقة مشهورة لها وفي خبث بارع في التضليل.. حيث استولت في الأخير على الطرابيش.. ووضعتها فوق رؤوسها.. صاعدة بها بعض جوانب الجبل العسير صعودها على سواها..

واصطفت في طوابير منتظمة.. ضاحكة.. لاعبة.. هانئة بهذا الزي البني آدمي الظريف.

وبالطبع فقد جنّ جنون تاجر الطرابيش لضياع البضاعة التي كان يبني القصور العالية في خياله على بيعها.. وإحصاء الربح المقدَّر منها.. ولم يجد بداً.. في الأخير.. من أن يطأطئ من طربوشه.. ويتنازل عن كبريائه ليعلن إلى دليله الثقفي أنه لاجئ إلى حماه ـ وإلى مروءته العربية ـ ونخوته ـ وأنه يرجوه أن يساعده في استعادة طرابيشه من هؤلاء القردة أبناء الجبل الملاعين.

وبتقدير البدوي لربح التاجر تقديراً مبالغاً فيه بعض الشيء.. فقد فضّل أن يساومه مبدئياً لأخذ حصّته نسبة مئوية معقولة في ذلك الربح المقدّر والمنتظر..

وتقول الرواية أن البدوي تساهل بعد مساومة مضنية.. فقبل أن يأخذ بعد استرجاع البضاعة عشرة في المائة وحسب القاعدة الشائعة في أيام الطرابيش والقائلة في دوام وحرارة أفد.. واستفد.. فقد قبل الطرابيشي هذه النسبة.

ودليلاً على صدقه وحسن نواياه.. فقد سلم الدليل حسب المتبع ٥٪ مقدماً كعربون ثقة.. وصدق تفاهم.. واتفاق.

وهنا.. وفور استلام الدليل البدوي الخمسة في المائة.. تفتقت ذهنيته بحرارة ما دخل حسكلة من قروش.. عن حيلة لطيفة من حيل الشطار.. فأشار إلى الطرابيشي بأن يقوم من مكانه تحت أبصار القردة المتفرجين عليه وفوق رؤوسهم الطرابيش.. إلى ركن قرب منخفض ولكنه بارز المنظر وأن يزق فيه.. والزق باللهجة البدوية.. أن يعمل زي الناس باللهجة الحضرية هو التغوط.. بالفصحى.. أي إتيان الغائط الذي هو أصلاً الأرض الواطئه.. فإن لم يكن لديه ذلك المخزون البشري.. فعليه أن يقلد الزاقق في كل حركاته المقررة.. وبانتهاء العملية موضوعاً فعلياً، أو شكلاً مظهرياً.. عليه أن يحمل طربوشه وأن يقوم بحركات التطهير والاستنجاء.. علناً ـ ثم يقذف به بعيداً عن مكان العملة!

ولم يسع الطرابيشي إلا أن نفذ ما أشار به دليله ـ وكانت النتيجة الحتمية حسب عادة القرود في التقليد وفي المحاكاة إن عملت ما عمله التاجر تماماً وبالضبط فقذفت هي الأخرى بعد إجلاء المتبع من الزاقق..

بجميع الطرابيش.. وحينذاك ـ سارع كل من الطرابيشي والدليل إلى جمعها.. فاسترد التاجر بضاعته.. وقبض الدليل.. عمولته.. وأرضت القرود نزعتها في التقليد والمحاكاة.. طرداً وعكساً في أخذها للطرابيش ثم إعادتها إياها!

(١١)
يا زارع الريحان

وهكذا.. في وسط كرا وأمام طائفة من القردة سكانه الأصليين تذكرت حكاية عمّتي عنها وعيني مع اتجاهات نظرات الحمّار الصغير الجدابي.. ويدي في يده عربون إخاء.. وإعجاب وتسليم بالرفقة الطيبة.. حتى رأس الجبل.

وفي الواقع.. فلم يكن ما رأيناه من تفجر الماء من بين الصخور ومن منظر القرود واستعادة بعض نوادرهم.. كل ما رأيناه بهذا الجبل الذي صار سهلاً.. فقد رأينا وبالواسطة وبأنفسنا كثيراً من أنواع الأعشاب البرية الجبلية.. وتم الشرح من مصادره في دقة تكاد تكون علمية.. وفي إسهاب بالغ.. لكثير من الخصائص النادرة لهذه الأعشاب في علاج كثير من أنواع الأمراض.. حتى لقد جال بذهني الصغير بحرارة الموقف أن قررت التخصص في فرع من فروع الطب الطبيعي ـ الهمبوتيكي ـ في مستقبل أيامي العملية وبفتح عيادة خاصة في جدة.. وبعد عودتنا إليها من رحلتنا الكريمة بالطائف.. وأنا أجمع في العودة ما تيسر من هذه الأعشاب وأن أتفق مع الجدابيين ليكونا وكيلين لي في تصديرها.

وكان المشروع رغم صبيانيته ـ هاماً في حينه.. فلقد كاد هذا العلاج

أن يكون هو العلاج الوحيد في بلادنا.. رغم وجود بعض الأطباء العصريين من أبناء العروبة خدّامي القضية.. الذين لم تكن تجاربهم فينا مشجعة على الإقبال عليهم.. والذين أساءوا حينذاك إلى سمعة الطب وإلى عدم جدوى الأدوية المحضّرة صناعياً، وكان أن استمسك الأهالي جميعهم في المدن بالتجربة وفي الريف وبالوراثة بالعلاج الهمبوتيكي بالأعشاب.. تقوم عليها الوصفات.. والمعالجة الطبية تمارسها جداتنا وأمهاتنا.. مقتديات بالسلف من الأجداد والآباء.. وعلى سبيل المثال العملي في هذا الباب.. ومع التجاوز عن عدم التوفيق في اختيار المثل ذوقياً فإن من أحس بحبسة أو كتم لأنفاسه التحتية ـ أن يأخذ فنجاناً من النعناع المغلي.. فإن له مفعولاً مطلقاً.. في تصريف تلك الأنفاس الخبيثة الكريهة الواجب تصريفها أولاً بأول خشية القضاء على حياة حابسها بدافع الحياء التقليدي أو الوقار المصطنع..

فإن حدثت مضاعفات لا سمح الله نتيجة هذا الحبس بالذات.. أو لأسباب خارجية عن نطاق العوامل السامية فيه مما يؤدّي إلى قبض خطير.. فإن كذلك في السنامكي العلاج المضمون القاطع إن شاء الله.

ومن المعلوم المزروع.. كما لا أحتاج أن أقول: أن النعناع من غراس بلادنا.. فهو دواء في متناول اليد وميسور.. ومؤتمن باعتباره ابن تربتنا نفسها.. فضلاً عن أن له غير هذا الجانب العلاجي جانباً اقتصادياً كذلك ـ فبراد النعناع ينوب عن براد الشاي المستورد صرفاً أو ممزوجاً به.. في بعض الحالات.

كما أن السنامكي كما تدل نسبته عليه عشب وطني صميم.. ثم أنه قد بقيت له حتى هذه اللحظة وستبقى له شهرته العالمية الذائعة الصيت

ومسماه الأصلي القديم.. رغم كتابة حروفه باللاتينية.. ورغم زوال معالمه العشبية بتحضيره عقاراً مركباً تركيباً مزجياً عصرياً مع سواه من العقاقير نتناوله أقراصاً داخل زجاجات صغيرة أنيقة جرى تعقيمها ولفها بالقطن داخلياً وبالغطاء المحكم على فوهة الزجاجة نفسها كما هو الحال مع النعناع وسواه من الأعشاب المحولة إلى عقاقير طبية.

هذا.. وما دامت قد جاءت هذه المناسبة بطبيعتها.. وبطبيعة ذكر السنامكي والنعناع فإن من الثابت أن معظم التركيبات الدوائية الحديثة والتي أصبحنا لا نثق بسواها يدخل فيها كثير من مزروعاتنا ولا نستطيع هنا أن نفرط في واجب التنويه بآثار مفعولها ـ سواء كان مفعولاً مطلقاً ـ أو مفعولاً به ـ أو مفعولاً لأجله.. ومن بقية المفاعيل الأخرى.. مثل الحبق.. والعطرة والحناء سواء استعملت هذه الأعشاب الأهلية لعلاج الأمراض الداخلية أو الجلدية الظاهرة.

ولقد اقتصرنا هنا. ونحن على استحياء تام من الإطالة والاستطراد وقطع مجرى الرحلة على الأعشاب والمزروعات ذات الأسماء الرنانة على أن هناك أعشاباً يحمل كل منها شارة الجندي المجهول.. في مدار التطبيب والعلاج..

كذلك فإننا لم نتعرض لذوات الصرف والرائحة الطيبة من مزروعاتنا كالريحان والفاغية.. وسواهما مما تُرد أرومته إلى الزهور والورد؛ مع أن هذه المزروعات تخطت في رشاقة وجدارة.. ميدان العلاج الجسدي والحسي.. إلى معاني الأرواح والقلوب.. فأصبحت للحب بشائر.. وعلى الهوى علامات.. وللصبابات معاني منثورة.. أو مشعورة.. فنحن لا زلنا نردد في دنيا القلوب ما كنا نردده من عشرات السنين مثل:

- يا زارع الريحان حول ديارنا..

- يا فاغيا.. في العمائم..

إلى آخر منظوماتنا وأغانينا المرتبطة بالفعل بالريحان، وبالفاغية وبالعطرة وسواها.. وإنني لأتعشم صادقاً.. أن يتجه فنانونا من شعراء.. وملحنين ومطربين، بل وأطباء إلى نصب جسور جديدة يربطون بها قديمنا بجديدهم.. ويطلون من فوقها على ما تحفل به تربتنا من هذه النباتات الطبية في مجلاها الإنساني الحافل بالشعر وفي صعيدها الزاكي بالحب.. وفي مدارها الجسدي.. والروحي.. الزاخر بالمفيد.. وباللطيف..

وهذه اللفتة حسنة من حسنات هذا الجبل الذي صار سهلاً.. وكم له ـ كما مرَّ ـ وكما سيأتي.. من حسنات.. فلا زلنا في السبيل إليه.

(١٢)

حور حرائر

ومع ذلك.. فقد شاهدنا من بداية صعودنا (كرا) الجبل الغنى.. أنواعاً مختلفة من الحجارة والحصا. والصخور.. ونشهد في ألوانها.. وأشكالها.. وأحجامها نادرة وعزيزة.. وإن قسماً كبيراً منها يشير نظرياً دون فحص كيمائي وتجريبي إلى احتوائه على أنواع من المعادن الخام المطمورة.. أو المندسة بقصد عنا لأننا لم نبذل في سبيل رؤيتها النور إلى جهد مشكور منها أو منا..

وتلك الصخور.. وما يتفرع منها.. حصا.. أو حجارة.. أو على الدقة ما هو أصل لها.. بداية بتكوينها الصخري لا يحتاج فيما سجلته لنا روايات العارفين القدماء من شيوخ الطائف ومكة وما بينها إلاّ أن نتعلم علم الخواجات الجديد.. فنصبح حالاً أغنياء بالحديد وبالصلب وبالنحاس وبالذهب كذلك.

وعلى ذكر الذهب.. فلا بد هنا من استناده على أقرب صخرة لنربط بحبل من الخيال بين ما هو موجود من هذا المعدن الذي ترخص في سبيله الأرواح في بلادنا في المهد، بطريق المدينة المنورة، وما هو موجود فعلاً وإن كان مخبوءاً للآن في هذه التربة تربط بين أجزائها عروق

المحبة لم تجد بعد من يتحسس شرايينها. . وينصت إلى دفقاتها الذهبية والبلاتينية. . كذلك. .

وكنت أظن بغروري المدرسي الفلاحي. . أن الجدابي الحمّار الصغير غافل عما أنا فيه ـ وأنه لا يتابع أحاسيسي وتحسساتي سواء ما تعلق منها بانبجاس الماء من بين الصخور. . أو بتفرّد القردة بميزاتها المحلية والعالمية أو بمميزات أعشابنا ومزروعاتنا. . أم بما تحمله وتحفل به أحجارنا وتربتنا من كنوز. . وكنوز. . ولكني اكتشفت أنني مخطئ في الظن. . فقد أمطرنا بكثير من المعلومات والروايات المتعلّقة بكل بند من هذه البنود في أسلوب بسيط وتشبيهات حية. . وتعبيرات تتجه للقصد رأساً في كلمات كأنها طلقات الرصاص في سرعتها وصحة تسديدها للهدف.

وسرعان. . ما استعدت الجملة القديمة القائلة. . رب جوهرة في مَزبلة. . وكان الجدابي الصغير جوهرة حقيقية. . لكنها في وسط جبل. . لا في مزبلة. . كما تقول تلك الجملة في تعبيرها غير المهذب. . وغير الديموقراطي ـ حتماً ـ فلقد بدأ بعد أن استوعب بالبحث والشرح والإفاضة الماديات السالفة الذكر ماء، وقردة، وأعشاباً وحجارة. . أن يعرج على المعنويات حين لاحظ تشبثي بجعلها في المرتبة الأولى من نفسي وعواطفي ووجداني وذلك باستشهادي بالمناسبة. . وبدونها ببيت أو بأبيات من الشعر العربي قديمه وحديثه فكان في هذا المجال الفني ندا خطيراً. . وإن كان الفرق بيني وبينه شكلياً وجوهرياً معاً؛ فهو يستشهد بالأقوال البدوية. . وبالشعر الحميني. . وبالأمثال والنوادر عربية قحة في مصدرها. . وقولها. . وعنصرها. . بينما أنا أستشهد بذلك كله أو بعضه وبما وعته الذاكرة نقلاً عن كراريس مدرسية كنت حديث العهد بحفظ ما

فيها كالببغاء.. فأصبحت المقلّد.. حين كان هذا الغلام.. الأصل.. دون تقليد.. وهذا الذي أقوله عنه في مجال المعنويات الشعرية سجادة حريرية أبسطها له ليتربع عليها وسط الجبل.. وليقص على فيما يقص.. شيئاً عن القاعدة القلبية لتلك المعنويات.. بل ولكون النفوس عامة.. وللكون بذاته.. شيئاً عن الحب.. وسيرة الحب والمحبين.. مبتدئاً بالتغنّي بالجهل البشري في أوديتهم.. بعد التغنِّي بالجمال الطبيعي فيها.. وفي جبلهم هذا.

وكانت الشرارة الدفينة التي أشعلت فيه هذا اللهب الإنساني الخالد أنني ترنّمت في المناسبات المتفرّعة والمناسبة طبعاً.. ببعض الأبيات الشعرية.. أذكر منها هذه الأبيات:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

إن العيون التي في طرفها حور ... قتلننا.. ثم لم يحيين قتلانا

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد.. وحولي أذخر وجليل

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا وأعطينا الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

وكان يسمع ويعي صامتاً.. متنهداً.. ولكنني لم أكد أقول:

حور حرائر ما هممن بريبة ... كظباء مكة صيدهن حرام

يحسبن من لين الكلام فواسقا ... ويصدهن عن الخنى الإسلام

* * *

حتى انطلق في حديثه الدافق وكأنه يخشى مزاحمة بنات مكة أو

أندادهن بما يعتبره وقفاً على بنات جبله وواديه.. وحزم لا يناسب كل ذلك سنه.. وذلك بعد أن ابتدأ قائلاً بهدوء ووقار: وماذا عساك ستقول في ظباء أوديتنا البشرية حين تراه؟.. وعندما يسلطن عليك النظرات السريعة الرواية.. البريئة المؤدى؟.. إنني سأقف بجانبك قطعاً ـ لأنك ـ ورع.. حضري.. يعني ولد صغير من أولاد المدن.. ولكنني أحببتك حيث زاملتك وألفتك.. وقد أوصاني والدك من وراء ظهرك عليك.. كما أوصاني أخي الأكبر.. بدوره على أن ألاحظك.. عندما تتخطّى أو تتسلق الصخور!..

إنهن ـ أي بنات أوديتنا ـ صبيحات الوجوه.. سود العيون.. سواد شعرهن الملفوف في غدائره.. غزلانيات القدود.. ساحرات الكلمات وإن انطلقت من أفواههن العقيقية انطلاق السهام المتتالية في فصاحة وجرأة.. يتبيّن حلاوتها ودلالتها من تذوق الجمال البريء في منبته.. وأظنك ستكون كذلك.. فقد رأيت فيك هذا التذوق أمام بعض أعشابنا.. وزهراتنا البرية.. في الجبل.. قبل قليل.

وأحب أن ألفت نظرك من الآن.. وقد تبين لي أنك تحب الشعر وربما تقوله.. إلى البنت مزنه بالذات.. فمزنة يا رفيقي الحضري.. هي وردة وادينا.. وادي الأعمق!..

(١٣)
وشرب من المَعْسَل

إن مزنة البنت القروية هي بالإجماع الريحانة العطرية في وادينا وستراها به. . ستراها في الصباح عندما ترد البئر لتملأ قربتها منه ـ وفي الضحى حينما تهبط البستان تساعد في بعض الأعمال به. . وفي المساء بينما نكون جلوساً في رحبة البيت نتسامر. . أو في إحدى الليالي عندما يحتفل بكم أخي الأكبر محمد على رأس الفتيات في صفهن برقصة ـ الخليطي ـ ترتجل الشعر. . وتقود الفرقة من بنات جنسها للرد على الفتى الأول بين الفتيان. .

إنني يا رفيق الدرب في الجبل الآن وعابر الوادي ـ لا أريد أن أملأ رأسك بصورتها ـ تتخيلها. . ولكني وأنا أفضل أن ترى مزنة بذاتها. . لا بد وأن أعطيك الإشارة عنها ـ إشارة الخطر ـ لتكون على حذر ـ وأطبق أحمد فمه، فلم يقل جديداً عن مزنة بعد ذلك.

وأحمد هو زميلي الجدابي الصغير شقيق أخيه محمد صاحب الحمير، فقد نسبت طيلة المدة السابقة أن أسميه. . وقد عللت الحب الوثيق غير المفقود بيني وبينه. . في أول العهد به أنه ربما كان للتسمية المشتركة في الاسم دخل في قذف حبه بقلبي، ولكنني حللت الأمر

منطقياً وروحياً وتجريبياً على ضوء من الحديث الشريف.. الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف.. وما تناكر منها اختلف..

وهذه حالة صادقة مجربة ـ فأنت قد ترى إنساناً ما، فإذا قلبك ينفتح له وروحك تهش لرؤيته.. وعينك تؤكد لك ألفة مرآه ـ حتى لكأنك عشت معه الحياة من قبل فعلاً، كما قد يحدث العكس ـ حينما ترى شخصاً ليست لك به معرفة أو اختلاط أو معاملة سابقة فإذا إحساسك ينفر منه، أو يتهيبه.. أو لا تطيقه.. ولعل تعبيراتنا الشائعة على الألسنة والصادرة من القلوب مثل أنا أكره.. هادا الشخص من الله.. أو هادا الشخص ما ينبلع لي من زور.. أو ـ ما أطيق رؤيته يخويا ـ كدا.. بس لله في لله..

بشيء.. من هذا التفسير لحبي الطبيعي للفتى الجدابي.. أو بدونه.. دون أن أفكر في الداعين لقبول فكرة تناسخ الأرواح تستند إلى ركن من جدار متداعي.. فلقد توثقت بيننا المودة والألفة حتى لقد أصبحنا في أيام ـ وكأنما هما ذخيرتا سنوات ونسيجا عمر طويل ـ واستمر تسلقنا بعض الصخور بالجبل أو تسللنا من بينها.. أو سيرنا أحياناً بالسهل في الدرب الخاص نشرف على بقية الركب.. وتمر بنا الرحلة حلوة جميلة.. جامعة مانعة.. كما يقول المناطقة في فكرة السلم الذي كنت حديث عهد بقراءته في الفلاح.. وهو كتيب مدرسي صغير ـ من كتب المنطق كما كانوا يسمونه.. أو الفلسفة في التعبير العلمي والعصري خارج الحدود، حتى جاءت اللحظة التي أشار لي فيها بالتوقف في انتظار القافلة ولما سألته ولم؟ أشار إلى نقطة بعيدة ـ قريبة.. وقال لا بد أن تكون الفرحة بها جماعية مشتركة..

وفعلاً.. فقد انتظرنا الركب، حتى إذا تكامل بنا أو بهم جمعنا علمت أننا على مقربة من بركة المعسل، أي من هامة الجبل.. وكلمة "المعسل" كافية لأن تعطي لبركته شهرتها التاريخية.. وسرنا سوية.. على بركة الله ـ حتى إذا وصلناها ـ تبادلنا التهنئة ـ والعناق بالأعين والنظرات الشاكرة.. في حمد وتسبيح، وتهليل وتكبير..

ثم أخذنا في الاستعداد للشرب المباح من ماء المعسل، ومن المنسرب الصخري للمنبع مباشرة.. فقام الحمّار وأخوه وبعض أفراد الركب من أهل الديرة بجمع بعض أوراق الشجر الخاص بتسهيل عملية الشرب.. من مسرب المنبع الذي هو عبارة عن فتحة صغيرة في صخر ملتصق يتسرب منه الماء.. وقد استعملت كسواي، بعض تلك الأوراق لتسهيل جمع ومرور الماء من الصخر إلى الفم..

وكان كل من تلك الأوراق عبارة عن ورقة نباتية محدود به الوسط طولياً.. لها حجم وصورة الكرته، أو اللبيسة، المسهلة لمرور القدم وتسهيل دخول عقبه إلى الحذاء.. ومعذرة شديدة في هذا التشبيه المكروه أو المحرم ذوقياً.. ولكن معذرتي في اللجوء القسري إليه أن تلك الورقة النباتية الخضراء لا شبيه لها في الوضع وفي الموضوع إلاّ ما ذكرت.. أعزّ الله السامعين..

ولعلّنا من الوقع في هذا المأزق البياني البسيط نعطي النعنعة كاملة لمن يحرصون على نقل الصورة الفنية مهما كلفهم الأمر من خروج على مألوف.. أو خدشاً لذوق عام ـ في سبيل الدقة لتشبيه صادق..

وابتدأنا الشرب من المعسل.. وأقسم أنه كان حلواً.. زلالاً.. بارداً كأنما كان خارجاً مما يسمونه "الفريزا" في هذه الثلاجات العصرية التي

عرفناها واستعملناها في حياتنا الحاضرة فيما بعد، بعد أكثر من ربع قرن من رحلتنا هذه.. وشربنا هنيئاً مريئاً.. وفي اعتدال من الترشف.. فقهنا به دلالة كلمة رشف.. اللطيفة أداء ومعنى.. الشعرية.. تردد أبداً في حالات الرضا والوصال.. ورشف الرضاب.. وذلك ما كنا نلتذ به من فم الصخرة.. ماء مثلجاً بقدرة الله سبحانه وتعالى.. ثم بفعل مروره باطن الأرض واختزانه بقلوب الصخور.. محتفظاً ببرودته الطبيعية المدهشة..

وربما وردت في هذا الباب إشارة لطيفة إلى إمكان قيامنا.. خلوياً.. بعملية تبريد صخرية للماء.. نجهل حتى الآن كيفية تركيب وتصنيع أجزائها المختلفة.. أسوة بما كنا نقوم به من عمليات تبريد طبيعية في المدن.. بواسطة الزير المغربي.. والشراب الفخار.. فنشرب الماء بارداً دون أي ضرر منه.. فقد علمنا عرضاً وبطريق الصدفة من بعض المشتغلين بالطب.. وبالتخصص في علاج مرض ـ القداد ـ بالذات وتوابعه أن للثلج والمثلّجات الاصطناعية الخارجية بعض الأذى.. فضلاً عن أن الإكثار من "البارد" غير الطبيعي.. يسبب بروز الكرش.. بروزاً يؤدّي إلى الشك في حمل صاحبه حملاً يستدعي ببلوغه أشهره الأخيرة الانتقال لأقرب مستشفى لإجراء عملية عادية.. أو قيصرية إن تعسّرت الولادة واستدعى الوضع إجراءها في الحال..

وحرصاً على أداء الأمانة التاريخية.. وللنفع العام.. نودّ بهذه المناسبة أن نشرح لأبنائنا من أبناء الجيل الحاضر الطريقة التي كنا نشاهد أمهاتنا وجداتنا يقمن بها بالبيت في أيام الصيف في بساطة ويسر ونظام بيتي لتأمين ماء الشرب البارد.. لكل من فيه..

لقد كان كل بيت من بيوتنا يحتوي في أثاثه على أزيار الماء الفخار المصنوعة محلياً ـ وتلك صناعة بادت دون لزوم ـ وكان أحسن تلك الأزيارما يطلق عليه "الزير المغربي" وإن كنت لا أدري رغم وطنية تلك الأزيار جملة من أين وردت صفة المغربية لأزيارنا؟

وربما تمكن أحد المؤرّخين والمنقبين عن الآثار أمثال الأنصاري والزيدان ومن نحا نحوهما من تحقيق هذه النسبة في التسمية الزيرية.. حرصاً على نقاء تراثنا البلدي الصميم من الشوائب..

كما كان لكل زير غطاء.. ولكل زير كذلك مغراف.. ومن هنا فيما نظن وفي مناسبة اصطلاحنا ولد المثل الشعبي القديم القائل.. كلما دق الزير في المغراف.. واعتقد أن شرح مضمونه ومناسبته معلومان للجميع..!

(١٤)

يا للي رماك الهوى

ولقد كنا في كل بيت من بيوتنا.. نقتني مجموعة متنوعة الأشكال والأحجام من ـ الشراب ـ بتشديد الشين المكسورة ـ جمع شربه.. وهي إناء فخاري لطيف يوضع فيه الماء للشرب الصيفي منه.. بارداً مستساغاً ـ لا ضرر فيه ولا ضرار.. أي لا قدح منه.. ولا قداد!.

ولما كان الفن والتفنن ميزتين بارزتين لدى الستات والبنات بحكم الفراغ الطويل الكافي.. ليباهي كل بيت بمجموعته المختارة من الشراب ـ فقد كان لكل شربة غطاء قماشي رقيق من الشاش غالباً.. مدندش الأطراف، بالترتر وبالتللى وما إليهما.. ويأتي بعد هذا الغطاء القماشي.. وفوقه غطاء من النحاس أو الصفر المصقول وفي قمّة هذا الغطاء النحاس قبة صغيرة مجلوة براقة.. وقد يكون الباعث على أن يكون الغطاء ذاته.. وقبته آنذاك.. ما ساد في العهد نفسه.. سواء من انتشار الطربوش وزره فوق الرؤوس.. أو قيام القباب فوق المساجد والأضرحة الكبرى والمقابر. فلقد كان العصر عصر بدع سائدة.. وزخرف وثنى.. وطلاء خارجي مرموق البهرج والزخرفة والطلاء.

وكانت حالة اقتناء كل بيت للأزيار.. وللشراب الكبرى والصغرى

منها هي نفس الحالة الاجتماعية السائدة الآن في اقتناء الثلاجات الكبرى والصغرى سواء.. بسواء.. لولا اختلاف المقامات بينهما.. فقد كان موضع جلوس الزير "بيت الماء" ومكان الشربة فوق المرفع في السيب نهاراً وبالطنف بالسطوح ليلاً.. عدا المفضل البارز منها.. فإن مكانه في الروشن.. أو الرشاون كما نسميه صاحب الصدارة في المنزل.

وللانصاف والإفراط في دقة المقابلة والمقارنة فقد كان هناك نوع من الشراب الصغير تحمل باليد.. للمناسبات الخارجية نزهة أو سواها.. وهذه الشراب الصغيرة.. تعادل تماماً.. تماماً.. ما نسميه "التورمس" الآن..لولا أن الفرق بينهما هو أن الماء يوضع في الشربة الصغيرة ليكتسب البرودة من طبيعتها الطينية الفخارية.. وأن الماء يوضع الآن بارداً ومثلّجاً

في التورمس؛ لتنحصر وظيفته في ضغط الماء كذلك. أطول مدة ممكنة.. فالشراب الصغيرة كانت عاملة برودة.. أما الترامس فهي حافظة لها.. ليس غير. ولأجل محدود!.. وأعتقد أنه لا زالت آثار الشراب كأنموذج تقريبي ممثلة في الدوارق الكبيرة والصغيرة مملوءة بماء زمزم في المسجد الحرام بمكة المكرّمة وبماء عين الزرقاء بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة..

ونعود حيثما كنا في رحلتنا.. أمام البركة ـ فالحق يقال أننا ارتوينا من المعسل ـ كما يرتوي البرشومي الذي كانت الباعة لترويجه وتزكية لمعدنه الأصيل تنادي عليه بقولها "وشرب من المعسل يليد" ويليد هذه تخفيف يا وليد التي هي قطعاً تصغير يا ـ ولد ـ ونترك هنا لسوانا من أمثال الأبوين.. أبي تراب وأبي مدين ـ تعقيب أسباب هذا التصغير

ومدلولاته تحبيباً.. أو تحقيراً.. أو سواهما مما سيصلان بإذن الله إليه.. آجلاً.. في الغالب.

فقد ألف الباعة المتجولون في الأزقة والحواري من أبناء مدننا الحبيبة في سابق العصر والأوان أن يؤلفوا في نداءاتهم على بضائعهم ولها أغاني بسيطة ـ خفيفة الروح.. ورغم بساطتها ـ فإن قدرتها تتمثل في أن الأغنية وحدها تدلك على نوعية الشيء المباع دون ورود أو ذكر الصنف المنادى عليه بصراحة.. وذلك مضمونه ومؤداه أرقى أساليب الدعاية البلدية..

ومن أمثلة ما كان يرد في هذا الباب الظريف.. يا اللي رماك الهوى.. واستوى يا ناعم ـ ويا حلاوة بلا نار.. يعنون المشمش.. والجمار.. إلى آخر تلك النداءات الرقيقة الممطوطة الملحنة تلحيناً خاصاً بها.. والتي نسأل أن يتوفق بعض متعقّبي الفولكلورات الشعبية وباحثيها في كتيب دراساتهم الفولكلورية من فنوننا الشعبية إلى جمعها وتسجيلها مع سواها في كتيب مطبوع ـ يوزع مجاناً ـ للأجر.. وللثواب فإننا لا ننصح بطبعها في أسطوانات معبأة أو ملحنة فاستغلال مثل هذه الفنون الروحية للتجارة والتكسب في السوق المشتركة بيننا.. وبين بيروت.. أمر يفسد نظرتنا إليها وعقيدتنا فيها..

وهكذا ـ فبعد أن كفل لنا ماء المعسل.. الارتواء والنشاط استأنفنا الصعود إلى القمة. وصعود القمم.. حتى ولو كانت إحداها قمة جبل كرا.. مضن ومتعب.. ومع ذلك فقد واصلنا صعود البقية الباقية من الرحلة حتى استقر بنا المقام فوق رأس الجبل العالي الأشم.

وهنا أخذ شمل الركب يتبدد.. ويتعدد بتعدد المفارق.. كل إلى

أهله.. إلى ذويه.. إلى أحبابه.. في "ديرته" الهنيئة الوادعة في واديها الخصيب.. في الهدا.. والمحرم.. والغديرين.. والحسانين.. والكُمَّل.. والمشايخ.. واللوامي.. الخ.. حسب قبيلته وربعه.. من قريش.. أو من الفعور.. أو من النمور.!

أما نحن.. الوالد وأنا.. فقد أصرَّ علينا الجدابيان محمد الكبير وأحمد الصغير.. قبل مواصلة السير أن نكون ضيفي الشرف.. نزيلين محترمين.. في واديهما.. وادي الأعمق . ونتيجة لإصرارهما فقد قبلنا شاكرين.. هذا الكرم.. العربي الرقيق.. والأصيل.. وكأنما عرف الحماران نفساهما.. أعزك الله.. بما تم بيننا وبين صاحبيهما.. فنهقا.. إعراباً تقليدياً عن فرحتهما لا لفتهما لنا بقبولنا الدعوة.. وقد داعبت أنفيهما رائحة الأرض الطيبة.. ودعاهما نداء الواجب والحنين إلى المربط.. بجوار بيت صاحبهما المعتاد.. فانطلقا انطلاق الآلف الخبير بالجادة.. خطوة.. خطوة.. وشبراً بشبر.. وحافراً.. بحافر.. نحو وادي الأعمق. حيث مكان الدعوة.. التي سبقتنا للتعريف به روائح النعناع.. والريحان.. وشذا الأزاهير[1] البرية.. والأغصان الرطبة.. وأنفاس الطين والماء.. ماء السماء الطاهر الطيب كما يرد تعريفاً له في المياه يجوز بها الوضوء.

وبتلك المقدمات الشعرية ـ فقد بدأنا نمارس الشعر الساذج الحي. شعر الطبع والطبيعة.. لا شعر الألفاظ المنسقة. والكلمات المنحوتة تظللنا غصون الأشجار الضخمة.. وتحثنا سهولة الدروب المعبّدة.. لا

---

(١) جمع الزهرة.

بالدركترات.. بل فإننا لم نعرفها حينذاك.. بأيدي الرجال سكان تلك الوديان.. وتحفنا على الجانبين تستثير.. وتثير.. قلوبنا الواجفة لفتات العذارى من البنات حاملات القرب واردات الماء.. أو الصادرات عنه..

واكتملت أسباب الحفاوة القلبية بنا طبيعية لا تكلف فيها.. بالزفة الموسيقية تردد أنغامها دون نوتة.. أمامها.. كلاب الحراسة للبيوت وللحيطان وقد استحالت بمعرفة صوت الجدابيين ـ ورؤية الحمير ـ إلى هوهوة رتيبة تؤلف في مجموعها.. ترديداً رخيماً من كورس متفاهم متحد ومنسجم مع الجو الشعري الحالم!

(١٥)

مزنة

وهكذا وصلنا.. بين هذا الدفق الرقراق.. توشت روافده.. نبعاً وزهراً وعذارى وحقولاً خضراء انتشر بها كلها الحب والفتنة حتى شمل كلاب الحراسة ترعى خطوات دوابنا مهللة مرحبة بها.. وبنا بأسلوبها الحيواني الأليف.. حتى وصلنا إلى وادي الأعمق.

وما أن انتهينا حيث منزلنا في الوادي ـ واتجهنا صوب بيت الجدابية.. حتى كان قد تجمّع المستقبلون لولديهما من الأهل والجيران ـ محيين ـ في سماحة وود.. هذين الضيفين الحضريين.. فلم نعد نسمع إلاّ.. هلا.. وحياكم الله.. ويا مرحبا.. واتفضلوا.. جملاً فطرية الطبع.. صادقة التعبير رغم تقليدية أسلوبها الرتيب المكرور تفيض بمعنى الجود بالموجود سماحة نفس.. وفرحة بالفرصة الكريمة.. لإرضاء طبيعة الكرم العربي الأصيل..

واستقر بنا المقام داخل بيت حجري صغير الحجم أنيق الشكل ـ مرتب ترتيباً لطيفاً بما حواه من الشمل.. جمع شملة ـ أبسطة أرضية وطنية مزخرفة الألوان والأشكال.. ومجصصة جدرانه بالطين الأحمر ـ ترصّعت كلها للتحلية والتزيين ـ والديكور ـ بنقط مربعة ومثلثة من الطلاء

الأبيض.. وأجمل ما عبر عنه هذا الديكور الفطري النشأة تعليق الطِّيران، والدُّفوف والأحزمة الجلدية.. والبنادق والحساكل المدندشة على الجدران تجاورها بعض الأواني الخفيفة من دلائل القهوة النحاسية الصفراء.. والمرابيع.. وللبيوت الطينية في ريفنا جمالها الشعري الحالم والمهدئ للأعصاب تهدئة تبلغ حد الإغراء لاتخاذ الكسل وظيفة بيتية فيها وبالأخص في الضحى.. ولهذا فإنني أعتقد أن وصف الشاعر لمحبوبته أنها نؤوم الضحى.. كان تعبيراً صادقاً عن حسن صادق.

ومن هنا ـ فإننا إذا أردنا أن نجبر البدوي على الحركة المستمرة لا بد في المستقبل القريب أو البعيد أن نصنع له دوراً عربية الروح لكنها عصرية الطراز تستحثه على النشاط المتصل.. على ألا ننسى كذلك أن نبدل من زيه ولباسه بما لا يخرجه كثيراً عن وجهه العربي الآبد فالقياس في الأثر بين الثوب المبحبح مثلاً وبين البنطلون خمولاً وانطلاقاً مقدر وملحوظ ولما سبق وبدواعي التعب الناشئ عن الرحلة فقد كان أوّل ما زاوله الوالد وتابعته عليه هو النوم في ركنين متقابلين من أركان بيت الجدابي حيث الهدوء والجو البارد بعد اللظى والسموم أيام الحج.

ومع أن الوالد قد منح جسده حرية النوم غير مشروطة.. بدليل أنه على خلاف عادته قد أخذ في شخير متصاعد تدريجياً حتى عم الغرفة.. فإنني قد كنت في حالة المتناوم تغلبني الأفكار والأحلام فأتقلّب ويشتطّ بي الخيال في ترتيب البرامج اليومية والتي سأقوم بتنفيذها للطواف بكلِّ جزءٍ من أجزاء الوادي الأخضر..

وأعتقد أنني منذ تلك اللحظات وما تلاها من أيام سعيدة قضيناها في وادي الأعمق وفي سواه من الأودية المجاورة قد استجبت بكل روحي

ومشاعرها لنداء بلادنا الحلوة التي قالت لي: كُنْ شاعراً تتغنّى من اليوم فصاعداً بغير محاولاتك الشعرية العنترية المدرسية.. ببساطتي وبجمالي وبروحي المبثوثة في كل ما تراه من زرع وحجر، وماء، وطير، وإنسان وديع رقيق رقة جوى.. قاس أحياناً قساوة صخري.. ولسوف أكون لك ومعك في مستقبل زمنا ومرآى.. الطبع والانطباع.. وربما أطعتها وحاولت ما قالته لي تلك المرابع والأيام ما استطعت ـ وإن كنت أجهل مدى التوفيق أو الفشل في محاولاتي الشعرية النابعة من القلب.

ولحصر أفكاري نحو الهدف.. وعلى عكس أسلوبي السبهللي.. فقد أخذت أخطط لبرامجي لأقرر كيف أقضي النهار والليل في ألوان مختلفة ـ وفي أماكن متباينة.. واستطعت قبل أن يغلبني النوم أن أضع الخطوط العريضة كما يسمون أصول البرمجة لكلِّ شيء في هذه الأيام..

وأشهد أن الطبيعة في نفسي وفي ذاتها كانت أقوى ـ كما ظهر فيما بعد ـ من أي برنامج. فقد انطلقت على سجيتي وحسبما تجيء به الظروف والمناسبات الخاصة بي والمشتركة بين الجدابي المضيف.. والوالد الضيف إلا أن الحالة في صورتها العمومية كانت تسير تقريباً في حدود.. صلاة الفجر جماعة مع الوالد وأهل الدار ثم انطلاقي وحيداً إلى البساتين متجولاً فيها.. وقضائي جزءاً من الصباح الباكر ببستان المضيفين جلوس وبالذات لدى البئر أتملى بأجمل اللحظات التي استعرض فيها من قريب ومن بعيد حياة المزارعين يشقّون الأرض.. ويوزِّعون المياه.. ويجنون بعض الخضراوات والأثمار.. وبجانبهم النساء والبنات يساعدنهم في كل شيء.. بل إنهن في واقعهن العملي إنما يقمن بالقسط الأكبر في حياة البيت والبستان اليومية.

ولئلا أكون مغالطاً نفسي في حقيقة شعورها ومرده فإن اختياري للجلوس بجانب البئر بالذات إنما كان لاستجلاء جمال ودلال العذارى يردن الماء.. يملأن القرب ليعدن بها إلى الدور.. والبئر وجواره هو منتدى الفتيات القرويات يتناقلن لديه الأحاديث والأخبار مع لداتهن. وما كان، فإنهن بحكم الفراغ وفوران الشباب وناموس الاجتماع يتبادلنها في توثبات حلوة.. وتعليقات ساخرة.. أو ضاحكة.

وقد أصبحت أنا نقطة ارتكاز هامة في حياة البئر وقاصداته وجه الصبح، باعتباري غريباً عنهن ولدى الغريب دائماً جديد من الأخبار.. والروايات عن بلدان تعرف منهن بالسماع.. ويوماً بعد يوم كنت موضع أسرارهن.. ثم صرت محل معاكستهن المستترة في خفر مباح لا يتعدى القول الرقيق.. والدهشة يبدينها كلما أريتهن جديداً مما لدى من حاجات المدن البدائية كالمرايا التي ترتكز على قاعدتها وحلقات وحبات وعقود الخرز الملوّن.. وبعد أدوات وأمتعة الحضر المعلومة بما فيها الأقلام والمراسم والدفاتر والكتب والكراريس.. ومجموعات الصور والدمى المختلفة.. وكنت قد حملتها في حقيبتي الصغيرة الخاصة لمثل هذه الأيام..

وفي صباح يومٍ من أيام العمر التي لا تنسى.. جاءت مزنة التي حدثني عنها أحمد الجِدابي رفيقي الغلام الحمَّار في سطور شعرية الألفاظ والتعابير.. مشحونة بحرارة الإحساس الفطري الشاب.. جاءت مزنة إلى البئر تحمل قربتها لتملأها.. دون أن تصوّب نظراتها إلى وجه معيّن من وجوه لداتها أو إلى وجه هذا الغريب الوافد.. ومن غير أن تفتح فاها إلا بتحية الصباح في صوت موسيقي لذيذ خافت.. قد تنحّت لها عن الدور

للسقيا من سبقتها فملأت قربتها بخفة وحملتها في رشاقة.. وغابت بها في نشاط..

وما كادت تغيب عن أبصارنا ـ حتى وردت سيرتها نتفاً من هنا.. وهناك.. وأنا أستزيد الشرح واستحث على الإسهاب إلى أن تكاملت صورتها داخل إطار حياتها المستقلة.. ولقد رجعت يومها مبكراً للدار بنفس ما يشبه الزلزال فعلاً.. فقد سرت بدمائي حرارة مستحبة.. وفي قلبي وجيب جديد.. وبجسمي خدر حلو.. ولم يفارق عيني منظرها.. منظر مزنة.. هذه التي قال عنها أحمد الجدابي أنها الزهرة البرية الأولى في وادينا.. وادي الأعمق..

(١٦)
آباء وأبناء

إن مزنة نادرة حقاً.. لا يمكنك أن تصفها بما تصف به الآدميات من حيث السن والوصف والمقاسات والطول والعرض المتبعة والمرعية كأساسات أولية حتى في مسابقات الجمال..

إنها تبهرك جملة.. وفي الجملة تفصيلاتها تأخذ ببصرك فتستديمه لديها.. فيديم النظر دون المام تعريفي محدد.. ما أن وصلت المربعة ـ أي الدار ـ حتى كنت أردد دون وعي مني مع ابن الرومي بعض أبياته في وحيد.. وحيد المغنية:

يا خليليّ تيمتني وحيد ... ففؤادي بها معنّى عميد

طفلة زانها من الغض قد ... ومن الظبي مقلتان وجيد

ليت شعري إذا أدام إليها ... كرة الطرف مبدء ومعيد

أهي شيء لا تسأم العين منها ... أم لها كل ساعة تجديد

وجهول بحسنها قال صفها ... قلت أمران هين وشديد

يسهل القول أنها أحسن ... الأشياء طرا.. ويصعب التحديد

❊ ❊ ❊

لقد عرفت أن مزنة تعيش مع أمها وجدتها لأبيها ومع أخيها الصغير مرزوق.. وأن مورد حياة هذه العائلة بجانب ثمرة البستان الصغير البعيد عن مسكنها بالوادي.. إيجار المنزل الذي خلفه جد مزنة في مدينة الطائف قريباً من قهوة القزاز المشهورة وبيت آخر موقوف على العائلة في المعلاة.. في مكة.. وكان جدها أحد كبار الأشراف في أيامه.. وأنها تقرأ وتكتب.. وهذا الوصف بالنسبة لي كان أهم الأوصاف.. إذ اعتبرته نوعاً وثيقاً من صلة القرابة الفكرية بيني وبينها فيما قدرت.. وأنها تحاول مع قيامها بتعليم أخيها وبعض الصبية من جيرانها ببث نوع جديد على القرية من التطلّع لما وراء حدود الوادي بين أترابها بما تشيع في جلساتها الخاصة الرائفة من أفكار وأحلام.. وكانت لها رغم هذا حكاية غرام.. قصتها عليّ سليمة غير مشوهة، ذات يوم بعد أن ربطت بيننا مناسبة عابرة.. جاءت صدفة من الصدف الحلوة مما أكد لي من وقت مبكر.. ميزة الصدف في حياة بني الإنسان بل والأسرة الحيوانية بكاملها؛ حتى علمت بالقراءة والسماع فيما بعد أن معظم حوادث اكتشاف الجرائم والسرقات ـ مثلاً ـ إنما يتم بصدفة معيّنة في أغلب الحالات.

فبخروجي في اليوم الثاني من الدار الجدابية بعد صلاة الفجر.. صادف أن رأيت على خلاف عادتي أن أجعل نزولي إلى البساتين فالبئر ظهر الدار التي تنزلها بدلاً من دربها المطروق أمام واجهتها حيث يقع الباب فالحوش الكبير. ولم أكد أصل إلى ظهر البيت حتى تبينت لي خلفه مربعة صغيرة حلوة ورشيقة.. حلاوة ورشاقة ساكنتها ـ مزنة ـ مزنة التي كانت ذلك الوقت نفسه تتخذ طريقها المغاير لجادتي اليومية إلى بستانها. ولا أدري كيف نطقت بتحية الصباح التي أجابتني عليها برقة وباعتداد وفصاحة والتي ربطت بيننا الحديث والتعارف فالاصطحاب ـ ذلك اليوم.. والأيام

التالية شخصياً.. وفيما تلاها من أيام.. فكرياً.. ودون انقطاع عن التفكير فيها.. تقريباً.. وبما أن لمزنة معي قصة أخرى غير قصة الجبل الذي صار سهلاً.. كما أنني لا زلت احترم غرامي الأول رغم احتفاظي به في قلبي، وفي كراسة صغيرة ذات غلاف وردي جمل.. فإنني أحتفظ به ذكرى خاصة.. غير مبعثرة الأسرار ترد عرضاً في سرد حكاية غير حكايته مستقلاً بها بالذات. واستمراراً للسير في خطنا الأصلي العريض.. فقد فرحت جداً حين قرر الوالد ـ ثاني يوم ـ لوصولنا أن تمتد إقامتنا بالوادي بعد أصر على ترتيب قيامنا بجلب كذا.. وكذا من الميرة من الطائف ـ وشراء ـ كذا وكذا من الوادي نفسه ـ وكذا ـ من الطائف هما الأرز والعدس.. والسكر.. والبن.. والتوابع.. كذا من الوادي مع خراف متوسطة العمر.. والحجم.. وتيس.. صغير السن.. ووافق الجدابيان وأهلهما على ذلك.. وعلى استقلالنا في مربعة صغيرة متصلة منفصلة بدارهما وبحوشه الكبير.. وكان هناك شرط واحد هو حضورنا الحفلة الليلية التي ستقام ليلة الجمعة بالوادي فرحة بالعائدين باعتبارنا ضيفي الشرف فيها.. فكان لهما ذلك. وقبل أن نحضرها لا مناص من القيام بقفزة باراشوتية سريعة ترتبط دواعي سردها بالسر في قرار الوالد مدة إقامتنا بالوادي.. وتتلخّص تلك الدواعي حسب أهمية حيثياتها في الآتي:

أ ـ شعوره بالاستفادة الصحية من البقاء هناك.. لكلينا..

ب ـ ترحيبي الحار بتخصيص وقت طويل نوعاً ما لتسميع القرآن له فهو أحد الحفظة المجيدين والذين لا ينفكون لترسيخ الحفظ يعيدون تلاوته يومياً.

جـ ـ مع استعدادي لإعادة الحفظ.. من جديد.. بحفظه عليه.. بواسطة تلاوة ما تيسر منه.

د ـ إحساسه برغبتي في البقاء بالوادي أطول وقتٍ ممكن.

هـ ـ صلة الأبوة والبنوة القوية والمجرّدة من أي غرض مادي بالنسبة لأجيالنا السابقة.

وأتعشم ألا يعتبر ما ورد في البند الخامس من هذه الحيثيات تعريضاً بالجيل الصاعد اليوم وتجريحاً لمركز قداسة الأبوة في نفوس أبنائه كما تفهمها أجيال الأمس.. وإن أكد الواقع في قسوة أن ارتباط الأبناء بآبائهم اليوم إنما يرتبط بحكم مادية العصر بسلسلة مادية بحتة.. وإن كنا نحافظ على تغليفها بورق من السلوفان الناصع وربطة حريرية ناعمة خشية اهتزاز رابطة الأبوة والبنوة.. فأصبحت الصلة.. فالحب بمقدار ما يعطي الوالد للولد.. سيارة.. أو بدلات جديدة.. أو رواتب مُدرِّسين خصوصين ومصاريف جيب شهرية ـ أو.. أو ـ إلى آخر القائمة الطويلة البنود والباهظة التكاليف..

وأعتقد من جديد.. أن بدعة تغرب الأولاد خارج الديار.. لطلب العلم العصري.. قد خفف من أواصر الحب.. العذري..! لأن البعيد عن العين.. بعيد عن القلب كما يقول مثلنا الشعبي العتيد.. وأن الأب الآن قد أضحى بالنسبة لولده وفي نظره.. أمين صندوق العائلة.. ونكتفي بهذه الهمهمة.. في سطورها الرمزية القصيرة.. للإشارة إلى علاقة الأب المادية بأبنائه من أبناء الأجيال الصاعدة اليوم للتفرقة بين من كانوا يشاركون آباءهم المسؤولية من سن مبكر.. ومن أصبحوا يعتمدون عليهم حتى بعد أن تطر شواربهم.. ويغطّي الشعر عوارضهم.. مع استمرارهم على النداء التقليدي الحديث والمحبب في أسماع والديهم بالكلمة السحرية "بابا!" يرخون بها الأعصاب.. ويدغدغون بحلاوتها الإحساس.. فإذا كل شيء في سبيلهم من والديهم لهم يخف.. ويهون..

(١٧)
الرقصة خليطي والعشوة سليق

ونعود لما كنا في سبيله.. ففي ليلة الجمعة ـ كان موعد الحفلة الجماعية التي انتظرها الكل والتي تقام عقب كل موسم حج ـ في الوادي ـ عُقب أوبة شبابه من مكة، منى، وعرفات، وبعد قيامهم بأعمالهم الموسمية، وأبرزها.. يا رويكب.. يتكسبون بها ومنها ما يكفي لشراء الكسوة، والحلى الرخيصة الأثمان، والفريحة لأهاليهم..

وفي الميعاد ـ بعد صلاة العشاء ـ جئت إلى مقرها مع الوالد ـ كضيفي شرف ـ حيث رحب بنا الحاضرون ترحيباً حاراً.. صادق الفرحة في تعابيره.. وفي إحلالنا مكان الصدارة من المجلس الطويل الحاشد.. وكانت ليلة عمر حلو زاخر بالمعاني.. وبالذكريات لا تمحوها.. ولم تمحها الليالي الكثيرة التالية في الحياة المقبلة.. رغم تميّز تلك الليلة الأعمقية بالبساطة والفطرية ـ وحفول ما تلاها بالبدائع، وبالروائح تجلوها القدرة المالية.. ويطرّزها الفن المدرسي، وتضفي عليها الحضارة طابعاً.. كلحن مميز.. ممتاز!

وابتدأ السمر بالقهوة ـ وبالشاي ـ يدوران بنظام، وبحساب، وبطابع خاص.. تتلوها الفريحة من حمص، ولوز، وفشار، وحلوى، في أطباق

ـ تباسي ـ تتناولها الجماعات في أناة وصبر تتخلَّلهما من الأحاديث.. حكايات، وقصص، وروايات.. حتى ابتدأ الهزج.. والضرب على الدفوف، فالرقص التقليدي تتراوح رقصاته الحلوة البديعة بين الحماس.. والدلال.. والانسجام، والاندماج، وكان أبرز ما لفت نظري، وملأ مجامع قلبي، حتى ثبتت ذكراه بذاكرتي حتى الآن من صور رقصات تلك الليلة رقصة (الخليطي).. وابتدأت هكذا:

اصطفت جماعة من شباب الوادي صفاً طويلاً على جانب من جوانب المجلس بالقاعة الطويلة الفسيحة.. كما اصطفت قبالهم جماعة من الفتيات الملثمات ـ اللثام أشد إغراء من السفور. وقد قام منفرداً على رأس طابور الشبان فتى بارز الوسامة؛ حلو القسمات واللفتات، كما قامت منفردة على صف العذارى فتاة لاح مما لاح فوق لثامها ما يؤكد حسنها.. وجمالها الفائق وعودها اللدن الممشوق.

وافتتحت الجماعة الرقصة الأهازيج.. ثم تلاها الشاب المنفرد بارتجال بعض الأبيات من الشعر الحميني الرقيق.. تجيبه على كل قطعة منه بنفس البحر والروي الفتاة المنفردة في ذات الموضوع.. وتتلوها الجماعة بترديد المقاطع.. يكررها الصفان من الشباب والشابات.. كلازمة مطردة.. في توافق.. وفي تناسق جماعي مضبوط.. أخاذ حتى إذا جاء دور الرقص طبيعياً بعد أن رجفت القلوب وحميت الدماء.. ودبدبت الأقدام فوق الأرض منسجمة مع دقات الدفوف.. ونقراتها المميزة.. تداخل الصفان.. دون التحام.. في إقبال وإدبار، حيث تنسل كل فتاة من الفرجة المقدرة لها بميزان وبحساب بين كل شابين.. وهكذا الحال بالنسبة لكل شاب بين كل فتاتين.. في صف الفتيات..

وكانت رقصة الخليطي الجميلة.. لا تستطيع الألفاظ الواصفة المصورة حلاوتها، لا تتم إلاّ برؤيتها والتمتّع بها مشهداً وحساً.. ووجوداً.. خاتمة الرقصات.. دارت علينا في أعقابها من جديد أكواب القهوة والشاي.. دون تباسي الفريحة لقرب ميعاد العشاء..

وجاء بعد فترة حلوة تخللها التعقيب والتعليق على ما كان.. دور الطعام.. وكانت الأكلة عربية شهية.. هي (العربي.. المعروف أيضاً باسم السليق) ولوديان الطائف وضواحيه شهرة ذائعة الأصل في جودته وإتقانه.. كما كان له بها كلها تقليده المتبع المنطوي على كثير من المضامين والمعاني.. فعندما يمد السماط.. وتوضع تباسي الرز في نظام ومقاس محسوبين بالنظر إلى المائدة وتقسيماتها يبدأ المضيف بعد ذلك مناسبة الدعوة عملية تقسيم اللحم على الآكلين حتى يكون لكلٍّ شخصٍ قسمه المحدد منه ويصطفى الضيوف الأوائل بالطيبات منه.. وتلك طريقة عربية الأرومة فيما قبل غربية المحاكاة الأسلوبية فيما بعد في المطعم الأوروبي الحديث، حيث لكل فرد طبقه الخاص ونصيبه المعلوم من طلبه..

ولعلَّ ميزة الطريقة على أساس استقلال كل طاعم بنصيبه.. إنها تحث حثاً عملياً على آداب الأكل.. فلا ينظر من كانت عادته في تناول وجبته التأنّي وإجادة المضغ باطمئنانه على نصيبه إلى لقمات أو لقيمات سواه التي يسبقه في تناولها خطفاً متواصلاً.. كما أنه لا يخشى حومة ذلك السباق القتال عندما تجمعه الصدفة وسوء حظه في صدور هذا النظام بأبطال السباق اليدوي والبلعي السريع الازدراد المتواصل! فيضيع ضياع الأيتام في مائدة اللئام..

وبدون إسهاب.. أو تعرض للتفاصيل التالية.. فقد انتهت تلك الليلة الساحرة لتكون في صورتها الدائمة بنفسي وبخاطري محسوبة علينا من ليالي العمر ـ فعلاً ـ دون خطأ في حسابها كذلك، أو تساهل في عدد أرقام أيامنا فيه ـ كما أنها ليست جبر كسر لما فاتنا ويفوتنا في حياتنا.. لغة في القناعة.. وأسلوباً في العزاء المعتاد..

ومجرّد ورود كلمة القناعة بارزة المضمون في سطرها السالف يستدعيني تحديد مركزي منها منذ صباي فأنا.. من يومي.. في الميدان الفني.. ومجالاته شره إلى حدٍّ كبير.. مسرف في استيعاب قسمي فرصة يهتز لها وجداني.. وتضطرب مصطرعة فيها روحي مع دوافعها ودواعيها.. فإذا أعجبني شعر شاعر حفظت ديوانه من الجلدة للجلدة كما كنا نقول.. وإذا استهدفت مطلباً لا أتوانى دونه كأني أحد أفراد معركة السلاسل أمامه.. وإذا استعذبت مجلس حديث فن ـ أو بحث ـ أو طرب كنت آخر المشبشرين له.. وفيه.. ولقد كانت لي في صدر شبابي وشباب الأخ الأستاذ حمزة شحاته ليالي نبتدئها من نهارها بملاحاة سقراطية أو أفلاطونية.. أو سفسطائية؛ وهو من أقدر الناس على خلقها والإدمان عليها ـ فلا تنتهي إلاّ في مشارف الفجر.. وضواحي النهار التالي، كما أننا حينما كنا نتقابل أمام صديقنا المرحوم الأفندي أبدو! ـ على رقعة الشطرنج لا نفارقها إلا بتهديد من ربة البيت.. بالاستنجاد بمركز الشرطة القريب من الدار.. ليذهب أحدنا مكرها إلى داره.. وهكذا.. كذلك ـ فيما عدا ذلك ـ ومعذرة لتكرر هذه الذالات المؤكِّدة شره الطبع الفني ـ في طبيعتي من صباي.. حتى بالنسبة لاستعمال أسماء الإشارة..

وللتاريخ الأدبي.. فقد بلغ بي الأمر في مستقبل أيامي أن سجلت رأيي.. كمظهر للحرد المتواصل من الجملة المتواصلة السرد على الأفواه ـ القناعة كنزٌ لا يفنى ـ في كتابي ـ المطبوع ـ كما رأيتها ـ وديواني قالوا وقلت المخطوط منذ ربع قرن غير مكسور.. في هذه الرباعية الشعرية الناصعة البياض:

قالوا: القناعة كنز قد طاب في النفس.. غرسا
أغلى الحياة ـ وأزجى بها السعادة.. همسا
فقلت: هذا عزاء يدسه آلضعف.. دسا
ما كل من كان يرضى بأن يكون.. الأخسا!!

(١٨)
الشيخ عوده
أوده . . أوده

وهكذا. . فأنا لم أقنع ليلة الخليطي. . كما سميتها فيما بعد بما كان فيها. . وقد نبض شبابي وفار بهمهمات السمر. . ودمدمات الرقص العربي الساحر. . فقد حرّضني رفيق الضرب وسميي ـ أحمد الجدابي المكاري الصغير بأن أستأذن من أبي لأبقى معهم هم جماعة الشباب بعد انصراف الكبار لأستمع إلى دنيا الأسرار الشابة. . وقد كان. . فبقيت لأروي خيالي بما سمعته من قصص إنساني بعضها ما كنت حديث عهد بقراءته في روايات الجيب يقص واحدة منها شاب من هنا. . وثانية شابة من هناك. . حتى إذا تدلّت لنا خيوط الفجر لملمناها بأجفاننا في خدر لذيذ أسلمنا نعاسه بعد صلاة الفجر، إلى نوم عميق. . بعد أن اكتشفت أن هذا الشاب ابن الجبل ووادي الأعمق محدث لبق ساحر. . وشاعر فطري. . وكازانوفا يشار إليه بين لداته بالبنان. . فزادت الصفات الجديدة من توثيق الصلة بيني وبينه. وكما توثقت أواصر الزمالة والصداقة بيني وبين أحمد الجدابي الصغير. . فقد توثّقت الصلة في الأيام التالية وفي الوادي نفسه بيني وبين

أكبر رجاله.. وهو الشيخ (عودة) فأصبحت أدمن الجلوس إلى هذا الشيخ أسمع منه عن ماضي عشيرته ـ وعن حاضرها ـ يروي فيصور ناطقة معبّرة عن سلوك ممثّلي السلطة البائدة من الأتراك ما يضحك ويذهل..وهي كثيرة معروفة في حينها للبوادي والحواضر.. وقد زالت بكل ما فيها.. من خير أو من شر.. وكان الشيخ عودة.. كثيراً ما يذكر مزاياهم بصدق وإخلاص ـ كما يتفكه بما عداها في فطنة وإدراك.

وكان راوية فناناً أصيلاً.. فقياس الفنان في نظري قدرته على التقاط الصورة ـ الصورة التي تليق وحدها بأن تكون قاعدة رواية.. أو مادة حديث.. أو أساس عمل فني رائع.. أما حين يتناول سير بعض الأتراك ـ سيرة الأشراف فقد لاحظت جفاف حلقة لدى سرد بعض معاملاتهم للوادي وأهله، بعد أن تحمرّ عيناه غيظاً وتغيم نظراته أسفاً، وتنتصب سبابته في الهواء تهديداً لأشباح تطارده ذكريات أهليها الذين زالوا عن دنياه. فيكون كطاعن دنكشوتي في الهواء.. وقد فاتته المعركة ذاتها.. فاستعادها خيالاً.. واجتراراً لما حفل به ماضيها.. مرضياً بما يعرب فيها يعرب عنه غريزة الخيلاء اليدوية ـ ألفت رؤية السراب.. الفتها رؤية المناهل والغدران.

ويبلغ الشيخ عوده من العمر الثمانين ـ تقريباً ـ فهو في ضواحيها القريبة بالتأكيد كما يظهر من تواريخ أحاديثه وحوادثها.. يؤرّخ بها ميلاده على وجه التقريب وليستعرض بعدها صباه.. ويفاعته وشبابه.. حياة حلوة حارة.. تهبه الحماسة والتدفق والانطلاق. حتى تنتهي به إلى التأوه متأففاً من كهولته.. كارهاً شيخوخته تمشي الهوينى في بطء.. وجمود وفراغ نفسي قاتل.

وأشهد أن تأففه العابر.. لا يطول.. لم يكن من ذلك النوع الذي

عناه أبو الطيب المتنبي في بيته المعروف:

وإذا الشيخ قال أف.. فما مـ ـل حياة وإنما الضعف ملا

وأؤكّد أن الشيخ عوده كان يعيشها ـ الحياة ـ بالطول وبالعرض دون حدود مرسومة لها.. حتى وإن كانت حياة تتناسب ومساحة الوادي نفسه بدليل أنه في هذه السن كان قد أعرس منذ شهور قليلة بزوجته الشابة زينة التي كان يتخذ كفنان بارع من شبابها مادة فكاهة وسخرية وتمثيل حين يقارن بينها ـ جديدة ـ وبين زوجته القديمة ـ في كل شيء؛ في النطق؛ في المشي؛ في النظرات.

وأغرب ما في أمره حينذاك ـ أنه يقرر في حسم وتأكيد أنه لم يخل قط بواجباته الزوجية والعائلية المتسلسلة الأداء حتى أيام أحاديثه المكشوفة معي.. وإن جاءت تلك الأحاديث في هيئات رموز.. واستعارات.. وكنايات بارعة.

وإياك.. وأن تتعرض بصفة خاصة لرجولة الشيخ عودة في هذا الميدان الجنسي.. فهو يؤكِّد لك بكل اهتزازات جسمه وانتفاضات شعرات لحيته أنه لم يزل فتى في هذا الميدان.. فتاه الحريص جداً أن يكونه حتى آخر قطرات حياته.. مما كان يدفعه تعزيزاً لما يدعى أن يتبسط في أحاديثه الخاصة معي بما قد لا يقال، أو لا يليق على الأصح أن يقال.. مما جعلني بما يشرح ويفعل أعتبره حينذاك ـ واعده فيما بعد ـ أحد كبار أدب الفراش كما يسمّى العقاد رواة ذلك النوع من الحديث، والرواية.. والأقاصيص..

ولقد علّمني هذا الشيخ من وقت مبكر أن من كبريات دعامات

الحياة في الحياة الجنس ازّا عليها، وسعياً في مناكبها ـ ومهمازاً للرجل في كل تصرفاته الواضحة والخفية..

ومن الغريب أن يحتفظ الشيخ عودة رغم الثمانين عاماً.. أو ضواحيها.. بكامل أسنانه، وجميع رباعياته وأنيابه.. بيضاء ناصعة البياض بفعل السواك كما يقول.. فهو يقتني له مجموعة أنيقة من أعواد الأراك الرفيعة المهذبة يعتني برؤوسها المخمخة، عناية شباب هذا الجيل برؤوسهم في تواليتاتها المتنوعة التنسيق.. ومع نصاعة تلك الأسنان والأنياب فإنها قوية راسخة بفضل تناول اللحم نهشاً ومضغاً ومعاناة.. لا ينقطع عنه داعياً.. أو مدعواً.. لتناوله.. أو منفرداً وحده.. كما يروى.. بخيال طلي ـ رضيع.. يتسلّى بلحمه الطري تصبيرة الوجبتين الأساسيتين ـ يوم يعتكف في بيت الجديدة كما يسمي زوجته الأخيرة الشابة..

ولقد تذكّرت بعد أعوام طويلة أسنان الشيخ عودة وعامل بقائها كذلك ذات ليلة في جنيف حيث كنت مع أخي الصديق عمر عبد ربه رفيقي في الرحلة لسويسرا.. في عام غير بعيد بأحد أماكن السمر المحترم بها.. وكان جيراننا بالمائدة ثلاث نسوة من اللاتي تسمّى الواحدة منهن ـ نصفاً ـ ولما كان الصديق مشهوراً في ضحكه بقهقهاته المدوية التي لم يستلفت نظرهن منها إلا أنها عامل مباشر في إبراز أسنانه البيضاء الناصعة تشبه في بياضها شعر رأسه المبكر البياض.. فإنهن لم يطقن السكوت فقد بادرت إحداهن نائبة عن زميلتيها بسؤاله عما إذا كانت أسنانه طبيعية أم تركيبة؟ فأجابها بأنها طبيعية طبعاً وإن شاءت الوثوق منها فما عليها إلا أن تضع أصابعها فيما بينها.. وبالاستعلام عن السر في بقائها على حالتها شرحنا لهن أننا من أبناء الشيخ عودة.. في بلادنا.. التي أكل أبناؤها

اللحم نتشاً.. ومشقاً.. ومضغاً.. ومعاناة..

وبامتداد الحديث ـ بواسطة مترجمتنا الكهلة ـ في تلك الليلة مع جاراتنا غير الحسناوات فقد اكتشفنا أن معظم الغربيات والغربيين.. وكل الأمريكيين ـ من قبلهم ـ والأمريكيات ذوو أسنان تركيبة.. بل أن كثيراً من شاباتهن يخلعن جميع الأسنان الطبيعية لعمل ـ طقم من البلاستيك ـ مزروعاً، أو تركيبه.

(١٩)
عسل وشعر ومطر

ووصلاً لما انقطع من حديث، فإن على العودة من جنيف ـ للشيخ عودة في وادي الأعمق.. لأقول أن للشيخ مع ما ذكرت في جلسته اليومية بين أولاده.. وأحفاده.. سمتاً.. وجلالاً ومهابة.. يضفي عليهم وعليه الحنان الطبيعي الصادق رقة إنسانية نادرة.. حباً فطرياً نابعاً من قلبه الكبير.. وهو يسمّي هذا الحنان والحب لعائلته ولأهله بواديه الحبل الدموي اللحمي الدقيق يربط بين الكل وثيقاً كلّما أكثروا التحلق حوله.. لتشيع بينهم يومياً وفي كل ساعة ودقيقة من تلك الاجتماعات الألفة والمحبة.. تخلقها وتؤرثها الرؤية والاختلاط.. والاجتماع.. والمشاركة المستمرة في الأحاديث الخاصة والعامة كل ليلة.. وفي كل يوم.. وبإيجاز.. فإن من رأي الشيخ أن دوام الاجتماع بالأهل، وبأفراد العائلة، من الأولاد والأحفاد سبب وقوة لدوام المحبة كما هو وسيلة ورسوخ لأواصرها بما تشتمل عليه من ألفة وامتزاج وتطويق مستمر بالذكريات الصغيرة، والكبيرة المتصلة الحلقات ـ وعلى العكس ـ فالبعيد عن العين بعيد عن القلب..

وفي ضحى يوم.. من أيام الوادي الأخضر الجميل.. أصرّ علينا

الشيخ عودة، بعد أن حضر من بستانه إلى مكان نزولنا ـ الوالد وأنا ـ ليرينا.. منحلته.. فهو حفي بها؛ وهي ذات نتاج وفير من عسل أبيض بشمعه.. وأنه لعسل مشهور في واديه وفي كل الأودية القريبة والبعيدة ولدى تجار مكة والطائف، حيث كان عسل النحل الشمعي الأبيض مطلب الطاعمين الذواقين في كل المدن.. عادة درج عليها الناس في وجبة الفطور.. أصلاً.. ومع بعض وجبات الغذاء.. كالندى.. والسلات.. وهو ـ العسل ـ مصدر رزق كذلك لتاجره.. كما أنه مبعث قوة.. وسلامة بدن لمتعاطيه مواظباً عليه تالياً أبداً ما ورد عنه بالقرآن الكريم "فيه شفاء للناس".

ولقد أجبنا دعوة الشيخ عودة، فذهبنا معه بعد تناوله القهوة لدينا حتى إذا وصلنا بستانه الجميل.. بما حوى من شجر وثمر وركبان زمردية وقدّمت لنا القهوة عربية ذات نكهة وطعم فريد قادنا إلى المنحلة التي غصت بأسراب النحل.. ورتبت ترتيباً بدائي الصنع إلاّ أنه كان واف بالموضوع.. وتناول الشيخ كل شيء بالشرح من النحلة العادية إلى اليعسوب. كأنما هي أفراد أمة هادئة مطمئنة قانعة يسعى أفرادها مؤتمرين بأمر قائدها كل في عمله المفصل من قبل الشيخ عوده.. حتى الزهرات وأنواعها وصف صلتها بالنحل امتصاصاً ورشفاً كطعام سائغ لأسرابه.. ثم عقب على بيتها مقاماً ومثوى إنتاج وفير.. وأسهب شارحاً كل ذلك في بيان وذلاقة الخبير الدارس فطرة وممارسة لما كان بشأنه وشأن التعريف عنه.

وأخيراً تكرّم علينا.. فأهدانا قطعات شمعية من منحله وقد استقر العسل داخلها في بيوته الهندسية تتجاور في صنع وتركيب تعجز الأيدي

الماهرة في عمل الدانتلا عن محاكاته لإبرازها تحفاً ممتازة.. فسبَّحنا وكبرَّنا بجلال الخالق الأعظم يهب مخلوقاته من بشر وحيوانات وطيور وهوام وحشرات وجماد بعض أسرار صنعه وخلقه.. دروباً قصيرة إلى معرفته.. بآياته.. جلّ وعلا.. في ملكوته الأسمى.

وما أن انتهينا من زيارة المنحلة حتى غام الوادي.. ثم انسكب الغيث في خيوط من ماء.. وحبات من برد شاهدناهما من كوة من دار الشيخ.. صورة من فرح الطبيعة ومن مهرجانها الحافل الراقص بأشجاره.. والضاحك بأوراده وبأزهاره.. وكأنما جاء المطر تزكية لدعوة الشيخ عوده الذي بلغ به السرور مداه فأقسم وأصرّ أن يكون غداؤنا في بيته.. وتحت عريش العنب بعد أن يصبح دفق السماء رذاذاً منثوراً وقد كان له.. ولنا.. ذلك.. فالمطر في البساتين عيد ـ وأي عيد.

ولن أنسى ذلك المنظر الخلاّب في يومنا الساحر.. وقد دبّت حلاوته في نفسي واستقرّت في جذورها حتى جاء يوم جديد من أيام مستقبلي المجهول فإذا المناسبة العابرة فيه تبعث في خاطري تلك الصورة القديمة المختزنة فيه جديدة مكرّرة في قطعة شعرية من موضوع قصيدة ذات كيان مستقل بها حيث أقول:

واستبان الغمام واستطبنا المقام	تحت سقف العريش
ترمق الماء.. والنسيم	في الجنان..
عانقا الخلد ـ مستديم	يلعبان..
في اصطفاق وفي خفر!	والنغارى.. تجوب
والقمارى.. تلوب	بين خفق.. يذوب
في ثغاء القطيع	ما انقضى.. ماونى.. ما فتر!

والـحـدادي. تـدور والـقـطـا والـصـقـور
حـول بـاب.. وسـور واسـتـكـن الـجـمـيـع
خلف غصن.. ورا حجر!

وهكذا ـ فكأنما كان ذلك اليوم الشعري في بهجته.. وأنسه.. ومرائيه.. حفلة وداع طبيعية لإقامتنا التي طالت.. وإن مرّت بنا من الطيوف.. بوادي الأعمق.. وادي الجمال.. والخضرة.. والحب.. في نفس شاب عانقه طويلاً وتنسم شذاه ملياً.. فامتزج به كل ما فيه.. هوى.. وذكريات.. وامتداد خيال.. وحياة.

(٢٠)

يا من شاف الولد الضائع

وكذلك.. فإنني لن أنسى ما حييت ليلتنا الأخيرة الحلوة في الدار.. وفوق قمة الجبل.. فإننا بعودتنا بعد ذلك اليوم الشعري ببستان الشيخ عوده وجدنا الجدابين وجيرتهما ـ بما فيهم مزنة صاحبة القصة المؤدة.. وقد لبثوا في انتظار عودتنا ليفاجئونا بأكلة طريفة، وظريفة.. أرى تسجيلها رغم مجافاة الذوق العصري اليوم لسماعها حديثاً غير جائز.. أو لقبولها واقعاً غير جائز الحدوث في دنيا الأكلات.. إنها أكلة الجراد المشوي..

وتستدعيني الأمانة التاريخية ـ كما يقول بعضهم ـ أن أقوم باستطرادة قصيرة من استطراداتي المألوفة هنا ـ والمشروطة على القارئ من بداية الأمر.. فقد كان الناس قديماً في بلادنا وفي أيام الأمطار خاصة.. يأكلون الجراد مشوياً.. أو مقلياً.. تتولى ربات البيوت شيه أو قليه بالسمن البري قلياً فنياً خاصاً.. ليوضع بعد ذلك في أطباق ـ صحون أو تباسي صغيرة ـ تحف بها أحقاق الدقة المكوّنة من الفلفل الأسود والكمون والملح والقليل من الحبق أو النعناع ـ ليبتدئ الطاعمون تناوله.. حبه بحبه.. في تلمظ ولذة وسباق.. تماماً كما هو الحال بالنسبة لآكلي

الضفادع اليوم في أرقى البلدان الأوروبية..

وربما كان أكلنا للجراد نوعاً من محاربته.. سلاحاً جمع بين الأقتيات به.. والقضاء عليه.. كما أننا بتناوله إنما نتناول وجبة مركّزة من المزروعات خضراوات وفواكه.. أما اليوم فلن يمدّ إنسان يده إليه بعد أن أصبح مسموماً بما يرشّ عليه من هذه المبيدات السامة له.. ولعلّ بعض سكان البوادي في أي صقع صحراوي ما يزالون مواظبين على عادة بادت.. غذاء ميسوراً في بعض الحالات يعز فيها الغذاء الميسور.. لتمتد العادة بحيزها الضيق تخليداً لقانون الوراثة المتداول.. والدائم.. وبعد.. فلقد بتنا ليلتنا ـ بعد أكلة الجراد ـ على أهبة السفر.. في جو حالم شاعر.. راقص.. تحلو أوقاته الأخيرة حلاوة الثمالة تختصر اللذة السابقة كلها في قطره..

وفي فجر اليوم التالي.. ناعساً في عيون الراحلين والمودعين.. خافقاً باضطراب وعنف في قلب يافع حساس سأل والده الطيب يوماً ما أن يقعد ما قصد ليرى ما يرى ـ ابتدأ الركب من الوالد ومني ومن الجدابين أشباحاً أربعة يتجه لطريقه في تمهل.. وكلال.. وتلفت معبّر كان إنما هو الذي عناه القائل:

وتلفتت عيني.. فمذ خفيت عني الطلول.. تلفت القلب

ولقد كانت تلك لي بالذات حالتي وحقيقة مشاعري.. نحو ما تركت.. مشدوداً إليه.. أسير بخطى ثقيلة.. وأنا أتمثل فعلاً.. لا تصوراً.. بقول الشاعر:

وسرت وسيري خطوة.. والتفاتة إلى فائت مني أرجى ارتجاعه

وإني لأحس أن الجبل قد أصبح جزءاً من روحي.. بهامته المرتفعة.. بوديانه المنبسطة.. بكل جزئياته ومن وما فيه.

ورجوعاً إلى أسلوبنا الحر غير الملتزم في الحكاية عن الجبل الذي صار سهلاً. أرجو أن أطوي تفاصيل بقية الرحلة البسيطة المتواضعة قضينا أوقاتها بين الوديان الأخرى مروراً بها وبمدينة الطائف ذاتها إقامة.. لأعود فجر يوم رائق إلى هامة الجبل تمهيداً للعودة..

وفي نفسي الآن حنين لأن نقص بقية الرحلة إشباعاً لنهم ـ وإرواء لغليل قديم ـ حديث ـ لولا أنني في حكايتي هذه إنما استهدف الجبل وحده ـ نقطة ارتكاز ـ ودوران ـ وبداية للرواية وختاماً لها، دون شريك له ناء عنه، محافظة على السر بيني وبينه ـ ووفاء له بما وعدته في مدى سحيق غابر أن أسجل عنه أثره في نفسي.

ويطل علينا يوم ضاحك.. حين أتيناه في أعقاب رحلتنا البعيدة عنه.. بمقياس المسافة والأماكن نمشي الهوينا حيناً.. ونستحث الحمير أحياناً في الصباح الباسم.. بطلوع الشمس الذهبية الأردية والألوان.

ولا زلت أذكر الإشارة الصادرة للركب من الجدابي الكبير وقد وقفنا جميعاً فوق قمة الجبل تمهيداً للانحدار إلى قلبه.. فقد أومأ إلينا.. أن قفوا.. لتروا في السماء البعيدة من الأفق النائي هذه الظلة الكثيفة.. مفسِّراً لنا إياها.. إنها الندى فوق البحر وعلى صدر مدينتكم ـ جدّة ـ أم البحر.. والنافذة المطلّة على العالم الخارجي تصدر منها وتعود إليها هذه البيوت المائية التي تسمونها ـ البوابير! تحمل لكم ولنا ـ كما قلت أيها الورع الصغير مشيراً إلى ـ مع الخير والزاد ـ الخبر.. والصحيفة والكتاب ميرة للفكرة.. يرتقبها القارئ منكم على أحر من الجمر.

وكنت فعلاً قد حدثت الجدابين وسواهما بالوادي ضمن ما تحدّثت به وعنه ـ أنني وزملائي أبناء مدرسة الفلاح بجدة وأساتذتهم كنا نرتقب تلك الجرائد والكتب والروايات التي أحمل قسماً منها وقرأت بعض ما فيها.. بلهفة وشوق.. وظمأ.. شأننا في ذلك شأن الأساتيذ والتلاميذ والقراء في بقية أمهات الحواضر والبوادي من أبناء هذه المملكة العربية السعودية.. وبالأخص في الحجاز.. آنذاك..

فقد كنا والحق يقال نعيش تلك الأيام في منطقة فراغ داخلي غير منكور حتى لقد بلغ من هول ذلك الفراغ القاتل أن كنا نستعير الشعور.. ونستلف الأحاسيس من جيراننا.. فقد كان بين البلد الواحد الوفدي.. والحر الدستوري.. مثلاً والحليفي.. والنازي فيما بعد..

ولما كانت البواخر وحدها صلة الوصل بين الداخل الفارغ والخارج المكتظ فإن الناس كلهم كانوا ينتظرون قدومها بفارغ الصبر لذلك ولأسباب أخرى كثيرة أهمها الأرزاق ـ والأقمشة ـ والبضائع بأشكالها وأنواعها من الحقير التافه إلى الجليل الضروري الهام، واستدعت تلك الحاجة العلم الدقيق بمواعيد وصولها يحددها لهم ولطبقات التجار والجلابة والمتكسبين صوت المنادي في أسواق جدة وشوارعها الكبير.. وهو الشيخ صديق حلواني أشهر المنادين وأقدمهم.. وأرقاهم سمعة بصوته الجهوري الطليق.. ذي الأنغام المناسبة لحيثية كل باخرة.. ولمبلغ كل وكالة لها.. ينتقل من سوق لآخر، ومن برحة لسواها صائحاً بين الحشود الملتفة حوله من الكبار والشباب والأطفال المنطلقين وراءه وحيثما سار قائلاً باسم شركة البواخر المختصة بيوم النداء:

ياخوانا ـ يا أهل البلد.. الحاضر يعلم الغائب بوسطة خديوية..

الباخرة كذا.. تصل إلى جدة يوم كذا.. وعليها كذا.. فمن كان عنده صر.. أو بريد.. أو له بضاعة أو.. أو.. فليراجع بيت هنكي.. وإن كانت الباخرة هندية من الهند وإليها فليراجع بيت زينل.. وإن كانت عداهما فليراجع الوكيل.. فلان الفلاني والحاضر يعلم الغائب..

ولا غرابة في الأمر.. فلقد كان المنادي هو الصحيفة.. والراديو.. والتلفزيون اليوم.. فهو واسطة الإعلام الوحيدة ـ فيما سلف ـ وفي ثبوت رؤية رمضان، وليلة العيد، وسوى ذلك من الحوادث العامة والخاصة حتى الأطفال الصغار الذين يضيعون عن بيوتهم لهم نداؤهم الخاص: يا مين شاف الولد الضائع.

(٢١)
مذاهب وملامح

ولقد كان نداء المنادي ـ العم صديق حلواني ـ في جدة.. منطلق فرحة في حينه للقراء الذين كانوا ـ والذين أصبحوا في البلد فيما بعد أدباء كتاباً أو شعراء.. يتسابقون على عمال بيع الجرائد والمجلاّت والكتب.. وكان أشهر بائع محترم لها في جدة قبل أن يحبو الأصفهاني ـ أبو المقالب! ـ أو أن يبلغ الحلم ـ المرحوم الشيخ محمود يغمور الذي غدا فيما بعد ـ كناشر للثقافة في البلد ـ يسعى للتوزيع بعد أن كان يقصد في مكانه للاستلام ـ والتسليم ـ وتلك أمانة تاريخية تذكر فتشهر في باب الاطلاع والعلم والثقافة لهذا الرجل المحترم.. يمشي.. فتمشي المعرفة معه.. أينما سار..

مراعاة لذمة الماضي.. وإبراء منا لها.. فقد كان هناك ـ عكس اليوم ـ فراغ فكري كبير.. ملأته دون مزاحمة في الدرجة الأولى بالجريدة وبالكتاب مصر القديمة.. مصر الأصيلة.. مصر أم الأحزاب حينذاك وأم الجرائد يقوم على منابرها العقاد، المازني، طه حسين، التابعي، أباظه. والدكاترة زكي مبارك.. هيكل الأول الكبير بالطبع.. محمد حسين.. وغير هؤلاء.. وأولئك من كبار الكتاب والأدباء.. يعنينا منهم في هذا

المجال الصحفيون الأدباء الكتاب.. فالشعراء يأتي في طليعتهم.. شوقي، حافظ، الجارم، أحمد، نسيم، الطائف، محرم.. الخطيب.. والمطران.. وسواهم..

كما سدّت بعض المساحة منه الواردات المهجرية الفكرية عرفنا بها مذهباً في الأدب جديداً.. ولوناً قشيب الحلّة والرداء.. يعرض أزياؤهما المهجريون.. من أمثال.. جبران خليل جبران.. إيليا أبو ماضي.. نسيب عريضة.. ميخائيل نعيمه.. أمين مشرق.. وليم كاتسفليس.. أمين الريحاني.. وسواهم..

ولما كانت مصر القديمة هي الأقرب.. والأقوى.. والأفصح فقد سدّت معظم الفراغ في هذا الباب حيث أخذ الناس ـ كما قلت سابقاً ـ يستلفون الشعور ـ وتلك ميزة الفراغ آنذاك ـ لا آفته كما يوصف ـ فكان أن تسرّب لهم التشبّع هنا ـ نتيجة تلك القراءة ـ للأحزاب هناك.. فظهر من بينهم الوفدي والوطني والحر الدستوري.. و.. و.. وكان الجدل يثور.. كلما وصلت باخرة جديدة تحمل أخباراً جديدة تحفل بها أعداد الأهرام.. المقطم.. السياسة الأسبوعية.. وسواها من المجلات.. وتهدأ حتى تصل الباخرة الأخرى.. وهكذا ـ دواليك ـ كما يقول بعد المتدولكين بهذا التعبير!.

ومن هنا ـ كذلك ـ ظهرت المذاهب الأدبية.. وعلى رأسها مذهبا العقادية نسبة للعقاد والطحسنية ـ لطه حسين.. واللذين لا تزال في نفوس الكهول من أدبائنا رواسبهما.. وبقاياهما التي أخذت في الانقراض.. كما حيوان الدينصور. في آخريات حلقاته.

وذلك مع الرافعية المبرقعة التي طلع بها في آخر الأزمان أخونا

الزيدان.. وعقب السلامية الموسوية تقيد لها لأمد طويل الأخ الأستاذ حمزة شحاته ـ رد الله غربته ـ وتاب عليه من التوبة الأدبية لن تنسلح عنه مهما كابر.. إلا إذا انسلخ ناطح عن جلده بالحياة! ولا يسعنا هنا اليوم وقد تغمده الله برحمته ورضوانه إلاّ أن نسأل المولى له الغفران.

وتأتي بعدهما.. يوم أن كانت البواخر ينادي عليها الحلواني والمعرفة يوزعها اليغمور.. المهجرية يحمل أعلام مذهبها الأدب العربي في قلب الدنيا الجديدة ـ أمريكا ـ أعلام أدبها الجديد مشكورين مأجورين.. وهم من أسلفت ذكر أسمائهم مع سواهم من بقية أعضاء الرابطة القلمية وسواها.

ومن ذكرياتي في هذا الباب أن من أوائل المتمهجرين الشيخ السباعي المتحنجل صاحب الرفش.. مقتبساً إياه من.. (فهات الرفش واتبعني.. لنحفر خندقاً آخر.. نواري فيه موتانا).. وهي القصيدة المهجرية المعروفة وكان زميل شقدفة الأستاذ التاري وصاحب الوسك منه أحمد عبد الماجد.. أما قائد القافلة فكان الصاروخ الأدبي المرحوم الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود جامع كتاب وحي الصحراء ـ المجهول من أكثر الشبان الأدباء ـ يسير وراءه كالديدبان الطبحي القديم الشيخ أحمد خليفة وكان تعارفي وصديقي المرحوم العتيبي بهذا الرهط في مكة وطلعنا منها مدعوين منهم إلى الجعرانه في أواخر رمضان من الرمضانات القديمة التي كان يؤتى بالعمرة فيها من الجوانة بعد أكلة مبشور.. أو من التنعيم بعد براد شاي!

كما أن قصيدة ـ يا نهر ـ لميخائيل نعيمه ـ فيما قبل تاريخي الأدبي الشعري.. كانت موضوع محاكاة من الرعيل الأول بمكة وبجدة من

الشعراء قبلنا.. أمد الله في أعمار البقية الباقية منهم.. وإن غطّت على سحناتهم المهجرية حقاً معارضاتهم بقصيدة.. يا ليل الصب متى غده!

تلك بعض الملامح من قصة أدبنا.. قام جسرها المتين على أنقاض الكوبري القديم مده الشيوخ القدامى المجهولون في كل من مكة وجدة والمدينة أيام كانت الصدارة والرواية للتخميس.. والتشطير.. والتشجير.. ومحاكاة شعر الأوائل في قالب عتيق جامد.. مثل:

ومكارياً أبصرت في وجناته   ورداً يلوح وجلناراً يقطف
أخذ الكرا.. مني.. وأحرمني الكرا   بيني وبينك.. يا مكاري الموقف!

❊ ❊ ❊

وقد قيلت في شاب حمار ـ بتشديد الميم ـ وسيم المحيّا.. فيما تدل عليه الاهتمامات الشعرية حينذاك بالقوامات الخيزرانية.. وبالبقش الكشميري..

(٢٢)

من قِمة كرا.. إلى شعاب مكة

ويضاف كذلك عطفاً على ما فات.. عن مصادر المعرفة بجدة.. المكتبات المباركة بجوارها بباب السلام.. للمسجد الحرام بمكة المكرّمة تلوّنت حياة أم القرى بما حفلت به من الموارد إليها بطريق جدة.. دهليز الحرمين.. وفي طليعة هؤلاء معالي الشيخ محمد سرور الصبان، والغزاوي، والعامودي، والآشي، والمقادمي وعمر عرب، وسواهم، طلائع مبشرة ببزوغ كاتبنا الرشيق الأستاذ محمد حسن فقي ـ في ماضيه النثري ـ وشاعرنا البارز اليوم.. في حاضره الشعري اللامع..

وقد خصصت الأخ السيد محمد حسن فقي بما خصصت لمناسبة جدت في مستقبل أيامي فاستشهدت به في طليعة من استشهدت بهم.. وموجز المناسبة أننا كنا ذات ليلة جماعة يتكي بعضنا على مرفقه.. والبعض الآخر يدلدل قدميه في استرخاء.. بعد قيامنا عن مائدة الداعي لنا.. وجرى الحديث سهلاً غير ممتنع.. حتى تثاءبت الكلمات ناعسة ممطوطة.. تتدحرج بليدة من حنجرة أحدهم وكان كاتباً مرتزقاً ثعباني المداخل والمخارج فقال.. إنني أحسن من كتب ويكتب!

فانتصبت التكوة.. ودبدبت الأقدام.. وكنت أول المجيبين قائلاً

له.. وأين نضع إذاً الكاتب الرشيق الفقي ذا الأسلوب المنمنم الحلو.. والعبارات الناطقة.. والمعاني العميقة.. والسطور الموزونة بميزان الذهب؟ بل أين يقف في الصف حمزة بحنفشعياته.. وبمحاضراته وبرسائله.. وكلها من عيون البيان السحري النادر الممتاز؟؟. أو الأستاذ العواد بأعاليه.. وأعماقه وصواعقه؟.. وفلان.. وفلان!..

وتابعتني الجماعة مؤيدة.. وموضحة أكثر مني في إسهاب وتفصيل.. فابتلع أخونا صاحب أفعل التفضيل ما بقي له من ريق.. وانسحب من الدعوة مستأذناً.. وقد أودع لدى مجلسنا سيرته العنترية نهباً مشاعاً.. حيث سلقناها بألسنة حداد.. وطوال!..

ولعل هذه الذكرى العابرة تستدر من الأستاذ الفقي فيضه النثري القديم بجانب فيوضه الشعرية الحالية فيعيدها جعبة.. منثورة في أي الصحف اختار.. فقد أصبحنا نعتقد هذا اللون في وقتنا بصمت الصديق محمد عمر توفيق وبأصلاد السرحان. وحجراته.. وبتناثر أجزاء العريف بين خمسة لا تطول.. ويومية تستغني بصدر النهار عن بقية اليوم.. وبتمتمات (الجفري) الشابة وبلمعان لم يتصل بريقه.. ليكتمل.. من بعض أدباء الشباب وكتابهم الآن. وبضياع الفتنة الغنية الخالصة بين أكوام.. وأكوام.. من أدب الجراويل.

ولعلَّ أقدم شاهد على ما قلناه ونقوله في هذه الأبواب الأديب الأستاذ عبد السلام الطيب الطاهر الساسي.. المدني مولداً.. الجداوي نشأة.. الطائفي مصيفاً.. المكي إقامة في كل مقعد..

وتترقرق الذكريات بخاطر الفتى ـ وبنفسه ـ تتمايل رقابها نحو الوراء.. تارة.. وإلى الأمام تارات.. كأنما تضع له بتلك الأبجديات

المقدّمة لأسفار مقبلة منها يزاحم بعضها البعض في تراخ له معنى التوفيق.. وفي توافق فيه حالة الانسجام.. وإن فاتها في ميلانها ضبط الحركات الموزونة يحفل بها الراقص.. ولا تعني الحالم.. الهائم.

وتلك هي معذرتي إن أنا أطلت ـ غصباً عني ـ أو إن سبق إلى لساني ـ أو قلمي على الأصح.. هذا الحديث الأدبي البسيط المتناثر والمفكك باعترافي الصريح.. كما أنني أكررها لاستماحة العذر إن جاءت الإطالة فيه قاصرة علىٰ دهليز الحرمين ـ جدة ـ لتأخذ المساحة الأكبر منه.. فالفتى ـ الذي هو أنا ـ معذور في ذلك إذ إنه أحد أبنائها المحصورين بين سورها القديم الزائل.. وعلى شاطئ بحرها الطويل الأسياف.. والرقيق الأمواج.. تلاعبه وتلاغيه حتى اليوم.. ثم أن المسافة من جدة إلى مكة كانت في قياس الرحلات طويلة آنذاك.. ومضنية.. وإن صرخة أستاذنا بمدرسة الفلاح بجدة الأديب الشاعر الأستاذ محمد حسن عواد.. ولثلة الفلاحين المتطلعين المتحمسين لها أمثال حمزة شحاته.. محمد علي باحيدره.. محمود عارف.. سالم أشرم.. عباس حلواني.. عبد العزيز جميل.. وشنب.. ثم الرعيل الثاني أمثال الأستاذ محمد علي مغربي.. أحمد عباس ومحمد سعيد عتيبي والشبكشي والعبد لله وسواهم من الصف الثاني..

كما أن المدينة المنورة كانت يومها بالنسبة للفتى مجهلاً بعيد الأمداء حتى ظهر المدنيان أحمد وأمين.. والحافظان.. علي وعثمان.. والعميد الباحث الكبير الأنصاري عبد القدوس والعالم الشاعر القاضي الأستاذ ضياء الدين رجب.. ومن أخذ يصبحنا ويماسينا في إصرار ومداومة أخونا أبو الزيادين.. أطال الله بقاءه..

ولن ننسى.. كفكرة رئيسية وأصل ما كان لفضل الناديين الأدبيين بدار عبد العزيز جميل.. حيث كانت تلقي المحاضرات.. والأبحاث فرعاً من الأصل المنبثق عنه وهو النادي النصيفي لصاحبه المرحوم حسين نصيف مؤلّف ماضي الحجاز وحاضره فيما بعده.. والذي قاد يومذاك حملة كبيرة كادت تكلل بالنجاح.. وتتلخّص في ضرورة قيام لجنة مكوّنة على قلتهم حينذاك لدراسة الأماكن التاريخية والأثرية في كافة أنحاء المملكة رغم الصعوبات المادية.. وعدم وجود المواصلات.. وسلسلة العقبات والحواجز.. ولعلَّ الأوان قد آن لتنفيذ هذه الفكرة الجليلة بعد أن توفّرت الإمكانيات في عصرنا الساطع الحاضر حيث لا يزال بعض تلك الأماكن والآثار في عداد المجاهيل حتى الآن.

أما النادي الثاني.. فكان غريباً في بابه فعلاً.. فقد اتفقت جماعة من الأساتذة الشبان بمدرسة الفلاح.. فاستأجروا وأثثوا مقعداً ـ كما كان يسمّى ـ ليكون مقراً ليلياً لهم بعد انتهاء دوام المدرسة.. واتفقوا فيما بينهم على أن يقوم كل منهم بإلقاء درس في المادة المبرز بها.. فالأستاذ يوسف العوضي للإنجليزية نطقاً فقط.. وعارف للصرف.. والأشرم للتجويد.. وعمر عبد ربه للحساب.. وباجسير للفقه.. وقنديل للنحو.. والولي للشاي والمنصوري لعمل المعدوس ـ أو السليق ـ ولقد كانت ميزة هذا النادي المشائخي أنه أصبح فيما بعد ملتقى احتكاك مولد لشرارات فكرية كبيرة لكل من العواد وشحاته.. وراسم ويونس سلامه.. وأنيس.. وأبو الحمائل.. وسواهم كزملاء زائرين أخذاً وعطاء في ميادين البحث والفكر.. وتكراراً لما سبق بشأن الرحلة الأدبية العلمية التاريخية.. فإن الأوان قد آن كذلك لتكوين النوادي الأدبية بمدن المملكة كلها تحتك بها

الأذهان والقرائح احتكاك السحب يسح منها الغيث العميم.

والآن.. فإنني أقرر خجلاً.. آسفاً.. أن المشوار قد طال جداً بين ما كنا عليه في رأس الجبل الذي صار سهلاً حيث وقف الجدابي يرينا الندى فوق مدينة جدة ـ أم البحر ـ وما خضنا فيه من حديث أدبي دفعنا واجب "الكار".. إلى الثرثرة غير القصيرة.. فيه إلى هنا.

وعلى ذلك.. وعلى طريقة ما بعد الطلوع إلاّ النزول.. فقد انحدر ركبنا في الأخير هابطاً الجبل.. كرا في طريق منه إلى السفح.. الكر.. فشداد.. فعرفات.. فمنى. فمكة المكرّمة يعمرها الله.. حيث أن لها حديثاً هي الأخرى لا بد من ذكره حيث كان وما زال عالقاً بنفسي وبفكر الشاب يرافق أباه.. في رحلة العمر.. الطري.. اللاقط.. الحساس!

فإنه لا يزال يذكر إقامته.. بعد الحج.. بمكة مع والده نزيلين بمحلة الشبيكة بدار الجلاب أبي شنب موكل ابن عمه بجدة.. وهنا لا بدّ من وقفة تفسيرية قبل الاسترسال مع الذكرى.. فقد كانت العادة لكل تويجر بمكة.. جلاب.. كما كان يسمّى.. أن يكون له وكيل في جدة يتولّى باسمه مراجعة شركات البواخر.. وترسيم البضاعة نقداً أو صنفاً.. والصنف أن تدفع الجمرك المستحق من نوع البضاعة بدلاً من النقد.. لإخراجها من الجمرك.. ثم مراجعة شيخ الجمَّالة ـ بقهوة الجمالة ـ بمقرها القديم الذي أصبح اليوم جزءاً من سوق عصري حديث.. وذلك لتحميلها بواسطة المخرج المخصص له رأساً لمكة.. أو لتخزينها بأحد الأحواش لتصريفها حيث هي أو بعثها فيما بعد.. وبعد أن يأخذ المخرج من الوكيل ـ الشتى ـ لسماح بواب الحوش بخروجها ومن هنا ـ فيما أرجح ـ جاء المثل الشعبي القائل: ضعنا بني المخرج ـ وراعي الباب!

ولقد كانت التجارة الرئيسية يومها ـ كما لا أحتاج أن أقول ـ في جدة وأظنها لا تزال كذلك لليوم. كما كانت لها حيثياتها ـ وتقاليدها.. وآدابها.. وأمانتها.. يحترم كل قواعدها كل من التاجر الكبير من أصحاب البيوت التجارية والتويجر الناشئ والوكيل للجلابة ودلال الكف.. وبائع الجملة في مغلقه.. والطاعي بحانوته.

(٢٣)
المكرّر يحلو

ولكلمة التاجر.. في منطوقها، ومفعولها العربيين قيمة أكبر شرفاً وارتباطاً بها من كلمة.. "ويرد" الإنجليزية.. فقد يرتبط بكلمته ببيع صنف لا يلبث بعدها أن يرتفع ثمنه إلى رقم مغري.. فلا يرجع فيها بالرغم من عدم دفع المشتري عربوناً.. أو ثمناً.. أو اتخاذ أية إجراءات ملزمة.. كما لم يكن هناك بند باستلام النقود تنوب الثقة والأمانة عنه أو عن الشهادة والشهود وهكذا إلى آخر المميزات البارزة لبلد كان كل سكانه وكأنما يكوِّنون عائلة أو جسداً واحداً إن تألم تألمت له بقية الأعضاء فعلاً.. (تلك نطة قصيرة.. لم يكن بد من أن تسبق ذكرياتي عن أم القرى وأولها أن أول ما لفت نظري وهالني فيها قامات وقوام الرجال المكيين الأشداء طولاً وعرضاً ومتانة بنيان تذكرنا.. أو تعطينا صورة حية.. للعمالقة ثم البشاك لكل بشكة منها مركزها اليومي بمقهاها المفضّل.. وثانيها حلقات ـ الجوك ـ ولعلّ الكلمة الفصحى ـ الجوقة ـ كأصل لها.. تسمع فيها.. يا غصن نقا.. ويا صفا الأزمان.. وما إليهما في أصوات قوية منغمة رائقة.. تزيد في روعتها ضربات الأكف صفقة مرتبة في خلالها ولدى كل مقطع.. ونهاية!

وأخيراً.. لا آخراً.. تلك الملامح لأهالي كل محلة بذاتها.. وروح المرح الشائع وفنية الحياة الضاحكة.. في سلاسل إنسانية تشكل في مجموعها مجتمعاً بشرياً يتجلّى فيها ظرف الحجاز تومئ إليه سطور وسطور من التاريخ القديم لأجدادهم الأوائل في واديهم المبارك.. وشعابهم الصلداء.

وبعد.. وبعد أن طوينا المسافة من قمة كرا.. إلى شعاب مكة، فسهل جدة الفسيح.. وفرح بعودتنا الأهل والجيران وصلت إليهم في تباسيها وبقشها الهدايا مشعرة بقدومنا الميمون.. واستمتعوا بما حفلت به من القلادة.. والحمصية، واللدو لذوي العلاقة الضعيفة ـ إلى النغاري في أقفاصها منادية ـ خديجة ـ خديجة.. غدا.. غدا.. خد.. لأصحاب العلاقة الوثيقة، فقد حق للعائد أن يتيه على زملائه وأترابه راوياً مكرراً ومعيداً.. ما شاهد.. وصادف.. وما قامر لأجله وما غامر به في رحلته إلى قمة الجبل.. وما وراءها.. ولم يكن ذلك الذي فعل باليسير في عصره البطيء.. ومع ذلك فقد جرأته تلك الرحلة الأولى إلى كرا.. أن قبل بصدر رحب وشهامة بالغة قيادة ركب جديد إليه في العام التالي مباشرة.. ركب مؤلف من سيدة كبيرة وقورة كانت تشغل في جدة مركز أكبر قابلة.. داية.. فيها، وكان يصحبها ولدها وزوجته..

وللألفة وللصلة الوثيقة التي ارتبطت بها مع الجدابيين نفسيهما فقد كانت حمرها غير الوحشية هي مطايا ركبنا الجديد.. وهكذا تكررت مقابلتي مع الجبل للمرة الثانية صاعداً على قدمي فيه.. فأصبحت بيننا والحالة هذه ـ مكررة تحلو ـ معرفة، وألفة وصداقة، وحب بدأت كلها في يوم ما.. من شهر ذي الحجة المبارك، في عام ما، من الأعوام

الهجرية المجهولة النسب في عالم الأرقام.

ولا أجد داعياً أو مبرراً الآن لأية قفزة جديدة، أو نطة إنجليزية أو عربية، لأسرد مكرراً ما أسلفت بالطريق للجبل أو فيه، أو على قمّته، أو بوديانه، وبوادي الأعمق الجميل، حيث ظلّ القلب وهواه، معلقاً حائماً حول مربعة أنيقة رشيقة تسكنها مزنة ذات القصة الغرامية يضمها في صفحات شعرية غلاف وردي حبيب.

وتمرّ الأيام.. تطوى الشهور.. تدور بها الأعوام.. في نتائج وأرقام.. فإذا أنا في الهدا.. في أوائل عام ١٣٨٤ هجرية مدعواً للغداء، فالإقامة إن شئت لدى الصديق القديم الأستاذ محمد عمر توفيق، في مرابيعه الصفراء، بلون الكركم، وسط بستان أخضر، ولن تكون البساتين إلا خضراء.. ولكنه تقليد الوصف الملزم الملتزم به..

وبعد أن قشرنا آذان بعضهم في قهوة صن رائقة، قرأنا ما تيسّر من قصيدة حلمنتشية طويلة بعنوان ـ رحلة الصيف ـ نشرب بالمركاز دائم الذكر.. مبدئين ومعيدين ما جاء بتاليها خاصاً بـ:

بمرابع "التوفيق".. في بستانه ... في البيت.. مرشوشاً بلون الكركم
فلربما صعد المحب إلى الهدا ... وحبيبه في جنبه.. كالأبكم
سرحان.. فكر في الطريق مسفلتا ... ومعبد الأطراف.. غير مكمكم
متذكراً عهد البهائم.. صاعداً ... نحو الشفا في حيرة المحرنجم
أو هابطاً نحو السلامة من كرا ... أو ساقطاً تحت البرادع يرتمي!

* * *

وأؤكد أنه لم ترد كلمة (البرادع) عفواً في العجز الأخير، فقد أسهبنا

يومها في سيرة البرادع ـ أيام زمان ـ مقترنة بسيرة الحمير البلدية الفارهة والمنقرضة في تاريخنا الحديث تقريباً.. فلقد كان لكل حمار بردعته الغالية يتفنن صاحبها وصاحبه في جعلها مخملية مرتفعة الصدر مسبلة العجز.. تتفق وما كان يناله الحمار المدلل ذاته من قص شعره لدى الحلاقين ـ قصاصي الحمير كما كانوا يسمون ـ على أحدث طراز.. كوفيري.. قديم.. كما كانت الحناء الوسيلة الوحيدة للتوليت ولزينة ينهق لها نهيقاً رقيقاً تيهاً بهما على زملائه.. حتى استطردنا إلى الحسرة على ما كان ينفق على الشعر لشوشة الحمار.. وعلى البردعة لظهره من دخل قومي تلاشى هباء.. في تلك الأحقاب الجاهلية..

وانحدرنا إلى ما تلاه من وسائط النقل.. لا تحتاج اليوم إلى تلك الزينة يشارك بها البهيم الإنسان.

ومن استطرادة لأخرى.. جاء ذكر حبيبي وصديقي وزميلي.. كرا ـ الجبل الذي صار سهلاً.. وحيث أني لم أنسه قط.. فقد انحدرت تلقائياً بعض العبرات تكفيراً عن خطيئة التقصير في حقّه.. وكان منى على بضع خطوات.. أو أمتار.

(٢٤)
تحت المكياج

وكما يسوق البدوي حنينه إلى الأطلال.. والدمن الخوالي.. وكما تنبعث في النفس المحبة ذكرى حبيبها الأول.. في هواها البكر.. في قرصات لذيذة تدغدغ مكامن الشعور وفي همسات خافتة تنادي مسامع الوجدان.. فقد حننت إلى الجبل.. كرا.. حبيبي القديم.. وقد لاحظ الصديق المضيف روعة لحظات الهيام تكشفها ملامحي الحزينة.. وعبراتي الصادقة.. فأخذ يسرد على ما يجري ذلك اليوم من عمل ضخم جبار.. لجعل الجبل سهلاً.. وطريقاً عصرياً من أحدث الطرق وأجملها.. وإن بإمكاني إرواء وتجديداً لعهد بائد قيامك بإطلالة خاطفة عليه لترى ما نصنع به حتى يعود أقوم.. وارشق.. وأحلى مما كان.

ولقد هممت بدافع التحريض ـ وبإلحاح من شوقي الزائد للجبل.. بالذهاب إليه.. بل وبالنزول منه بسيارة خاصة.. وبإذن خاص.. ولكن الذي حدث كان غريباً في بابه.. فقد أنكرت نفسي مجاراة لبداوة حبها وحنينه واحتفاظاً منها بالصورة القديمة الحلوة لحبيبها أن أراه تحت أقدام الدركترات.. والهراسات والمعاول.. وقد كشف لها صدره عارياً.. بعد أن أحنى قامته.. وفتح لها قلبه.. وأباحها جسده وثناياه تفعل به ما تشاء..

بل لقد اقشعرّت نفسي وخشيت أن أراه كذلك.. تماماً تماماً.. كما يقشعر ويخشى المحب أو القريب لا يجرؤ أن يرى حبيبه أو قريبه طريح المستشفى.. وفوق كرسي العمليات تجرى له أخطر عملية جراحية.. حتى لو كانت تلك العملية ـ كما كانت لكرا ـ عملية تجميل.. ليصبح بعدها جبلاً جذاباً ممشوق القد ناحل الخصر.. لا فضول فيه قد زالت من وجهه تجاعيدها.. ومن أطرافه.. كشاويه وزوائده.. وفارق أعضاءه تصلبها.. وسلسلة ظهره يبوسة فقراتها المتصلة الحلقات..

ولعلنا من تلك البادرة من نفسي ومني تأخذ فكرة عملية على أن هناك صنفاً من المحبين لا يودون أن يروا حبيبهم إلاّ في الصورة التي ألفوا أن يروه عليها باعتباره الصورة الأولى التي رأوه بها.. فأحبوه كذلك..

بل وأذكر مصداقاً لما ذكرت أن جاراً قريباً لنا فيما بعد كان لا يحب أن يرى حليلته إلاّ في كرتَتِها الساتان غير المشجّر.. بوجهها الأسمر الجميل طبيعياً دون ألوان.. وبشعرها المتناثرة بعض شعراته على أطراف جبينها.. وبرؤوس أصداغها.. وعلى جانبي كتفيها.. وحتى ما فوق ركبتيها من الخلف.. في إهمال لذيذ..

ولقد سمعنا ذات مرّة لم تتكرر.. صراخاً وعراكاً وهياجاً دب كل ذلك بينهما بسرعة انتشار لهب الحريق، وبذهاب بعض عقلاء العائلة وقد انحشرت خلف إحداهن بدافع الفضول ـ تبيّن أن السبب في ما أصاب الرجل المحب الوامق هو أن حليلته بإغراء من جارتها الجديدة المودرن قد قابلت رجلها بلون محدث وبسمت جديد.. فقد تلون وجهها بالأحمر.. وبالأبيض.. وبالأخضر دون مراعاة لسمارها الطبيعي الحلو

واختفى قوامها الرشيق داخل فستان بدعة من بدع الموضة.. أما شعرها الليلي الطويل الجميل المنسدل حتى ما دون ظهرها فقد زال معظمه ليبقى مكوفراً في ثلاث دوائر كالكعكات فوق رأسها.. وكان ما كان بينها وبين رجلها الذي فقد الصورة المحبوبة فيها ففقد عقله.. شأني تقريباً في تلك اللحظات الرهيبة التي أرادوني فيها أن أرى حبيبي ـ كرا ـ تحت المكياج!

ولا أطيل.. فقد مضت مدة.. وأنا نهب عواطفي وأحاسيسي الملتهبة المضطربة تجاه كرا الذي لا يبعد عني أكثر من أمتار معدودات ومع شعوري بصدق العزاء الجميل يقدمه لي الصديق محمد عمر توفيق في صورة استعراض للخطوات التي تمّت في إصلاح الطرق الفرعية بمدينة الطائف وضواحيها ومنه إلى الهدى نفسه.. بالإضافة إلى الطريق المعجزة مشيراً إلى الجبل دون أن يذكر اسمه صراحة.. حرصاً منه على موضع الرقة من قلبي لذكراه.. وعدم إيقاد نار الشوق إليه.. ونثر الذكريات العزيزة بسردها في مجلس غير مهيأ له فقد شغلت أصحابه أكة اللال وصر الشيريا عن كل ما عدا ذلك خشية كل رفيقين متقابلين من أن يكون شرب "القهوة" ممزوجة بتقريق الحاضرين.. نصيبها.

وحتى أسلو كرا ولو مؤقتاً.. فقد تجاسرت أخيراً وبعد التغلب على حنيني القديم والمشتعل المتصل بهذا الجبل فأخذت أسرد للصديق ما رأيته جديداً عليّ في كل من مكة ـ وجدة ـ والطائف.. بعد غياب عن المملكة متصل ومنقطع جاوز آنذاك ستة أعوام..

فقد رأيت مثلاً.. في جدة.. جدات حديثة.. تزهو منطقة الشرفية منها بفيلاتها الأنيقة الرشيقة في شوارعها الممتدة الطويلة.. ويتيه الرويسان الأعلى والأدنى بتلك الدور والفيلات الجدية وهكذا بقية المناطق خارج

مواقع السور القديم.. بما في ذلك المساحات الطويلة العريضة وراء كل منها حتى لقد أصبحت لا أجسر على التغلغلَ بعيداً عن دار الضيافة التي أسكنها لدى العائلة حتى لا أتوه فيها أو أضيع نهائياً بينها لينادي علي يا من شاف الرجال ـ بدل الولد ـ الضائع..

أما الحال في جدة نفسها جدتي القديمة والتي أعرف كل شبر مألوف فيها فقد هالني.. وإن أثلج صدري ونفسي.. ما آل إليه ـ عمارات ضخمة ـ وشوارع عريضة.. ومعارض ـ وحوانيت.. وأسواق على أحدث طراز تزخر بأحدث الموديلات من مائة صنف وصنف.

ويوم قدر لي أن أصعد إلى أبحر عصر جمعة ما.. ورأيت الأفواج من الناس والأرتال من السيارات على طول الشواطئ هناك تذكّرت دون حسرة على طفولتي وإلى غير رجعة لصباي.. الأيام الخوالي الخرافية التي كانت تذهب الجماعات فيها.. إلى بحر الحجر المواجه لفندق البحر الأحمر للاغتسال فيه كعلاج من الحمى في دورها الأول الذي كنا نطلق عليه "الدخدخة".. كما لاح بخاطري أيضاً منظر البشر كانوا يقصدون بحر (أبو العيون) لمعالجة ما بعيونهم من رمد أو عمش أو طشاش.. وهو البحر الذي قامت بسرعة على شطه الأبنية والورش، ويمتد على قسم كبير منه المعرض العائد للصديق محمد علي مغربي، والذي كانت تقوم قديماً بجوار شطوطه رواب صغيرة من ملح الطعام. واسترسلت أمام صديقي المستمع في جلاء مرئياته السارة والعديدة بجدة أطوي معظمها.. لأصل منها إلى مكّة المكرّمة ـ. وقد أذهلتني كثيراً أثوابها القشيبة في كل شارع.. ومنحنى.. وزقاق.. وجبل.. حتى لقد أحسست فعلاً أني أسير في مدينة جديدة عليّ غريبة عني. لاهجاً بالحمد المتواصل مثنياً من كل

قلبي وجوارحي على العاملين جميعاً لجعل المدينة المقدّسة مثلاً ممتازاً يجب أن يحتذى.. مستغرباً الغرابة كلها أن يتم في مثل ذلك الوقت القصير هذا العمل الجبار الضخم.

(٢٥)

بوابات.. ونوافذ..!

وأشهد لوجه الحق.. خالصاً.. أنني مع إعجابي الشديد.. وإكباري المتناهي لما رأيت عليه أم القرى ـ يعمرها الله ـ في أرديتها القشيبة العصرية فإنه لم تغمرني الجوانب المادية وحدها فتذهب بما في نفسي من حنين روحي جارف لمكة.. وقد جرى بطبيعته ـ كطبيعتي حين أتأثر شعراً.. أجد من اللازم عليّ هنا إثبات بعضه للتدليل على ما نوّهت، رغم ما قد يصيبني من رشاش القول الطائش بأنني إنما أثبته هنا رغبة التطاول أو التباهي أو التبجُّح بما لا مجال له في هذا المجال.. فقد قلت في قصيدة بعنوان.. في مكة.. مكة التي بعدت عنها متصلاً حوالي ستة أعوام..

حيى أم القرى أتينا إليها ... خشعا.. خشعا.. نمد القلوبا

ظامئات إلى الجلال.. عليا ... خافقات ـ مع الجمال ـ طروبا

حائمات.. كالطير للمنهل العذ ... ب ترامت صوبا.. ورامت وثوبا

ترتجيه لدى المناهل رياً ... تستقيه. فضل الدلاء. صبيبا

بعد نأي أذوى النفوس حنيناً ... بعد لأي أذكى الحنين.. لهيبا

رب إيــمــاءة أرق مــن الــفــجــر نـسـيـمـاً.. ومـن هـواى.. دبـيـبـا
جـمـعـت بـيـنـنـا الـصـبـاح.. مـحـبـاً قـد تـنـاهـي غـرامـه.. وجـيـبـا
في لقاء.. قد جمع الأمس.. والـ ـيوم.. ضروبا من عمرنا، وضريبا
وأنـا الـعـاشـق الـقـديـم.. جـديـداً شـفـه الـوجـد.. غـربـة.. وغـريـبـا
في هواك المكنون.. ما مسّه البعد انـتـقـاصـاً.. مـا نـال مـنـه نـضـوبـا
إنــمــا أنــت مــكــة فــي مــســمــ ـاك.. بعيداً عن عيننا، وقريبا
أنـت مـنـا حـيـاتـنـا صـغـت مـنـهـا حبنا البكر.. صيغ فيك ربيبا
قد ألـفـنـا مـنـك الـقـديـم.. تـلـيـداً وعشقنا منك الجديد.. قشيبا!

إلى آخر تلك القصيدة صغت بها المشحون بروحي حباً وصبابة وشوقاً في شعور صادق برؤيتي إياها. كما صارت ـ وبأحساسي الدائم بها.. كما كانت؛ مهوى شباب.. ومسارب حياة حارة دافقة بين واديها ـ ومحلاتها ـ وفوق أجبالها المباركة رقرقت التاريخ في أصلادها.. ثم أباحته للدنيا نور هدى.. وهداية وإيمان.

وفي قصيدتي الحديثة (مكتي قبلتي) سيل تعبيري دافق عن ذلك من كل ذلك.

هذا.. ولقد أطمعتني سماحة الصديق محمد عمر.. ورحابة صدره بحكم زمالته لي في ذلك العهد.. فاغتنمت إصاخة سمعه جيداً لما أقول .. بعيداً عن مشاغله في شؤونها وشجونها.. وعن سرحانه المعهود وعلامات استفهامه الشبيهة برمي البنادق.. فسلسلت في ترسل.. وتدفق من ذكرياتي.. ذكرياته البعيدة.. ما كنت أرمي من ورائه إلى إبعاد شبح الحبيب.. كرا.. القديم.. القريب.. عن خاطري المتصل به.. لا

تنفصم عنه مرائيه لتآلفه فيه.. وبحكم المجاملة.. وخشية من الرمي من جديد بتهمة ثقل الظل فإنني سوف أطوي كذلك ما نثرته عن ذكرياتنا في مراتع الطائف ومراعيه.. لأسجل غير ناسٍ بحثاً فكرياً شائقاً عرض أثناء الذكريات ووقف بنا النقاش بسببه حاجزاً دون تدفقها.. فقد جاء عرضاً ذكر الرشوة بمفهومها التقليدي الأصيل.. وبمفهومها.. العصري الطارئ.. وكان لي رأي معارض متصلّب حيناً كل المعارضة وكل الصلابة.. متخاذل أحياناً.. بعض التخاذل.. دون لزوم.. فذكرت ما قرّ في حافظتي مما قاله يوماً أحدهم.. في أسلوب سقراطي لئيم العرض.. ترى ما هو مقياس الفضيلة والرذيلة.. لدى المجتمع في واقعه العملي المتداول؟؟

على أساس من مقياسهما قديماً.. بحكم رئيسي.. هو حكم الإجماع؟.. لنفرض أن رذيلة ما من الرذائل القديمة أصبحت تمارس من مجموع من الناس تصل نسبتهم إلى خمسة وتسعين في المائة.. بحيث لا يعف عن إتيانها إلاّ الخمسة الباقية من المائة.. فما هو الحكم عليها اعتباراً لها من الرذائل.. أو الفضائل؟ وأحمد الله على السلامة من الزلل.. فقد اتفق رأيانا في الأخير أنا والصديق محمد عمر على أن الرذيلة رذيلة.. والفضيلة فضيلة بمؤدّى كل منهما في مجاله وبفعاليته فيه.. أداء للخير ـ أو تردياً في الشر ـ والخير والشر مفهومان محددان معلومان.. فلن تنقلب الرذيلة إلى فضيلة.. بمجرّد ممارسة الكثرة الغالبة أو المطلقة لها.. إطلاقاً..

وعلى ذلك. وبموجب القاعدة الراسخة السالفة فالرشوة رذيلة. رذيلة.. لا تزال.. ولن تزال كذلك مهما رمى معارضوها بالغفلة تارة.. أو بالحنبلة.. أو العجز عن ممارستها تارات أخرى.. ومهما قيل في

تبرير سطوتها العالمية تقريباً، بنسبة ارتفاع النسبة العالية من ممارسيها.. أو انخفاضها.

كما جرنا البحث.. وللبحث كما للحديث شؤونه وشجونه.. إلى مناقشة موضوع السفور.. وكان ذلك بسبب مثال ماثل وحي.. حين مرّت أمام مجلسنا المكشوف تحت مجموعة من الأشجار العالية نفترش من بساط أرضها السندسي ـ مجلسنا.. فتاة من فتيات ثقيف ومن سكان الهدا.. وقد أقرأتنا السلام في فصاحة وشجاعة.. وببساطة تشبه بساطة جداتها العربيات المسلمات السافرات.. رانية إلينا بعينيها الدعجاوين تطلان في براءة من تحت شرفات جبينها الساطع دون أن تشعر بأن في إفشائها السلام على أبناء جنسها الذكور أية غضاضة أو أي خجل.. فطرة درجت عليها مثلما درج عليها الصبايا في أريافنا وبوادينا.. سافرات السفور المعتاد لا ينحدر به التقليد.. أو يجافيه العرف.

ولقد امتدّ نفس البحث مستعرضاً الأصل.. وهو السفور.. ورأى العادة.. والمتبع.. والاصطلاح فيه.. ممارسة طبيعية له.. ثم الفرع ـ وهو الحجاب ـ وأمر الشرع فيه بمسبباته وبدواعيه.. وما زلنا نصعد ونهبط مع تواتر النفس الطويل في البحث حتى قادنا إلى نقطة سوداء.. تتصل بموضوعه اتصالاً وثيقاً في تاريخ المتمدينين لم يرضهم السفور في كل درجاته حتى انتهوا فيه إلى أن جعلوا العري التام موديلاً جديداً له.. فأصبحت للعراة نواديهم.. وكان في وصولنا إلى هذه النقطة السوداء المخزية بالذات الدليل المادي الذي جعلنا نختم بالشمع الأحمر باب النظرية السفسطائية يختال بها أصحابهم في قولهم.. ترى ما هو الفرق في الجسد الآدمي بين الإصبع المكشوف وهو جزء منه.. وبين أي عضو

مستور منه؟.. ومع التسليم بقيام السفور الريفي نشأة.. وتربية.. وعادة.. وحصره في المدن وحدها.. فقد طغت على ما عداها مزايا الحجاب.. بالنسبة للنكسة البشرية تغالت باسم السفور في إذلال الأجساد الإنسانية تتباهى ببذل اللحم الآدمي.. معروضاً على الأنظار الشرهة بالتمادي في كشف المساحات المصونات منه عاماً بعد عام بما سوف يفضي إلى العري التام..

(٢٦)

المركاز.. بين زقزوق.. وظريفه..!

وما نتج عن طبيعة الكشف المطلق.. لا يؤثر خيالاً.. ولا يحرّك فضولاً.. ولا يترك للتصور مجاله المفروض حتى ذات الأعراض غثياناً.. عن رؤيته كذلك.. وشاع الاسترخاء.. عن متابعته.. دون ستر.

وأشهد أننا مع ما ألمعنا إليه عن الرشوة.. وعن السفور.. بما درأ الفتنة لدينا على الأقل من سلطانهما.. فإنا أشرنا.. للقاء آخر.. بقاء هاتين البدايتين من أبواب القضايا الاجتماعية الإنسانية الحاضرة.. مواربتين للعودة إليهما.. استدامة للتمارين الفكرية تشغل ذهن الباحث عن الحقيقة لذاتها.. لتجدد بها خلايا الدماغ.. وإبقاء للنوافذ الذهنية مضاءة في ميدانه الفسيح نكشف من خلالها ونكتشف مواقع ومواضع زوايا الظلام.. بما في ذلك المقارنة بين التعطيل التام أو الاستفادة الكاملة من نصف كياننا البشري تمشياً مع قول من قال:

يصعد الشعب بجنسيه أناث.. وذكور وهل الطائر.. إلا بجناحيه يطير

كما أشهد أن يومنا في مجلسنا بالهدا.. كان يوماً حافلاً بكل ما فيه ـ بذكرياته ـ بأبحاثه ـ بما قلناه، أنا والصديق محمد عمر.. قديماً..

وجديداً.. ومفيداً له.. سلوانا عن مشاغله الرسمية لساعات.. ولي أنا بالأخص.. تلهيه عن متاعبي لحالة الجبل تدوسه الهراسات.. ويفعل فيه الديناميت المتفجر أفعاله على مقربة منا.. وبمسمع من أذني الصاغيتين لهدير الآلات الثقيلة.. وصوت التفجيرات القوية.. بقلبه الرقيق.

واستمرّت الجلسة.. وطاب المجلس تزينهما رشرشة الهتان المتقطّع.. وتناثر الغيوم جارية ـ هائمة، حائمة فوق رؤوسنا.. وتتوالى مرفرفة بِجونا الساحر خفقات أجنحة النغارى والقماري والعصافير تتجارى من غصن إلى غصن.. مما دفع بالصديق الوزير أن يندفع في كرمه مع سخاء الطبيعة إلى مد دعوة الغدا.. وقد أجبناها.. مجددة.. إلى دعوة للعشاء سليقاً ممتازاً كان جوار الجبل.. وكانت قمّته أصلح الأمكنة لتناوله.. وقد كان.

وبأسلوب الشيء بالشيء يذكر.. فقد أعادني هذا اليوم الفكري إلى أيامنا القديمة الأولى بمكّة المكرّمة حيث كنت مقيماً بها.. في الخمسينات الهجرية.. صاحباً.. ورفيقاً.. وزميلاً للأخ حمزة شحاته ليعمل نهاره في عمله بشركة التوفير والاقتصاد، وأعمل نهاري بجريدة "صوت الحجاز".. حتى إذا صلّيت العصر.. قمنا راجلين من آخر محلة الشامية وأول محلة الشبيكة بالذهاب إلى نهاية جرول مما يلي ـ البيبان الآن ـ لنتخذ من كراسي الشريط هناك مركازنا المعلوم يتوافد إليه جلساؤنا اليوميون ومعظمهم من الناشئة والشباب مثلنا ويدور البحث.. أو السكناب كما كنا نسميه.. يتناول قضايا الساعة الأدبية مما نشر وما هو تحت النشر.. ومما لا يكتب له النشر.. أحياناً.. أو طول العمر..

وحمزة ـ كما هو معلوم أو ـ مجهول ـ أبو السقراطيات تبدأه بسؤال

يولد أسئلة وأجوبة لا تنتهيان في يوم ـ في سنة ـ في شهر.. ويشترك فيه الكل بين سائل ومجيب عن الفن للفن.. والفن للحياة.. وعن الآراء المطلقة والمرفرفه رفرفة الهواء الطليق ـ وعن الأدباء والكتاب والشعراء.. نقداً مركزاً كما كان يقول العريف وكان يافعاً على أبواب رحلة دراسية حرة بالخارج استشارنا في أمرها فأشرنا عليه بها.. أو منقطاً مفقطاً كما كان يقول أحمد عمر عباس في لهجة مكسّرة بين العربية ـ وبين الإنجليزية التي كان في سبيل إتقانها يخاطب بها الكرسي.. والبراد.. وصبي القهوجي يطلب منه.. "ون قلاس".. "كافيه وزملك" فنجان قهوة بلبن.. أو نقداً عارياً كما كان يريده الساسي عبد السلام وقد تناثر من فيه على وجه أقرب جليس له رذاذ ريقه غير المعسول.. أو استطراداً يمتد إلى كيان "العروبة" العام ومفهومها آنذاك.. وآدابها.. كما كان يريد الخوض فيها بتوسع الأخ محمد على مغربي الذي ظفر.. غير منازع.. بلقب العروبة بين الجماعة.. أو كما كان يشتهي أي جليس ممن كانوا يغشون "المركاز" وهم كثير..

وللعلم ـ فقد انتقل هذا المركاز بعد سنوات ـ إلى "الحقل" كتسمية محمد عمر له.. بآخر المسفلة على طرف ناشف نسبياً من أطراف بركة ماجد، أو ماجن.. أو ماجل.. وانضم إليه مع من سلف بعض من وفدوا من المدينة المنورة لمكة كمحمد عمر.. والبصراويين أنور.. وفريد، وجذبا إليه عزيز ضيا دون ممانعة أو تثاقل.. حتى أصبح بعد حين من الزمن التطور.. لم يشملنا.. فرعه الكبير بيت حمزة بالمسفلة، ثم في آخر الأزمان بدار الزيدان.. بعد انتقاله من طيبة إلى أم القرى حيث أطال المكوث واللبث.. وقبل أن ينزح إلى أخت البحر. وأعود

بالذاكرة دون ترتيب لذكرياتها.. للخمسينات.. ولما هو خاص بي وبحمزة شحاته كشقير برشومي ربطت بينهما الدقائق والساعات والأيام حتى لقد أصبحنا فيها نمثّل دون نكران في رابطة الأدب الزوجية آنذاك.. دور زقزوق وظريفه.. فكنا ما نكاد نقفل محضر مركاز (البيبان) بجرول أو مخارج مكة ـ راجلين ـ حتى نعود كذلك إلى أجياد للسهرة ببيت القزاز يوم أن كان الأستاذ حسن فتى متوفر الإحساس.. حريفاً في الطاولا.. ثم في الكيرم.. يدل على ولعه بهما ثم بالأدب وبالأدباء صوته الجهوري المسموع حتى باب السلام.. حيث لا تخلو السمرة في أية ليلة من بحث أدبي رائق.. أو مجالات فكرية ممتازة..

ولا نكاد نقضي السهرة حتى ننطلق لآخر مرّة ـ راجلين ـ إلى قهوة العم حمزة والتي تقع يومها أمام كوشان الجمال.. واليوم حيث مقر الشركة العربية للسيارات.. بقصد المنام فيها بمركازنا المقرر المحجوز لنا على الدوام.. وكنا نأخذ كل ليلة.. دون تغيير.. المشبوك.. وهو تعبير أدبي ورمزي.. لعشائنا المعتاد المكون من شريكتين ـ حتة جبنة ـ وقرطاس ملح.. على أننا لا ننسى بين أسبوع وأسبوع أن نشتري بعضاً من النعناع لمزجه ببراد الشاي حيث يحفظه القهوجي لنا في حرز مصون.. وهنا ـ كما يقولون بيت القصيد ـ فإننا لا يكاد كل منّا يستلقي على كرسيه الشريط بعد العشاء متهيّئاً للنوم.. حتى يثور سؤال ما.. أو تنبعث فكرة قابلة للمناقشة حتى نودّع النوم.. ويجلس كلٌّ منا القرفصاء في كرسيه بلحاف.. أو دون لحاف.. وقد أخذ المركاز آنذاك ـ كسيرة ومقر ـ طريقه إلى البعض ممن كانوا ـ يطبون علينا فيه ـ أو يشاركوننا بعض الليالي المنام ـ بل السهرة الطويلة على الأصح.. به وفي طليعتهم

الأساتذة المغربي، الساسي، المرحوم عباس صيرفي.. أحمد عمر عباس.. وسواهم..

وتنداح الذكريات حتى تتركّز على الجانب "الغاندي" منها آنذاك.. فالعشاء شريكة وحتة جبنة وملح.. يعقبه براد شاي صرف.. أو ممزوج بقليل من النعناع.. وكثير جداً من أبحاث أدبية.. ومجادلات سقراطية.. أفلاطونية.. سفسطائية.. حتى قريب الفجر.. والمواصلات.. موتو رجل.. في كل مشاويرنا المعتادة.. أربع مرات من محلة الشامية حتى خارج مكة.. دون أن تزعجنا.. أو تقطع بحثنا خلالها أبواق السيارات التي كانت في حكم غير الموجودة لندرتها.. ومن ذلك.. فيما أرجح.. كانت الإشارة في مستقبل الأيام لقولنا:

فمد الخطو مشواراً طويلا   فتلك رياضة الأدبا.. يعبدو
بها الرومتزم لم يعرف طريقا   إليك ولا التكرّش.. حيث تعدو

(٢٧)

قال الراوي . .
يا سادة يا كرام . . !

ولتسديد حساب هاته الذكريات . . نقلاً عن دفتر الأمانات بها . . فلقد كانت إحدى مشاويرنا ذات أصيل السبب المباشر في تاريخ ـ الحلمنتيشيات ـ كما ذكرنا في فاتحة الديوان الأول من المركاز وخلاصتها . . تحدي حمزة لي في أن تكون لهجتنا المحلية قابلة لشعر الحلمنتيشيات أو المشهورات على طريقة المرحوم حسين شفيق . . وقبولي لهذا التحدّي . . وعمل حلمنتيشية تنشر بالجريدة وكان موضوعها ـ مشروع القرش ـ الذي كان في حينه مشروع اليوم ـ على طريقة طبق اليوم . . وربما كان لها وله حديث آخر . .

وأقرر ـ دون فشر ـ نجاح المحاولة كما دلّ عليه الارتفاع في توزيع أعداد الجريدة ـ صوت الحجاز وكانت أسبوعية ـ ارتفاعاً ملحوظاً . . وملموساً . . فقد صحب القصيدة من باب التنويع أيضاً باب التعليق الفكاهي على الأحداث الأدبية والاجتماعية الأسبوعية تناولت الأستاذين أحمد السباعي صاحب السلم ـ سلم القراءة ـ وحسن الكتبي ـ حامي حمى

ـ أبعاد الحقيقة.. ثم امتدت إلى سيارة الأستاذ هاشم الزواوي التي كان يقرشها في منور البيت والتي كان يحتفظ كل من ركابها القلائل بمقعد جلوسه بها في بيته.. لحين الركوب بها في حينه.. إلى آخر ما وصل إليه ذلك الباب الواسع.. ولعلّ تسميتنا لكتابينا المطبوعين والمجموعة بهما تلكم الحلمنتيشيات.. بالمركاز.. إنما كان إخلاصاً منا (للمركاز) في حياتنا.. المركاز.. بما فيه من حياة.. وفن ـ وأدب ـ وتاريخ.. المركاز الذي نعتبره في تاريخنا الممتد ـ النادي الأدبي.. دون تسمية أو تدشين..

ولعلّ ذلك من الغريب.. كلون آخر من ألوان الوفاء ـ أن تتوالى قوافل ذكرياتنا بالقرب من الجبل الذي صار سهلاً.. وتحت غصون الأشجار بالهدا يزخرف جو سمائها الغيم اللطيف ورذاذ من هتانه المتقطع.. ووشوشات من مائه.. وهمسات من زقزقات عصافيره.. ونغاريه.. في مركاز الصديق محمد عمر توفيق فتتصل نوازع الخمسينات بالثمانينات.. في ذهن سابح.. غير سارح..؟

وأذوب بعد ذلك في دنيا الذكريات.. نفساً شفافة تحملني وأنا بالهدا.. وفوق قمّة الجبل أكسيت غمامة داكنة.. طائرة.. وكأنها بساط الريح السحري.. فأجدني في لحظات.. في محلة اليمن بيتنا القديم.. بسوق العلوي في جدة أرى من خلال أرضية الروشن الخشبية منظر الكراسي الشريط عليها الرجال وكأن على رؤوسهم الطير ينصتون إلى الراوي.. يسرد عليهم في صوت منغم مؤثّر فصلاً مثيراً من فصول سيرة عنترة بن شداد.. وهم أبصار شاخصة إليه.. وأسماع معلقة بشفتيه وقد نسوا فناجيل الشاي ـ أو القهوة ـ أو القشر وهو غلاف حبات البن أو النعناع وقد برد ما فيها وكأنها لم تكن.. لأن شاربيها لم يكونوا أمامها..

بل كانوا وراء مسيرة عنترة في البراري والقفار..

وأجدني ملزماً لإبراز شخصية الراوي في حياتنا السابقة.. فلقد كان للمقاهي الشهيرة لدينا رواتها يقرأون لزبائنها كل ليلة.. إحدى سير.. الزير سالم.. أبو زيد الهلالي ـ الظاهر بيبرس.. عنترة بن شداد.. وهو أحبهم للنفوس.. وبقدر ما تتوفر للراوي ذلاقة اللسان وحلاوة الصوت.. وحسن السكوت لدى المقاطع الهامة.. يكون الإقبال عليه وعلى المقهى المخصص له.

وللرواة الشعبيين بعد ذلك قدرتهم الفائقة على اختيار النقطة الحساسة من الرواية يختمون بها القراءة تشويقاً واجتذاباً للزبون السامع لحضور التفصيل فيما تلاها في الليلة التالية. وتحضرني بهذه المناسبة أقصوصة صغيرة تضفي على ما نقول تفسيراً واضحاً.. وعلى براعة الراوي بأهمية كبرى.. والأقصوصة تقول:

كان من بين المستمعين إلى أحد الرواة لسيرة عنترة رجل لم يطق أن يقف الراوي عند فصل حساس انتهت نقطة الرواية فيه إلى وقوع عنترة أسيراً لدى أعدائه سجيناً لديهم.. فما يكاد هذا الرجل يصل إلى داره ويتصوّر أن عنترة الفارس المغوار والشجاع المحبوب ملقى في الأسر حتى أظلمت الدنيا في عينيه.. فركل طبلية العشاء.. ونهر زوجته وأرغى وأزبد بما لا يحسن قوله من رذيل السباب والشتائم.. ولم يطق صبراً.. بل قام من داره وذهب إلى الراوي في بيته وبعد أن طرق الباب وفتح له.. طلب مقابلة الراوي.. الذي كان يتهيأ للنوم.. وبسط له حالته النفسية لا تطيق أن يكون هو هانئاً بحياته.. وبعشائه.. وبأهله.. لن تجد الراحة.. ولن يجد النوم إليه سبيلاً وعنترة البطل في سجنه بين أيدي أعدائه.. فأفهمه

الراوي بأن الموعد للفصل التالي الليلة التالية في المقهى.. فأجابه لكنني لا أستطيع الصبر إلى ذلك الوقت.. بتاتاً وابتدأت المساومة في مهارة من الراوي، وفي اندفاع من الرجل المتلهّف على إطلاق بطله من سجنه.. وبعد حساب دقيق لحصة الراوي من دخله الرسمي بالمقهى.. ومما يحصله خصوصياً.. مما يدفعه له الزبائن مناولة.. استعد الرجل للدفع.. ودفع ذلك فعلاً.. وحينذاك أحضر الراوي الجزء المطلوب من السيرة أخذ في سرد الحوادث والأحداث اللتين انتهيا أخيراً بحصول عنترة على حريته وخروجه من سجنه..

وهكذا تنفس الرجل الصعداء وعاد لبيته حيث تناول عشاءه هنيئاً مريئاً بعد أن وقف قبالة الزير المغربي وأخذ ترويشة رائعة رج بعدها العراقية والفوطة وراح في سبات عميق تتخلّل أحلامه رؤية بطله المغوار وقد شاهد عبلة وأخذ يبثها لواعج الفراق فتنهد الرجل بدوره وأزعج زوجته النائمة إلى جواره.. شارحاً لها ما كان بين عنترة.. وعلبة.. بعد فكاك البطل الأسير..

هكذا كان الراوي ـ في المقاهي.. ببلادنا، وكذلك كان تأثيره ونفوذه.. مما جعل لكل بيت راويه المفضّل.. فقد درجت بيوتنا ـ بالحجاز ـ لآنذاك جمعاً لشمل العائلة وقضاء للسمرة فيما يشوق ويروق على أن يكون لها راويها.. وغالباً ما يكون واحد من الصبيان طلبة المدارس..

وأتصور في سياحتي الفكرية كيف كنت في بيتنا الراوي لتلك السير.. نستأجر أجزاءها من العم الموصلي بالحراج.. ثم من العم محرم بسوق الجامع.. وكلما انتهى جزء أعدناه لاستئجار الجزء التالي له..

حتى تنتهي سيرة عنترة.. فنبدأ بسيرة بيبرس ـ أو أبي زيد الهلالي ـ وكان نصيبي بالبيت من الحفاوة والإكرام نصيب الراوي في مقهاه ـ فمن بعد غروب الشمس وانتهاء صلاته.. توضع بالشتاء المساند في ركن من أركان المجلس أو الصفة.. ثم يطبق اللحاف أربع طبقات ليحل محل المقعدة إن لم توجد.. وعلى طبلية صغيرة توضع القمرية.. وأمامي طبق به بعض حبات من النبات الشيناوي.. وما تيسّر من نُقَل الشتاء مع أبى فروة.. وأكواب السحلب.. ويتحلّق أمامي في حلقة ملمومة أفراد العائلة من السيدات الطاعنات في السن.. والانصاف.. والبنات.. والصبيان لأسترسل في سرد إحدى تلك السير..

أما في الصيف فينتقل المجلس بترتيباته ولوازمه وآدابه وتقاليده إلى السطح الحليق ـ أو ذي الطنف الواطي ـ ولا يختلف عن سابقه إلا في إحلال كؤوس السوبيا.. أو أكواب عليها الزبيب النباتي.. محل السحلب.. والشاي..

ويخفق قلبي خفقاً رقيقاً متصلاً باستعراض تلك الصورة التي أكتفي بلقطة منها ليرى أبناء الجيل الحاضر أن البون وإن كان شاسعاً بين المسلسلات البوليسية أو سواها يتحلقون لسماعها من المذياع اليوم.. أو من التلفاز حيث يقوم المذيع.. أو مراقبة البرامج بما كان يقوم به الراوي في المقهى إلا أنه متحد في الوقوف بهم في نهاية كل حلقة لدى النقطة الحساسة منها.. مما يثبت أن لا جديد في الأسلوب البشري إلاّ في استعمال الأدوات الحديثة بدل القديمة لإبرازه.

(٢٨)
زقاق المضاربة وَكَشّ التراب

.. ويستمر الخفقان بقلبي وجيباً عالياً يخضع سمعي لدقاته.. وتتركّز نظراتي على مرائيه البائدة.. فأتصور بيتنا القديم، والزقاق، والبرحة، والمدرسة، وما كان يجري بين كل منها.. وفيه من عادات يومية وتقاليد.. فأجدني باعتباري الصبي الصغير في العائلة مكلَّفاً في الصباح بحمل زبدية الفول وبعض القروش لقضاء العيش الصامولي، والمفرود، مراعاة للأذواق المختلفة بالدار.. وملء الوعاء بالفول وبالسمن البلدي أو بعض الطحينة أحياناً.. والعسل الأسود.. كعادة مطردة لا تختلف إلا في يوم الجمعة حيث أصحب والدي إلى الحلقة.. ومن بعدها إلى دكان المطبقاني لتحضير الفطائر ـ المطبق ـ المالحة منها بالبيض والمفروم، والحلوة بالجبنة الزقزق والسكر، أو بالموز والسكر..

ولا نكاد نحمد الله عند آخر لقمة من الفطور حتى أسارع إلى المدرسة وبين يدي بعض كتب الفقه أو النحو أو سواهما.. متمتماً بما فيها حفظاً بالغيب كالمويه، أو كالبلبل، كما كنا نسمّي الحفظ المضبوط.. والسير على قدمي الصغيرتين حافياً إن قدم مداس العيد أبو خرزين، أو منتعلاً إياه إن كان به رمق، وبالمناسبة فقد فرحت زمناً طويلاً

بحذاء كنا نسميه ـ التلِّيك ـ وهو من نوع الشباشب.. كان قد أهداه إليّ أحد أخوالي في عودة مباركة له من بومباي حيث كان يعمل موظفاً لدى الحاج محمد علي زينل صاحب ومؤسسة مدرستنا بجدة كما علمت فيما بعد..

وكانت الفسحة لنا مصدر بهجة ووقت أنس وانطلاق، نتمرّن فيها على المطارحة، باطاً لباط، أو باطين لباطين، والمطارحة نوع من المصارعة الحرة الحديثة، أو نلعب الكبت ـ مثلاً ـ بعد أن نملأ بطوننا من القتاء أو الخيار بالشرش.. أو من أقراص الدخن بالملح بعض الأوقات أو نقوم ـ والحق يقال ـ أحياناً بمساجلات شعرية من محفوظاتنا، تقوم القاعدة فيها على أن يبدأ كل من عليه الدور ببيت شعري يكون أول حرف فيه آخر حرف من البيت الشعري للقائل السابق.. ثم نعود إلى فصولنا بمجرّد سماعنا ـ الصفيرة ـ الطويلة معلنة انتهاء الفسحة.. وهكذا دواليك.. بين كل فسحة وأخرى حتى يحين موعد الانصراف في الظهر، لأعود راكباً رجلي حافيتين أو منتعلتين من المدرسة إلى البيت لأحمل لوح العيش إلى الفرن.. وهنا كانت تتجلّى مهارات الصبيان أمثالي في تقديم ألواح عيشهم عن الآخرين في ـ السرى ـ على امتداد الصف الطويل المتلاصق.. يتميّز كل لوح فيه بنوع الخرقة المغطّى بها، مع احتمال نشوب المعارك اليدوية، المضاربة، بين صبي وآخر، لا تفصلها إلاّ كلمة تخرج من بين شفتي الفران في صوت غليظ مفزع ليتقرر لمن الحق في سرى الألواح.

وكانت لنا في الفترة بين نصفي النهار نقضيها في الذهاب لبيوتنا للغداء والعودة ثانية للمدرسة.. فرصة لتكوين الصداقات مع زملائنا بين

مجاذبة الأحاديث المختلفة والمزخرفة بألوان من خيالات المراهقة.. ومن حسن حظي أن عاشت لي صداقات متينة من ذلك التاريخ إلى وقتنا الحاضر، أو القريب منه.. وماتت خصومات صبيانية كثيرة.

وما زلت أذكر أنه كان هناك زقاق ضيق قرب المدرسة سميناه ـ زقاق المضاربة ـ وكان الموعد الطبيعي لملتقى كل خصمين يريدان بعيداً عن الفصول أن يصفيا حسابهما بين حلقة من الزملاء كشهود على الغالب والمغلوب.. وكنظارة متفرجين همهم أن يثيروا أوار المعركة بواسطة حفنات من التراب يكشونها بين الغريمين للإثارة، وللاشتباك.. ولاستمرار المعركة.. ومن هنا جاء تعبير ـ كش التراب ـ الذي أحيينا تداوله حديثاً لنستمتع كباراً بما كان مصدر تفريج عن غرائزنا المكبوتة صغاراً.. حيث لا مجال لها بعد ملاعب الكرة.. للتفريج.. نرى فيها ـ عكس ما يراه سوانا من الكبار والصغار.. فرصة حيوية حية لتحريك ماء حياتنا الفكرية.. الاجتماعية، الآسن.

كما كانت أيام الجمع، في الحواري، والأزقة، والبرحات، وعلى شواطئ بحور الطين وأبحر وأبي العيون.. أعياداً شعبية تمارس في ساحاتها كل الألعاب الشعبية السالف ذكرها في أحد فصول هذا الجبل الذي صار سهلاً..

وربما انقلب أحد هذه الأعياد إلى معركة ضارية تبدأ بالأيدي والأرجل لتنتهي بالحجارة بين أبناء محلتين متجاورتين، ولا زالت جبهتنا تحمل آثار بعضها مما يثبت لنا بعض البطولات الصبيانية.. الزائلة.

أما أيام الأمطار، ومن الغريب أنه كانت لها مواسمها المنتظمة في ذلك العهد القديم البائد ـ فقد كنا نذهب خارج سور المدينة ـ جدة ـ

بقصد صيد الدَّبا والجراد، وقطف أوراق الشقلا، بقلا، خبيزة، أو سرقة ما تيسّر من الحبحب ـ البطيخ ـ من بستان عبد الجليل وكان موضعه بعد مقبرة الأسد على يسار الصاعد من طريق مكة ـ إليها..

وكانت المتعة الكبرى في خروج أفراد العائلات، الرجال والشباب، يصحبهم الأطفال لمشاهدة مياه الأمطار المتجمّعة في الصحيفة، أو في الشرفية، فيتخذون مقاعدهم على رؤوس الروابي بهما.. يشربون الشاي.. ويستمعون إلى المجسات، أو على من يقذفون بأنفسهم وسط المياه للسباحة فيها، كأبطال سباحة لم تقنعهم أمواج بحر الحجر أو بحر الطين.

كما أن من لذاتنا الكبرى صغاراً.. صيد الطيور.. نلتمسها في الكِدْوَة.. وفي المشهد ـ مصلى العيد ـ وفي سواهما من المحلات خارج السور، وكان صيدها فناً في ذاته وفي مشتقاته حيث نتفنن في عمل الشباك، وفي الأغاني نستدرج بها مع الصفير المناسب لكل منها.. العصافير.. والهداهد.. وما إليهما.. من أمثال.. يا عصيفر بلنصا.. ويا هديهد هلاوا..

ولقد كانت أكبر الدروس خرجنا بها من هواية الصيد منذ الصغر.. الصبر، الصبر الجميل لا تطيقه طباع الصبية المتحرّكة لا تستقر على حال.. حين يربض الواحد منا زمناً ليس بالقصير عند طرف الحبل لشبكته في انتظار الطير يتهلى قريباً منا مدفونة تحت الرمل كمن يحوم حول الحمى.. في أناة.. وغفلة.. بل وفي دلال أحياناً.. كما يصور تلك الحالة بحق.. المثل القديم القائل:

الطير يتفلى.. والصياد يتقلى!

(٢٩)
صور شعرية.. شعبية

وإنني لاحتفظ داخل ظرف أصفر باهت ببعض ما لم ير النور من شعري.. لأجد المناسبة اليوم فيه.. بعض قصائدنا تمثل شيئاً مما سلف ـ ولأقتطف منها ـ رغم الإحساس برذيلة تكرار الاستعراضات الشعرية.. بعض الأبيات ترسم صورتها الشعبية صوراً شعبية يستدعي البحث وطبيعته الاستشهاد بها.. في حدود الضرورة اللازمة.. دون استكمال لها.. أو ترتيب.. في سياقها المسرود..

فمن قصيدة.. عن بيتنا القديم الكبير.. بعنوان "كوني الصغير!..":

عشت في بيتنا الكبير　　تحته السوق كله
أشهد الدرب.. في المسير　　ضاق بالناس حفله
أرقب البائع الحقير　　طفف الوزن رطله
جنبه الحاذق البصير　　شاع بالذكر فضله
اجتلى صانع الفطير　　رائق الصنع شغله
خافضاً حسه الأثير　　يوجز الصبر قوله

أو أرى "السيد" الشهير ذاع في الحي فوله
يلتقي عنده القصير ما علا الشبر طوله
صوبه المبسط النضير راق للعين شكله
إنه السوق.. كالمصير صفت الرزق سبله
إنه كوننا الصغير طاف بالفرع أصله

(في محطاته القصار)

يعرض النفس.. والضمير علم المرء دخله
فيهما.. الكر.. والفرار..
أول الناس.. كالأخير سابق الجسم ظله
ويل من فاته القطار!!

ومن قصيدة أخرى.. لم أجد لها عنواناً.. وليس من المهم أن يكون لها عنوان.. أقول:

ومن السبت.. للخميس نطلب العلم.. في الفلاح
نحفظ النحو.. والحساب في اجتهاد.. وفي مرح!
نأكل الجبن.. والتميس في غدو.. وفي مراح
يستوي القشر واللباب بين وقت الفسح
عند من خاب.. ومن نجح!!
ومن الصبح.. للمعاد طول يوم الجمع..
نلعب الدوم.. والكبوش والمداوين.. والكبت
أو نصيد الدبا.. الجراد إن عدا.. أن قبع

نصرف البعض من قروش بعضها يورث الشبع
في المداريه.. في المتع!!

كما نجد أن بعض فقرات قصيدة.. الراوي.. والمقهى.. تؤكِّد في صدق.. وإخلاص.. وحنين.. بعض ما أسلفنا عن شخصية الراوي ذاته.. وعن أثر المقهى البلدي في حياتنا الماضية المنكمشة في حلزوناتها المهملة الباقية.. وتقول بعض هذه الفقرات:

وإذا أقبل المساء
وانقضت.. للعشا.. صلاه اجتلى السوق.. في بهاه
حلقت وسطه الصفوف..
في المقاهي.. أرائكا أمها الكل.. واتكى
يشرب الشاي.. لا الكيوف
يسمع الراوي العجوز بين ما جاز.. لا يجوز
يحسن السرد.. والوقوف
مده الليل ـ قنطره لابن شداد.. عنتره
قاتل الناس بالألوف
قاهر البيد والبواد رافع السود والسواد
سمعة حرة الطيوف
راكب ـ الأبجر ـ الحصان خالد العصر.. والأوان
ناشر الرعب والحتوف
اعشق الليل والنهار من كبار.. ومن صغار!

دأبه الكذب.. والشجار رائج الصنف.. والشعار!
قد علا صيته.. وطار ما لدى نارنا خيار!
ناصع اللون.. والجرار والفتى الغض.. والكبار!
ما علا خبزه.. الغبار بين عسر.. وفي يسار!

حتى نصل بعد زمن إلى صورة من صور فتياننا الحارويين آنذاك تجمعهم المقهى.. منتدى سمير.. ومجتلى رجلوة.. وملتقى طرب غير مائع.. ولا مجلوب.. في جزء من فقرة من مقطوعة تقول:

أو أرى صفوة الصحاب من فتواتنا الشباب
"جوقة".. شدوها قطوف غنت "الجوك" في نهم
ساحر الصوت.. والنغم نضبط الوقع.. بالكفوف
بين صهبائهم لقا زان غصن النقا
كللت هامه الحروف.. فتية دأبها المدى
الهوى.. ناقع الصدى مازه كوننا الألوف

وإنني لأرجو لهذه الصورة الشعبية.. على تواضعها أن ترى النور كاملة.. في وقت ليس بالبعيد.. إن شاء الله ولعلّ فيما ساقنا إليه الاستطراد محمولين فوق سحابة رائقة.. من سحب الهدا المتناثرة في يوم غائم بمجلس الصديق الوزير ما يؤكِّد بعض حسنات هذا الجبل الأشم العالي.. الجبل الذي صار سهلاً.. ما بعدنا عنه بالذكرى حديثاً يطول.. ألا لنعود إليه بالقلب هوى يرفرف.. وحباً يتأكد.. بما كان له.. وما صار.. من حسنات.. وحسنات!.

(٣٠)

قصة قصيدة. . جدة!

وقبل أن أقطع صلتي بالشعر الموؤود والمنشور ذكريات مصورة حية. . وقبل أن أودع مدينة جدة في سياحتي النفسية. . وأنا قابع بالجبل. . فلا بد من وقفة قصيرة أستعيد بها وفيها ذكريات أول محراب شعري خلوي لذلك الفتى الحالم الذي كنته يوم أن عرفت الجبل. . وبعد أن أودع قلبي وديعته الوجدانية فيما قالته لي وديانه. . وزهراته. . وروابيه. . وغدرانه. . تغن بي حباً. . وغنني شعراً. . فأنا بلادك جزءاً من كل. . فسأكون لك الوقود. . والزاد. . وسأتراءى لك الأطياف في مستقبل حياتك تصليك بالشواظ يتلوه الشواظ. . وتحملك بعيداً عني بين صخور الحياة. . وأصلادها اللاهبة. . وصحرائها الجرداء. . أو تتلاعب بك أهواؤها الهوجاء. . مقهقهة ساخرة، لاهية فوق أمواج الأيام الهادرة. . وبين ثناياها الساكنة. . فلقد حملني بساط الريح. . السحابة الداكنة من الهدا بمجلسي به في ضيافة الصديق محمد عمر توفيق. . ومن فوق الركيب السندسي الأخضر إلى جدة. . وما زالت ترفرف. . وتطوف حتى استقرّت بي أخيراً فوق الهامات الصغيرة الحالمة لتلك الروابي المبثوثة. . والتلال المنثورة آنذاك خارج سور جدة. . وفي المنطقة الشمالية الغربية منها حيث تنبت وتتناثر.

وعلى مقربة مما كان يسمّى يومها.. سقالة الإنجليز.. لساناً صغيراً من ألسنة البحر.. قامت هناك.. ولأمد طويل.. صفوفاً صغيرة متباعدة الظلال متقاربة الخيال.. حتى أتى اليوم الذي زالت نهائياً فيه.

فأذكر.. وأتذكّر كيف كنا يومياً ودون انقطاع نودّع المدينة ـ جدة ـ في الأصيل وقبل الغروب أحياناً.. شأننا في ذلك شأن بعض سكانها المرتادين مجالسهم هناك.. والمعتادين على ذلك الارتياد اليومي.. نزهة للنواظر.. ومتعة للخواطر.. وفسحة للأجساد من عناء أعمالهم اليومية المكرور..

وعلى رأس تل.. عرف بنا.. كما عرفت جماعتنا به وقفت سحابة الذكريات حيث كنا نقضي الوقت فيما بين المغرب وقرب العشاء أو ما بعده بقليل.. صامتين إلا من هواجس نفوسنا.. هائمين مع خيالاتنا الشابة لا يحدها جو ـ أو يقف دون حدودها فضاء فكانت تنسج في رقة ـ وتأمل ـ وهدوء الخيوط الشعرية الأولى كما ينسج الفجر خيوطه الأولى يستقبل بها الدنيا.. تستقبل به الناس الحياة..

ولعلّ من نعميات الجبل أهوتني قمّته وسحابته الداكنة وقفت بي لدى أعزّ الأماكن لدى نفسي.. في مسقط رأسي أنني استروحت بتلك الوقفة الصغيرة ما غطت عليه الأيام.. وتراكم فوقها غبار الأعوام المتلاحقة دون حساب للزمن وفي غفلة عن ركضة اللاهث.. فقد تهيأ لي ذات ليلة أني نظمت قصيدتي ـ جدة ـ في جلسة واحدة فوق تلنا المعروف بنا.. والمعروفين به.

وكنا ثلاثة أخوان أصدقاء.. عبد الحميد مطر.. عمر عبد ربه.. الداعي لكم بطول البال على ما يكتب.. وما تقرأونه.. أو لا تقرأون..

تمرّون به لماماً.. أو دون علم بوجوده في هذا الحيّز من عكاظ يتوارى به ظل هذا الجبل الذي صار سهلاً.. ولقد ألفنا ثلاثتنا أن نفارق سور جدة أصيل كل يوم لنقضي وقتنا الهنئ الساجي بين تأمل.. وخيال.. وذات ليلة ـ وعلى غير قصد ـ سرحت غير عامد.. لا مستهدف من خواطري شيئاً معلوماً وما أن هممت في خفوت.. ثم في صوت مسموع.. وفي أعقاب حديث رائق عن جدة مادة ومعنى.. ومسقط رأسي ـ بأول بيت:

لك يا جدة الحبيبة في القلب   مكان محبب مألوف

* * *

حتى توالت الصورة في خيوط تشبه إلى حدٍّ كبير خيوط الدانتلا تنسجها يد الفن.. غرزة إثر غرزة.. بيتاً بعد بيت.. إلى أن تكوّن هيكل القصيدة لا ينقصها إلا الكتابة.. فالتصحيح.. فالتنقيح.. فاللمسات الأخيرة.. لتكون..

ولقد كنا ثلاثتنا في شبابنا.. على حظ كبير من قوة الحافظة.. فما أن وصلنا مركزنا الليلي للسهرة ـ بيت العتيبي ـ حتى جاء شيخنا يرحمه الله بقرطاس وقلم ـ فتم الإملاء.. وكملت القصيدة.. عن البلدة الحبيبة المحبوبة نشترك كلنا في التعصّب لها.. وفي التغنّي بها.. حباً لا تقوم أصوله على معالم جمال بارزة.. أو مذكورة.. ولكنه ذلك الحسن ـ والحلاوة على الأصح ـ من النوع المستور المحسوس.. أو الخفي المبين.. كما سميناه في قصيدة أخرى من حديث غزلي طويل..

وربما كانت الأنانية الغشيمة لا يبررها مسوغ عقلي بارز هي التي تسوقني لتخصيص هذه القصيدة عن جدة ـ ذكرى ـ وموضوعاً قد لا

يشاركني الكثير ـ أو الكل في جدارتها بهما وربما كان الدافع كذلك لون من ألوان النرجسية.. ولكني بباعث مجهول صادق أستطيع أن أؤكد أن الأمر غير ما ورد وما قد يرد.. ولكنه ما قد أستطيع إيجازه نزولاً على التعليل العقلي الواعي في سرد العلة والمعلول.. في الآتي:

فأولاً ـ لقد دفعت هذه القصيدة فيما بعد بعضاً ممن أحب وأقدر لمعارضتها ـ وفي مقدمتهم الصديقان الشاعر الكبير الأخ حمزة شحاته ـ والشاعر المجهول أخي المرحوم محمد سعيد عتيبي أما حمزة فقصيدته منشورة معلومة وأما العتيبي فقد ضاعت قصيدته فيما يلوح لي فيما ضاع من أثره.. وآثاره..

وثانياً ـ وهو الأهم ـ فقد أصبحت هذه القصيدة لدى قارئيها فيما بعد إحدى مصادر التفسير لهذا الحب اللاذع والهادئ معاً لهذه البلدة ـ جدة ـ ممن نزح إليها، فاستوطنها.. من إخوان لنا من مكة ومن المدينة.. ومن سواهما من سكان هذه المملكة الأوفياء.

وثالثاً ـ ولعلّه النزعة الوجدانية الملحّة الصادقة.. الرغبة حيناً في الخروج من صدفتنا القديمة.. يسميها الناس صفة التواضع.. ونسميها القوقعة الذاتية المباركة.. نتنفّس بعيداً عنها.. هواء جديداً علينا.. ونفرح قريباً منها بأصوات غريبة عنا..

ولا بد لاستكمال القصة.. من ورود الصورة ذاتها.. أو معظم أجزائها بالأحرى.. لسد الخانات الواردة سلفاً.. في التفسير المظنون.. أو في التعليل المرجو القبول..

(٣١)

هل أنت حي..؟!

واكتفي.. رحمة بالقارئ إن وجد.. وتألفاً له.. وجلباً لسواه حين يوجد.. ببعض أبيات من كل مقطع رئيسي من قصيدة جدة التي سبق ذكر قصتها.. فهي ـ القصيدة ـ في جملة مقاطعها طويلة نوعاً ما.. مسترسلة الذوائب.. مرخية الأطراف.. وتبتدئ هكذا:

لك يا جدة الحبيبة في ... النفس مكان محبب مألوف

طار فيه صدى الجديدين.. ... بالأمس.. وما زالت الحياة تطوف

أنت جزء من موطن ملء قلبي ... بعضه المستطاب والمألوف

أنت في ومضة الخيال بعيني ... الآن خود جم الحنان المطيف

قمت للقاصدين.. بسّامة الثغر ... لعوباً.. تلقاك منهم ألوف

فكأن السهل الفسيح فناء ... والقرى فيه والضواحي ضيوف

وكأن الجبل دونك في الأفق ... مكان الإشراق سور مطيف

وكأن التلال حولك بالشط ... حراس مدى الزمان وقوف

وكأن الخضم صب على الباب ... طريح.. وأنت عنه عيوف

يترامى هوى ـ فتقصينه عنك.. ... فيرتد.. والمحب ضعيف..

ها أنا الآن فوق تلّي.. ساجي ... الطرف يسمو بي الخيال المشوف
والدراري مطلة ترهف السمع.. ... عليها من الحياء كسوف
والعيون الحيرى توصوص في الشط ... فينأى بها الفؤاد اللهيف!
هكذا أنت فتنة من كوى الفكر.. ... يراك المدله المشغوف
ولدى عالم الحقيقة شيء ... دون هذا ـ لولا هواك العنيف
أنت ذاك الميناء.. والبلد ... القاحل إلاّ من الهوى.. يستضيف
فإذا شئت أن يصورك الحسن ... فما بعدما يرى.. موصوف!
وإذا شئت أن أكنى.. ولا مهرب ... من ذاك يبتغيه الأنوف
فاعلمي إنما الحبيب حبيب ... كيفما كان.. والألوف ألوف
والمحبون في البرية أغراض ... رماة سهامها التعنيف
والملام البغيض مبعثه الجهل.. ... وبغض الجهول ليس يخيف
والمراءون أدعياء وطبع الحر ... طبع يشينه التزييف!
فإذا قلت.. مرة.. فلك الويل ... .. فلا غرو ـ فالحياة صنوف
إنما سرب الملال لقلبي ... أمل ذابل ـ وعيش سخيف!

* * *

وهكذا كان للسحابة الداكنة.. بنت الجبل.. حملتنا من الهدا إلى جدة.. مدينة.. وضواحي ومشارف.. فضل الذكرى عشناها دقائق حية في وقت لا نصيب لنا من الحياة فيه إلا العيش.. موجزاً في يوميات متداولة مكرورة فيما يباشره.. العائش.. لا الحي.. والبون شاسع بين المعيشة والحياة كما لا أحتاج أن أقول.. بأسلوب من قال.. هل أنت حي؟!

وهكذا أيضاً بعد أن قضينا وطراً ساقتنا إليه حوافز مخبوءة يدفعها الحنين القديم عدنا إلى حيث كنا بمجلسنا فوق قمة الجبل.. انتقلنا فيه من موقعه الأرضي فوق الركيب بساطاً سندسياً أخضر.. إلى داخل الدار.. حيث الدفء.. والإشراق من نافذته على مكان الطباخ..

وهكذا ـ لثالث مرة ـ استفقت من حلمي الطويل الرائع على الحقيقة المادية.. تلمع في اللهب ينبعث من الحطب تتصل وتتابع في جملة قصيرة لها مدلولها تحت قدر السليق.. تشخص الأبصار بين الفينة والفينة إليه.. ثم لا تطيق النفوس خبراً فإذا الناس علامات استفهام لهفة وقلقاً.. هل رمى الرز فلان؟.. ورمى الرز في عرف واصطلاح آكلي العربي إيذان رسمي.. وإعلام لحملة الموائد بمباشرة واجبهم.. فرداً للصفرة كما نقول.. وصفاً للأطباق الفارغة.. وصفها بحساب يضع في اعتباره الأول عدد التباسي.. وجملة الطاعمين.. مع مراعاة دقيقة لمكان التبسي الممتاز لتتصدره.. كعلامة بارزة رأس الخروف بما فيها أبو الكلام.. لسانه الطويل الأخرس.. أو القصير لا يفتر عن الحديث.. يولد الحديث.. على طريقتنا.. فيما نحن فيه..

وأخيراً.. جاء الفرج.. في قولة موجزة موجهة إلى المضيف صاحب الدار.. تفضّلوا.. فتفضلنا.. دون ترتيب في الجلوس.. لا في المراكز.. ولا في الأحجام.. وقد تحاشيت جهدي أن يأتي مكاني بجانب من لم يكن همهم من المهندسين يومها إلاّ الحديث عن عمليات الجبل الحبيب.. وينتهي العشاء.. سليقاً ممتازاً.. تناولناه بمرابيع الصديق محمد عمر توفيق وكنا قد أنهينا قبله الشوط السابع من لعبة ـ الشطرنج ـ حيث كتب لنا الفوز في معظم الأشواط بفضل استقلالنا بالرأي.. وانفرادنا

بالخطة السرية عكس خصمنا الصديق الذي فتح لأضيافه مجاملة باب الشورى على مصراعيه فكانت الآراء تترى لديه بتحريك الرخ.. أو نقل الفرس.. أو النط بالبيدق بيتين دفعة واحدة.. أو بسواء ذلك.. فتكون هذه الخطط المكشوفة الشائعة باعث بلبلة وضعف له.. ومصدر قوة لنا في الترتيب الحاسم.. تتلوه بعد حركات.. الجملة التقليدية تزف لنا النصر.. كش شاه.

والواقع أن غرقي في الشطرنج إنما كان تحاشياً وبعداً عن الاندماج في عملية سماع ما حوته التقارير الخاصة بما كان يفعل بالجبل حينذاك وما كان يتناقله بالرواية ـ وبالأوراق بين المعلم ـ وهو الشيخ محمد عوض بن لادن ـ وبين وزير المواصلات الصديق المضيف.. وذلك خشية أن تضعف مقاومتي أخيراً، فأوافق على ما اقترحه الصديق بقيامي بزيارة خاطفة للجبل لأخذ فكرة عن الطريق فيه وقد تمّ في معظم أجزائه.. بل وبنزولي منه.. بإذن خاص.. وأشهد أن إصراري على عدم رؤية حبيبي تحت الماكياج إنما كان قوياً لم تهن العزيمة فيه.. ولم تتزحزح الكلمة به قيد شعرة عما سبق إعلانه.

حقاً لقد علّمني هذا الجبل الذي صار سهلاً ما لم تعلمنيه المواعظ المرتلة ينتهي الولع بها دون الأخذ بفحواها.. عند ذهابها أدراج الرياح.. أو لدى استقبالها في أدب وتبتل ينتهيان كذلك بوقوفها بحدود طبلات الآذان الصماء.. أو اختراقها إياها لتدخل من أذن.. ولتخرج من أخرى.. عكس التعليم الحي النافع من الجبل تتوفر فيه مزية القدوة الحية.. والمثال العملي الصامت.

فعن طريق هذا الجبل بركوبي الحمير إليه ـ تعلمت الصبر ـ وأتقنت

التأمل.. وسلكت منه وفيه أولى خطواتي بدروب الفلسفة لا تغني عن الشعر.. ثم باندماجي به كاشفاً لي في صراحة وبساطة أعماق قلبه تسللت داخل البوابة الخضراء لأستقبل هناك دنيا الشعر.. لا تعترف بالفلسفة.. ولا تضع أرقاماً للتاريخ.. عازفة تمام العزوف عن نصب الموازين أو مطففة لأقوال الناس.. في الناس!..

(٣٢)
الرجل الشاب!!

وبانتهاء العشاء.. سليقاً.. واللعب.. شطرنجا.. والقهوة العربية سادة وبسكر.. والشاي أخضر.. وأسود.. صرفاً من النعناع وممزوجاً به.. أخذ الصديق محمد عمر توفيق بطريقته العالمية في الزن المركز يودود في سمعي بما تم عمله في الجبل.. طريقاً.. وقد تم معظم المطلوب تقريباً.. وكذلك بما هم بسبيل إتمامه فيه.. خاصاً ببعض الاحتياطات.. وبالتغلب على بعض العقبات الطارئة برزت أنيابها الكاشرة فجأة وعلى غير انتظار..

والصديق الوزير لعلم من لا يعلم.. ولتجاهل من يتجاهل.. حجة وبحر حبر فهامة في إطلاق الأسئلة.. كوابل من الغيث.. يرد ببعضها على سؤال إليه.. بعشرة من أمثاله.. كالحسنة الطيبة في محلها المختار.. ونيتها المباركة.. وقد راقني في بداية الأمر وحتى نهاية السمرة أن تكون تلك الأسئلة سبباً مباشراً وغير مباشر في نشر كثير من الحقائق والمعلومات.. كما راقني أكثر.. أن أكون.. سميعاً.. لما يجرى من بحث.. واستطلاعات وتحقيقات عن الجبل بين المسؤول وبين بعض مهندسي وزارته.. ولكن لم يكد الكلام يتناول بعض صفات الجبل

وطبيعته.. وتاريخه القديم.. حتى لعب وسطي قسراً.. وانطلق لساني عفواً فزحفت إلى حيث كانت حلقة الذكر.. وانضممت مشاركاً في الحوحوة.. وفيما خاض فيه القوم..

وكان ما يلي في سطور.. هو الحصيلة النهائية مما دار.. وطال.. دون تنسيق.. أو تبويب.. أو نسبة رواية أو معلومات بذاتها لقائل بالذات..

١ ـ لقد عاش هذا الجبل مطلاً على ما يليه بوادي نعمان من مشاعر مقدسة.. عرفات.. مزدلفة.. منى.. محتفظاً بوقاره الجبلي التقليدي.. دون مشاركة هامة.. أو بسيطة منه.. في تاريخ بلاده..

٢ ـ اعتز هذا الجبل ـ كرا ـ شامخاً بقمته.. ترتفع عن سطح البحر ١٩٥٠ متراً.. وعن سفحه ـ الكر ـ ١٢٠٠ متر.. بينما لا تتجاوز مدينة الطائف التي يسلك طريقاً إليها ارتفاعاً عن سطح البحر إلاّ ١٦٠٠ متر..

٣ ـ ولقد أطبق فاه.. ولملم جوفه على طول المدى.. محتضنا القردة.. علماً عليه وعالماً قائماً بذاته الحيوانية فيه.. منزوياً عن عالم الإنسان ـ ودنيا الناس..

٤ ـ صافح اليد البشرية ـ في امتعاض ودون تودد.. في حدود عام ٤٣٠ هجرية.. حينما جرى افتتاح أول طريق سلطاني بدائي فيه ـ على يد معمره حسين بن سلامه وزير أبي الحسن صاحب اليمن.. زياد.. بما يسمح عرضه لمرور ثلاثة جمال بأحمالها فيه..

٥ ـ ويومها.. ولأول مرة في تاريخه.. عرف الحجارة.. رصفاً.. والبلاط درجات وسلالم عريضة مريحة.. في أجزاء منه.. وأقر الرمال الممهدة من تربته معبراً في أجزاء أخرى من هذا الطريق الجديد به..

ولقد تم إجراء تلك العملية في هدوء وبلمسات رقيقة لم يكد يشعر بمرورها على أجزاء جسده الصلد..

٦ ـ ومن يومها مشت به في راحة واطمئنان ـ بعد رهبة ووحشة ذوات الأربع.. والإخفاف متصلة السير تحمل الميرة.. أو الناس المصطافين..

٧ ـ فشاهد في دهشة واستغراب.. البغال الموقرة بأحمالها.. وبراكبيها.. كما عاين الجمال بهوادجها ـ أو عارية الظهور منها.. تتلمّس في تمهل.. وببطء السبيل إلى هامه.. وألف مستنكراً ربع الحمر القميئة.. بعد أن كانت تحبو.. متلكئة ساقطة.. أو متحيرة في اختيار نهجها الصخري العسير..

٨ ـ ولقد أشفق كثيراً على جيرانه سكان الأودية والمنازل بقمته.. وهم يقومون كوسيلة رزق ـ بأدوار الإدلاء إليه ـ وعلى ما فيه من كنوز طبيعية مخبوءة أو مبعثرة في أغوار.. وبين حفرات..

٩ ـ ولقد زاحم ـ دون قوة على المنافسة ـ بذلك المعبر الجديد ـ رغم بساطته.. طريق السيل في تشجيع حركة الاصطياف بالقلة النادرة تسلك ـ طريق الجمال ـ إليه.

١٠ ـ وابتدأ تاريخه الحديث البداية الموفّقة حين عاش خيالاً.. وتوسّع فكرة بعيدة في أحلام الرجل الشاب.. فيصل بن عبد العزيز.. عام ١٣٤٧.. ثم منذ أن صعد ذلك الشاب الرجل إلى منطقة الهدا.. وجال ببصره في مشارفها.. ورأى أوديتها من قمة هذا الجبل الشامخ الصامت الملتف في صخوره الهائلة يغطّي بها سره البعيد.. مجازاً قريباً اكتشفته بصيرة ذلكم الرجل الشاب.. في تلك الوقفة التاريخية..

١١ ـ ولقد راقب حينها ـ وبعده ـ في صمت وهلع ـ نظرات العيون الغريبة المسلّطة عليه تعاينه المعاينة.. درساً لجوانبه.. وتوغلاً بأحشائه.. وقد خفضت أخيراً أنظارها خاضعة لهيبته ولجبروته فانصرفت عنه..

١٢ ـ ولكنه تابع.. قابعاً.. مضطرباً.. الخطوات البعيدة يمهد لها الدرب وييسر به المنهج ذلكم الرجل الشاب نفسه. فيصل بن عبد العزيز.. مصوباً إليه النظرات نافذة ثاقبة لاستكشاف ماهيته.. وفحص جدواه، وفي بصيرة وأصرار وأخيراً.. وبعد مرور حوالي قرن من الزمان على تعمير أول درب بدائي فيه.. علم يقيناً.. ولكن في صمت وخشوع.. بما تم توقيعه عام ١٣٧٦ بين سمو الأمير الوزير سلطان بن عبد العزيز عن وزارة المواصلات ـ وبين الجندي المجهول المعلم محمد بن لادن ـ عقداً رسمياً يقضي بأن يكون هذا الجبل الذي عاش جبلاً.. سهلاً ميسراً في نفسه وميسراً للناس الطريق لما وراءه من سهول وجنان وذلك ليتم تنفيذ خيال وفكرة الرجل الشاب المشرف على قمّته عام ١٣٤٧.. فيصل بن عبد العزيز.. بعيد النظر.. بما أبصر.. وقدّر!

(٣٣)

ما أشبه الليلة بالبارحة . .

ولقد نسيت . . وكثيراً ما أنسى . . أن أشير إلى أن وصولي إلى الطائف عام ١٣٨٤ كان بطريق الجو . . ورغم البعد الزمني بين أول رحلة بالحمير للجبل الذي صار سهلاً . . ورحلتي هذه بالطائرة . . في عصرنا العالمي الحاضر . . ورغم إيماني بفعل الزمن وحده . . لا تتحكم كثيراً في تحويل مجراه . . لسبب أو لأسباب ما . . القوى البشرية المتطوّرة . . فإنني لم أعقد أية مقارنة بيني وبين نفسي بين ما كنا فيه . . وما صرنا إليه . . لماذا؟

لأننا . . مثلاً بقينا سنوات طويلة جداً نقطع الطريق بين جدة ومكة في يوم واحد على الجمال . . وفي ليلة بطولها على البهائم . . فألفنا الصبر والنصب علامتين معتادتين من عوامل الزمن المطلق . . ثم أصبحنا نقطعه في ساعات على السيارات في طريق غير مسفلته . . وإن كان التعبيد والسيارة دليلين ضعيفين ـ حتى ذلك التاريخ على إمكان تحكم القوة البشرية في القفز بأرقام الأعوام البطيئة كما تلاها . . جزء من الزمن المهدور . . بل لقد كنا نعاني بالسير بالسيارات والطريق كما كان عليه . . أضعاف ما كنا نعانيه على قطعه بين جدة ومكة على ذوات الأربع!

ومن ذكرياتي في هذا الباب للترفيه.. وللحمد على ما نحن عليه الآن.. خصوصاً بالمواصلات أنني كنت أعمل بمكة بينما كانت عائلتي بجدة.. شأني في ذلك شأن الصديق حمزة شحاته.. فكان كلانا يضطر إلى النزول منها إلى جدة مساء الأربعاء.. احتياطياً.. لضمان قضاء الجمعة بين ذوينا.. وكثيراً ما اضطررنا للسير على أقدامنا مع طابور الركاب بضعة كيلومترات.. لبنشرة السيارة.. أو لنفاذ وقودها.. أو لعطل فيها أو لسبب من الأسباب التي كانت تغيب عن أنظار دهاقنة المسؤولين عن الشركة العربية للسيارات التي كانت تمثل ـ كشفريا ـ يعني دملاً كبيراً لا رأس فيه ولا فتحة! ـ في رقاب البلاد والعباد.. بل ربما قضينا في الطريق ليلة بطولها وجزءاً من نهار.. وذلك فضلاً عما كان الراكب منا يعانيه في تكدسه مع سواه بين طرود.. وطرود.. متربعاً.. أو متحوفزاً.. أو محشوراً بين زملائه.. في انتظار قيامها للرحلة دون جدوى.. حتى يصل البشير أخيراً بأن آخر طرد منتظر قد وصل.. بسلامة الله من مكتب.. أو دار فلان!

ولسيارة البريد.. وهي تابعة للشركة المذكورة أعلاه بالأجرة أو بالتعاقد مع المالية.. في تاريخ ما أهمله التاريخ لدينا.. نوادر وحكايات لو سردت بأمانة على شخص من أبناء الجيل الحاضر لظن الحكاية متصلة لا بطريق جدة ـ مكة بل بجزيرة واق الواق.. أو بدغل مجهول من أدغال أفريقيا المهملة. وأذكر أن الأديب المرحوم محمد سعيد عبد المقصود خوجه قد سجل نتفاً من ذلك التاريخ المزعج على صفحات أم القرى الرسمية تحت توقيع.. الغربال.. كما أننا ساهمنا بقسط متواضع أذكر منه على لسان سيارة البريد نفسها تمدّه لأمها في الرضاع.. الشركة

العربية للسيارات ما يأتي:

"أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي"

بلعت مطبات الطريق جميعها ... وغرزت فيها تاتي. تاتي . تاتي

وبنشرت في كل المحطات دائماً ... وقد طلعت من جلدها.. كفراتي

ولكن جزى الله السرسيون رقعة ... أداري بها ما داب من عجلاتي

ولا حط في الجالون خيراً.. لأنه ... يطير من بنزينه.. بركاتي..

* * *

إلى أن نقول عن بعض مواضع معارك التغريز الشهيرة في ذلك العصر وهو زقاق حداء..

فإن تسألوا عني "الزقاق" يجبكمو ... برمل غويط لين العضلات

فكم ليلة قد بت فيه.. بطولها ... وفارقته منها.. لوعد آتي

وما فكني إلاّ بكل تكلف ... وقوة أيد تحسن الدفعات

فلا تشتموا السواق بالله وارحموا ... ضعيفا فقيراً.. دائم السفرات

وحتى نتناول.. في زغزغة لا تثير أو تجرح.. المسؤولين بالشركة.. فنقول:

فدونكموا هذا الدركسون.. أو خذوا ... من اللي كروكم.. كامل الريالات

فهم فلتوني من قراشي.. وحيدة ... أجرب في طول الطريق.. ثباتي

وما فتشوا من قبل ذلك عدتي ... ولا وضعوا لي باقي الأدوات

ولا شتموني أي يوم لما جرى ... ولا سألوا المسؤول عن حركاتي

تعالي وروحي كل ذلك شغلهم ... أديني أجيهم ـ أو أروح ـ يوماتي

* * *

ولقد عشنا فعلاً نروح ونجيء كل أسبوع.. مستبسلين في خوض معارك الطريق بين جدة ومكة.. ثم بينها وبين الطائف في زمن الصيف.. وبينها وبين المدينة المنورة حيث المغامرة الكبرى لا تقاس إليها النوادر والمفارقات ـ والمصاعب التي كان يلقاها آباؤنا وأجدادنا الرواد الأوائل فيما كانوا يسمونها ـ الركوب! جمع ركب.. وهم جماعة من الناس يركبون ظهور الحمير التي يربونها خصيصاً لزيارة المسجد النبوي ومعهم زادهم.. ونبابيتهم.. وشواحطهم وأخراجهم الملأى بالزاد.. يعودون بها موقرة بتمور المدينة.. ويتقدمون "المزهد" وهو مغنى الركب ـ أو "حاديه" بلغة الأجداد القدامى.. بعد أن يكون قد أخذ يستنفر الناس للخروج مع الركب أياماً وليالي في البلدة كما يفعل القاصدون لمعركة ما. وللركب ـ ومزهده ـ وقوانيه مجال طويل ليس هنا محله كله بطبيعة الحال وإني لأحس استرواحاً في سرد ما سلف وما قد يعتبره البعض فضولاً في السرد ـ أو نطة بعيدة في الاستطراد بين ما كنت بسبيله عن وصولي من جدة إلى الطائف عام ١٣٨٤ بطائرة تخترق السحاب.. وما ذكرته عن المواصلات تتملل بين أمواج الرمال.

ولكني أنذركم بأن ما قلت.. هو الطابق.. أما "الكسرة".. فهي خاصة بالطائرة نفسها.. وقبل الخوض لا بدّ لنا من تعريف كلمتي "الطابق ـ والكسرة" وهما بإيجاز من اصطلاحاتنا البلدية في حفلات العرس البلدي القديم.. فقد كان لزاماً فيها أن يزف العروس مرتدياً الجبة والعمامة الألفي.. وذلك قبل دخوله ـ للنصة ـ بالطيران تنقر على رأسه من المغنية وزميلاتها. وكانت تلك العملية تسمّى على أيامنا ـ التزحيف ومن مستلزمات هذا التزحيف أن يكون له "طابق" أي دق مقرر

كفاتحة.. ثم كسرة.. أي نقر مخصوص.. كخاتمة.. يعني هناك.. مشق.. ومحط.. بلغة.. المجسات.. وطابقي الذي سلف إنما كان عن حالة الطرق البرية والسيارة، أما "الكسرة" فهي عن حالة الطائرات التي ركبتها يوم أن انتقلت بواسطتها من جدة للطائف.. دون مشاهدتي للجبل الذي صار سهلاً.. فقد أراد الله.. ولا راد لقدره.. أن نصعد لنحشر بها في أشد أيام الحر نزا متواصلاً.. وعرقاً منعدم النظير.. ثم تبيّن أن أعضاءها لأمر ما قد تصلّبت وكدنا داخلها نفطس.. كما نقول من الومد حتى أذن لنا بالخروج منها لإجراء اللازم لها.. مما جعل ذاكرتي تلقائياً تقفز لأداء واجب المقارنة بين سيارة البريد في الخمسينات.. وبين طائرة الخطوط في الثمانيات.. ومما أكّد لي الحقيقة الرائعة في الحملة الشائعة.. إنما يعيد التاريخ نفسه.. وتحاشياً للإطالة.. وتمهيداً لإيراد الكسرة شعرية عن الطيارة مقابل إيرادنا ـ الطابق ـ شعرياً.. كذلك.. عن السيارة.. يستحسن إيراد بعض ما قلناه عنها وكانت كونفيرا.. في الآتي:

ولقد ركبت على السلالم.. خائفا أتلو على "الكونفير" سورة مريم

فرصدتها بمكانها.. فتصلّبت منها المراوح.. لم تدر.. أو تبرم

وجلست والركاب بين جنوبها فكأنني.. وكأنهم.. في قمقم

* * *

حتى استعانوا.. في الأخير.. ببطبط شهم.. كشحطان اللحى.. متقدم

إن البطابط في مطارات الورى فن الأعارب.. لا فنون الأعجمي

ما ضرهم.. يا خال.. لو عملوا لها تيستا.. يقوم بها مقام المرهم؟!

* * *

فلا أجد.. للاستنفار وللاستخفاف بعد بحث مضن وتفتيش دقيق إلاّ هذه الجملة أتمتم بها على مرأى من الجبل.. ومسمع منه.. ألا ما أشبه الليلة بالبارحة!!

(٣٤)

العودة . . !

وسافرت في النهاية إلى بلد بعيد عن كرا . . وعشت حريصاً على ألا أصعد جبلاً ممهداً . . أو غير ممهد هناك . . حتى لا أشرك في قلبي حباً لجبل غريب . . بعد حبي لهذا الجبل القريب منه . . بل والساكن فيه . . على أنني رغم البعد المكاني والزمني بقيت البعيد القريب . . فأنا على صلة دائمة . . وتحسس ـ واستعلام . . وسؤال لا ينقطع عن حاله . . وعما فعلته الأيدي . . والأدوات الحديثة والآلات الضخمة . . فيه .

وكان أن تجمّعت لي من كل ذلك . . مضغوطة في سطور هذه السطور :

١ ـ بلغت كميات الديناميت المستعملة لنسف صخوره ـ ١٢٠٠ ـ ألفاً ومائتي طن .

٢ ـ وكميات الصخور المنسوفة به ـ ٤٠٠٠٠٠٠ ـ أربعة ملايين متر مكعبا .

٣ ـ وكميات الخرسانة المسلّحة للجسور وللحواجز وغيرهما ـ ٨٠،٠٠٠٠ ـ ثمانون ألف متر مكعب .

٤ ـ والخرسانة البيضاء للحوائط الساندة وفتحات تصريف المياه ـ ٣٤٠،٠٠٠ ـ ثلاثمائه وأربعون ألف متر مكعب.

٥ ـ كميات الردميات لغمل الجسور وما تحت طبقات الأساس ١,٧٠٠٠٠٠ ـ مليون وسبعمائة ألف متر مكعب.

٦ ـ والخرسانة الإسفلتية ٤٠,٠٠٠ أربعون ألف متر مكعب.

٧ ـ وبلغت المساحة المغطاة بها ـ ٦٥٠,٠٠٠ ستمائة وخمسين ألف متر مسطح.

٨ ـ مستهلكة من الإسفلت نفسه ـ ٣,٦٠٠ ثلاثة آلاف وستمائة طن.

وانتظرت اليوم الذي أطالعه فيه، ويطالعني هو فيه.. بوجه جديد.. وبقوام رشيق.. وبابتسامات متتالية عذبة.. بعد هذا العذاب.. يهنأ بها.. ويطلقها من ملف في دربه الجديد.. أي ملف جديد.

وتساقطت ـ كأوراق الخريف ـ أوراق النتيجة اليومية.. أمامي.. فإذا أنا وفي نفس التاريخ الذي كنت فيه عامي المنصرم قد عدت إليه.. عدت مصمماً أن أراه حديثاً من نفس الدرب الذي رأيته فيه قديماً وتعرّفت به بواسطة حمار الجدابي أحد أبناء وادي الأعمق القابع هانئاً فوق قمته الخضراء.

وفي صباح مشرق كنفسي به.. وبطريق مسفلت لا نتوء ولا عقبة فيه ركبت.. بدل حمار الجدابي.. سيارة يقودها صاحبها الشاب.. سيارة أنيقة.. في ضخامة.. سريعة.. في ثقة.. مريحة كل الراحة.. لا تجعلك بعد أن تبلغك مأمنك ومأربك تشعر إطلاقاً بما كنت تشعر به من تسلخ ساق أو تصلّب ركبة.. أو تقوّس ظهر.. أيام حمير الجدابي..

وتلك نعمة من نعميات الحضارة ننسى بها سابقها حين نألفها ـ لننسى ما كنا فيه من تعب.. وعنت.. وإرهاق.. بل ربما أنستنا إلفتنا لها وسهولة استعمالها وشيوعه.. وصيرورتها وسيلة طبيعية من وسائل المواصلات الحديثة أن نذكر.. فنشكر..

ولقد يغتفر للشاب هذا الجحود والكفران بالنعمة الحضارية تشمل مع السيارة الطائرة.. والمذياع.. والتلفزيون وسواها.. الذي ينشأ وبين يديه.. وأمام عينيه كل تلك النعمات الحضارية الحديثة.. الشائعة كالماء والهواء.. لا يدرك مدى قيمتها.. وما تحويه من متاع ممتع بالنسبة لمتجرع الحرمان الطويل السابق اكتوى بلظاه طويلاً.. وعانى من امتداده ما عانى.. من معاناة.

ويلوح لي بالمقارنة أن عصبة الكهول منا هم أجدر من هذا الشاب وأمثاله بالشكران.. وعرفان الجميل لمزخرفي الحياة الدنيا بطيبات من نعميات الحضارة وفضائلها يزجونهما.. ذكريات في إطار.. وفصولاً من روايات وأحاديث.. أو مقارنة تعقد بين قديم وجديد.. أو متابعة لآمال تتحقق.. وتلك ولا شك ضريبة الخضرمة للكهول في كل زمان ومكان..

على أنني قبل أن أواصل.. أو أن أنسى.. أحب أن أذكر مناسبة طريفة أذهلتني رغم غرابتها.. وإن لم تغب عني معرفة بواعث طبيعتها فقد أعرب قريبي سائق السيارة الشاب بعد أن حدثته عن ماضي الجبل في بلادنا.. وعن حاضر السيارة فيه.. وبهذا الطريق منه نسلكه فرحين مرحين.. مصوراً من كل ذلك بلغة الشعر.. رحلتي الأولى والثانية إليه فوق تلك الحمر القميئة البائدة يملكهما الجدابيان محمد وأحمد.. لقد أعرب قريبي الشاب في حماسة وفي شوق عن أمنيته في أن يقوم برحلة

كتينكما الرحلتين للجبل وفيه.. سالكاً إليه طريق الجمال.. ان بقي.. على حمار ـ ومع حمار كاللذين إليهما أشرت ـ ونوهت!!

فلم يسعني عند هذا الحد من إعرابه عن أمنيته إلا أن قلت له إن أمنيتك هذه تتفق تماماً وأمنية أي أمريكي مودرن نشأ تحوطه وسائل الراحة.. والمتعة.. والترفيه.. ولكنه ينزع بدافع من رغبة في تكوين حياته إلى النزعة الإسرائيلية سئمت طعام المن والسلوى وجبة مكرورة.. وقرمت أشد القرم إلى فومها.. وعدسها.. وبصلها.. كما أن أمنيتك هذه كذلك تشبه النادرة التي أرويها لك.. والتي رغم قذارة رائحتها تصور الموضوع ـ عابثاً فكها في المضمون وفي المغزى سواء.. بسواء وهي تقول:

كانت لرجل فاجر صلة بامرأة مثله.. وبينما كان لديها يوماً.. اقتضت المفاجأة اضطراراً أن تحبسه بأقرب مخبأ.. وكان المخبأ دولاباً أحتوى من أنواع وأصناف الروائح والبارفانات على أجودها وأرقاها.

وبينما جلست هي مطمئنة متحدثة مع القادمين الطارئين كان الرجل رفيقها سجين الدولاب غريقاً بين أقوى الروائح العطرة نفاذاً وأرقها شذى.. يميل يميناً فيشم الفوجير والسنتاليا.. ويميل شمالاً فتعبق بأنفه ليالي باريس وآخر بارفان حديث.. ولم يزل كذلك حتى سئم نعمة شم العطور يتمناها لنفسه سواه وضاق بها.. حتى لقد تاق إلى أضدادها.. فما كان منه إلا أن أهوى بقبضته على باب الدولاب.. فانفتح مكسوراً ليخرج صارخاً منه مستنجداً بمن أمامه..

الحقوني.. الحقوني.. يا ناس!!

شوية خ.. شوية خ..!!

ومع أن الشاب قد ضحك طويلاً.. إلاّ أنه بقى على إصراره، لم يتنازل عن أمنيته الغالية في أن يصعد جبل كرا يوماً ما عن غير طريقه المسفلت.. ماشياً على قدميه في صحبته حمَّار كالجدابي وبجواره حمار قمئ كلاهما ابن قح لهذا الجبل الذي صار سهلاً.. رغم أنفه.. وضد مشيئته وهواه!!

(٣٥)

النهاية السعيدة..

وبعد.. فلقد عاش هذا الجبل الذي صار سهلاً.. فقرة مهملة.. من سلسلة فقرات جبل السراة.. لا تومئ إليه إصبع مرتفعة.. ولا يجتذب إليه نظرة طويلة وامقة.. وربما زاد في تعاسته أن غطّت على ذكره جملة أو تفصيلاً ذكريات أجيال أخرى في بلاده قامت على مقربة.. أو مبعدة عنه.. وقد نالت ـ دونه ـ النصيب الأوفى من الذكر.. والتخليد.. والتمجيد.. ومنها.. وليس كلها.. حراء.. وثور خارج مكة.. وأبو قبيس بقلبها.. ثم أحد.. في مشارف طيبة الطيبة.. ترفرف حولها وحدها.. وتطوف بها جميعها.. هالات من نور.. وأرج من عطر النبوّة الفواح.. تبتلاً فيها.. أو معبراً لمنهج.. أو إعلاناً سافراً لدعوة التوحيد الكريمة.. أو حرباً دامية في الطريق الطويل العريض.. لنصرتها وأخيراً.. وفي سبيل ذكرى هذا الجبل.. ترديداً، وصدى.. تهيأ له الصيت البعيد.. بعد أن ناله جسدياً ما لم ينل سواه من جبال بلده.. على أيدي تلك المردة العملاقة الميكانيكية من دركترات.. وآلات ثاقبة.. وهراسات.. وروافع.. ومتفجرات.. وجف منها كلها قلبه ذعراً.. واضطربت بها أحشاؤه مزقاً.. وتهاوت تحت أقدامها عضلاته الصخرية

أوصالاً متناثرة.. في حركة لا تهدأ وضجيج لا ينقطع.. فكان شأنه وشأنها ما كان.. مما سجلته عليه بعد إحرازها النصر النهائي الحاسم.. أرقام وإحصائيات شهرت به.. وإن كانت قد أشهرته علماً بارزاً في دنيا المواصلات وتواريخها الفذة.. وينطلق التاريخ ـ بعد هجوع وتثاؤب مقهقهاً.. يركب أكتاف الزمن البطيء السادر المهدور.. في قفزة عالية من قفزاته الرائعة.. فإذا هذا الجبل الأشم معجزة بمناهجه.. وبمنهجه الأبلج.

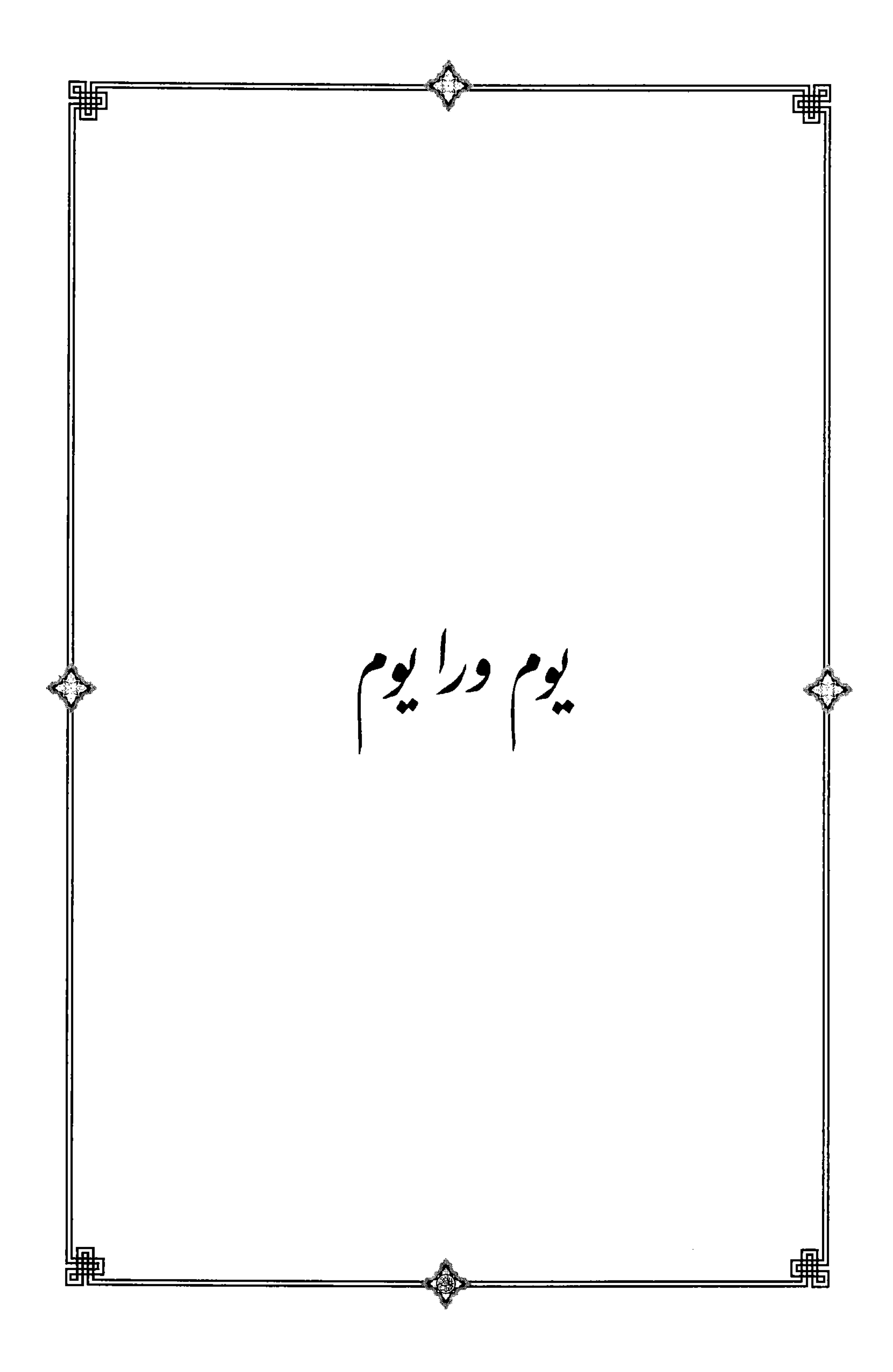
وأشهد أنني حين رؤيتي له.. بعد سنوات.. وسنوات.. كنت معه كما يكون المحب الواله تفجؤه رؤية حبيبه النائي في أحلى لقاء.. وفي أروع بهاء.. وقد أصابني البهر.. متمتماً.. هل هذا.. كرا.. كرا..(؟؟) وأسمع بذات نفسي حسيسه الشعري الذائب بين جنباته وجنبات روحي.. أجل.. أجل.. أنا هو ذاك الذي عرفته صبياً بكر الصبابة والوجدان.

ولقد تداولنا في خشوع.. وخفوت ذكرياتنا لمحاً.. واستزادة.. ورضا.. حتى إذا رويت نفسانا.. وطاب باللقاء.. اللقاء لا يحدّده وصف، أو يقرره كلام مرسل.. عادت لكلينا طبيعته الشاعرة الساخرة.. فإذا الرواية فكاهة ضاحكة في فم اليوم الباسم.. وإذا أقاصيصنا عن الأيام.. أرقاماً تعد علينا مطبوعة في تقاويم لا نحس بها.. أعماراً من مراحل أعمارنا تتلاشى يوماً مؤرخاً مسجلاً علينا.. بعد يوم.. فضحكت وأومأت إليه.. قارئاً لرفيقي السائق الشاب الابن زهير عمر عبد ربه ما نطق به شيطاني الحلمنتيشي.. دعابة بريئة.. خالصة لوجه الفن.. وتحية أعلم مبلغ طرب كرا نفسه زميلي الصامت لها من كل قلبه:

إني طلعت على كرا ـ بالرجل ـ أيام الحمير
متشربطا.. مثل القرود به.. وقد كانت كثير
متشقق الكعب المنفنف.. كالحبقبق.. يا مجير
حتى وصلت إلى الهدا.. وأكاد من فرحي أطير
أقسمت أني لن أعود إلى كرا.. مهما يصير!
لكنني في اليوم.. في سيارة الجار الأثير
قلفطته.. نعسان.. منجعصاً.. كأني في السرير
فرنا إليَّ.. وقال: أهلاً بالحبايب.. يا جرير
ماذا جرى؟.. قلت ـ العجائب فيك ليس لها نظير
والله يا شيخ الجبال من السراة.. إلى عسير
لولا المخافة أن يدردب صخرك.. المطر الغزير
لسكنت فيك العمر.. جنب المعسل الحلو النمير
أرقيك بالحدرى.. أقول من الفؤاد.. من الضمير
قد صرت مفخرة الرجال من الكبير.. إلى الصغير!

* * *

ثم استأنيت.. وأطرقت واستأنى الجبل.. ولم يطرق.. وكان ذلك أول حديث لنا.. في أول لقاء جديد.. بعد عمر طويل ومرير..



يوم ورا يوم



ـ ١ ـ

سيطالعك من غد إن شاء الله في ركنك هذا غير المطول.. من جريدتك عكاظ.. بابها المفتوح لكل قارىء.. تحت عنوان.. يوم ورا.. يوم.. وللأمانة التاريخية ـ بعد استئذان أمانة العاصمة ـ نذكر أن الهيكل الأساسي منه كان قد وضع بمعرفة الإذاعة في برنامج يومياتها القديم.. وقد بقيت مسوداته الأصلية والوحيدة لها من حوالى عام إلا ربع تحت المطالبة بها.. ولذلك فقد رأى رئيس التحرير وصحبه الأوفياء أن تكون المقدمة لهذا الباب النثري الجديد مقدمة شعرية تروي الوضع.. لا الموضوع.. في مداعبة إخوانية لإخواننا المقرئين بالهواء.. على الهواء.

وعلى فكرة ـ أو بدونها ـ فسوف يكون يومك هذا وراء اليوم الآخر جديداً لا تقوم الصلة بينه وبين ما هو بالمسودات إلا قدر إرضاء المثل الشعبي العتيد.. قديمك.. نديمك!

طَـلَـبْـنَـا الإِذَاعَـةَ نَـرْجُـو لَـهَـا دَوَامَ الْـهَـنَـا.. حَـاجَـةٌ فَـاضِـيَـهْ!

فَـقَـالَ أَخُـونَـا الَّـذِي جِـئْـتُـهُ أَلاَ قُـلْ لَـنَـا الآنَ مَـاذَا هِـيَـهْ!

فَـقُـلْـنَـا لَـهُ.. وَرَقـاً نَـائِـمـاً لَـدَيْـكُـمْ بِـلاَ حُـجَّـةٍ دَاعِـيَـهْ!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٣/٢١هـ ـ ١٩٦٧/٦/٢٨م.

تُرِيدُ عُكَاظَ.. وَمَنْ في عُكَاظِ لَـهُ.. شُغْلَة جَارِيَهْ!
وَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ يَا ذَا لَنَا طَبَعْنَاهُ فِي طَبْعَةٍ غَالِيَهْ!
فَقَالَ ألْمُكَنْدَشُ في حُجْرَةِ تَجِيبْي.. بِشَنْطَتِهِ الْخَالِيَهْ!
تَعَالَ غداً.. وَبِلاَشِي الْغَدَا لَدَيْنَا.. فَلَيْسَتْ لَهُ طَابِيَهْ!
وَمَرَّ غَدٌ.. في قَفَاهُ غَدٌ تَثَاءَبَ.. في فَوْمَةٍ حَالِيَهْ!
وَأَوْرَاقُنَا لَمْ تَزَلْ حَالَهَا تَنَامُ عَلَى جَنْبِهَا.. تَاكِيَهْ!
كَمِثْلِ ألأَمَانَاتِ في دُرْجِهَا إذَا قِيلَ أَيْنَ.. فَقُلْ: آتِيَهْ!
وَزَلَّتْ شُهُورٌ.. وَدَارَتْ شُهُورْ وَدُرْنَا مَعَاهَا. كَمَا السَّاقِيَهْ!
وَقَدْ ضَاعَ يَا ابْنَ الْحَلاَلِ الْمَدَى وَضِعْنَا مَعَ السَّاعِ وَالثَّانِيَهْ!
وَأَصْبَحْتُ كَالشِّعْرِ حُرَّ الْخُطَى مِنَ الْوَزْنِ.. أَجْرى بِلاَ قَافِيَهْ!
وَفي آخِرِ الْوَقْتِ قَالَ الْمِلَيْحُ: تَعَالَ لَنَا السَّنَةَ التَّالِيَهْ!
أَهذَا كَلاَمُ رِجَالٍ بِهِمْ رَبَطْتُ أَنَا الثَّوْبَ.. وَالْعَانِيَهْ!
عَلَى رِجْلِهِمْ رِجْلُنَا في الطَّرِيقِ.. وَلكنَّهَا.. زَيَّنَا.. حَافِيَهْ!
وَأَوَّلَ أَمْسِ.. بِلاَ فَاصِلٍ دَقَقْتُ التَّلِيفُونَ بِالزَّاوِيَهْ!
وَقُلْتُ.. لِيَحْيَى.. أَنَا يَا أَخي أَنَا الرُّخُ يَدْعُونَهُ.. الطَّابِيَهْ!
فَفَرْصَعَ عَيْنَيْهِ.. في جَارِهِ وَزَعَّقَ في جُمْلَةٍ دَاوِيَهْ!
وَقَالَ انْتَهَى ألأَمْرُ بُكْرَا تَجِي وَتَأْخُذُهَا.. أَنْتَ.. بِالْعَافِيَهْ!
وَقَدْ خَلَّصَ الشُّغْلَ عَبْدُ ألْكَرِيم وَعَبَّاسُ في غَمْزَةٍ حَانِيَهْ!
فَهذِي ألْحِكَايَةُ.. دِيبَاجَةٌ مُنَقْرَشَةٌ.. مَا بِهَا خَافِيَهْ!
فَطَالِعْ عُكَاظَكَ.. في رُكْنِهَا أَتَاكَ بِلَغْوَصَةٍ.. عَالِيَهْ!

* * *

ـ ٢ ـ

الأيام كلها سواء.. ما في ذلك شك.. إلا أن الظروف والمناسبات تلون كل واحد منها باللون المنسجم مع حوادثها السارة.. أو المحزنة.. فالحياة بأيامها عامة.. كما يقول شوقي عن دنياها.. في عجز بيت شعري: ـ

على جانبيها الأسى.. والطرب..

والناس هنا.. وهناك.. يقولون عنها.. يوم عسل.. ويوم بصل..!

كما أننا نتوسع بلدياً في تعريف أيامنا.. فنقول:

يوم لك.. ويوم عليك.. ويوم كفاك الله شره!..

حتى خبراء الاقتصاد والمال يقولون.. من أيام زمان.. في تقريرهم الختامي لموازنة حساب الأيام..

القرش الأبيض.. لليوم الأسود!.

وأظن.. وليس الظن هنا إثماً في التفكير.. أن المهم للشخص منا امرأة.. أو فتاة.. أو طفلاً.. أو رجلاً.. أن يكون مع يومه مخلصاً كل

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٣/٢٢هـ ـ ١٩٦٧/٦/٢٩م.

الإخلاص لأنه جزء من عمره وحياته.. فعلى قدر ما يؤديه ممتلئاً.. وحاراً. وبقدر ما يحياه يكون التقييم له.. ولليوم.

وكلنا يعرف الحكاية القديمة عن البلدة التي يسنن أهلها المتوفى عن عمر جاوز أو ناهز التسعين أو السبعين مثلاً.. إنه فارق الحياة وعمره خمس عشرة أو عشرون سنة.. وفلسفتهم في هذه البدعة أنهم يحسبون عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا بالأيام التي قضاها كما يجب أن تقضى.. أما المهدور الفارغ منها.. فلا حساب له إطلاقاً.. فهو بالبلدي.. نخالة.. بالنسبة لحبات الحب نفسها!..

* * *

ـ ٣ ـ

بعد أن استمعت البارحة من أحد الأخوان إلى قصة سرقة طارئة في داره.. وعن قيام قوى الأمن بإعادة ما غلا ثمنه وخف حمله من المسروقات إليه ـ في وقت قصير ـ استيقظت صباح هذا اليوم.. وشفتاي تُتَمتمان بإصرار مكررتين هذا البيت:

يد بخمس مئين عسجد وديت   ما بالها قطعت.. في ربع دينار؟

والبيت لشاعر المعرة أبي العلاء وهو يناقش فيه قطع يد السارق في أسلوب ذكي.. ماكر.. وخبيث وكيف إن اليد التي تدفع عنها الدية في حالة الاعتداء عليها خمسمائة دينار.. تقطع في حالة اعتدائها بالسرقة.. في ربع دينار؟

وكنت أعرف أن هناك رداً شعرياً عليه ـ من بحره كما يقولون ـ فلجأت إلى الذاكرة على ضعفها أستحثها وأستعطفها أن تسعفني بالرد.. وما كذبت خبراً.. فقد افتكرت أخيراً الرد الحلو.. وهو لأحد العلماء الأجلة الأذكياء يجيب:

عز الأمانة أغلاها.. وأرخصها   ذل الخيانة.. فافهم حكمة الباري

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٣/٢٣هـ ـ ١٩٦٧/٦/٣٠م.

وبصرف النظر عن رأيي الموضوعي في الموضوع من كل جوانبه.. فقد راقتني الصورة فنياً.. فأكملتها. أصلاً.. وفروعاً.. لتكون مثلثة صالحة للتعليق في إطار واحد.. يجمع بين سؤال.. وجواب.. وختام.. مهداة بكل تواضع إلى جهة الاختصاص.. هكذا: ـ

س: سؤال؟

يد بخمس مئين عسجد.. وديت ما بالها.. قطعت في ربع دينار؟

ج: جواب!

عز الأمانة أغلاها.. وأرخصها ذل الحيانة.. فافهم حكمة الباري

ش: شبشره!

إن الحرامي حرامي فالقصاص له شرع لأمن لنا في السوق، في الدار

* * *

ـ ٤ ـ

قابلت صباح هذا اليوم صاحباً لم تصل العلاقة معه لدرجة الصداقة المتينة. ولم تهبط إلى حد المعرفة العابرة.. وقد ألح على أن أذهب معه لنقضي وقتاً طيباً في المكتب، وأبادر فأقول إنه مكتب تجاري.. لا رسمي.. يخضع لرقابة إخواننا زملاء دفاتر الدوام.

وذهبت معه بعد إصرار منه ـ وخوف شديد مني مما سيكون.. فهذا الصاحب.. والحق يقال.. إنسان طيب القلب.. بشوش الوجه.. حبوب في مجموعه.. لولا.. لولا.. أن له أسلوباً في الحديث تدور قفلته الختامية دائماً على ركيزتين ثابتتين كلازمة من لوازمه.. وأولاهما:

إصراره على أن يربط من يحدثه بحبل متين من حديثه، حتى لا يسرح عنه.. وذلك باستعماله الطريقة الاستفسارية عند آخر كل نقطة أو فاصل من كلامه ـ فيلتزم سامعه مربوطاً بالجواب.. فهو يقول لي مثلاً.. البارح بعدما اتعشيت خرجت من البيت ورحت بيت جارنا إبراهيم أفندي.. وعندما وصلت بيت جارنا مين؟! فأضطر أن أجيب إبراهيم أفندي!.. وبعدين طلب مني أن أتعشى معاه فأخبرته إنني.. إنني؟.. فأجيب.. اتعشيت.. اتعشيت. وهكذا أظل متيقظاً باستمرار للقفلة منه.. وللغيبي منها..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٣/٢٥هـ ـ ١٩٦٧/٧/١م.

أما ثانيتهما.. وهي أشد الركيزتين كرباً على نفسي.. فهي ركيزته الحسابية.. وسبب ضيقي منها أكثر وأكثر أنني لا أجيد الحساب وجمع الأرقام سريعاً.. فهو يقول مثلاً في تؤدة تقتل وفي شطارة حسابية تقلق.

من يومين نزلت لك السوق مع الأولاد.. واشتريت للولد جزمه عزك الله.. دفعت فيها يا سيدي ثلاثة وعشرين ريال ونص قول.. ما عليه، وأخذت له قلم بأربعة ريال.. سارت.. سارت؟ فأضطر أن أقول وكأنني تلميذ حاضر الذهن.. سارت سبعة وعشرين ريال.. بعدين اشترينا للعفريتة البنت الصغيرة لعيبات بخمسة ريال سارت الحسبة؟ فأقول صاغراً ٢/١ ٣٢ ريال.. كمان أخذنا للجماعة ولأختها الكبيرة أشياء وملابس بثمانين ريال سار لك المبلغ كلو يبو الحبيبين هناك ١/٢ ٣٢ وهنا ٨٠ فأجد ألا مفر من جمع الحسبة بسرعة في كف يده أجيبه سار المبلغ كلو ١/٢ ١١٢ ريال.. وهكذا.. وهكذا..

ولما ذكر أعلاه.. فقد ذهبت مذعوراً مع هذا الصاحب لمكتبه التجاري.. وبعد أن طلب لي للإغراء والتحبب على طريقة المؤلفة قلوبهم الشاي.. والقهوة.. والبارد.. وكان ما كان.. مما سلفت بعض العينات منه.. كبداية..

وحتى لا يصل للنهاية فقد أمسكت ببطني قائلاً له.. أنا زي ما قلت لك في الطريق.. رايح.. رايح؟ فأجاب للأخ سليمان.. فقلت كما أخبرتك لاستلام مبلغ.. مبلغ؟.. فأجاب صاغراً.. التسعين ريال!..

وهكذا استوفيت بعض حقي منه.. وإن لم يكن بالكامل!..

* * *

ـ ٥ ـ

لقد اقتضت بعض ظروفي العملية.. هذا اليوم.. أن أراجع بعض الإدارات.. وكعادتي المزمنة في إتاحة الفرصة الكاملة للعفريت النقد.. غير الذاتي.. بأن يركب أكتافي وأن يسعى معي ملاحظاً ما هو كائن.. وما ينبغي أن يكون.. فقد رأيت موظفاً مرموق المكانة.. وذا أثر مباشر في تسيير الأعمال وقضاء حاجات المراجعين لا يهمه إلا أن يكون.. ورقياً.. في جميع تصرفاته.. فهو لا يطالع المعاملات.. أو يصرف الشؤون إلا من خلال الأرقام والتواريخ.. وربط السابق منها باللاحق بموجب الإشارة.. والعطف.. والتعقيب.. والرجوع إلى كل القرارات السابقة وصورها.. وإلى الفقرة ج .. وعجب الذنب هـ ..

وهذه الدقة منه واجبة ومحمودة.. بل هي فرض محتوم الأداء على أن يكون في وقته المصنف الدرجات الأفضلية.. ولكن العيب في أخينا هذا أنه باستكمال كل ما يريده من المعقب.. وكاتب الصادرة.. والواردة.. وما بين كل من هؤلاء مغرم الغرام كله بتصنيف المعاملات على مكتبه الشبيه.. بالفاترينه.. للعرض.. والمباهاة بكثرة ما يحفل به مكتبه الطويل العريض.. دون تصريف فوري وسريع لما استكمل منه

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٣/٢٦هـ ـ ١٩٦٧/٧/٢م.

واجبه العام.. وإن لم يستكمل في رأيه الأناة اللازمة لتتبع الجزئيات الطارئة بقدح زناد فكره للتفنن في خلقها.. على طريقة تقصيع القمل من الفارغين اللاهين.. والمكوعين في الفية بإحدى القرى النائية عنا.. والمجاورة لنا..

ثم أنه موسوس يحتم عليه وسواسه هذا أن يتأنى أكثر من أي لازم.. مطبقاً بكل دقة الطمأنينة المستحبة في بعض أركان العبادة على طريقته في صف.. لا في تصريف المعاملات وإنجازها واحدة وراء الأخرى بالقطاعي لمن دونه.. ولمن دون من دونه.. فإن بعد إجرائه.. بعض الإجراءات.

والخلاصة فقد قال له عفريت نقدي.. بعد أن ضاق بالسكوت.. وتعب من الرقص فوق أكتافي.. بيقولوا.. كان فيه واحد محامي.. أحيل للتقاعد بعد أن كبر سنه.. فمر به في داره أحد أصدقائه.. ولما وجده منبطحاً على بطنه ودوسيهات القضايا القديمة كلها مبعثرة أمامه.. وعن يمينه وشماله.. سأله أنت عامل في روحك كدا ليه؟..

أجابه.. عمال أمزمز..

* * *

ـ ٦ ـ

الأفراح كالتثاؤب.. تجر إلى الأفراح.. فلقد عشت هذا اليوم مع أهل بيتنا الكبير كله.. عاش الفرحة كلها.. الفرحة بنجاح أطفال البيت في سنة دراستهم الحاضرة. لينتقلوا بموجبه إلى سنة دراسية جديدة..

فحين تأهبي لمغادرة الدار فاجأتني الغطاريف افتقدها سمعي من زمن بعيد جداً.. والغطاريف أسلوب شعبي لساني ممطوط مترجرج يرتفع إعراباً عن تحقيق أمل.. أو بشرى سارة.. أو إعلاناً عن مسرة وابتهاج بفرحة سعيدة.. وترددت بأرجاء البيت أسماء ملك.. نوال. عماد.. فؤاد.. فالقسمة كما ترى عادلة بين الجنسين.. وقد كان كل منهم قد جاء يزف البشرى ويحمل الجرائد بيده.. كأنها أعلام النصر في أكبر معركة في حياته.

وقد استقبلت الأولاد مع الآخرين ببسمة كبيرة، وبرفع يدي لهم بالتحية والتهنئة فإنني لا أحسن تحريك اللسان ورفع الصوت بالغطرفة.. فضلاً عن أنها آلة طرب نسائية لا يحسن تحريك أوتارها الرجال..

وبعد قليل من الزمن.. اجتمعنا لشرب الشربات من أيدي الأبناء

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٣/٢٧هـ ـ ١٩٦٧/٧/٣م.

أنفسهم شاعرين أن لكل منهم ذاتية مقررة.. وحيثية محترمة.. ووجوداً كاملاً يختلف في هذا اليوم.. عما عداه من أيام.

ولقد كان حسن الختام في المساء لطيفاً محموداً.. حيث جاء تقليداً إبداعياً وددت لو ساد في بيوتنا تركيزاً لمصادر البهجة فيها.. وجمعاً لشمل العائلة الكبيرة تضمها دار واحدة تتعدد فيها الشقق الخاصة يتفرق بها البعض نسبياً.

لقد أقام كبير العائلة من أكلتنا الشعبية السليق أو العربي، فكلا المسميين مقبول ومألوف.. حفلة عشاء مبكر جمعت الصغار والكبار كياناً عائلياً أحس الصغار فيه بقيمتهم وبقيمة النجاح رمزاً للكد يدفعهم للحرص على نجاح متواصل.

واستعاد الكبار ماضيهم.. مستعيرين من فرحة صغارهم.. ومن التقاليد الجديدة لتدشينه ما عوّضهم عن الأمس الذي لم يتمتعوا فيه بنجاحهم تمتع أبناء هذا الجيل، جيل نعميات الحضارة ولذائذها الكثيرة المتنوعة من تلفزيون.. وراديو.. وسيارة.. وثلاجة.. و.. و.. إلى آخر تلك النعميات.. بالإضافة إلى إبراز نجاحهم إبرازاً لم يعرفه الكبار إلا في الغطروفة.. وحدها.. وكانت لهم البداية.. والنهاية!

* * *

ـ ٧ ـ

رغم أن حديث التجارة حديث ناشف بالنسبة لأمثالي.. وأن لغة الأرقام أصعب كثيراً وجداً على ذهني من اللغة الفصحى بنحوها وبصرفها.. فقد انسجمت ضحى هذا اليوم من كلام أحد المعارف التجار.. وكلامه كان متشعباً.. وطويلاً ومشحوناً ببعض النظريات الاقتصادية الحديثة.. والعملية البلدية القديمة، لكن أطرف ما ورد فيه كانت ملاحظته بأننا درجنا تجارياً في بلادنا على التقليد وعلى السير في الخط الواحد بأسلوب.. الانقرمنيس.. فما يكاد بعض تجار الصيف يستوردون الثلاجات والمراوح الكهربائية.. والمبردات بأنواعها.. حتى يسارع الباقون من التجار أو على الأصح من محترفي التجارة المتنسمين من آباطهم لتهوية بعض المخزون.. أو المغامرين.. أو المبتدئين.. باستيراد نفس الأصناف..

وكذلك.. فقبل أن يهل الشتاء ما يكاد البعض يستورد الدفايات.. والبطاطين.. والأصواف وسواها حتى تندفع بقية الصفوف إلى السير على نفس الخط.. بل ما يكاد أحدهم يفتح محل شاورمه.. مثلاً ـ أو دجاج مشوي حتى تفوح روائح هذين اللونين من كل شارع.. وقس على هذا

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٣/٢٨هـ ـ ١٩٦٧/٨/٤م.

وذلك ما شاكله من الأصناف العامة والخاصة..

والويل كل الويل للصنف الذي يروج مرة ـ لمناسبة من المناسبات أو بداعي حادث عارض أو طارىء فإن الكل يتوجهون للعمل به باعتباره المنجم الجديد المقصود..

وحتى أمنا الأرض التي سوف يكون نصيب كل منا عاجلاً أو آجلاً ما لا يذكر من أمتار.. يسري عليها نفس القانون فما يكاد يفتح لها بعض المكاتب الخاصة بالسمسرة في عملها.. بيعاً وشراء.. وإيجاراً.. حتى يكون بين كل مكتب من هذا النوع ومكتب.. مكتب جديد!

واستمر صاحبي التاجر يقول.. والنتيجة الطبيعية لهذه الطريقة.. طريقة.. الأنقرمنيس.. التكدس ـ والبوار.. والبيع بالتقسيط، وربما أدى الأمر قريباً إلى تكوين جماعة لكل معرض ـ أو مكتب ـ أو دكان، لخطف الزبائن من الشارع.

ويرى أخيراً.. بعد استعراضه لعدة حلول عملية.. أنه لو قمنا مثلاً بجرد وحصر بعض الأصناف كالسيارات مثلاً.. والتي تكفي البلاد سنتين أو أكثر ثم منعنا استيراد الصنف المتكدس لنصف تلك المدة فقط لا غير لاختلف الأمر.. ودارت العجلة.. واستقامت الأحوال.. والأسواق.

فأجبته في النهاية ـ أفكر.. وأقل لك!!

* * *

ـ ٨ ـ

ذهبت إليه اليوم رداً لزيارة كريمة.. فوجدته مكوعاً.. وفي حالة استرخاء تام. والمهم في الموضوع أنه كان يضع بجانبه قرطاسين من الفصفص الأبيض. والأسمر. وكلاهما على وشك الانتهاء.. وأمامه وعلى يمينه وشماله تتناثر النشور في إهمال تام.. فقلت له.. ما هذا؟

أجاب.. ذلك آخر مبتكراتي العلاجية الممارسة عملياً.. وهو في الواقع اختراع شعبي قديم.. ولكني أدخلت عليه بعض التحسينات.. وأنا على استعداد تام لشرح وصفة الفصفصة بجميع ما تشتمل عليه من فلسفة عريقة.. وحكمة بلدية عتيقة.

لقد عشت يا صديقي أسيراً مقيداً بسلاسل عادات سخيفة ـ فأولاً ـ كنت لا أطيق أن أرى فمي مطبقاً لا تخرج منه حلقات الدخان المتموج.. لأقضي على أربع بكتات يومياً.. وثانياً.. كنت لا أصبر عن الشاي. فنجالاً وراء فنجال. وثالثاً.. عشت حياتي لا أقوى عن السكوت عن مزع سيرة فلان. ولحس قفا علان.. والمزمزمة في سمعة فلان.. بالحق.. وبالباطل.. وضقت أخيراً.. بهذه المساوىء تركزت في عادات

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٣/٢٩هـ ـ ١٩٦٧/٧/٥م.

يومية مثلثة غلبت إرادتي.. وتسلطت علي.. وذات مرة. وأمامي بائع التسالي جازفت فاشتريت قرطاس فصفص فإذا أنا لأول مرة أتذوق طعم الهدنة من عاداتي الثلاث في ساعة مرت كالأحلام الهانئة في فصفصة لذيذة ممتعة انشغل بها فمي ولساني عن ممارستها.

ومن ذلك اليوم عقدت اتفاقاً كتابياً مع صاحب.. واتسلى ببوعلي.. بتأمين قرطاسين يومياً من هذا الدواء السحري الذي اعتدت عليه.. وشيئاً فشيئاً خف كثيراً بعض عاداتي الثلاث ـ ويكاد يندثر تقريباً البعض الآخر منها.. وأكاد أجزم أنها سوف تتلاشى كلها بسبب إدماني على هذه العادة الجديدة.

إن العادة قيد.. ومن لا يملك الخلاص من عادته التي هي قيده.. فعليه أن يتخلص منها باستبدالها بقيد آخر يختاره هو على ذوقه.. وبمقاسه.

وهنا مر بائع التسالي. فقال له صديقي وجاري.. من يوم غد سيكون المقرر أربعة قراطيس.. اثنان منها لهذا.. وأشار إليّ.. وهناك بيته ـ وأشار إلى بيتي ـ والاثنان الباقيان لي أنا.. هنا.. كالعادة.. كالعادة.. كالعادة!

وكررها ثلاثاً.. بعدد عاداته الثلاث المشهورات!.

* * *

ـ ٩ ـ

عاتبني اليوم صديق قديم.. كيف لم أستجب لدعوته الكريمة الصادقة.. فأدع سيارته توصلني المقصد الذي أريد.. وأفضل عليها ركوب سيارة أجرة.. فاضطررت بعد مناقشة وجدال أن أشرح له عادتي ووجهة نظري في الأمر قائلاً: ـ

إنني أوثر كل صباح أن أقطع على قدمي الأمتار القليلة التي تفصل بين البيت والشارع العام.. حيث تتوفر التكاسي غادية رائحة.. تنزل زبوناً قديماً تأخذ زبوناً جديداً بعدها.. فأستجلي مدة وقوفي.. في هذا المنظر صورة من الحياة في أدواتها وفي وظائفها المختلفة.. ولأستذكر دائماً الرواية الألمانية المترجمة للعربية من زمن طويل باسم (الباب الدوار) وصفاً لفندق.. ورمزاً للحياة كلها.. يمثلها هذا الباب الدوار في الفندق يدخل منه نزيل جديد وافد.. ليأخذ مكان نزيل قديم.. راحل.

ثم إنني بعد هذا.. وفي وقفتي اليومية تلك ـ أتحرى أن يكون التاكسي الذي أختاره للانتقال إلى غايتي.. وجيهاً فخماً.. متلذذاً بنظريتي الخاصة في الموضوع أمارسها للزهو حيناً.. وللعزاء حيناً آخر.. وللتجربة الدنيوية لفلسفة مداريه العيد ممارسات متنوعة.

المصدر: جريدة عكاظ ١ـ١٣٨٧/٤/٢هـ ـ ٧ـ ١٩٦٧/٧/٨م.

أما نظريتي هذه فتتلخص في أن المدمن على ركوب التاكسيات مثلي.. يتمتع بميزة فريدة أحسن من تلك التي يتمتع بها مالك السيارة نفسه.. فمالك السيارة.. أية سيارة.. وأي مالك.. لا يحظى إلا بركوب سيارة واحدة بعينها كل يوم.. بينما أنا عميل التاكسيات أحظى كل آن وحين بامتطاء سيارات مختلفة في الموديلات والوجاهة.. والحيثية.. والألوان المتنوعة.. مالكاً فعلياً لها. طيلة مدة مشواري.. وذلك بما قيمته ريالان اثنان قط.. من غير زيادة.. وهناك فوائد أخرى منها ـ لا كلها ـ اتساع الفرصة لإرضاء هوايتي الخاصة بالسكناب المتعدد مع كل سائق جديد..

هنالك اقتنع صاحبي أو حاول.. قائلاً: ـ

أراك بقية من قوم موسى

فهم لا يصبرون على طعام!

وهكذا قبل معذرتي على ركوب سيارته لغايتي وضحكنا!

* * *

ـ ١٠ ـ

اجتمعت ضحى يومي هذا بوالد طيب القلب.. كريم السجايا.. وبتداول الحديث أخبرني أن ولده الشاب الطالب بمعهد كذا لم ينجح في عامه الدراسي هذا.. وإنه تحايل على إبلاغه الخبر بواسطة أخيه.. وذلك حرصاً من الولد على عواطف والده وشعوره.. وتخفيفاً لخيبة أمله في ظنه حين لا يجيئه الخبر منه رأساً.. وأن ولده الراسب في حالة قنوط وحزن ويأس..

وسألني الوالد الرأي: فقلت له بأسلوبنا البلدي المشترك.. عليك أن تقول له حالاً بأسلوبك المعتاد ما معناه:

إن الفشل غير المرتقب طريق النجاح المنتظر.. وإنه كما قيل.. لا يأس مع الحياة.. وإنك غير متأثر بهذا العارض متى صح أنه بذل جهده كاملاً للنجاح ولكنه لم يوفق!

ثم رحنا نستعرض بعض المتصل بما سبق مما قيل قديماً.. حتى أصبح أسطوانة مرددة في مناسبتها دون إجهاد قرين أو ذهن لاستحضارها من أمثال:

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٣هـ ـ ١٩٦٧/٧/٩م.

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر!

وخيرها في غيرها! والجيات أكثر من الروحات! وياما يمر على الحاج ـ ويحج إلى آخر الأمثال واللازمات العربية.. وهي كثيرة.. للعزاء.. في هذا الباب.

وقفلنا الحديث كالعادة في أمثال هذه المناسبات.. بأن الواجب على كل والد ذي ولد راسب أو بنت راسبة أن يتأكد بنفسه من أن أسباب الرسوب لم تكن نتيجة تكاسل.. أو كسل في المذاكرة.. ولا إهمال في أداء الواجبات المدرسية أو الاستعداد للنجاح بالإرادة.. والسعي.. والإيمان..

واتفقت معه بأن تجربتي الذاتية المباشرة وغير المباشرة دلتني على أن خير ما يفعله الطالب أو الطالبة كأمور رئيسية هو دون ترتيب في الآتي: ـ

ـ إن على الطالب في أيام دراسته أن يقوم بمذاكرة وفهم ما تلقاه في يومه الدراسي من واجبات.

ـ أن يعطي نفسه واجبها المفروض من اللعب، والتسلية.. وانشغال الذهن أو صقله على الأصح بما هو خارج عن نطاق تلك اليوميات لفترة معقولة من الزمن.

ـ أن يعمل لنفسه اختباراً أسبوعياً عاماً لما ذاكره يومياً حتى يتعرف على مواضع الضعف لتقويتها..

ـ أن يختبر ميوله ورغباته لتصحيح اتجاهه الطبيعي.. أدبياً.. أم علمياً.. دون حساب لرغبة خاصة.. فإذا تبين له خطأه راجع ولي أمره

في أنه مسايرة لنزعته وهواه يريد أن يكون في الاتجاه الصحيح.. فليس أعسر من التشبث بإرضاء الوالد أو سواه في سلوك جادة لا يجد من نفسه ميلاً قوياً وحاراً ووحيداً للسير فيها..

وختمنا الجلسة بغطروفة للناجح وبابتسامة مشجعة للراسب هذا العام.. ناجحاً في العام المقبل.. متى سار على الدرب الطويل رضي لنفسه السير فيه!

* * *

ـ ١١ ـ

ذهبت اليوم إلى تسجيل تلفزيوني ـ وما كنت أود أن أومىء إلى هذا لولا قيام هيكل الموضوع على قاعدة هيكل الإيماءة ـ ولقد راقني كثيراً أننا نأخذ بالأساليب الحضارية. ونعمياتها.. في حدودنا الذاتية.. بحيث لا تتسلط ماديتها ومعطياتها علينا.. فلا تنال من عقيدة.. ولا تخدش شرفاً ولا تؤذي عادة حسنة ـ أو تقاليد محترمة. ولهذه الجوانب متمثلة في برامج معروضة موضوع وحديث غير هذا.. ولندع عفريت النقد اليوم في قمقمه المختوم!

وقد أسعدني أكثر أن أجد شباباً من أبناء هذه البلاد يؤدون أدوارهم التلفازية.. كما يقول عمنا اللغوي إياه.. ولما كان حديثي منصباً على الدعوة للتفاؤل والوصول إليه من بوابة الحياة الخضراء.. بدلاً من ولوجها من الباب الخلفي المعتم.. فقد سألني أحد أولئك الشباب المشتغلين بالكاميرا وتوابعها.. عن مدى العلاقة الفعلية بين الكتاب والشعر في حياتهم بين الرأي والتطبيق؟ فأجبته:

إنني شخصياً.. دون هرش للرأس.. أو فشر في اللفظ، من الملتزمين في هذا الباب، فإنني غالباً لا أقول القول ـ أكتب الكتابة ـ أو

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٤هـ ـ ١٩٦٧/٧/١٠م.

أرسل الشعر إلا في حدود ما أنفذه في أبواب ممارسة الحياة.. على أنني لا أخلو من «المضغ على جنب أحياناً وعند الضرورة القصوى».. فما أبرىء نفسي ككل وبشكل عام..

وفي ظني أن الأديب الكاتب أو الشاعر يفقد قيمته وتأثيره عند قارئه حينما يجد القارىء أن البون شاسع في مجال التطبيق سلوكاً في الحياة وممارسة لها بين ما يقوله وبين ما يفعله..

وهنا سارع الشاب إلى التأمين على هذه النظرية مستشهداً هو ـ لا أنا ـ بفلان من الناس لم يفتر قلمه ولسانه من الدعوة لفضيلة واجبة.. ولكنه والشاب جار له يعرف أنه في سلوكه اليومي والبيتي أبعد ما يكون عن الأخذ بها عملياً من قريب أو من بعيد!.

وعدنا إلى موضوعنا صلة بين حديثي عن التفاؤل ونقلي بعض أبيات من قصيدة الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي في فلسفة الحياة.. كن جميلاً تر الوجود جميلاً.. ومعارضاً لها بحلمنتيشية وردت بها زخرفة الحديث هذه الأبيات:

إن سر البلاء في الناس ناس   تتجارى خلف الفلوس.. طويلا
وترى القرش في الجيوب وتعمى   أن ترى السن ضاحكاً وصقيلا
فتلحلح مثلي.. ولا تك بقفا   كل تبحبح أو كن خصيصاً نجيلا
بس فرفش.. فالفرفشاء مزاج   حير العلم.. عجلة والحسيلا
وازرع القلب اخضرا.. وطربا   فاردا ثوبك القصير.. طويلا

وهنا رويت له ولزملائه نادرة لا تحسن كتابتها وضحكنا بأدب.. ولكن من القلب.. ودخلنا ولم نخرج من بوابة التفاؤل الخضراء!.

* * *

ـ ١٢ ـ

لقد تلفن لي بوقت مبكر من صباح ذلك اليوم.. يريد أن يشركني في فرحته التي كانت واضحة في رجرجة صوته. وعذوبة ألفاظه.. ولذع حرارة مخرجها المرح.. والمرح كالتربة لا تكمل لذته بالكتمان أو الفردية فيه. فأنت عندما تنسجم مع منظر رائع.. أو عندما تتحقق لك رغبة نادرة لا يمكن أن تحس إحساساً تاماً بأثرها ومداها في نفسك إلا إذا تحدثت عنها مع إنسان آخر لتلمسها حقيقة حية يتردد صداها في نفسك.

وإذا كان الشاعر المعرب عن فلسفة المشاركة في التراب والعياذ بالله قد قال: ـ

فلا بد من شكوى إلى ذي مروءة   يواسيك أو ينسيك أو يتوجه

فإن صاحب الفرحة كذلك يضيق بها.. خبراً مكتوماً بينه وبين نفسه.. وهو يشتهيها بالتأكيد إعراباً متحركاً منتشراً بين محبي الخير له من الناس يشاركونه الفرحة وكأنها منهم ولهم.. بل وبين حساده ومبغضيه يكبتهم بها خبرا زاهياً ينعكس على وجوههم وجوماً وكآبة في الأصل واصطناعاً للسرور ينافقونه به.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٥هـ ـ ١٩٦٧/٧/١١م.

ولا أطيل ـ أكثر مما أطلت ـ فقد أخبرني المتلفن لي صباحاً الخبر مؤرخاً لإدراك بطبيعة المؤرخ فيه.. وخلاصته.. أنه قد حصل على الإذن له بإصدار مجلة لم يتعين مركزها تماماً.. وإن كان يغلب على ظنه أنها ستكون أدبية بحتة أو مجلة جامعة.. ماتعة.. وزاد على ما قال أنها ستكون مجلتي أنا وبالطبع مجلة أمثالي من القراء.. والأدباء..

واستدعى الموقف بطبيعته وبحكم ما بيني وبين صاحب الخبر والمجلة التي لم تزل في ذمة الأيام أن أقول ما لا بد منه في مجال كهذا.

وفي صباح هذا اليوم جاء ذكر تلك المجلة.. فقال محدثي إنها لم تر النور حتى الآن.. فحمدت الله لحساب صديقي صاحبها ـ أو صاحب فكرتها على الأصح ـ إنه لم يصدرها مكتفياً بفرحتها معنى دون تنفيذ.

ويقيني أن العبرة ليست في تعدد المجلات والصحف لدينا كمًّا متصلاً.. بل إن العبرة دائماً أبداً فيها بالكيف وبالنوعية.. لا بالكم ولا بالتكرار.. وبصفة صاحبها الموقر ابن بلد قح فيكفيني أن أذكره بالمثل الشعبي القح الموضوع والقائل:

لقمة من الطيب.. ولا عشرة من اللاش!

* * *

ـ ١٣ ـ

لقد أعادت.. اليوم.. الوالدة التي أصبحت جدة.. مكررة.. لذاكرتي بعض ذكريات الماضي.. حيث طلبت في الصباح الباكر من كل منا نحن أولادها وأحفادها ومن تلاهم مبلغاً رمزياً بسيطاً أكملت عليه من تحويشتها الخاصة ما كفى لعمل غدوة شهية لذيذة.. لعل أجمل وألذ ما فيها شعور الآكلين أنهم جميعاً أصحاب سهوم متساوية في هذه الوجبة جامعة الشمل.. لا فرق بين كبير وصغير.

ذكرتني هذه الدقة منها.. رعاها الله بالتعبير البيتي.. بما كنا نسميه «الباي» فكرة جماعية تضمن الغرض.. ولا تثقل على الجيب.. بل وتخرج لسانها البلدي للجماعة المودرنزم يتباهون باتباعهم أسبوعياً عادة الويك اند ـ الجمعي بدلاً من أن يكون أحدياً.. في زمنه كأصله.. وإنهم في حدود الجماعة الصديقة يكتفون بتوجيه الدعوة وبتبادلها من أسبوع ـ لأسبوع.. فإن هذا أنظف من أخذ مبلغ معين من كل فرد بذاته.. لأن ذلك أسلوب بلدي قديم.. وعيب في قاموس التعريفات العصرية!

ولقد كانت طريقة «الباي» رطب اللسان ذكراها المجيدة.. طريقة شعبية شائعة ومحبوبة ـ وربما لا تزال مكة.. يعمرها الله.. تحتفظ بها

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٦هـ ـ ١٩٦٧/٧/١٢م.

ولو في نطاق أضيق من السابق.. واسألوا أخانا الساسي مندوباً متجولاً نيابة عن آل ثابت لجمع الباي من أفراد الجماعة.. عن فضائلها.. فقد كنا نسمر بين شرب شاي متقن ـ وآكال لذيذ.. وسماع طرب أصيل.. وتحريك أعضاء للخدمة موزعة بين كل فرد من أفراد جماعة عمل الشاهي، أو جماعة الطبخ أو جماعة الفرش والتنظيفات وغسل الصحون.. والفناجين.. كل ميسر لما تخصصت طبيعته له..

ولقد نسيت، فإن طريقة الباي.. لا تقتصر على دفع كل فرد حصته من التكاليف بل إنها تشمل كذلك قيام كل فرد بنوع من الخدمة التي أشرنا إيماء إلى بعض بنودها فيما قبل كما نسيت أن أقول أن المقرر على كل واحد لقضاء قيلة أو ليلة، كان لا يتجاوز الريال أو ثلاثة أرباعه.. أو الريالين على أكبر تقدير مدفوع..

وأعود للوالدة وما فعلته اليوم.. فأقول أنها أذكرتني كذلك بما سبق تسجيله في الموضوع.. صورة كاريكاتير شعرية لأكلة بخاري:

قالت البشكة.. لما حبك الغيم.. وبالهتان رشرش للمصافي!! فخرجنا.. ولقد جاء معانا العم أردش فضحكنا.. وأكلنا.. ودفنا الهم.. في يوم منقرش ودفعنا «الباي» عند الحج تختا.. ولد العم برنقش هكذا كنا بريالين.. بايا.. نشتري يوماً منقرش!!

***

ـ ١٤ ـ

عانيت يومي هذا معاناة كربتني كرباً كبيراً.. وجعلتني أردد في كل خطوة أخطوها.. وفي كل مشوار أقطعه هذين البيتين من مقطوعة كنت نشرتها في القناديل تحت عنوان: سندوتش.. وهما: ـ

حتى الموظف بين أوراق المعاملة الكثير.

تكفيه آخر صفحة.. فيها تآشير المدير!

والسبب في ذلك أن بعض الظروف العملية اقتضت أن أراجع بعض الإدارات فذهبت رأساً للموظف المختص راجياً إنجاز الموضوع بقدر ما يتأتى له من سرعة لأن الوقت اللازم لإنجاز بقية الإجراءات ضيق.. ولأن اليوم التالي وهو يوم الجمعة يوم عطلة رسمية..

فما كان منه.. وهو مختص متمرس بعمله.. إلا أن ألقى نظرة خاطفة على الورقة الأخيرة.. ثم قال: لا بد من قيامكم بمراجعة الإدارة الفلانية.. ثم موالاتكم الفراغ من إجراء كذا.. وكذا.. مما يقضي علي بالبرمان الذي كنت قد برمته من أيام من جديد!

واستغربت ولفتُّ نظره في أدب يقطر سكراً.. وانحناءة حركت

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٧هـ ـ ١٩٦٧/٧/١٣م.

مرض اللمباجو القديم إلى ما ورد ببقية الأوراق مما يؤكد انتهاء كل تلك الإجراءات التي أكد ضرورة استيفائها.. فقال: هذا هو النظام!.. فلا تطل الكلام ـ يا أستاذ!.

فأطعنا.. وقررنا العمل بما أمر به.. بل وأخذنا فعلاً بطرف من تلك الاجراءات المطلوبة مكرراً.. ولكن!..

ولكنني للصدفة الطيبة.. وعندما رأيت أن الوقت لا يكفي لموالاة تلك الإجراءات لآخرها.. دخلت على رئيسه العام مستنكراً هذا البرمان الطويل مرة ثانية، لأن الموظف المختص لم يكلف نفسه قراءة أوراق المعاملة من الأول..

وأشهد أن الرئيس العام كان حصيفاً حيث ابتدأ في سكون ووقار من الصفحة الأولى بالذات مستعرضاً بقية الصفحات في لمح بصير.. ونظر مجرب.. ثم قال:

ـ لم يكن هناك داع لتكرار ما بدأت تقوم به.. فالإجراءات مستكملة والمسألة الآن لا تتطلب إلا إجراءً واحداً نهائياً يقوم به فلان.. وإنه لا يستغرق أكثر من خمس دقائق ـ وقد كان.. وشكراً لهذا الرئيس الحاذق..

وعليه.. فاحذروا.. يرحمكم الله.. من الاعتماد على الورقة الأخيرة وحدها في المعاملة.. دون تكليف خاطركم ـ بالشامي ـ لمطالعة بقية الأوراق!..

❊ ❊ ❊

ـ ١٥ ـ

قابلته اليوم في مالية جدة.. شاباً.. وسيماً.. ذكياً.. وموظفاً مرموقاً.. وقد عرفت.. بعد أن تم التعارف وتشعب الحديث وطال.. أنه الابن الأكبر لزميل دراستنا.. في مدرسة الفلاح بجدة.. وكان هذا الزميل أول فصلنا أسماء في الدراسة.. أو كما نقول.. البرنجي..!

فاستأذنت هذا الشاب الوسيم الذكي في أن أطلق عليه.. ولد برنجينا.. بدلاً من ندائه باسمه المركب من ثلاثة أسماء، تجمع بين الحمد.. والحسن.. والخضرة.. فوافق على ذلك مشكوراً.. ويظهر أن المعاني الثلاثة المشتركة في تكوين اسمه بالكامل.. قد كوّنت بنفسه غراماً أدبياً بالصور الشعرية، فقد سألني بعد عبورنا أحد مطبات الأحاديث المادية عن الكادر والمراتب.. والرواتب.. واستحقاقات التقاعد بعد عمر رسمي طويل.. أن أذكر له الأبيات الشعرية التي تستهويني من أبيات الغزل في الشعر العربي القديم.. والحديث.. والتي كنت أرددها في مجالها المناسب أيام الشباب.. وعما أردده الآن.. كملحق إضافي سوف يحتفظ به لحينه حينما يتقدم به السن..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٨هـ ـ ١٩٦٧/٧/١٤م.

فقلت: ـ

للمتنبي:

وبسمن عن برد خشيت أذيبه من حر أنفاسي فكنت الذائبا!

ولابن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى.. من حيث ندري ولا ندري

وللمازني:

آه على الرقة.. في خده لو أنها تسري.. إلى قلبه!

ولحمزه شحاته:

تعز.. ولا تضنك بهجر أراده فإن كان قد أظما.. فيا طالما سقى!

أما الآن.. فلمن أضاعت الذاكرة اسمه:

رب يوم بكيت فيه.. ولما صرت في غيره.. بكيت عليه

وللزهاوي:

وأبخل أرض بالرجولة بقعة يضام الفتى فيها.. ولا يتبرم

ولابن الرومي:

ألا من يريني غايتي.. قبل مذهبي ومن أين..؟ والغايات بعد المذاهب

وللعبد الله: موجهاً إلى السائل.. دون انحراف:

أعرني من شبابك يا حبيبي حياة.. أستعيد بها شبابي!

* * *

ـ ١٦ ـ

كنت اليوم في زيارة لبعض المعارف عائلة كريمة طيبة.. وقد لاحظت أن كبير العائلة ـ وهو شخصية ممتازة ـ كان لا يفتأ.. ولا يكل من ترديد كلمة.. شكراً.. يقولها لكل من يقوم له بأية خدمة سواء كان من العاملين بداره.. أو ممن يضمهم المجلس زواراً مثلي.. وسواء كانت تلك الخدمة تقديم كأس ماء.. أو فنجان شاي.. أو إدناء طربيزة صغيرة.. أو ما شاكل أياً من تلك الخدمات البيتية البسيطة وبمقدار تنوع تلك الخدمات وتكررها كان تنوع الشكر.. وتكرار جملة مثل.. أشكرك.. شكراً.. ممنون.. متشكر.. إلى آخر هذه الفصيلة اللفظية في مودرنيتها هذه.. أو في بلديتها مثل.. عشت.. تسلم.. من أيد ما نعدمها..

وقد لاحظت غضب زوجته من توجيه الرجل كلمات الشكر هذه إلى خدم البيت ومن في حكمهم من الصبيان والفتيات باعتبارهم أولاد البيت وخدمتهم له واجبة.

وفي مرة بعد مرات مطردة من كلمات الشكر وجهها هذا السيد المهذب لخادمه.. صاحت به زوجته بما ترجمته.. كان يا خويا..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٩هـ ـ ١٩٦٧/٧/١٥م.

بطل.. شكراً شكراً.. وممنون.. ممنون.. مو هو الخدام هادا لازم يعمل كدا من غير شكراً.. ومكرا دي اللي ما تطيح من لسانك.. إن الشكر لمثل هذا معروف له في آخر الشهر لفة ورقية معدودة يفهمها.. ويقدرها أكثر من الثناء اللفظي الجاف.. فانكمش الرجل.. وألقى إليها نظرة طويلة وكاد أن يتفوه ببعض ما قد يعكر علينا جو الجلسة..

وهنا تذكرت حكاية واقعية قصيرة.. كان الموقف فيها بالنسبة للزوج ولزوجته عكس الموقف الحاضر.. ولم أشعر إلا أن لساني تدلدل على عادته دون إذن مني.. فرواها للحاضرين.. على أن تكون هبة منه للزوجة.. ومستنداً تاريخياً للزوج المسكين..

والحكاية هذه تقول.. إن ممثلاً أجنبياً لبلاده أقام في مدينة جدة سنوات وحده.. ثم صادف أن طلب زوجته من بلاده للإقامة معه بجدة.. ولاحظ الزوج بعد حضور الزوجة وإقامتها أنها كانت لا تفتأ.. تقول لكل من يقدم لها خدمة.. من نوع الخدمات المقدمة للسيد المهذب.. من العاملين بالدار صفرجي ـ أو طباخ ـ أو معائن.. ثانك يو.. ثانك يو باستمرار في أعقاب كل خدمة.. ولا تغفل قاعدة توجيه الشكر هذه أبدا.

فتضايق منها زوجها ـ رغم دبلوماسيته ـ ثم التفت إليها يوماً قائلاً لها.. إن مثل هؤلاء الذين تزجين إليهم الشكر لا تحتمل أخلاقهم هذا الطراز من المعاملة.. فأجابته الزوجة في كلمات قاطعة مانعة حادة المغزى حاسمة الأداء.. إنني أتصرف هنا بأخلاقي أنا شخصياً.. ولا عليَّ أبداً من نوعية صداها لدى الطرف المقابل.. إذ يكفيني أن أرضي أخلاقي.. وعادتي..

وفي نهاية هذه الحدوتة المنزلية أرسل إليَّ رب الدار وصاحب عادة شكراً نظرة شكر.. برضو.. بينما بعثت إليَّ الزوجة بزغرة غيظ.. وتأنيب رغم أنها شاركتنا الضحك.. والإعجاب بالأقصوصة.

* * *

ـ ١٧ ـ

استيقظت اليوم مبكراً جداً والبركة ـ ولا شك ـ في البكور.. ولقد أحسست باليوم.. وكأنه وحدة منفصلة عن سابقه تماماً ـ بعد الاستراحة الجسدية والفكرية.. هيأهما نوم ليل قام كالحاجز بين يوم قديم.. ويوم جديد.. حتى لقد بدأت بجهد أربط بين ما اشتمل عليه تفكيري من حوادث مادية تتصل بكل ما في الحياة فيما سبق وبين ما أستقبله منها متصلة.. منفصلة.. بما في ذلك حالة الحرب أو أعقابها.. وكأنها شيء بعيد بعيد جداً عن نبضات ذهني بها أمراً متواتراً كان إلى ما قبل نومي يشتغل به فكري وإحساسي.. ودمي.

ولقد كانت لديَّ بعض الخواطر تعيها الذاكرة حية متواثبة.. ولكني لم أسجلها دحرجة لها لأوانها الدائم.. على أنها لم تك آنذاك في مجملها التقديري في درجة الحيثيات المفصلة.. فوجدت أن من خصائص بركات البكور انسياب تلك الخواطر وسواها من ذهن صاف لا تزدحم فيه وقائع النهار المادية يغطي بعضها بعضا مع ما يشتغل به اسمي من ماديات ثقيلة.

المصدر: جريدة عكاظ ١٠/٤/١٣٨٧هـ ـ ١٦/٧/١٩٦٧م.

وهنا.. لاح بذهني كلمحة خاطفة ما اشتمل عليه القول البلدي المكرور ـ كلام الليل مدهون بزبدة ـ وإن طلع عليه النهار ساح. فالصلة مفقودة تماماً ما بين ما كان يلج بالذهن وبالنفس من خواطر وأمنيات ومقررات قبل النوم.. وبعد اليقظة المبكرة.. وفضيلة تصحيح ما يقرره المرء وهو في حالة استرخاء تام لسلطان الليل وظلامه.. ومداعبات النوم.. وما تتربص به حالة اليقظة من رؤية كل شيء على طبيعته الحية تحت الشمس.

ولقد كررت حمدي لطبيعة البكور في الحياة، بإدراك ووعي لما تكون عليه النفس من صفاء لم تحجبه ذرات غبار ضوضاء الحياة وزحامها المألوف.. والمنتظر على الأبواب.. بعد قليل.. وحين قمت بالإضافة إلى ما قمت به. بأداء الصلاة أدركت أن مستوى أدائها في مثل هذه.. البدرية.. من وقتها مختلف تماماً عنه في أي وقت آخر.. فلم تكن صلاتي اليوم حركات مطردة من وقوف وركوع وسجود يكاد يكون آلياً.. بل كانت خشوعاً من نفس لم تدنسها وقائع اليوم المادية. بل كانت تفرغاً وتهيئواً تاماً للعبادة لا تزاحمها بالروح.. وحضورها الكامل شواغل الحياة الصارفة.

ولقد أدركت بذلك حقيقة المعنى المجسد في الأثر الشريف.. أول الوقت رضوان الله.

وبعد.. فقد استمر يومي الكامل الحافل مثلاً جديداً على ما تفعله الساعات تذوب هدراً في غير ما قدر لها أن تكون.. الساعة الصيفية.. في برامج بعض البلدان على أساس من الفهم الواعي.

كما إنني بمراجعة ما قمت به في يومي الطويل الحي.. نتيجة

للبكور.. ذهلت فعلاً مما استطعت القيام به من أعمال وأعمال.. كأنها فعل أيام لا يوم واحد.. وكررت في نفسي صادقاً.. هنيئاً لكل من كان البكور له. عادة يومية!

* * *

ـ ١٨ ـ

قضيت جزءاً من يومي هذا ـ في الجو.. على متن الطائرة تعبر فضاءه.. من بلد إلى بلد آخر.. فتختصر الوقت في حساب الزمن.. وتعلي قدر العلم يهب الحياة والناس من نعميات الحضارة ما يهب. ولقد كنت مع سواي من الركاب طيلة هذا الجزء من اليوم.. سكان مدينة جوية.. أو حياً من أحياء العالم الطائر.. يعتبر كل راكب منا بهذه الطائرة فرداً من أفراد هذه المدينة أو هذا الحي.

والنماذج البشرية منا حين يحددها مكان محصور الجوانب فرصة طيبة لدراسة الدارس.. وتفكير المفكر.. وعادة الأديب.. كما أن الشعلقة بين السماء والأرض مناسبة مثيرة لظهور الطبع الآدمي تجاه فكرة الحياة والموت على حقيقته مهما بدا من تجاهل لها.. يتخذ لدى البعض أسلوب النوم.. القراءة.. المحادثة.. بعد التعارف الجوي.. التناوم.. الأكل وتوابعه.. البحلقة من النوافذ في الفضاء..

ولقد أدركت شركات الطيران بدراسة وفهم وفن حقيقة الطبع الآدمي.. فرتبت نظام التدويخ العلمي في الطائرة.. يبدأ بالإذاعة المألوفة عن الارتفاع ومدى السير ومقدار المسافة. ثم التعليمات الخاصة بما

المصدر: جريدة عكاظ ١١ ـ ١٣٨٧/٤/١٢هـ ـ ١٧ ـ ١٩٦٧/٧/١٨م.

يجوز.. وما لا يجوز.. استعماله.. وكيفية استعمال الازارير الكهربائية. ثم.. وهو المهم.. الإشتغال.. للإنشغال.. بالطعام.. ومترادفاته من شاي وقهوة.. وخدمة رقيقة.. وابتسامات أرق!.

ولبرهة وجيزة.. تذكرت أول عهدي بركوب الطائرات منذ أكثر من عشرين عاماً.. وقد سجلت خواطري عن ذلك في كتابي المطبوع.. كما رأيتها.. في يومية قديمة الأمس.. جديدة اليوم.. تقول: إن ركوب الطائرة قبل الآن.. في نظر أي شخص من بلادنا يعتبر مجازفة كبرى.. وأمراً فوق الإدراك.. والخيال والمعتاد. ولكنه اليوم وسيلة اختصار.. ولذة.. وسمو..

ما أروع قدرة الخالق علَّم الإنسان ما لم يعلم.. وأباح له من كنوز العلم.. ومن المعرفة وأسرارها ما جعله في المكانة الممتازة بين المخلوقات.. وما أشد حركة الإنسان وتطلعه لما فوق.. ولكل ما هو خفي عنه.

إن الجو سمو.. وطهر.. وارتفاع.. ارتفاع عن كثير من المشاهد الدنيوية.. وكثير من النوايا.. والآراء المادية الثقيلة.. إنه مبعث غبطة.. ومصدر تفرد وسبيل عظمة نفسية بالغة.. وهذا البحر أسفل منا.. إنه لا يبدو أكثر من سطح مائي ساكن.. إلا من خيوط رفيعة جداً.. هي ولا شك الأمواج العالية الصاخبة.. وهذه السحب حوالينا وتحتنا كذلك.. إنها ليست أكثر من قطع دخان متحرك.. يملأ الجو ويعلو وجه البحر.

اللّهم تعالت قدرتك.. ما أعظمك.. إن السبيل إلى فهم قوتك العظيمة وجلالك لا.. ولن يتم مادياً إلا بإخضاع المادة لاكتشافها.. وهذا الإنسان أحد مخلوقاتك.. ما زال دائباً على ذلك.. أنانياً في سبيل

النفع الشخصي. عظيماً في ما توفق إليه عالياً في إباحته.. وفي تعميمه وتسهيله للبشرية جمعاء.. لاستفادة الإنسانية كلها بما ومما توصل إليه!

لقد رأينا الآن بعض البواخر بالبحر.. إنها ليست أكثر من نقط صغيرة سوداء.. هل تزيد سلحفائيتها.. عن منظر الجمال.. بالبر.. لراكب السيارة؟!

هذه بعض مناظر الساحل. لقد عرفنا بدقة معنى كلمة.. اليابسة.. على قصر المسافة.. إن الإنسان قلق طماع.. لقد بدأنا نستعجل الغاية.. لقد سئمنا الداء.. ومرأى الجبال.. وكتل السحاب تناطح السحاب.. أو تناطح طائرتنا.. ها هو المطار.. لقد وصلنا.

* * *

ـ ١٩ ـ

قمت في هذا اليوم بهذا البلد الغريب عني.. بجولة ثقيلة الوزن في أسواق «المم» كما يقول بعضنا بلدياً عن الطعام. وتعرفت بواسطة ما صرفته لدى بعض الجزارين ـ والخضرية ـ والفكهانية على نماذج ضاحكة هانئة من صنوف الناس.. وانتهى التعارف المتبادل أخيراً بسلة كبيرة.. يحملها رجل في منتصف العمر وقد رتب جميع ما اشتريته فيها بنظام.. وتنسيق.. وفن.. وحمل ذلك بسلته على ظهره لإيصاله إلى حيث تأتي السيارة التي استأجرتها لنقلي وما معي إلى الدار ولمن فيه.

وقد لاحظت على هذا الحامل أو الشيال المسن احتفاظه بتركيبه الجسماني السليم.. وبعضلاته القوية وعلى طريقتي في الولف السريع والدردشة الخاطفة فقد أخذت وأعطيت معه في الحديث لأتعرف كذلك على نمط من أنماط معيشة هذا الصنف يعيش على مثل هذا العمل.. وفوجئت بقول.. إنه راض كل الرضا عن حياته هذه.. فقد نشأ من صغره حاملاً سلته يرود بها أسواق الجزارة والخضرة والفاكهة وهي متلاصقة متقاربة.. فيتحصل من المقسوم. على ما يجعله مستوراً. ولقد

المصدر: جريدة عكاظ ١٣/٤/١٣٨٧هـ ـ ١٩/٧/١٩٦٧م.

أكثر من الحمد لله.. يؤكد صحة حمده.. خداه المتوردان.. وعيناه النفاذتا النظرات.. وبنيان جسده القويم.. وعضلاته المحبوكة.. وأخيراً ضحكاته التي تصل إلى حد القهقة الطويلة العميقة.. وهذا الرغيف المنعنع يقضم منه بين الفينة.. والفينة!. ولقد ذكرت.. وتذكرت ما يدور عن أمثاله.. والمثل البلدي القائل ـ مقسم الأرزاق رب العباد ـ ورغم طغيان المادة وزناً.. وحديثاً.. ومذاهب.. فقد عدت بفكري إلى قواعدي.. أو قاعدتي الشعرية.. فتذكرت إنني إزاء ما ألمحت.. كنت قد عالجت الموضوع في مقطوعتين متناقضتين.. أو متعاكستين لدى النظرة الأولى.. وتقول الأولى منهما.. وهي ديوان قالوا. وقلت:

قالوا:

من الناس من تسعى الحياة له ... رخية العيش.. موفور بها الرغد

ومن يجر وراها نفسه.. لهفاً ... يرجو الكفاف أو الأدنى.. فلا يجد

ومن يبيت على هم.. ويصبح في ... شغل.. يعدد من فازوا بها وجدوا

فقلت:

هذي حظوظ الناس قسمها ... من لا اعتراض عليه الواحد الأحد

إني لا عجب مما تعجبون.. ومن ... ما لا ترون.. ويستشري بي الحرد

لكنني رغم سعيي.. والشكاة سدى ... راضٍ بعيشي.. فما من طبعي الحسد

كما تقول القطعة الثانية على أساس الدرجات البشرية.. والنظرة إليها: ـ

قالوا: القناعة كنز قد طاب في النفس.. غرسا
أغلى الحياة.. وأزجى بها السعادة.. همسا
فقلت.. هذا عزاء يدسّه الضعف دسّا
ما كل من كان يرضى بأن يكون الأخسّا!!

* * *

ـ ٢٠ ـ

قال لي هذا اليوم أحد المسؤولين بإحدى الوزارات المسؤولة عن التوعية والتقييم لكل مقومات هذه المملكة السعيدة.. لقد تقدم أحدهم بشكوى ضدك.. وذلك في مفهومه العادي البسيط.. لأنك مسست في بعض ما تنشره من شعبياتك طائفة من إخواننا أبناء بعض الأقطار العربية.. يقيمون.. ويعيشون بيننا مشتغلين بما يعتبر عصب الحياة..

وأراد.. وشكراً لما أراد.. إفهامي بأن الشكوى لم تعتبر ذات موضوع جدي.. لعدم اشتمالها حقيقة أو جدياً على ما فهمه الشاكي إساءة.. ولتعود هذا الشخص بالذات على تكرار مثل هذا العمل منه.

فأجبته.. إن الذي يعنيني في مثل هذه الحالة قبل كل شيء.. سؤال واحد لتقرير حقيقة واحدة.. ولست أكترث فيما بعد لأن يكون لشكواه وجه خطأ أو صواب.. والسؤال: هل هذا الرجل سعودي أم أجنبي مقيم؟ قال: بل هو سعودي!! وراعتني الإجابة.. وهالني مدلولها فعلاً.. فقلت.. إذا كان الشخص سعودياً فكيف يبيح لنفسه أن يتكلم ويعتبر نفسه رغم حمله التابعية واتصافه بالجنسية السعودية.. لا يزال أحد أبناء ذلك القطر العربي؟ ثم كيف يجيز مسؤول مع عدم المؤاخذة..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/١٥هـ ـ ١٩٦٧/٧/٢١م.

سماع شكوى ضد سعودي من سعودي باعتبارها دفاعاً عن عنصر الشاكي.. وعنصريته.. إن الحقيقة في هذا الأمر وقبوله تقول.. إن الرجل لم يزل يعتبر نفسه من أبناء ذلك القطر العربي رغم تابعيته وجنسيته السعودية..

بهذه الحقيقة.. وبذلك السؤال أحب أن أقول أخيراً.. إننا بإفساح المجال في أية وزارة، أو مديرية، أو مصلحة أو قسم، أو مركز.. لقبول مدة اعتبار السعودي مولداً.. أو تابعية.. لا يزال ممثلاً لبلده النازح منه، أو المولود به أبوه وأجداده في كل شيء.. إنما نضعف، بل ونفتت.. بحسن نية.. هذا الذي يسميه بعضنا.. الكيان الكبير.. أو المملكة العربية السعودية!

وأخيراً.. فإنني احترم الرجل من أفراد الطائفة أو الجالية يقيمون بيننا منتسبين لذويهم ولبلادهم التي يحملون تابعيتها وجنسيتهم بموجبها.. ولكنني قطعاً لا أحترم أي مواطن يحمل تابعية وجنسية بلادي.. ثم هو بقوله.. وعادته.. وتصرفاته وشكواه كذلك.. وفي كل مناسبة يعتبر نفسه برغم ميلاده هنا ولهجته وجنسيته.. يعتبر نفسه واحداً من أبناء البلد النازح منها أحد آبائه أو أجداده القدامى.. في يوم من الأيام.

* * *

ـ ٢١ ـ

اعتاد بعضنا على اصطناع أسلوب محرج.. في بابه ـ أشد الحرج ـ لبعضنا المقابل له على الخط..

وقد حدث لي هذا اليوم بالذات ـ كما يحدث لأكبر ولأصغر مني بالطبع ـ وإني أتعشم أن أروي الأمر بأمانة تامة: ـ

لقد قيل لي ـ وأنا في البيت.. هناك من يطلبك على التلفون.. ولقد سبق حينما كنت غائباً أن «فلاناً» طلبك أكثر من ثلاث مرات.. وعليه فقد عدوت للتلفون وفي ذهني أن المنادي هو فلان الذي سبق وأن طلبني حين غيابي.. ثلاث مرات.. وكان بيني وبين فلان هذا ما يبرر الطلب وما يقتضي تكراره..

ولذلك.. فحينما رفعت السماعة.. وجاءني الصوت سريعاً.. مين أنا؟.. أجبت بنفس السرعة.. إبراهيم!! قال.. الله يجازيك يا شيخ.. إبراهيم ايه.. وعثمان ايه؟.. أنت كمان نسيتني.. مين أنا؟.. فتحيرت ـ بعد أن صدمت ـ وتبين لي أن المنادي غير من كنت أرجو أن يكون.. وصمت.. فاستمر.. ها.. ها.. أنا مين؟.. مين أنا؟.. واسعفتني أخيراً.. ولحسن الحظ النباهة في تمييز بعض نبرات صوته.. على

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/١٦هـ ـ ١٩٦٧/٧/٢٢م.

التعرف.. بالحذاقة.. على شخصيته.. فقلت فلان! قال.. نعم.. نعم.. لا والله فيك الخير برضو..

وتم له ما أراد.. حديثاً منه.. وسؤالاً وجواباً مني بالطبع.. ولم يكن في الحديث أو في الإجابة ما يحتاج لهذا التدويخ منه يجعل منه حزيرة ـ كما نسميها ـ يختبر بها ذكائي لتمييز أنواع الأصوات ومعرفة صاحبها..

وحين سردت بعد ذلك على مسامع بعضهم ما كان.. أجابوا بإجماع إن تلك هي عادة الرجل مع الجميع.. وهو لا ينفرد بها.. أيضاً.. فتلك طبيعة فلان.. وفلان.. وعادة زعطان.. وفرتكان.. لا يمكن أبداً أن يطلبك بالتلفون إلا ويفتتح الطلب بهذه الفاتحة غير المباركة.. أنا مين؟.. مين أنا؟..

إن في هذا الأسلوب ـ كما أعتقد ـ إحراجاً منقطع النظير .. لعباد الله.. وبالأخص من أمثالي الذين يكادون ينسون نبرات أصوات أقرب الناس إليهم بالتلفون.. وبالأخص إن كانت به بعض الخشخشة.. أو كان الإنسان مندمجاً فيما يجعله أشبه بالمسرح.. كما نقول..

إنني.. والشهادة لوجه الحق وحده.. ممن يفضلون دائماً حتى ولو كان من أطلبه بالتلفون على قسط كبير من الألفة لصوتي.. أن أسمي له نفسي قبل التحية مباشرة.. فأقول: فلاناً يتكلم!..

وإنني لا أدعي لنفسي حقاً لا أملكه وحدي.. وليس هو من اختراعي فذلك أسلوب يكاد في خارج بلادنا يصبح تقليداً متبعاً على الدوام.. وإننا كذلك قطعاً حين نسمي أنفسنا بالتلفون.. إنما نريح.. ونستريح!!

* * *

ـ ٢٢ ـ

ذهبت إلى السوق ـ في هذا اليوم ـ لقضاء بعض الحاجيات البيتية.. والشخصية واقتضى ذلك أن أتردد على بعض الحوانيت والمعارض.. لانتقاء الأحسن.. والأرخص والصفة الثانية ذات أهمية بالغة بالنسبة لجيبي قبل أن تكون بالنسبة لي.. بالذات..

ولما كنت من أبناء جيل قديم تعوَّد على المساومة في البيع والشراء.. أي على الطريقة التي كنا نسميها.. المكاسرة.. ونعني بها الأخذ.. والرد من أمثال.. لا.. فيك الخير.. ويا شيخ راعينا.. وهادا كتير.. ونحن زباينك.. وهيا تبغي تبيع وإلا لا.. وبس لف الحاجة.. وهاتها باللي قلت لك عليه! إلى آخر مصطلحات المكاسرة الدارج عليها جيلنا بالفطرة.. والتعوُّد.. والممارسة..

أقول لما كنت كذلك واحداً من أبناء ذلك الجيل المكاسر.. فقد صدمت اليوم فعلاً حين أدركت قدم أسلوبي.. بل اندثاره تقريباً.. وحين رأيت نفسي آخر من يخرج من الدكان أو المعرض اللذين أغشى كلاً منهما في برود وتخاذل.. لأن سواى من الزبائن كان ينهي مع البائع طلباته في تحديد.. وسرعة.. وفهم لروح العصر.. وهما.. أي الزبون

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/١٧هـ ـ ١٩٦٧/٧/٢٣م.

والبائع.. يتبادلان كلمات قلائل تشبه طلقات الرصاص.. عندك كذا؟.. نعم.. طيب بكم هادا؟ بخمسين! هاته.. وهادي؟.. بثلاثين.. طيب لفها.. ودا؟ بعشرة.. ناوله للواد.. وهكذا.

وزيادة على هذه المفارقة بين الأسلوبين القديم والحديث.. في البيع والشراء.. فقد لاحظت ظاهرة جديدة لم تكن موجودة على أيامنا.. ذلك أن بعض أصحاب المعارض لا يجيبني على سؤالي إلا بالإشارة إلى الورقة المكتوب عليها الصنف والسعر.. كأنما هو بذلك يعلن أن الحديث.. مجرد الحديث.. ممنوع أيضاً.. في هذا العصر.. عصر السرعة.. والاقتصاد.. في كل شيء.

وهم بذلك يحرمون أمثالي من أهم ما أعيش به وله.. فن الدردشة والحديث.. أو السكناب النظيف يطيب بين الأخذ والرد.. ويقضون من حيث لا يشعرون على أخطر مثل عربي عتيد.. وهو الحديث شجون..

وأنا بالنسبة للموضوع لا أنكر أبداً أن هناك نمطاً من الناس لا يحلو له إلا اللت والعجن.. وتنشيف ريق البائع قبل أن يحوقل ويستخير.. ويتلطف عليه بقبول آخر سعر.. كما لا أجيز هذه الآلية الصامتة في معاملاتنا التجارية لأنه لا يزال للزمن لدينا فضول وفضول وللفراغ مجال ومجال..

وأخيراً.. فلكل ما أسلفت.. فقد عدت إلى البيت دون أن أقضى لهم.. أو لنفسي شيئاً.. وكلما سئلت عن السبب.. أجبت أن السبب هو هذا الأسلوب الجديد الذي لم أعرفه.. ولم آلفه.. والذين يطلقون عليه كلمة.. البريفكس.. وتعنى بكلامهم.. سعراً محدداً لا مكاسرة فيه.. كما أنها.. والحق يقال.. تعني بكلامنا البلدي القديم: كلام واحد!..

* * *

ـ ٢٣ ـ

عشاق أنصاف أو أرباع الحلول الذين يتخذون من مبدأ التساهل في الحياة.. وفي مواضيعها جلت أو صغرت لن يكون لهم وبهم أثر بارز متعدى في تثبيت فكرة.. أو مبدأ.. أو وضع.

أما أولئك الذين يصرون لدى المواقف الحاسمة على الحل الكامل والمناسب فيما كان هدفاً عاماً أو موضوعاً ذا علاقة مشتركة وأثر متعد للغير فإنهم الرجال تربوا على عقيدتهم القوية القواعد الكبرى للمبادىء.. في الحياة!.

وكرمز.. وكمثل بسيط لما أسلفت.. فقد قضيت جزءاً من ضمن هذا اليوم لدى مسؤول رسمي كان مرؤوسوه يفضلون لموضوع خطير أن يأمرهم بإنهائه بأسلوب نصف أو ربع الحل.. تماماً.. تماماً.. على الطريقة البلدية الدارجة والرائجة.. والقائلة.. خذ وطالب.. وكان لا يختلف حين عرض لهم الأوراق.. كما يسمون المعاملات ـ أحدهم عن الآخر في الدعاية الطيبة لهذا المبدأ الذي لا تفك عقده.. أو تصفى رواسبه في المستقبل بيسر وبسهولة..

المصدر: جريدة عكاظ ١٨/٤/١٣٨٧هـ ـ ٢٤/٧/١٩٦٧م.

ولقد راعني حقاً إصرار هذا المسؤول الرسمي الكبير على كلمته يرددها لكل واحد منهم، والموجزة في أنه ما دام هذا الموضوع الهام أو ذلك الأمر الحساس برمته لازماً أو حقاً، أو ضرورياً.. لا بد أن يتم بشكله الكامل التام ـ فلا بد أن ينتهي ـ ككل.. لا يتجزأ ـ ما دام على هذا القدر من الخطورة أو من الحساسية.. وإلا فليؤجل قليلاً إلى ظرفه الملائم يراعى في إنجازه فيه ألا تكون له ذيول ضارة.. ولم يقبل أبداً نصف الحل ولا ربعه فيما عرض عليه!

وجرى البحث شائكاً ودقيقاً في هذه النقطة بيني وبينه.. كاستشهاد على المبدأ نفسه في تاريخنا الإسلامي.. كمثل عظيم موقف الرجل العظيم ـ الخليفة الأول أبو بكر الصديق ـ حين امتنعت بعض القبائل عقب وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه.. عن تأدية الزكاة ـ وقال منهم من قال.. نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسوله.. ونصلي.. ولكن لا نعطيكم أموالنا.. فقال أبو بكر إن الزكاة مثل الصلاة.. والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه.. فجادله كثير من الصحابة بأقوال منها ـ تألف الناس وارفق بهم ـ فإنهم بمنزلة الوحش.. أو.. إنما شحت العرب على أموالها.. فلو تركت للناس صدقة هذه السنة ـ إلى غير ذلك مما يعتبر.. في بابه.. وبابنا أيضاً.. أنصاف أو أرباع حلول..

ولكن جواب الرجل العظيم جاء قاطعاً حاداً كحد السيف.. والله لو منعوني عقالاً ـ وفي رواية عناقاً ـ كانوا يؤدونه للرسول لقاتلتهم على منعه.. ولو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي.

وكانت النتيجة الباهرة لهذا الموقف الصلب أن اتفق الصحابة كلهم على قتال مانعي الزكاة.. واستصوبوا ما رآه أبو بكر رضي الله عنه.

ولقد أثبتت الحقيقة الناصعة. . والنتائج لعدم قبول النصف أو الربع إن هذا الموقف ذاته كان تاريخاً. . في تاريخ الإسلام ـ نقطة ابتداء جديدة له. . وفرصة تثبيت. . وامتداد!.

* * *

ـ ٢٤ ـ

قمت اليوم بزيارة لصديق قديم وكريم.. يعيش غريباً على البلد معظم شهور العام.. وهذا الصديق ممن تجاوزوا حدود الكهولة في رحلة العمر ـ وقد بدأ السير في شعاب الشيخوخة.. بعد اجتياز مشارف ضواحيها.. من أمد قريب.

ولقد قضى حياته أعزب تراوده المرة بعد المرة فكرة الزواج.. فيرفضها في إصرار حيناً ـ وفي مقاومة ضعيفة ـ حيناً آخر ـ ثم في تهالك تام.. لا يلبث أن ينشط من فوره ليتشبث بعزوبته العتيدة..

وهو بحكم ذلك.. وبطبع سخى أصلاً.. لا يفتأ مبدداً.. لا يعرف معنى الادخار لما يرد إليه وما يكسب من مال فوق الكفاية.. كما أنه لا يقدر قيمة الصحة ينخر فيها فراغ الفردية.. بما يندفع إليه بإسراف في محرقة حياته..

عشت عمر صداقتنا أشفق عليه.. متلافاً لقوام الحياة المادي بشقيه صحته.. وماله.. مردداً على مسامعه دون كلل ما أطلق عليه ـ الإسطوانة المعروفة ـ وهي ما دمت تسلم معي بأن الزواج هو المرد ـ والعقبى

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٢٠هـ ـ ١٩٦٧/٧/٢٦م.

للجميع ـ فخير لك أن تكون منا وفينا.. ومثلنا.. تتزوج وفيك ولك حصيلة طيبة من مستلزماته.. وكان كذلك يجيبني دائماً ألست القائل يوماً ما من أيام العزوبة الداشرة:

وقالوا: تزوج فالزواج فضيلة يحث عليها الكون والدين والعقل.

ولا أهل في هذه الحياة لأعزب فقلت: دعوني ـ فالعزوبية لي أهل!

ثم ضعفت مقاومتك يوماً بعده ـ فقلت:

وقالوا: تزوج فالعزوبة غربة يضيق بها من عاش في نفسه.. واحداً.

فقلت: جدوا من لا أحس جوارها بقربة روحي.. وابحثوا البحث.. إن أجدى!

ثم كان ما كان منك مما تذكره ـ واذكره ـ وتعانيه.. ولا أعانيه.. ولله الحمد!.

وهكذا انقضى على ما قلت: وقال زمن طويل جداً.. واعقبه زمن لم أره فيه ـ ولم أسمع من أخباره الخاصة في البلد التي يعيش بها شيئاً عنه.. حتى جاءت زيارتي له اليوم بعد علمه بوصولي وتزويدي بعنوانه تلفونياً.. فراعني جداً أن رأيت له شقة لطيفة مرتبة.. فيها روح يرفرف ويسري.. وطيوف تتماوج وتتحرك كما راقني كثيراً تمتعه بقسط وافر من الصحة ونضارة القسمات بالنسبة لسنه المتقدم.. في المضمار..

واكتشفت في بدء الزيارة أن احتفاءه بي موزون.. على خلاف تقليده البوهيمي القديم ـ فأعربت له عن استغرابي عن هذا الثقل ـ والرزانة وعن مظاهر العافية الجديدة والنضارة البادية عليه ـ فأجاب إنني أدخر لك مفاجأة تذهلك.. كما أنها تسرك أنت بالذات أكثر من سواك.. فهي

تسجيل رسمي.. لاسطوانتك المكرورة.

إنني يا صاحبي قد تزوجت من أمد ليس بالقريب.. ولا بالبعيد.. وأنا سعيد ـ سعيد وإنني أصرف نقودي باعتدال ـ واتجاوب مع حياتي بقسطاس.. وأمشي أشواطها بتمهل.. في حيوية ـ وبهوادة ـ في حبور ـ وامرح ـ بأسلوب عائلي.

فقلت في نفسي سراً.. ما دام قد وجد المهماز.. فقد تعين على الجواد أن يتخايل.. دون جموح.. في المضمار.. مضمار الحياة.. والزوجية.. وقلت له جهراً كعادتنا: المقصود.. أنك لقيت اللي ينقط لك لما يجي الموت..

وضحكنا بصوت عال.. ضحك أيام زمان.. ولعل ضحكنا راق لمن كانت تتسمع لكلامنا.. ولعلها شاركتنا الضحك.. فيما أعتقد.. من بعيد.. لبعيد!..

❊ ❊ ❊

ـ ٢٥ ـ

دخلت اليوم أحد المطاعم.. حيث أذهلتني النظافة المنقطعة النظير فيه.. فهو بكل موجوداته.. أرضاً.. سقفا ركناً.. موائد.. كراسي.. أثاثاً عاماً.. مثل نادر يكاد لمثلنا الدارج ـ زي الصيني بعد غسيله ـ يخرج لسانه النظيف كذلك.. في أدب مهذب.

ونحن نعرف.. أن النظافة من الإيمان.. ولهذا فإنها تبهرنا لدى التطبيق باعتبارها نادرة.. لاعتبار التطبيق نادراً في أغلب الأحوال وما علينا من مناقشة ذلك فهو جر شكلاً يجر بدوره إلى مناقشات لا تنتهي عند البعض.. أو لدى الكل.. فالأمر سواء..

ولقد أخذت بعد إعجابي بتلك النظافة.. أراقب الرواد للفرجة.. ولإحصاء الحركات ومقارنتها بالسحنات تمييزاً لأجناس أصحابها.. فلاحظت أن الجميع ملتزمون أتوماتيكياً بمبدأ النظافة السلوكية في كل شيء.. مسايرة للموضع ذاته وللموضوع..

واتجرأ قليلاً. أو كثيراً.. فأقول إنني خرجت من هذه المراقبة.. جازماً بأن الباعث القوي لكل هؤلاء الرواد على اختلاف طبقاتهم

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٢٣هـ ـ ١٩٦٧/٧/٣٠م.

وأجناسهم على التزام قانون النظافة في تصرفاتهم الهادئة دون تكريع. أو تتفيل.. أو مخط.. أو لعلعلة حلق في تناول الشورباء مثلاً.. أو سحب المقاعد بخشونة وصوت.. أو إحداث احتكاك فظيع بين الأطباق وتوابعها من شوك وسكاكين وسواها.. لم يكن هذا الباعث هو تطبيق مبدأ النظافة وحده.. يقدر ما كان الباعث على ذلك الاحترام الملتزم والمطابق مع حيثية النظافة في المكان نفسه تمليه وتجبر الرائد له على أن يكون متماثلاً معه.. في كل شيء.

وتصورت العكس.. ترى لو كان هذا المطعم أصلاً على قدر كبير أو قليل من الوساخة ومن رثاثة أثاثه وموجوداته.. ومن إهمال وضعه منظراً عاماً وخدمات.. هل كان الرواد له.. مهما كانوا.. بهذا التمسك بمبدأ النظافة في كل سلوكهم وتصرفاتهم به؟

أظن أن الجواب كلا! فمن الطبيعي أن تسري العدوى منه إليهم.. وكم من مكان قذر يغريك بأن تعطيه ما يجب له.. فأنت لا بد وأن تتفل أو تمخط حتى ولو لم تكن ذاتياً في حالة استعداد قهري لذلك.. بل إنما تفعل أحد الأمرين وسواهما لتتماثل سلوكياً مع الموضع والموضوع..

وتذكرت أننا كنا جماعة في رحلة لأوروبا.. وكان أحدنا بالذات من المغرمين بالأصوات الحركية من الأنف والحلق.. وسوائلهما.. فكنا إذا غشينا محلاً محترماً يضغط على طبيعته ونفسه فيتورع ألا يمارس رذيلته تلك مضطراً وحتى حين يحزقه شيء منها فإنما يعمد إلى منديله يكتم به الصوت ويدفن فيه قاذوراته.. وكان يتناول كل شيء في هدوء.. وبأسلوب مهذب. ونظيف..

أما حين يقذف بنا الحظ السيء إلى مكان يتناسب ومستوى عادات الأخ.. فكنا نسارع بنسبة قذارة المحل.. والإهمال فيه.. في صيحة واحدة إلى القول له.. تبحبح يا أخا العرب!..

ونعود للموضوع.. وإن لم نخرج عنه بما مر فأقول.. طال عمرك ـ إنني قلت لنفسي في هذا المطعم المنقطع النظير في النظافة التي هي من الإيمان.. يا ترى هل يتناسب مع الوضع والموضوع.. أن نقلب المثل القائل.. المكان بالمكين.. لنقول. إن المكين بالمكان؟..

أرجح أن ذلك يجوز أحياناً.. وربما كنت مخطئاً في هذا التخريج.. الذهني.. لا الحلقي.. بالطبع.. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

ـ ٢٦ ـ

كنت أدير في رأسي هذا اليوم.. فكرة انعدام النقد الأدبي لدينا انعداماً تاماً في مستواه المدرسي يقوم على القدرة على الفحص.. والتمييز.. وتتبع أوجه النقص في الأثر الأدبي.. وتخطيط المنهج والأنموذج.. وعدم وجود الناقد الأدبي الذي مارس الحياة الأدبية ذاتها بكل جوانبها.. عملاً أدبياً منه.. وتذوقاً له.. وكشفاً لجوانب الحس والصحة.. وإدراكاً لمواطن الضعف والتفاهة والمفارقة.. لا يدرك كل ذلك إلا متمرس بصير.

وللبحث في أسباب هذا القحط النقدي لدينا في مجالي الكتابة والشعر بالذات مجال أوسع من دورتي الرأسية في يومي لا تتفرع لتبويب الموضوع.. والإسهاب فيه.. فإنها لتشبه.. حمار الشيطان.. في قفزاتها وراء ما تقرأ من نتف نقدية يريد بعض أصحابها أن يتسلقوا على أكتاف بعض أصحابنا.. تماماً كبعض الأعشاب التي نطلق عليها.. العليق.. ولم يكن لهم في الأصل نتاج أدبي يعرب عن ذواتهم الأدبية.. في قليل.. أو كثير.. وذلك شرط أساسي في رأيي.. لوجود الناقد المضارع للعقاد ولشكري وللمازني كجسور أولى في حياة النقد لمطلع الحياة الأدبية

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٢٤هـ ـ ١٩٦٧/٧/٣١م.

بمصر.. فإن لكل من هؤلاء كيانه الأدبي الممثل في نتاجه الذاتي نثراً.. أو شعراً..

ولعل النقد ذاته في تقنين النظرة البسيطة له.. يساوي إدراكاً ولمحاً فطريين لما يجب أن يقال كأحسن ما يقال.. ولما يعاب كشيء واضح يصدم الحس والوعي.. ولقد يتوافر ذلك حتى لبعض الناس العاديين.

وفي حدود هذه الإيماءة العابرة.. فقد شاءت المصادفة الطيبة أن أقرأ في ذات اليوم.. هذه الطرفة البسيطة المتواضعة رغم مدلولها الموضوعي الضخم عن موضوع النقد الأدبي من زاوية توفرت لها النكتة الساخرة.. والإدراك الواعي رغم فطريته الساذجة وتقول: ـ

بينما كان كثير عزة الشاعر المشهور ماراً في الطريق يوماً.. إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي.. فقال لها.. تنحي عن الدرب.. فقالت له.. ويحك! ومن تكون.. قال: أنا كثير عزة.. قالت: سامحك الله.. وهل مثلك يتنحى له الطريق؟ قال: ولم؟ قالت ألست القائل: ـ

وما روضة بالحسن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها.. وعرارها
باطيب من اردان عزة.. موهنا إذا وقدت بالمجمر اللدن.. نارها

ويحك يا هذا.. لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي.. ومثل أمك لطاب ريحها!! لم لا قلت مثل سيدك امرىء القيس: ـ

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقاً وجدت بها طيباً.. وإن لم تطيَّب

فقطعته.. ولم يرد جواباً!!

* * *

ـ ٢٧ ـ

انشغلت في هذا اليوم ـ جماعتنا اليومية ـ البشكة.. بحادثة بسيطة في ذاتها.. لكنها.. كموضوع.. جرت إلى نظريات شخصية.. وإلى اقتراحات وآراء عديدة.. فقد أصيب رئيس البشكة.. بداحوس.. في أصبع يده اليمنى.. وللتاريخ والأمانة فيه.. فقد كان الإبهام بالذات هو الأصبع المصابة.. بهذا الداحوس اللئيم..

والداحوس.. لعلم من لم يعلم ـ يطلق بلدياً على ورم ـ بسيط أو حومة.. لم تسمح رأسها بظهور الفتحة فيها.. أي أنها لم تتنسم بتعبيرنا.

ومجاراة لحالة الألم في إبهام كبير البشكة.. وجلوسه صامتاً على خلاف عادته.. ولتعطيل يد الصن كلها لا أصبعها.. فقد توالت الوصفات الشعبية السريعة والبطيئة للعلاج وللشفاء بإذن الله.. فقال قائل.. يعالج الداحوس دائماً بإدخاله في بصلة صغيرة مشوية.. وظهر بالمناقشة أن عيب هذه الوصفة البصلية.. إن البصلة تطبخ الورم.. وتحيل موضعه إلى دمل.. أو خراج.. فاستبعد ذلك حالاً.. وقال قائل.. الأولى أن يوضع على الداحوس نفسه الاكتيول ـ وهو المرهم الأسود ـ ولكن تبين أن ذلك ملطف بسيط لا جدوى منه شأنه شأن البنسلين أو الترومايسين.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٢٥هـ ـ ١٩٦٧/٨/١م.

وهكذا استمرت الوصفات تتوالى.. فنشأت عن ذلك مجادلات عقلية مركزة تقول خلاصتها ـ هل من الأفضل لنا ونحن في عصر بلغ فيه الأمر بالطب الجراحي أن أصبح كتاباً مفتوحاً مقروء الصفحات وسطورها في سهولة لكل طبيب مختص أن نبادر بمراجعه الدكتور فيما هان أو جل من مرض؟ أم أن من المناسب الاستمرار على أسلوبنا المعتاد في القيام بتجارب تطبيق الوصفات البلدية ـ كعادتنا ـ حتى إذا ما استفحل الأمر عمد المصاب مضطراً لمراجعة الطبيب المختص؟

وكانت النتيجة في نهاية السهرة ـ من غير صن ـ مراعاة لحالة كبير البشكة أن حررت محضراً ينص بالتزام أفرادها بضرورة مراجعة الدكتور المختص فور حدوث أية إصابة مهما كان نوعها.. درءاً للمضاعفات.. ولعدم تعطيل أي فرد عن أداء واجبه الليلي على الأخص.. عن مزاولة هوايته.. وهواية الجميع..

وقد اضطررنا للتاريخ الداحوسي.. وللمناسبة.. تسجيل هذه المناسبة في التالي على لسان المصاب نفسه: ـ

قل للداحوس.. اتانا فجأة.. دون علامه!
لافا.. فوق صباعي وعلى العقلا.. عمامه
لا تكن ضيفاً ثقيلاً تكره البشكا.. مقامه!
أنسيب الصن.. يعني أم ترى نلعب.. دامه؟
أنت لم تحفظ معانا أي حرمة.. أو كرامه!
فتفضل غير مطرود.. ودرج بالسلامة!

* * *

ـ ٢٨ ـ

قابلني اليوم فتى.. مشرق العبارة.. وجداني التعبير.. جدي الموضوع.. وقد سألني الرأي للطريق لأن يكون شاعراً.. فهو يحس أن نفسه تريد أن تقول شعراً.. ويحتاج أن يعرف من أصوله العروضية.. أكثر مما لديه منها.. وأن يتعرف على بقية المستلزمات المرتبطة بلغة الشعر.. نفسها.. وتداولنا الحديث.. من بداية الموضوع.. وكيف أن الشعر ذاته وجد شعوراً مصاغاً في قصائد ومقطوعات، وأغنيات موزونة وزناً موسيقياً.. نطقت به الفطرة الشاعرة.. والوجدان الحساس.. ورسمته تلقائياً في صور وأنماط نطقت بها السليقة.. وأقرها العرف الشعري المتداول آنذاك لتكون النماذج الثابتة تقريباً.. مثله في ذلك مثل بقية الفنون الجميلة من موسيقى.. ورقص.. ورسم.

ثم جاء دور التقنين العلمي.. الموجود فعلاً.. فوضع المسميات الأساسية وحددها.. في بحور.. وقافية.. وأوزان.. ثم في علل جائزة.. وأخرى غير مستساغة.. أو مهجورة.. نزولاً على حكم الذوق.. وحواس الإدراك..

وكدنا نتفق مبدئياً.. على أن العاطفة.. لا العقل وحده.. هي

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٢٦هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢م.

المنطلق الأول لقول الشعر إحساساً معبراً لدى الشاعر الأصيل عن ترجمة ما تجيش نفسه شعوراً داخلياً منها سواء أترجم عنها ذاتياً.. أم استعار عن غيره بعد أن تأثر به ما تأثر به الغير.. وخضنا في كلام قريب من ذلك وبعيد عنه.

ومن بعض ما قلته له في هذه النقطة بالذات، أن بعض ما قيل في نقد شعر العقاد أنه في أكثريته عقلي صرف.. وإنه ربما شاهد المنظر.. أو اقتنص الفكرة.. فقال إن ذلك.. أو تلك يصلح كل منهما موضوعاً لقصيدة أو مقطوعة.. ولهذا فأنت لا تتأثر عاطفياً أو تتجاوب مع شعره ذلك نفسياً وعاطفياً.. وإن كنت لا ترفض ما قاله.. صورة.. معقولة!.

أما بصدد رغبتك أيها الفتى في أن تكون شاعراً.. فإنه ما دامت نفسك تلح عليك.. وتدوي بهذه الرغبة فإن ذلك أول خطوة صحيحة في الطريق.. وكتب العروض موجودة.. كأساس لمعرفة البحور والأوزان ـ وتقطيع التفصيلات ـ ودراستها.. كعلم ذات فائدة.. وجدوى.. وعون..

ولكن السر يكمن في الأذن الموسيقية تدرك بها الخلل إن كان.. ولهذا فإن قراءة الشعر باستمرار تعين على تقوية الحس الموسيقي..

وشيء آخر مهم جداً.. وهو عليك ألا تقول شعراً أبداً إلا إذا أرغمتك رعشته القوية لأن تقوله.. مترنما بموسيقيته دون تقطيعه العلمي أولاً فأولاً ـ بالطبع ـ وإن كثيراً من الشعراء ينسون التفاعيل.. فقد ذابت القواعد العروضية الأولى لديهم.. كما تذوب حروف الهجاء مرتبة أو غير مرتبة لدى الكاتب.. أو الناطق بالكلمات اليومية.

والنظم.. كما يفهم من كيان اللفظة ذاتها لضم ألفاظ وتركيب جمل عروضية.. فهو في مبادىء الشعر.. صنعة.. لا طبيعة.. صنعة تمارس

في أي موضوع ولعل خير مثال عليها ألفية ابن مالك في النحو.. وسواها في بقية الأغراض..

وباختصار شديد.. فإن عليك أن تتمثل بهذا البيت المحدد للموضوع بدقة: ـ

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقاً أن يقال له شعر!

* * *

ـ ٢٩ ـ

اجتمعت يومي هذا بمسؤول كبير من الأصدقاء الرسميين وكان صاحب قلم فيما مر به وبنا من أيام.. بل لقد زاد عليا باحترافه القلمي.. حيث كان يكتب يومياً ركناً خاصاً به.. في جريدة.. وأركاناً غير يومية في جرائد أخرى.. ويعتز بأنه يعيش من شبا قلمه.. في أركان تلك الجرائد.. كما لا يستغني عن تكملة.. المعوشة.. من طرف لسانه بما يذيع من أحاديث طويلة وقصيرة.

وقد لاحظت.. وأنا في مكتبه الفخم.. وبين رنين التلفون الذي لا ينقطع وأكداس الإضبارات.. كما يسمى الدوسيهات عمك عبد القدوس.. لاحظت أن زميل القلم القديم.. وجلس على المكتب الرسمي الجديد ـ كان يكرر لازمة حديثه في أقواله.. فيما تذكر حادثة.. أو يروي خبراً منقولاً كتبت عنه أو نوهت به الجرائد.. إلا عقب على تلك وهذا.. بأنه.. كلام جرايد.

وجملة.. كلام جرايد. هذه للتاريخ.. جملة مستوردة من الخارج.. وليست من صنع واقعنا.. أو أفواهنا المرددة لها.. في حالات.. وحالات فإن جرائدنا بحالتها الحاضرة لا تتعدى في الصعيد

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٢٧هـ ـ ١٩٦٧/٨/٣م.

المحلي نطاقها الخبري المحلي مما يكاد يكون متداولاً على الأفواه.. كما لا تلون الخبر الخارجي بما يجعله جديداً على سامعه من الإذاعات.. وهي بهذا وبذلك.. لا تبيح لمبادئها ما تستحق أن ترمى مظلومة بهذا الوصف المسيء إلى ما ترويه بصفته ـ كلام جرايد.

والحقيقة أنني لم أطق صبراً وقد أشفقت على صاحبي هذا ـ ولد الجرايد ـ وعلى من في المجلس من المشايعين له تملقاً وزلفى.. وكذلك على الحالة الثابتة تتواتر بصيرورة هذه الجملة ـ كلام جرايد.. أصلاً من أصول الحديث عن هذه التي إن كسبت التسمية.. فإنها لم تكسب الأصل والشكل تستحق معها وبهما أن تنال شر الجزاء.

أقول إنني لم أطق صبراً على كل ذلك.. وبالأخص من صديقنا إياه.. فعقبت بأن الصحف عادة.. وفي العالم كله.. مرجع محترم من مراجع الأخبار اليومية للناس.. حتى أصبح بعضها المصدر الذي تروي الإذاعات عنه.. بفضل ما تنشره مما لا تصل إليه قبلها آذان بقية وسائل الإعلام..

ثم إن الجرائد بدورها صاحبة مراجع آدمية موقرة.. حين تتهيأ لها فرص النفاذ.. والاحتكاك بتلك المراجع مباشرة أو بالواسطة الموقرة كذلك..

فضلاً عن إنه يجب علينا أن نلاحظ أن هناك طائفة من الناس.. وضعتهم ظروفهم أو هوايتهم، أو أدوات كسبهم المعيشي.. أو شتى بواعثهم في المرآة الصحفية لهم.. فعاشوا وقوداً دائماً.. وأذهاناً.. وأكفاً عاملة.. لاستمرار مطالعتنا لهذه الجرائد.. يومياً.

وهم ـ بوضعهم هذا ـ لا يستمعون منا كسر الخاطر بهذه الجملة الفارغة نتلهى.. أو نستكبر بها عليهم.. كأنما هم في مضمونها شيء..

لا يجدر بنا أن نشعر وجوده إلا بهذا السعر الكلامي الرخيص..

إن هؤلاء العاملين بالجرائد.. والكاتبين بها.. والناشرين فيها.. شأنهم جميعاً في هذا المجال.. شأن إخوانهم الآخرين في مجالات الأعمال.. بأنواعها ـ في الحياة ـ بما في ذلك زملاؤهم بأجهزة الإعلام الأخرى.. ينبغي علينا ألا نضيع مجهوداتهم القائمة على العزيز من ضوء أبصارهم.. ومن عصارة أذهانهم.. ومن صحة أبدانهم.. بجملة تقليدية بلهاء.. نرسلها في استرخاء.. وفي تعال.. واستخفاف حين نردد كل حين ببساطة تامة كلام جريد!!

* * *

ـ ٣٠ ـ

في مثل هذا اليوم.. ومن حوالى عام تقريباً.. وقد كنت نزيلاً بأحد فنادق بيروت.. أحسست.. دون كذب غنى أبيض.. ومن غير مبالغة لا لزوم لها.. وبلا خيال شاطح.. أحسست بشعور خفي هامس إنني لا بد مواجه قريباً مكروهاً ما.. لا أعلم كنهه أو مداه.. وركبنى تبعاً لذلك ضيق شديد منفر.. يشبه إلى حد كبير ركوب العفريت.. كما يقولون.. ظهر.. أو رأس من به مس خفي.. أو لطف غير محمود كما يعبرون عن الجنون البسيط غير المركب الحاد..

وكنت قد اشتريت الجزأين الأول والثاني من كتاب.. الأيام ـ للدكتور طه حسين.. رغم قراءتي السابقة لهما.. وتهيأت للنوم بعد أن نبهت بالتلفون على المسؤول في الأوتيل أن يوقظني في الموعد المبكر حددته له بالدقيقة.. ولكن ما أن بدأت عيني تستجيب لمداعبات النوم اللذيذة.. حتى خطر لي فجأة أن أقرأ قليلاً.. ولوقت قصير.. فالليل طويل..

وفعلاً.. بدأت أقرأ في الجزء الأول.. وضايقني أن نور الغرفة أخذ يمزح معي بطريقة الغمز غير المباح.. فينطفىء لثوان.. أو لدقيقة.. يعود

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٤/٢٩هـ ـ ١٩٦٧/٨/٥م.

بعدها ساطعاً وهاجاً لدقيقة أيضاً.. أو أكثر.. ليرجع سيرته الأولى في الغمز من جديد..

ورغم ذلك.. فقد أكملت قراءة الجزء الأول.. وتهيأت ثانية ومن جديد للنوم.. ولا أدري كيف انسلت كالعقرب.. إلى ذهني حكاية النور الغماز وأسبابها.. وهنا أخذت الهواجس تتضخم شيئاً فشيئاً.. باعتبار إنني أحد الذين لا يحبون الغمز في الظلام تعصباً لصدق المثل القائل: مين داري عنك.. يا اللي في الظلام تغمز.. وحتى أقطع على نفسي تلك الهواجس والأفكار ضغطت الزر.. فأضاءت الغرفة.. فتناولت الجزء الثاني من الكتاب.. وفي منتصفه تقريباً.. وكانت الساعة قد شارفت الثالثة بعد منتصف الليل.. غلبني النعاس بقوة النوم القاهرة.. وما هي إلا هنيهات ـ كما يقول أبو سبعبع ـ وأنا بين الصاحي والنائم حتى سمعت دقاً شديداً على باب الغرفة.. فقمت مذعوراً.. وفتحته لتهجم عليّ سحابات كثيفة من دخان أسود مركز وذي رائحة ثقيلة.. فغطتني.. ولكني.. بحلاوة الروح.. أطلقت سيقاني للأمام.. نحو الممر حيث قابلني لسان رفيع مرعب من اللهب الأحمر.. وكان اللسان الناري طويلاً كلسان صديق لنا قديم ومعروف. فانزلقت بجواره.. للدرج.. حيث لم يرد رأسي بفضل سيقاني إلا الشارع.. وقد ضاقت خياشيمي.. وثقل صدري ببقايا الهباب الأسود الملعون..

وهناك.. بالشارع.. تشهدت.. وإن كنت قد عتبت على نفسي فيما بعد.. أن تجيء الشهادة متأخرة عن وقتها المفروض.. وهذا تقصير ديني وأخلاقي كبير.. وتفرست في نفسي متفقداً إياها.. فإذا أنا بالفوطة والفانلة ليس إلا.. حافياً مكشوف الرأس.. عاري العينين من نظارتي

الحبيبة الملازمة أرنبة أنفي ملازمة الأرنبة المذعورة غارها المألوف!..

وشاهدت.. بعد التقاط أنفاسي.. سيارة الإطفاء.. وتوابعها.. وتابعت الجلبة والضوضاء اللتين انتهتا بأن قال كبير.. حامل الشيب.. بسيطة.. بسيطة قوندشين انحرق.. ومسك في الستارة.. وكادت النار أن تتم الجولة على الجميع لولا أن حاصرناها.. وأخمدنا أنفاسها.. وأنقذنا المغمى عليهم في الممرات.

وهنا.. حمدت للشاعر العربي القديم نصيحته الخالدة.. جاءت كوصف لحالته الثابتة السالفة.. وحالتي الحاضرة الآن..

وفي الهيجاء ما جربت نفسي ولكن في الهزيمة كالغزال!

وقد كلمني أحد الأصدقاء بالتلفون صباح اليوم التالي.. وقد قررت السفر مساء اليوم نفسه.. مواسياً ومؤكداً.. إن هذه العقبى الحسنة والنجاة إنما كانا من رضاء الوالدين.. فشكرته بما يناسب المقام.. من حكم ومحفوظات..

وعلى ذلك.. فما أن استقر بي المقام بين أهلي في اليوم التالي.. وطلبوا مني لإشعاري بالحب وبالتدليل إن أقترح عليهم صنف الحلا.. بعد الغدا.. حتى قلت.. فوراً.. صحناً ممتازاً من رضاء الوالدين!..

* * *

ـ ٣١ ـ

تكررت على مسامعي هذا اليوم.. أحاديث الصيف.. والمصائف.. وآخر ما كان منها.. ما كان مع صديق مكي أديب.. وعزيز.. ويقول إنه اعتاد أن يسير وفق نظام العائلة التقليدي القديم.. والقائم في أصله العربي على التشتية بمكة.. وعلى التصييف في الطائف.. لا يعدل بمكة.. أعزها الله مشتى.. ولا بالطائف.. كتب له حسن الحال.. مصيفاً.. فماذا عندك في هذا؟ فقلت له عندي فيه طرفتين تدخل في صفحة الشعر التاريخي الفصيح القديم إحداهما.. وتدخل ثانيتهما في صفحة القناديل.. شعراً بلدياً.. فهما بذلك يكونان.. وجهين في الوضع.. وفي الموضوع!

أما الأولى.. فعن عادتك هذه.. عادة التشتية بمكة.. والتصييف في الطائف.. فلقد صوّر الأمر بلسانك تصويراً تاماً من قديم النميري الشاعر محمد بن عبد الله.. النميري بن فرشة الثقفي.. مولد من أبناء الطائف.. منشأ.. ومن شعراء الدولة الأموية الغزليين.. وكان يهوى زينب بنت يوسف بن الحكم.. ويقول فيها:

تشتو.. بمكة.. نعمة ومصيفها بالطائف

المصدر: جريدة عكاظ ١/٥/١٣٨٧هـ ـ ٦/٨/١٩٦٧م.

أحـب بـتـلـك.. مـواقـفـا ... وبـزيـنـب.. مـن واقـف
وعـزيـزة.. لـم يـفـدهـا ... بـؤس.. وجـفـوة خـائـف
غـراء.. يـحـكـيـهـا الـغـزا ... ل.. بـمـقـلـة وسـوالـف!

وأما الثانية فتقول بالبلدي.. بلسان العبد لله.. عن الطائف أيام زمان وعن المقارنة بينه وبين الحر والعيشة بمكة أيام السموم.. والصيف.. مصدرة ببيت ابن الرومي..

والمخاطب فيها أبو عرب.. حمزة شحاته ما يأتي:

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان.. تفاح.. ورمان
ومشمش.. وكمثرى جنبها عنب ... وبين ذلك كوسا.. أو بذنجان
ورجلة.. وفصولياء. وبامية ... وكل ما يشتهي طاوٍ.. وشبعان
فإن تمشيت هاج الجوع ساكته ... وإن تفرجت.. سالت منك ريقان
وطالما كنت مبشوماً.. فزغللني ... ما في البساتين..والإنسان إنسان
وطالما فرحت عيني.. بما نظرت ... وقد جلست.. وجنبي الزرع رويان
والماء يسحب وسط الزرع ملتوياً ... كأنه في فم الأشجار.. ثعبان
والغيم تقطر يا روحي مدامعه ... كأنها لؤلؤ حر.. ومرجان
كدا.. وإلا فلا لا.. يا أبا عرب ماء ... .. وزرع.. وأمـل.. وخـلان
فلا تفكرني.. من بعد تسليتي ... إني من الشغل في دا الحرونيان
ومن صباح صبيي.. وهو يطلبني ... حق الفطور.. كذاك القلب طفشان
والبيت حر.. وناموس.. ودهننة ... وفي زواياه برغوث.. وفيران
والطائف المانوس يا ولدي ... يبغالو كيس فلوس.. وهو مليان!

وتلاحظ في البيت الأخير.. أنار الله بصيرتك.. إنه قد تضمن مثلاً.. كان شهيراً في حينه.. مروياً على لسان أجدادنا وجداتنا في ذلك العصر الفقري البائد.. يؤرخ الطائف باعتباره أقصى ما يطمح إليه طالب الاصطياف.. على طريقة.. طالب العلم.. وإن العين بصيرة.. واليد قصيرة.. والمثل بدمه وبلحمه.. أي بحروفه وكلماته كان يقول:

الطائف المأنوس.. يبغالو كيس فلوس!!

❊ ❊ ❊

ـ ٣٢ ـ

تذكرت اليوم.. عرضاً.. بعض البرامج والريبورتاجات الصحفية.. والإذاعية.. والتفلزيون.. على آخر العمر ـ تختتم عادة.. في المقابلات الشخصية ـ بلازمة ثابتة لا مفر منها تتعلق تلك اللازمة بالسؤال التقليدي عن هواية الشخص.. أو عن أحب ما يرتاح إليه.. أو يروقه؟!

وافتكرت إنني قلت مرة.. في إجابة على سؤال من هذا النوع أو ما نحا نحوه.. إنني أحب السياحة جداً.. جداً.. على طريقة بعض إخواننا في بعض الأقطار الشقيقة في التأكيد على.. أو لشيء ما..

وببلاغة ببغاوية من رواسب درس الإنشاء القديم في المدرسة استهليت.. كالمألوف.. المبرر الرسمي.. لا الشخصي.. لهذا الحب للسياحة دون أن يطالبني أحد به.. بالبيت القائل:

وسافر ففي الأسفار.. خمس فوائد!

وأخذت على طريقة تنظيم بنود التمرين البيتي أسبوعياً ـ أو شهرياً.. أو يومياً أحياناً.. أعددها ـ كما وردت في الأصل الشعري التابع للبيت..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢هـ ١٩٦٧/٨/٧م.

متصلاً به.. أو منفصلاً عنه:

تـعـلـم عـلـم.. واكـتـسـاب فـضـيـلـة   ونـفـع وآداب وصـحـبـة مـاجـد!

فقد نسيت.. في لخمتي.. استعادة سرد المفطوم بالضبط لعلّة لا أدرك كنهها الآن.. أو حينذاك.. كما نسيت بخبث أن أذكر للسائل.. كرأي معارض.. ما ورد في باب الأسفار بالأدب القديم والأمثال الشعبية من تنفير.. أو على الخف.. ما فيها من تعب.. وبهدلة.. ومشقات.. من أمثال ـ السفر قطعة من النار.. ويسفرك من لا يسافر معاك.. وهذا العجز من حلمنتيشية طويلة:

ففي الأسفار هجولة.. وبعد!

وربما كان هذا وما جرى في خطه المعارض شرحاً وافياً يدخل في مدار التنبؤ بما يتكبده السائح العصري الآن من نفقة مادية لا تقوى كل الجيوب عليها.. ولقد تم ذلك كله أو بعضه في أسلوب طيب لطيف.. في رأيي على الأقل..

وتذكرت للتفلسف في مسببات نشوء حبي من الصغر للسياحة.. رغم قصر الذيل.. حباً لاهباً كله وصل واتصال.. إن السبب المباشر لها بدأ معي أحلاماً صبيانية.. خيالية حين كنت في يفاعتي ومستهل شبابي.. مواظباً على قراءة روايات الجيب.. وكانت بحكم قراءتي لها تنتصب أمام عيني بأشكال مصوّرة لذيذة الخيال.. بل وساحرة الصور المتخيلة أسماء العواصم تجري فيها أحداث تلك الروايات.. ابتداء من البعيد منها جداً.. كلندن.. وباريس.. برلين.. مدريد إلى القريب.. والقريب البعيد.. كبيروت.. أنقرة.. طهران.. إلى ما لا يعد ويحصى من عواصم

العالم.. ومدنه الكبيرة.. بل وضواحيها كذلك!

ولا زلت في إصرار.. واستبسال في الدفاع عن المبدأ.. وعن المحبة لهذه الهواية.. السياحة.. أؤكد أن السياحة بلا شك.. مدرسة الحياة الكبرى!.

* * *

ـ ٣٣ ـ

وتذييلاً لما سبق عن السياحة.. كهواية مجردة.. أو مرتبطة بسبب أو بأسباب أخرى.. وإنها مدرسة الحياة الكبرى.. بما تشتمل عليه من جغرافية عملية ومشاهدات حية لعادات وطبائع البشر.. ومن مطالعة سحنات جديدة.. وتدريب على النظام.. واحترام للمواعيد.. ومعاركة للأفكار.. إلى آخر قائمة فوائدها.. ينتهي ذيلها.. بعد العودة بالسلامة.. بمراجعة بيانات المنصرفات.. والنظر إليها بمنظار آخر.. بعد فوات الأوان.

تذييلاً لذلك.. فقد حكمت المصادفة الموضوعية العليا اليوم أن اجتمع بأحد المعارف.. وجاء الحديث عرضاً عن السياحة.. أو السفر بلغتنا البلدية.. وذكر لي أنه مثلي.. من المغرمين بهذا الشيء الذي نسميه سياحة أو سفراً.. وإنه تمنى أن يحقق الله أمنيته.. وود.. جرياً على ما يجري على بعض الألسنة.. أن تتهيأ له التذكرة أو التذاكر مجاناً.. ليدبر بموجوده المقتصد.. الباقي.. وقد كان..

ولكن.. ويا لهول ما كان.. فإنه يعاني الآن في هذا البلد من حرارة الصرف وارتفاع درجته ما لم يخطر له على بال.. وتنهّد طويلاً..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٣هـ ـ ١٩٦٧/٨/٨م.

وبعمق.. فرأيت نفسي أتنهد أتوماتيكياً بأطول وبأعمق منه!

وللتسرية عنه ظاهرياً.. وعني باطناً فيما يلوح.. فقد سردت له بالنسبة لوضعه النادرة القصيرة التالية.. مروية كما أراد له راويها الأصلي في أسلوب بلدي خفيف الظل.. وتقول:

يقول لك يسيدي.. مرة واحد راجل بسيط كان يتمنى أن يكون صاحب عربة.. فيتون.. أو حنطور.. أو كريته.. فالكل مسمى لنوع واحد من العربات الشعبية البائدة.. وبعدين؟

وبعدين.. في يوم من الأيام التقى وهو سائر في طريقه.. بحدوة حصان!.. فقابل صاحبه العليم برغبته.. وقال له.. لقد لقيت اليوم حدوة جديدة.. أو صالحة للاستعمال على الأقل.. فأجابه:

خلاص يا عم!.. يبقى لك ثلاثة حداوي.. وفرس.. وتبقى أوسطى!!

وضحكنا.. مع توالي الحديث عن الأسفار.. قديماً وحديثاً.. وعن أدب الرحلات.. وعن حياتها.. وحياة الرحالين.. وعما يدين به التاريخ العربي.. أو التواريخ الإنسانية عامة.. لأولئك الذين كانوا ولا يزالون.. يشدّون الرحال من بلد إلى بلد ليدونوا في النهاية رحلاتهم في كتب تجمع بين الأدب والعلم والمعارف على اختلاف مجالاتها من أمثال ابن جبير.. وابن بطوطة.. وابن فلان.. وأخي علان.. وعن المستر.. والمسيو زعطان.. وفرنكان.. مما لا يقوى هذا السرد الباسم على تقنينه.. أو التركيز عليه في أسلوب غير هذا..

وختمت كلامي له.. بأن سردت له على سبيل العزاء وطوعاً للذكرى عن السفر.. هذه الأبيات من قنديلية مطوّلة:

وإن ضاقت بجدة.. أو بمكا بوجه عدوّك.. الأبواب تعد
فسافر للظفير.. أو اللحيا ففي الأسفار هجولة وبعد
ومرجلة.. وتمرين.. وصبر وخمس فوائد أبداً تعد
وفي جهة الجنوب هناك أيضاً لحوح.. واللحوح قرى وقصد
وأفايق تحبالا كبيرا تروح إلى الدوائر.. ثم تغدو
تلازم في البريد بلا معاش وتجلس.. لا تصد ولا ترد!

وفعلاً.. فقد تخدّر المسكين أمامي.. وجلس.. لا يصد ولا يرد!!

* * *

ـ ٣٤ ـ

لقد رأيته اليوم.. بعد غياب طويل.. فإذا هو.. هو.. لم يتغير في طبعه.. ولم يغير أسلوب حياته القديم.. والرجل.. للعلم الكريم.. من ذوي الثراء غير الكريم.. وإن كان ثراؤه هذا طويلاً وعريضاً بموجب قائمة الأرقام.. والأملاك العقارية في حيازته.. بالصندوق في البيت.. وبالحجج. وبالصكوك في علبها التنكية المعروفة للجيل القديم..

ولكن الرجل ممن يكذب مظهره مخبره.. ولا تدل هيئته أو هيبته على الأصح على غناها الفاحش.. فهو ملازم لزيه الرث.. ملبساً.. ومدعساً.. أصبحا شعاراً عليه.. كما أنه متمسك ومواظب دون انحراف على نظامه اليومي.. مقتراً على نفسه وعلى أهله بالتبعية.. طعاماً.. كأنما لم يقرأ قط الآية الكريمة.. ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ (البقرة: ٥٧).. ومقاماً بسكناه في بيته الآيل للسقوط والقابع في أحد الأزقة ملاصقاً بيتنا القديم المعلّق الآن على قنادل وعيدان.. كأنما هو مخلص لدرجة التفاني للمثل القائل.. قديمك نديمك!

وبرؤيتي له اليوم وتجديد ما رث من ماضٍ عتيق.. سألته عن أحواله فأجاب.. إنه لا يزال حيث هو.. هو..وإنه ملازم للمشي دائماً

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٤هـ ـ ١٩٦٧/٨/٩م.

على قدميه.. إلا أن دعاه سواه للركوب معه في سيارته.. معللاً كالعادة الأمر بأن المشي رياضة.. إليها وحدها يعود الفضل في محافظته على صحته وبنيانه الجسدي المتين للتركيب.. رغم أنه أصبح متضايقاً من كحة طارئة.. ولكنها مستمرة ومن آلام جديدة لا يريد أن يذهب إلى الدكتور.. حتى لا يعرف عن الأمراض هذه الأسماء الجديدة الطارئة لها.. وعلى حياتنا الجديدة!

وحيث إن أخانا.. أو عمنا هذا على الأضبط فهو مسن.. لا يزال يفضل كرجل اجتماع أن يكون أول الحاضرين من المدعوين للولائم التي يحب من كل قلبه أن يدعى إليها مهما ضعفت المناسبة.. أو الصلة بينه وبين الداعي الكريم.. فقد أخبرني أنه في الطريق لبيت فلان.. موظف رقيق الحال.. وأنه يعلم أنني مدعو هناك للصلة المشتركة في المناسبة وفي الصلة بيننا.. فقلت له.. سألحق بك لأن الوقت لا يزال مبكراً الآن..

وهناك ـ وفي الموعد المناسب ـ وفي ركن من أركان بيت الداعي تجدد في رأسي غرامي القديم ببحث فلسفة البخل مع صاحبنا.. بحثاً يقوم على الطبيعة ممثلة في هذا المثل العتيد.. والفريد في بخله حتى أصبح مثلاً بارزاً وشائعاً عليه..

ولما كان.. عمنا هذا.. والحق يقال.. واسع الذهنية في نطاقها البلدي الدق.. فقد ذكرته بما سبق لنا من أعوام طويلة من بحث عما نسميه نحن البخل.. ويسميه هو.. العقل! ويعني به الاقتصاد بلغة العصر.. وسألته عما إذا كان لا يزال على رأيه في اختيار نمط حياته المشهور به وبها.. رغم أن بعض زملائه.. وجيرانه قد نزح عن جدة

القديمة. وغيّر كثيراً من طراز حياته السابقة بها.. فقال نعم.. إنني لا زلت كذلك.. ولا أزال أؤكد لك.. إنني أجد لذة كبيرة قصوى حين أعد بيدي هاتين.. ما أدخره من جنيهات ذهبية.. وأريل فضية.. تفوق هذه اللذة النادرة ما تجده أنت وأمثالك من لذة في الصرف للتمتع بالحياة.. بأسلوبكم!.

أما ما يؤول إليه أمر ثروتي بعد وفاتي.. فلا أفكر أبداً فيه.. لأنني لا أفكر في الوفاة نفسها.. إلا بقدر العلم الشائع المقرر.. بأن الموت علينا حق.. تلاوة.. دون تعميق للمعنى.. أو لمستدعيات ذلك التعميق.

ودار كلام طويل.. وحوار لذيذ.. يدخلان في نطاق الفلسفة في قاعدتها الشعبية الظريفة.. وقد سألته.. ما رأيك في المثل البلدي القائل.. مال المحروم للنزهى؟ وما هو مدى قيمته في تقديره باعتبارك ابن بلد أصيل؟ فقال.. ولو!.

وأخيراً ـ اتفقنا على أسلوب الجنتلمان أن أحضر من عندي نسخة من قصيدة حلمنتيشية.. في الموضوع.. فهو من عشاق هذا اللون لمد نفس البحث من فلسفة.. البخل!..

* * *

ـ ٣٥ ـ

وكي لا ينقطع الحبل.. وتسلقاً عليه مع عمنا الثري البخيل.. واستزادة منا للتعرف على شعب جديدة من شعب فلسفة البخل في صعيدها الشعبي البسيط.. وتحقيقاً للوعد بالمناقشة لما ورد في القصيدة البلدية التي وعدته بتقديم نسخة منها.. والتي أصر بحماس على قراءتها فقد رجعت إلى مصدر وجودها اليوم ونقلتها منه.

وتقابلنا في الموعد ومكانه، وكان أيضاً وليمة كما كنت مدعواً إليها.. كان هو كذلك.. وإن زاد عني ـ بأنه كان ـ كعادته المزمنة.. أول الحاضرين إليها.. وسلمته النسخة.. بعد أن قرأتها عليه نزولاً على إصراره لأنه على حد تعبيري.. ينسجم كثيراً من قراءتي لهذا اللون الذي لا يصلح إلا بي.. ولا أصلح إلا له!

وأقتطف منها.. حصراً للمناسبة في نطاقها المحدود والمعلوم.. بعد حذف المطلع منها.. وهو البيت المشهور للشاعر المشهور أبي الطيب المتنبي والذي يقول:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٥هـ ـ ١٩٦٧/٨/١٠م.

اقتطف منها.. كما يقتطف العنب.. مجاراة لجو كلمة الاقتطاف.. الآتي:

ولي صاحب لما تمليت جيبه ... وقلت له: يكفي الذي جاك يا عمرو
رماني بجمع قائلاً.. يخص يا فتى ... ألا زلت حلس الشعر.. خيبك الشعر!
إذا أنا لم أجعل ملايين حضرتي ... تفوق أبا الدردا.. فقد فاتني القطر!
وإني برغم الداء يسري بجثتي ... وينخر في قلب به السوس.. والضر!
أعد فلوسي.. كل يوم ـ وليلة ... وفي عدها.. هذا.. دوائي والأجر!
فلست أهني النفس.. مثل جنابكم ... واصرف ما عندي على النفس.. تنسر!
فإن على جيبي.. كما القفل ضبة ... وما كل مفتاح على ضبتي يجرو!
لقلت له: لما تمشع صدره ... بكحكحة.. من صوتها الطبل.. والزمر!
عساك البلا.. يا كانز المال والعيا ... معاً بعضهم للدود.. باللحد.. تنجر!
أشوفك.. إن شاء الله.. وفوقك شاشة ... وحتة قطن.. حيث موعدنا القبر!

وقهقه.. منقطع الصوت في رعب مصطنع وقشعريرة كاذبة. وهو بالمناسبة ممن يجيدون التمثيل.. وقال: إنك تتعب نفسك معي سدى.. فقد قيل قديماً: تزول الجبال ولا تزول الطباع.. وإن فلسفة هذا الذي أسميه ـ عقلاً ـ وتسمونه بخلا طويلة وعميقة.. وأبديه الموضوع.. وأنا أعرف أنك تعيب فيّ وفي أمثالي الغلو والتطرف في تطبيق نظرية الاقتصاد.. ولكنك تتعب نفسك دون جدوى.. كالبخيل عاشق لبخله وإذا عرفت معنى عاشق بكل ما تعنيه فقد قصرت على نفسك وعلى المشوار.

وبالمناسبة فقد سبقك شعراء كثيرون.. أو قليلون في الموضوع ويعجبني منهم من هجا أحدهم.. بأنه لشدة بخله لو استطاع أن ينتفس

من فتحة واحدة من فتحتي خشمه اقتصاداً للنفس يستنفد بعض حياته.. لفعل.. فقلت إنه ابن الرومي.. إن لم تخني الذاكرة في رجل يقال له فيما أظن أبا داوود[١].. ككنيتك نفسها.. وإن ذيل العجز.. إنه لو قدر..

تنسم من منخر واحد!..

❊ ❊ ❊

---

(١) يقصد بيتي ابن الرومي.

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباقٍ ولا خالدِ

فلـو يستطيع لتقتيـره ... لتنفّس من منخرٍ واحدِ

ـ ٣٦ ـ

ذات مرة من المرات التي كنت أكتب فيها يوميات صحفية ـ لا إذاعية.. تناولت موضوع السيد.. رسمي أفندي.. سابقاً!.. وكنت أعني به وبموضوعه الموظف المتقاعد.. يحال على المعاش فكأنما أحيل من الدنيا ذاتها. وذلك إن كان هذا الرسمي أفندي.. سابقاً!.. صاحب شخصية ضعيفة من الأساس.. تبرز في الحياة لدى نفسها بما تتكوّن منه يوماً بعد يوم من المظاهر ومن العادات التي تصنعها.. قالباً مصبوباً في كيان مألوف.. وفي دائرة يومية معتادة.. استغرقتها كلياً حياة الوظيفة فلم تعش إلا بها.. ولها..

وقد قلت بإيجاز الآن ـ إن هذا الموظف المتقاعد من نمط السيد رسمي أفندي.. يصبح بنفسه الضعيفة الفارغة.. وعند نفسه بعد تقاعد.. كحزمة من قش.. فهو يلازم الدار.. حزيناً.. لأن جرس التليفون لم يعد يرن بين الفينة والفينة كعادته السابقة. ولأن حبل الزائرين قد انقطع تماماً عن بيته.. ولأنه لم يعد له مودعون ومستقبلون في سفره الطويل أو القصير.. ولأنه لم يعد يرى أحداً من العائدين له في مرضه الخفيف أو الثقيل.. ولأن نظرات الناس إليه قد اختلفت ولأن اسمه لم يعد متداولاً

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٧هـ ـ ١٩٦٧/٨/١٢م.

لا في الأسماع ولا في الدعوات والحفلات.. ولأن نظرات من في البيت.. من أهله.. وكذلك ما في البيت من أثاث ورياش قد خمدت من البريق.. وأصبحت كآبية تطالعه منها دلالات الفراغ.. ومعاني العزاء الصامت.. أو الرثاء الأخرس.. وهكذا.. إلى آخر هذه وتلك اللئنات التي لا ينتهي حصرها أو تعدادها في مجال الاستعراض كما آل إليه حاله.. بعد أن كان.. يا ما كان!..

ولقد ذهبت اليوم لزيارة واحد من هؤلاء.. وربما ساقني للزيارة العقل الباطن يتحدى بعض ما ذكرت. لأثبت له أن هناك من الناس من يتذكر أمثاله.. وإن كانت تلك.. للذكر لا للفشر عادتي مع أمثاله وفي كل حالة مشابهة كحالة أخينا المستغرب لزيارتي.. كل الاستغراب..

وتطرق البحث للموضوع.. بقصد منه. وإن بدا أنه تطرق إليه عفواً.. وأخذ ينعى على الناس طبعهم في هذه المواقف ويعدد انقطاع فلان وعلان عنه.. وتكلمنا طويلاً في الأمر.. وقلت له.. إن ما يفعله بعض إخواننا ممن أسميه.. رسمي أفندي.. سابقاً.. خطأ محض ينشأ عن كذا.. وكذا.. ويدل على كذا.. وكذا.. مما يعتبر تجريحاً.. وتعريضاً بضعاف الشخصية.. وإن للحياة في حياة الناس سننها التي لا تزول!..

وسألني في ختام المناقشة والبحث.. ترى هل قلت شيئاً في هذا الموضوع أجبته.. لقد قلت في ذلك كثيراً جداً.. حتى لكأنني متفرغ الأقوال إلا في هذه الجادة العريضة.. ودروبها الفرعية.. نثراً ونظماً..

ولكن أهم ما قلته.. ورد مختصراً في رباعية نصف فصحى من ديوان قالوا.. وقلت.. للثابت الذكر لدى كل مناسبة تستدعي الاستشهاد

ببعض ما فيه! وتقول هذه الرباعية:

قيل.. بعض الناس لا يعرف إلا بالوظيفة

فهو كالجسم.. بدون الروح.. جيفه!

قلت: للطرطور فوق الرأس عادات سخيفة

إن بعض الروس.. من غير الطراطير.. خيفه

فابتسم.. في مرارة.. ولكنه.. كما قال.. أكد أنه سيحاول تغيير برنامجه اليومي.. منذ اليوم!

* * *

ـ ٣٧ ـ

زارني اليوم للمؤانسة.. كما نقول.. صديق ذو فلسفة تفاؤلية نادرة.. فهو مثلاً.. إذا جرح إصبعه.. نتيجة لعبه بالمروحة الكهربائية قال.. يخي طيب اللي راحت وجات على كدا.. بدل ما كانت فرمت لي أيدي كلها!..

وهو إذا تزحلق في الحمام لولعه بالإكثار من رغاوي الصابون.. وأصيب برضة في جسمه.. قال.. الحمد لله الذي لم تنكسر رجلي.. أو ينخلع ظهري!

وإذا انصدمت سيارته بشيء ما.. أو بسيارة أخرى ونجا.. شخصه الكريم.. ببعض السحجات.. قال.. يا سيدي.. ما دام الأرواح سليمة.. الباقي ما يهم!

وهكذا.. هو.. وهكذا حاله.. في كل ما يلحق به من أذى أو ضرر.. فإنه يحمد الله على اقتصار الحالة أو الحادث على ما صار في حدوده التي حصلت.. ولم يتعده إلى سواه مما هو أكبر منه..

فهو. تماماً.. تماماً.. بهذه الطبيعة.. مثل برز في الخط المقابل

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٨هـ ١٩٦٧/٨/١٣م.

على الفلسفة المخدرة للنفوس.. والقائلة قديماً بأن عليك أن تنظر دائماً لمن هم دونك.. فترى أنك أحسن منهم حالاً.. ومالاً.. لتتمطى.. وتتثاءب حامداً.. شاكراً كما نقول.. وذلك لكي ترتاح .. وتريح!

وقد نبشت زيارة هذا الصديق المتفائل الممراح.. بعضاً من ذلك ممزوجاً بالذكريات البعيدة.. والقريبة فهو.. بالمناسبة.. لبق لا يمل كلامه.. صوراً متقاطرة من نقد الحياة والسخرية الخفيفة الطائرة بالوجوه.. وبالأشخاص فيها!

وأخذنا.. وأعطينا الأحاديث بيننا.. وفجأة سألني عما صادفته أو رأيته في رحلتي الأخيرة هذه.. والتي جاءني مؤانساً للقدوم منها.. فقد نسي الدافع الحقيقي للزيارة.. وقد نسيت أن أقول إنه ذهولي من نوع طريف.. فإن أمهات الحوادث لا تغيب عن ذاكرته.. وجوهريات المسائل لا تضل عن باله.. ولكن بعض الفروع.. أو التفاهات كما يسميها.. لا يمكن لذاكرته أن تحفل.. أو تعتني بها.. وتلك ما يقع نسيانه.. أو ذهوله انصباباً عليها.. في الغالب.

فأخذت.. إجابة على سؤاله.. أروي له تفاصيل رحلتي.. وكنت كلما أخبرته عن مناسبة غير سارة.. أو عن ضائقة ذهنية.. أو نفسية.. أو مادية صادفتها قال: أحمد الله اللي جات على كدا.. يا سيدي.. المؤمن ممتحن.. المؤمن مصاب..

وسألته.. أخيراً.. وبدوري.. عن آخر أخبار امتحاناته في هذه الحياة الفانية.. كمؤمن.. ممتحن.. مصاب.. فقال.. بعد أن ضحك طويلاً تمهيداً لروايته الجديدة. لقد زارني البارحة فقط.. أي والله البارحة بس!.. صاحبنا إياه.. وهو أحد معارفنا القدماء المولعين بطلب السلف

من أصحابهم بين الفينة.. والفينة.. كاختبار لمدى المحبة والإخلاص والوفاء في دنيا الناس.. وقد شرف البيت.. وأنا أمسك قلبي باليد اليسرى.. وجيبي باليد اليمنى خوفاً من القدر المنظور.. وبعد أن أسهب كعادته.. رعاه المولى.. في حالة الجو.. وفي تبدلات الطقس العام.. وعن أحوال الدنيا.. وغدر الإخوان والزمان.. وحل في النهاية إلى المحط المعتاد.. فطلب السلفة.. ودفعتها له.. وقد تشهدت أخيراً.. وفرحت حين غادر الدار بما طلب!

فقلت له.. وماذا كان المطلوب من عبد المطلوب؟.. أجاب: لقد سررت جداً.. فقد طلب هذه المرة.. سهواً منه.. خمسين ريالاً.. وطلبها بسند شخصي.. كدليل على صدق النية للتسديد.. وقد أعطيتها شاكراً له مروءته.. وحسن تقديره للظروف.. فقد قررت أول الأمر أنه سيطلب مائة وخمسين ريالاً.. كجاري العادة.. وهكذ.. دفع المولى الشر الكبير بشر صغير.. والحمد لله.. يا سيدي اللي جات على كدا وبس!

❊ ❊ ❊

ـ ٣٨ ـ

لو أنصف الناس استراح القاضي!.. لا أدري لماذا جرى اليوم على لساني هذا الشطر من البيت المعلوم.. دون مناسبة داعية.. أو سبب معقول..

وفي استعادتي له.. وتكراره للمرة الحادية عشرة إن صح الحساب.. أمسكت بهذا الشطر من جميع الأطراف.. وأخذت أقلبه من كل جوانبه.. ثم قلت:

ولو صدقوا.. لما كان هناك شيء اسمه الكذب!.. ولو جلسوا لما عرفوا السير.. أو لنسوا المشي!.. ولو بطلوا الكنس.. لتراكمت الأوساخ!.. ولو لم نحلق.. لغطانا الشعر.. ولو تكلم الناس بميزان.. في المليان.. لما كانت هناك صحف تقرأ.. أو مجلات تصدر؟!..

واستغرقت ذهني هذه الأكوام من «اللوات» المتعاقبة لا تقف عند حد.. وكنت قابعاً في ركن هادئ من أركان البيت.. تعج الحركة في باقي أجزائه.. وتصطخب به الحياة شائعة بين الكبار.. والأنصاف.. والأطفال.. على طريقة تصنيف شركات الطيران لركاب طائراتها.. كما

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٩هـ ـ ١٩٦٧/٨/١٤م.

تصطخب الحياة كذلك خارج الدار.. بالشوارع.. بالمكاتب.. بالأسواق.. بل.. وفي خارج الخارج من هذه الدنيا الطويلة العريضة.. حيث يتنافس المتنافسون فيها.. حتى على ارتياد الفضاء.. واكتشاف أجوازه ومراقيه!..

وقلت في نفسي أيضاً.. ولو أنني قعدت هكذا.. أبحلق وأفكر.. في هذا الشطر الشائع من البيت.. لو أنصف الناس.. وأتمنى من كل قلبي.. مع القائل أن أرى اليوم الذي ينصف فيه الإنسان أخاه الإنسان.. أو ينتصف من نفسه بنفسه.. ليستريح قاضيه..

قلت.. في نفسي.. ولو أنني قعدت هكذا هادئاً.. متفلسفاً في ذلك بركني الهادئ هذا.. لما تغديت.. ولما تعشيت اليوم؟.. ولو طاوعت جسدي الخامل.. لما اشتغلت العمر!.. ولو جابهت الناس أو بعضهم برأيي الخاص فيهم.. لما كان لي قريب أو صديق.. ولو أني لم أكتب أو أنشر شعراً.. لنسيني الناس في بلدي.. ولو أحسنت الكتابة والشعر.. كما أرضاهما.. لما نشرت شيئاً من هذا العلك المكرور.. ولو شاركت في السياسة بآرائي.. كما يفعل الكثيرون.. لما وقعت النكبة!..

واستطبت اللعبة بهذه الـ.. لو.. ووجدتها.. لذيذة.. وبالأخص وأنا الآن لا أمارس لعباتي المفضلة شطرنجاً.. أو صناً.. أو سكناباً حاراً مع أي شخص!

وتدحرجت منطقياً إلى الباعث على هذه اللوات، حتى وصلت بأمان وبسلام إلى منطقة الأماني.. حيث مناخها الطبيعي.. وجوها النفسي.. وحيث تعيش «لو» هذه عيشة مصالحة تامة مع الحياة.. يدفعنا لاصطفائها

العزاء المسبب.. أو التمني المطلق المجرد.. أو السائح مع الأمنيات في رحلة من رحلات أحلام اليقظة كما يسميها علم النفس.. أو كما تحكم بها الطبيعة البشرية.. في بعض حالاتها الانسجامية.. أو الاستجمامية من عناء الواقع المر.. أو البغيض..

وانتهيت.. تقريباً.. إلى أن الحياة حركة وأسباب ومسببات.. تفضي كلها إلى وجود حسن.. ومكروه.. ومحتمل.. وإلى محاولات عملية.. أو كلامية لطلب الأفضل له وفيه.. وإلى أن الأماني مخدر لذيذ يحسن تعاطيه من آن.. لآن..

وبدافع من الجوع.. واستجابة لرائحة الغداء.. قمت لتناوله.. وأنا أردد.. جهراً مع القائل:

منى.. إن تكن حقاً.. تكن أحسن المنى

وإلا فقد عشنا بها.. زمناً رغدا!!

* * *

ـ ٣٩ ـ

لقد أيقظتني من منامي اليوم قطة أليفة منحت بفعل فاعل محبوب في الدار حرية التجول.. وارتكاب المخالفات.. كبعض السائقين.. دون مخالفات عليها.. فهي بحكم حماية المدلل لها.. فوق المخالفة.. أو التأديب الصارم.

وعلى ذلك.. فلم يسعني احتراماً للرغبة العزيزة لها ممن نفرها إلا أن أملس عليها.. وإلا أن أسترضيها كأنما كنت أنا المخطئ و الجاني.. ولم أكن المجني عليه بازعاجي من النوم وإيقاظي قبل موعد يقظتي المقررة بحكم العادة.. وفي الموعد المألوف.

وتشاء المصادفة وحدها.. أن أقرأ في مستطرفي القديم مواضيع وأسلوباً في نفس اليوم طرفة تتعلق بالقطط.. وإعراباً عن عدم تقديري لها.. ونفوري منها فقد رأيت أن أشفي غلي بالتشهير العلني بها.. ما دام قد فاتني صب الجزاء المباشر عليها.. عقاباً لها عما صنعته بحقي..

ويقول المستطرف بأسلوبه التقليدي:

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/١٠هـ ـ ١٩٦٧/٨/١٥م.

سنور.. حيوان متواضع ألوف.. خلقه الله لدفع الفأر والحشرات.. كناه وأسماؤه كثيرة..

حكي أن أعرابياً صاد سنوراً.. فرآه شخص فقال له.. ما تصنع بهذا القط؟! ولقيه آخر.. فقال له.. ما تصنع بهذا الخيدع؟! ثم لقيه غيره.. فقال له ما تريد بهذا الخيطل؟ وأخيراً لقيه آخرهم.. فقال له: ما تصنع بهذا الهر؟! فقال الأعرابي: أبيعه! قال له بكم؟! أجاب.. بمائة درهم.. فقال له إنه إنما يساوي نصف درهم فقط!!

فلم يسع الرجل إلا أن رمى به بطول يده.. وقال:

قبحه الله!.. ما أكثر أسماءه.. وأقل قيمته!!

وهكذا فللمرة الأولى أدركت.. كما لا بد أن الرجل في حينه قد أدرك.. بطلان المثل العربي القائل بأن كثرة الأسماء.. تدل على شرف المسمى.. في السيرة القططية السالفة نتفة منها.. والتي ستكون التكملة في الغد لها رواية بلدية عن قطة.. رسمنا صورتها الكاملة في إحدى قناديلنا القديمة جداً.. وحتى يكمل الجو الفني فقد سميناها بها كما تعرف في التسمية الشعبية الشائعة لها.. بسه!!

* * *

ـ ٤٠ ـ

في مثل هذا اليوم بالصيف الماضي.. وكنا في المصيف بالجبل الأخضر البارد.. دعاني جارنا المواطن الطيب القلب.. لا العقل!.. إلى الذهاب لحفلة تقام بالجبل قريباً من مكان نزولنا.. باسم الترفيه عن الأهل.. وعن العيال..

فاعتذرت بادئ الأمر.. في لطف.. ثم في مصارحة قاسية بأن مثل هذه الحفلات محرقة للمال.. وللبدن.. وخراب للجيب العامر.. فضلاً عن أنها عمليات نصب.. وشراك منصوبة.. خاصة للمصيفين.. هنا.. من أبناء البلاد المماثلة لبلادنا.. أو المنخفضة المستوى عنها.. يقعون فيها كالذباب الطائش المحروم.. فإن هذه الحفلات تقوم على الكذب.. والخداع.. والتضليل.. فهي بذلك كله.. جريمة يعاقب عليها القانون.. إن لم تردع مرتكبيها ذمة.. أو خلق.. أو دين.. حيث إنها من الأصل مغايرة.. مخالفة له بل ومحرمة بموجبه.

وأنت رجل خلق.. وذو دين.. وفضلاً عما سلف.. فإنك بتذاكرك هذه باهظة الثمن سوف لا تجد مقاعدكم المرقومة بها.. بل وسوف لا

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/١١هـ ـ ١٩٦٧/٨/١٦م.

تجد الفنانين الذين استغلت أسماؤهم للاجتذاب.. وتزويق البرنامج للدعاية الكاذبة بأسمائهم!

واستهول جارنا.. ومواطننا الطيب القلب.. لا العقل.. ما قلته له.. وسألني إن كان ما أقوله نتيجة تجربة حديثة.. أو سماع موثوق بمصدره.. فأكدت له عدم هذه التجربة.. وإنما هو التسامع القديم من ممارسين لها.. وقعوا فعلاً في تلك الحبائل الفنية.. ثم هو القراءة في الصحف للنقد الكتابي لحالات هامة للحفلات من مخلصين في نقدهم.. ثم من شم الروائح العفنة من التهويل الخداع لشأنها ومن فهم ما وراء سطور الإعلانات المضللة تروجها للأسف المكرر مصادر الإعلان والدعاية.. لقاء كسب مادي رخيص!

وكان.. من جانبنا.. إن قضيت الليلة بالبيت كعادتنا مع الأولاد نمارس من حياتنا اليومية فيه ما يمارس عادة في البيوت.. مستريحي الأعصاب.. هادىء النفوس.. ولقد نمنا كذلك.. في وقت النوم المعتاد..

أما جارنا.. فقد احتفى بالأمر.. وساق أفراد عائلته كبيراً وصغيراً معه.. إلى حيث تقام الحفلة التي كثر الحديث بينهم عنها.. وما سوف يتمتعون به من سماع.. ومشاهدة.. وما سوف يستمتعون به من ترفيه حافل لا يتيسر لهم في حياتهم هناك.. كما يقولون..

وفي الصباح.. وفي موعد تلاقينا لارتياد المدينة وقضاء ما قد يلزمنا بها هالني من جارنا الطيب الحكاية البشعة عما صادف وسواه من حوادث مؤسفة بالحفلة.. وبلغ بعضها حد الاشتباك بالأيدي.. وبالكراسي.. وعما عانوه من إضاعة وقت.. ومال.. ومن حرق دم وأعصاب.. وكان

في حكايته.. بين كل مقطع ومقطع منها.. يضرب كفاً بكف.. وإن أصر في النهاية على أن يقول.. ومع أنها كانت نكبة.. لا حفلة.. فإنها كانت ـ في الحياة ـ تجربة حية من تجاربها.

فقلت له: ولكن ما كان أغناك عن ممارستها فعلاً.. فقد كان مقرراً أن تصل إليك رواية منقولة على الألسنة أو مقروءة.. كنقد لاذع ـ في إحدى صحف الصباح!

❊ ❊ ❊

ـ ٤١ ـ

في هذا اليوم قابلت صديقاً من أصدقاء الشباب.. جاء من المنطقة الشرقية.. لبعض أعمال.. ولإجازة نفسية.. كما قال.. يستعيد بها بعض ذكرياته في بلده التي ولد بها.. وفيها نشأ.. وفارقها.. وبها بعض أهله وصحابه.. وذلك منذ زمن بعيد.. وكانت في عينيه دمعة وداع لها.. وعلى شفتيه ابتسامة حارة لأمل كبير.. ببلد جديد.. ربما سيقيم فيه.. وقد أقام فعلاً.. حيث نجح بعمله.. فيه!

ودار الحديث عن تطور مدينة جدة الكبير.. اتساعاً.. وامتداداً في العمران.. وزيادة كبيرة جداً في عدد السكان.. إلى آخر ما هو متداول عن هذا الأمر ووارد في بابه.. بل في أبوابه المختلفة.

ثم تطور الحديث.. وامتد كتطور البلدة نفسها وامتدادها.. وتناثر حتى استقر عند نقطة طال الوقوف عندها.. بعد أن قال: هل تعلم إنني قضيت يوم أمس.. في زيارة بعض الأهل والأقارب القدماء.. وتشبعت طويلاً من رؤيتهم ومن كل ما أحاط ويحيط بهم.. ولا أدري.. لماذا رحت بعد ذلك أتعقب أزقة بعينها للاطمئنان عليها.. وتجديد العهد بها..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/١٢هـ ـ ١٩٦٧/٨/١٧م.

ولقد فرحت كثيراً بالموجود القديم الباقي منها.. وحزنت أكثر على بعضها الزائل.. دخل في بيانات الهدم.. توسعة لشوارع حديثة.. فزال من الوجود نهائياً..

ولا تسل عن حنيني لتلك الأماكن العتيقة.. وتشوقي لها.. ووقوفي طويلاً عند أثارها.. استحضرها بعين الذاكرة أمامي كما كانت.. وكما كنا نحن بها رائحين.. غادين.. لاعبين.. وأمامنا دكان العم.. فلان.. والمركاز إياه.. وغير ذلك وهذا من المناظر المألوفة لا تزال صوراً مطبوعة في النفس.. وبالقلب.. بل.. وفي العين استحضاراً خيالها.. حين نريد!

ولقد تمنيت كثيراً لو كانت تلك الأماكن ما زالت باقية لأراها على واقعها.. وبحقيقتها ذاتها.. مع أنني قد أصبحت في حياتي الحاضرة لا أسلو أبداً البلد الجديد الذي أنا به.. ولا مسكني وحياتي الراهنة بالمنطقة الشرقية.. حيث أقيم الآن.

فقلت له.. أما تمنيك أن لو كان القديم من الأزقة المألوفة ومساكنها المنقرضة لا يزال كل ذلك موجوداً.. فإنني أقول لك.. فال الله ولا فالك.. رغم حنيني مثلك ببقية من خردواتي الوجدانية إليها.. فلقد كسبنا بزوال القديم وبحلول هذا الجديد الممتع للبلد والمشرِّف للسمعة مكانة ما نتمتع به اليوم.. شوارع عريضة مضاءة.. بدل تلك الفوانيس الخابية.. بهذه الكهرباء المشرقة.. وبالسماح للهواء الحر.. وأرتال السيارات بالمرور ذهاباً وإياباً في حيوية.. وانطلاق!..

أما حنينك هذا الذي يشبه حنين البدوي للصحراء.. كتعبير صديق لنا من قبل.. فإن تفسيره.. مع تفسيره لعقدة الدمن والأطلال.. موجز

من الشاعر المصوّر الماهر ابن الرومي في قوله المفلسف لحب الوطن:

وحبب أوطان الرجال إليهمو مآرب.. قضاها الشباب.. هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم.. ذكرتهمو عهود الصبا فيها.. فحنوا لذالكا!!

* * *

ـ ٤٢ ـ

اشتهيت اليوم بمناسبة هذا الغيم الحابك حيث أنا الآن.. أكلة المعدوس.. فهي الأكلة التي درجنا على أحياء ذاكراها بعد اشتهائها كلما حبك الغيم وبالهتان رشرش..

وقررت احتراماً لهذا المبدأ الغيمي المعدوسي الموقر.. أن أرابط في البيت.. وأن أضرب فيه.. بولطا.. خارجاً داخلاً للتطلع من بعيد لبعيد إلى هذا الطباخ الهزبر الذي دقّ لنا جميعاً على صدره.. حين سمعنا نتداول الرأي فتذاكر تاريخ المعدوس في بلادنا ومزاياه وحقه علينا.. مؤكداً حضرته في ثقة ويقين إننا سنأكل اليوم معدوساً.. كما نسميه.. لم يسبق لنا في بلدنا الطيبة أو في غيرها أن أكلناه..

فاعتمدنا على ذمته.. وعلى تأكيداته القاطعة.. بالإضافة إلى علمنا بأن الطبخة نفسها لا تحتاج إلى علم غزير.. وكذلك فقد شرحنا له بعض ما يجب.. فأخرج لنا طرف لسانه سارداً به بعض القواعد المشروحة من أسلافه المنتمين لأصل عربي عريق..

المصدر: جريدة عكاظ ١٤/٥/١٣٨٧هـ ـ ١٩/٨/١٩٦٧م.

وعلى ذلك.. فقد قفلنا على طباخنا العتيد باب المطبخ حتى لا يتأثر فنه الرفيع بتطفل عابر.. أو بدخول فضولي عليه.. وأخذنا في الاحتفاء بمكان المائدة.. وانهمك من في البيت في تجهيز التوابع المقررة عرفاً وأصولاً متبعة مرعية للمعدوس.. من مخلل.. وسلطة حمر بالبصل.. وبعض الحوت الناشف..

وأخيراً.. ودون إطالة.. طفنا بالتبسي الكبير حين خروج طباخنا به من الباب المغلق.. كما يقول الأب عزيز.. مهللين.. فرحين.. جوعانين.. جداً.

ولقد كانت الفجيعة الكبيرة مرة حقاً.. قبل التذوّق بألسنتنا.. فقد لمحنا بأعيننا الخبيرة.. ورأينا العدس.. المفلس!.. عائماً في بركة من الماء.. ثم من دموعنا.. على ما كان.. مما لست أذكره.. وما هو معلوم!

وهذا الذي لم أذكره.. قد ذكرني حالاً بقصيدة حلمنتيشية قديمة ـ قلتها في أعقاب حادث مماثل ـ لكنه كان متخيلاً في حينه.. بالطبع.. وتقول بعض مقاطعها عن «المركاز» إياه.. وبعد الديباجة على لسان امرئ القيس بن حجر الكندي يتهدد طباخه ويستهدي عليه رفاقه ما يأتي:

قفا نبك.. من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوىٰ بين الدخول فحومل
وهاتالي المشعاب.. إني مصمم على ضرب هذا الخادم المتحنجل
ولا تنشداني اللّه بالورع.. رحمة وكبونني عنه. بغير توسل
فقد خبص المعدوس يا ناس عامداً وطش على البطحا وعاء المخلل
وجاء بعذر شارحاً فيه علمه يقول: وقد وطى على متن كاهلي

أعـــمـــى إن الـــرز قـــد قـــل مـــاؤه   فمر لي بمذاقين.. أو ما يروق لي!

فظنيت أن الأمر يقضي بما ارتأى   فكان.. ولكن وامصيبة حاللي

فقد بت في بحر أخوض عبابه   وأخرج منه.. لا عليَّ.. ولا إلي!!

❊ ❊ ❊

ـ ٤٣ ـ

قمت.. هذا اليوم.. بجولة خفيفة على بعض المكتبات التي صادفتني في طريقي لعمل خاص.. وقد رأيتني أحوم حول حماها الزجاجي.. دون أن أقع فيه لعدم وجود مطلوبي مما يقرأ مثلي.. فيها.. اطلاقاً..

ولقد أزعجني فكرياً.. وغمني قلبياً.. إنني لم أجد في هذا النطاق الذي جلت فيه ما ألفت من السابق قراءته.. من كتب دسمة ذات وضع.. أو من كتب خفيفة ذات موضوع.. حيث كان المعروض مقتصراً على بعض الروايات التافهة المترجمة.. فيما قدرت.. ترجمة زعراء.. وعلى بعض المجلات والصحف الخارجية.. لا تغني وتسمن.. فهي بالبلدي.. كالبوبر.. خفة في الوزن.. وحجماً.. وكمرقة الهواء.. في المادة غير المغذية.. وإن كانت في الحالين برّاقة، لامعة.. صقيلة في الغلافات.. وحدها.. تفننت في إبداعها.. والجذب إليها أيدي السماسرة من تجار الفكر الدارج الرخيص.. تستهدف المراهقة الذهنية.. والمراهقين دون سواهم من الناس!..

ولذلك.. فقد رأيت أن يشتمل يومي هذا.. فيما يشتمل عليه.. أن

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/١٥هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢٠م.

أتحرى أمر القراءة اليوم.. فكنت أسأل بمناسبة وبدونها.. في أسلوب مهذب وطبيعي بقدر الاستطاعة يرد في سؤال متصل متنوّع وجاهز لكل من جالسته وقابلت.. ولقد خرجت بحصيلة عجيبة يقول مجموعها.. إن الغالبية منا كما تدل المعلومات المتواردة والمتسلسلة من الشخص عنه وعن سواه من جلسائه وعشرائه مثلي تماماً اليوم.. لا تقرأ القراءة السابقة أيام كانت القراءة تقليداً سائداً ـ على الأقل ـ بين طائفة من الناس.. تتناقل أخبار الكتب وما ورد وما يرد منها من جديد.. وما طبع ويطبع منها ـ من قديم ـ ولا يدفع.. كما لا يشفع.. ما قد يلوّح بالخاطر.. أو ما ينتصب عقلاً من عدة اعتراضات أو حجج داحضة على ما سلف.. بعضها خاص بالمقارنة بين أمية الأمس.. وعلمية اليوم.. أو بين فراغ الماضي.. زمناً طويلاً مهدوراً في ذاته تأتي القراءة لتمليته قسراً.. وبين زحام الحاضر بما ينوب عن القراءة في الورق بما تمطر الجيل الحاضر إذاعات لا تحصى.. وبها ما ينشي الأسماع.. ولا يهدد الأبصار.. إلى آخر هذه السلسلة الطويلة تأتي المقارنة.. والمقارعة بينها واردة.. حتماً وطبيعية جداً.. حتى تشير ببروز تام إلى ما تقذفنا به المطابع اليوم من صحف ومجلات خارجية وداخلية لا يستغني عنها.. أو عن اختيار بعضها قارئ اليوم..

وبمناسبة الصحف.. فإن البعض من قرائها اليوميين يمن على محرريها والكاتبين بها أنه يقرؤها صبحاً.. أو بعد الغذاء.. ويحدد بعض البعض زيادة في المن والتطاول القائل إنه يقرؤها.. لمشغوليته.. أما صفاري شمس.. أو بالليل!

وبالنسبة للموضوع ذاته أصلاً.. فقد تبيّنت أن صنف القرّاء محدد

في نوعين اثنين تقريباً.. صنف تجبره سمعته المجردة كقارئ.. أو المرتبطة بواجباته الأدبية والعلمية وسواهما إلى حد كبير أن يقرأ في دائرة ما تفرضه عليه تلك الواجبات.. وصنف يقرأ ما خف حمله على شرط ألا يثقل وزنه.. وأهم ما يتوفر فيه هذان الشرطان هي الروايات التي تعالج الجنس.. حباً.. أو الجريمة.. درباً.. وتستقل تلك الروايات في مطبوعاتها.. أو دورية في جريدة أو مجلة.. مسلسلة في الغالب.. أو قصيرة متعاقبة..

وبين أولئك وهؤلاء من أصناف القرّاء.. أصناف تتفاوت ماركاتها في التصنيف.. ويرد بينها كعنصر بارز اليوم من يشبه حمار الشيطان يقفز بين السطور اختصاراً للزمن.. وقفزاً لمعرفة الخاتمة.. و تكوين فكرة عامة عن المقروء المفهوم لخفته سلفاً من بعض السطور!..

❊ ❊ ❊

ـ ٤٤ ـ

اجتمعت يومي هذا.. ببعض المشتغلين بالصحافة لدينا.. والصحافة هنا مهما قيل فيها مما لا ينتهي إلى رأي موحد.. فإنها وجود تجاري أو أدبي حتى ولو قصر الأمر فيه على أنه في مداه اليومي.. سمك يأكل سمكاً.. كما نقول.. وعلى أنه في نطاقه النقدي البعيد المدى محل جذب وشد لا بد أن يرسو على بر.. في تقريره الختامي.. في يوم ما.. وليس هذا أو ذلك الموضوع.. اليوم!..

وانداح مجال الدردشة وبساطها الأحمدي المعروف.. حتى قال أحدهم.. لو أردنا تعريف الفنان تعريفاً موجزاً لا فضول فيه.. فلا وقت لدينا للتفاصيل القائمة على التعريف المرتبط بالشروحات والأمثلة لأننا هنا بعكس حكم المهنة.. منشغلون الآن بموجباتها الخبرية.. والطباعية.. فماذا يكون يا ترى هذا التعريف الموجز.. فكان الجواب:

الفنان في جملة مختصرة هو من يستطيع.. بالموهبة والاكتساب.. التقاط الصورة الصالحة.. مادة خاصة لفنه.. فهي الأصل!..

أما رسمها.. وبروزتها.. فأمرهما أهون عليه.. فيما بعد.. ما دام

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/١٦هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢١م.

يمتلك.. وهو كذلك.. القدرة على القول وأفانينه..

وتوشية لما سلف ـ واستطراداً الآن فيه ـ فإن الحياة شخصية وعامة.. حافلة بالصور الفنية.. في كيانيها المادي والمعنوي تصلح كل منها لأن تكون.. بعد التقاطها.. مدار حدث.. أو مقال.. بل مادة قصيرة، أو أقصوصة.. أو رواية..

بل ولعلّ كل فرد نراه يدب أمامنا.. أو يجالسنا الآن.. أو نحتك به ليروي لنا طرفاً أو أطرافاً من حياته صالح لأن يكون قصة.. في ذاته.. ومن واقع حوادث حياته.. وأيامه..

فالمهم.. أولاً وأخيراً.. القدرة على التقاط الصورة نفسها من الفنان يهتدي إليها بحسه.. وتتهداها بصيرته.. كأصل.. أو بدء عمل فني فيما بعد.. ولا يمكن إسقاط الخيال.. كآلة تصويرية واجبة الوجود في الموضوع.. باعتبار أن الخيال ذاته وليد وجود قائم.. إذ إن أي كيان مادي أمامنا.. إنما تكامل حقيقة ملموسة بعد أن عاش خيالاً مرسوماً في مخيلة.. ثم في سطور مرسومة ليبرز وجوداً بالتنفيذ.

واستطرد القائل المجيب على سؤال بعضْ المشتغلين بالصحافة في جلستنا تلك لتعريف الفنان تعريفاً موجزاً يسرد بعض الصور الملتقطة من الفنانين.. براهين على نظريته القائمة في تعريفه أساساً على الصورة الملتقطة كأساس للعمل الفني يتلوها.

ومما راقنا من الصور الشعرية التقطها البحتري فصاغها بموهبة فنية خالصة.. الصورة جاءت في وصف بركة مملوءة بالماء.. حيث يقول:

إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً.. حسبت سماء ركبت فيها

وإن علتها الصبا أبدت لها حبكاً مثل الجواشن.. مصقولاً حواشيها

وقد اضطررنا لانتزاع الأستاذ أبي تراب من بين أحضان بسطونه العتيد ليتولى الشرح اللفظي الثقيل في بعض الكلمات.. فقال: لا فرق الله بينه وبين بسطونه:

الحبك: التكسر الذي يبدو على الماء إذا مرت به الريح.

الجواشن: جمع جوشن.. وهو الدرع..

وعند انتهاء شرحه أعدناه محني الظهر فوق بسطونه صورة.. فنية ملتقطة في المطبعة.. كما كان!

* * *

ـ ٤٥ ـ

ذهبت اليوم لعيادة صديق مريض.. وأخذنا بعد السلام.. والاطمئنان على الصحة في أسباب من الحديث.. والحديث كما قيل شجون.. حتى وصلنا إلى حادثة مرضه.. ثم منها إلى حكاية التفاؤل والتشاؤم.. وما ورد في بابهما.. وفي أمر الدار.. والزوجة.. والخيل.. وما هو متداول بصفة عامة.. نفسياً بذلك مع الجهر به أو عدم الجهر لدى الكثير منا.. أو القليل..

وامتد نفس الحديث.. واستطرد بعض الجالسين معنا إلى ذكر من فتح الله عليه بمجرد أن عقد على زوجته.. فلانة أم أولاده اليوم.. وكيف كان.. وصار! وإلى سيرة فلان.. وكيف بعد أن فارق دارهم الأولى لبيتهم الجديد أصبح.. ما شاء الله.. هذه في التعبير الدارج تساوي وزناً ثقيلاً في المال.. وفي الجاه.. ثم تناول البحث.. كأمثلة.. عديداً من عباد الرحمن صعدوا درجات السلم حتى البسطات المريحة.. المرتفعة.. أو هبوطاً بها دحرجة حتى القاع السحيق..

وباتصال أمر التفاؤل والتشاؤم بالسكن.. تحرك الصديق المريض أخيراً.. وصاح بي بالذات: أرجو منك وممن تعرف أنك ويعرف الأخوان

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/١٧هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢٢م.

أن تبحثوا لي سريعاً.. بل حالاً عن مكان لسكني غير هذا الذي أنا فيه.. واشترط منذ الآن ألا يكون الباب قبلياً!! فإنني منذ سكنت قسمي من هذه الدار.. وأنا أتابع سلسلة عجيبة من الأحداث.. حاولت عقلياً في بدايتها أن أتجاهلها.. أو على الأصح أتجاهل الباعث الأول عليها تجذبني نفسي إلى جعله هو الباعث باعتباره الطارئ الجديد على حياتي.. وهو البيت هذا الجديد..

ولقد كان آخر أحداثي مرضي الآن بسبب يرتبط ارتباطاً مباشراً به.. أو بإحدى عتبات درجاته.. ولهذا الأمر بالذات قصة طريفة فقد تكرر وقوعي على درجات أيضاً.. كانت آخر سقطاتي به سقطتي الحالية والتي ألزمتني الفراش قسراً.. بالإضافة إلى ما ألمحت إليه من حوادث مؤسفة.. بل وسيئة في حياتي منذ سكنت به.. وأخذ أخونا يسردها كأنما هي مرتبة لديه بطريقة المعاملات المحفوظة بأرقام.. وتواريخ.

وقلت له.. أخيراً.. عليك أولاً أن تكتم هذا الأمر لئلا تكون سبباً في بوار دار صاحب المُلْك الطيب.. وثانياً.. عليك حين تستأجر بيتاً آخر أن تأخذه بشرط التجربة.. لمدة شهر أو شهرين!..

فأجاب.. أما عن كتمان الأمر ـ فلا عليك.. فإن أزمة المساكن تجعل من هذا البيت.. لقطة دون بحث.. بل أزيدك على ما ذكرت.. إنني سأخرج منه.. بخلو رجل.. معقول.. يعوّضني عما صرفته على مرض رجلي حتى الآن.. وأنا متأكد من هذا الكسب غير المنظور من صاحب الملك.. وهو وإن كان غير مشروع أصلاً.. إلا أنه اليوم وبنسبة ما أصابني بسببه مشروع للضرورة ذاتها.. وما جلبته وصبته على رأسي الآن!

وأما عن الإيجار للبيت الجديد بشرط تجربة السكن به لشهر أو شهرين قبل عقد الإيجار الرسمي.. فهذه فكرة حديثة أسجلها لك بكل إعجاب.. إلا أنها.. لعدم العمل بها.. غير معقولة.. ولا مقبولة.. بالطبع!..

فقلت له.. ولم لا؟ ألم تصبح بالممارسة.. سارية بين الناس قاعدة شراء البطيخة.. على السكين.. بدلاً من شرائها.. باسم التفاؤل والتشاؤم موضوع حديثنا.. شختك.. بختك!.. واقتنع.. وضحكنا جميعاً.. مؤكدين البحث له عن بيت جديد!.

* * *

ـ ٤٦ ـ

طال.. في هذا اليوم ـ الجدل البيتي.. تفرعت به ومنه المناقشات حادة.. حارة.. وخفيفة هادئة حول أفضلية احتجاز الأطفال في الحديقة.. أو في حدود البيت.. داخل الشقة.. مع تشديد الرقابة الصارمة عليهم.. وتكرار صدور الأوامر الحاسمة بألا يتعدى أحد منهم سور الحديقة.. أو باب البيت.. أو انطلاقهم في الزقاق المجاور.. أو في البرحة القريبة منه.. يأخذون حظهم من انطلاق أوسع.. ومن احتكاك.. واتصال.. ومشاركة لأترابهم الأطفال الآخرين من أبناء الجيران.. وأولاد الحي بصورة مباشرة؟

وكان باعث هذا الجدل العائلي هروب طفل نشيط حي إلى حيث الأولاد من كل زقاق مجاور.. لاهين.. لاعبين على التراب.. وبه.. وقد عاد وعليه بجسده وبملابسه من آثار التراب ما يقطع بما صنع.. ولم تكد صاحبة الرأي المعارض تتناوله ببعض طرق التأديب حتى احتمي به.. فكان أن وقفت في صفه.. محامياً عن موقفه الاجتماعي المبكر.. شارحاً ما تيسر لها في هذا الأمر ولمن كان حاضراً.. وبحضور هذا الطفل الطبيعي غير الشاذ.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/١٨هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢٣م.

وكلنا على علم تام بالمقارنة بين حالتي الاحتجاز والانطلاق للأطفال مما لا تستدعي الحالة هنا سرد وقائع دفاعي بكل حيثياتها المفروضة.. مستعرضاً في ذلك معه النقطة «الترابية».. مستعيراً معلومات صديق لنا من هواة بحث الأدوية والأدواء ـ حيث قال لي مرة ـ إن البنسلين صاحب قرابة أكيدة بالعفن.. وبخوبان البرك.. وبتقطين العيش.. وكذلك.. بالتراب!..

ولأجل اكتساب أكبر عدد من الصف العائلي.. أنصاراً لنظريتي.. ولإعطاء الرنّة المؤثرة في نهاية دفاعي.. فقد استعنت بذاكرتي الخؤونة وتلوت بعد عطفها عليَّ.. على مسامع الجمع غير الحاشد بعض أبيات متناثرة.. متقطعة من شعبية قديمة كانت تخص في هيكلها الموضوعي شيخ الحارة.. وأولادها.. بالمعنى القديم.. وإن كان المضمون والمغزى من سردها هو ما ورد في أبياتها الأخيرة بالذات، وكان استهلالها يشير إلى تجاهل لشيخ الحارة من أحد الولاة.. مستهلاً إياها للتطابق في الموضوع ببيت الفرزدق المشهور:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه.. والحل.. والحرم..
إذا رأته النشامى.. قال أجعصهم	هذا الذي رد أهل الشعب.. كلهمو
والمسفلا.. والنقا.. والباب قاطبة	والفرد.. والشون.. والليسان والحزم
ففي الصباح مخاوى له قبب	والكف منه.. إذا ما ذقته.. عدم
وبالرجول أبو خرزين.. قد رفعت	شراكه.. وتواطت تحته الرمم
إذ مد كل بجيح بوزه سفهاً	وراح يشخط منفوخاً به ورم
يقرا.. ويكتب.. هادي كل صنعته	وكلهم في النهار الواحد العلم
حتى إذا ما رأوا في الليل زيلتهم	خافوا وصاحوا، وقالوا: وي! وانبرموا
هذا هو النشء، هل كانت «طفولته»	إلا «احتجازاً» وباقي القول.. ينفهم!

وهكذا كسبت قضية هذا الطفل الاجتماعي الحي.. حتى لقد نال حريته في أن يذهب للزقاق ليلعب مع أبناء الحي.. على التراب.. وبالتراب!

* * *

ـ ٤٧ ـ

وتحقيقاً لوعدنا السالف.. فإننا اليوم نورد فيما بعد الصورة الهزلية.. لبستنا التي أكرمنا مثواها.. فلم تحفظ حقوق العشرة.. ولم ترع للإكرام مقامه الطيب بيننا..

وللعلم.. فإن قطتنا هذه لا تعرف الديمقراطية أو الالتزام بمبادئها بل بالعكس.. فإنها يسارية متطرفة في يساريتها الحمراء.. وكان ذلك بالفعل أقسى صفاتها مما دفعنا للاستغراب العقلي بتفشي الشيوعية كمبدأ.. حتى بين القطط البيتية والديباجة تقول:

قال الشاعر الظريف الأخ حمدان الدشي.. يصف بسة داره.. مستشهداً بسلوكها المريب.. وبأخلاقها القططية.. الحمراء! على سلوك وأخلاق بعض الناس من أبناء آدم.. وأمنا حواء..

وكان قوله هذا.. على سبيل المداعبة ينفث بها غيظه بأسلوب.. عند المزاح تشتفي الأرواح.. وقد ورد في قالب من قوالب الهجاء القططي المألوف.. وبالطريقة الخاصة بأخينا حمدان في معاملته لإخوانه

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/١٩هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢٤م.

بما عرف عنه من فن الدحلسة.. ثم الهبد.. تماماً تماماً كسلوك عمه سليمان النجار.. ومثله المشهور:

يضرب بالقدوم ـ ويمسح بالفارة!

أما الصورة نفسها.. فهي كما يلي:

لنا بسة.. ما شفت يا ناس زيها مفرصعة الأعيان.. تبرق في الظلما
حسودية ـ حمراء.. لوناً.. ومذهباً فما عرفت ديناً.. ولا ألفت صوما
تغافلنا بالدس.. تشرب دائماً حليباً رفعناه لخالتنا سلمى
وتأخذ من كف العيال.. حلاوة وقد لاعبتهم.. دون أن يأخذوا علما
فقد حسبوا.. أن الحلاوة منهمو لدى اللعب.. قد ضاعت هناك في الزحما
وتلحس ما يبقى بقعر صحوننا وترفع للخدام حاجبها.. فهما..
وتخطف من وسط القدور.. كبابنا وتحسب أهل البيت.. أو ما به يغما
فحتى دواء الست إن كان سائلاً وقد درقته الست عن موضع اللما
تلفلفه إن كان حلواً مذاقه وتدلقه.. إن كان مختلفاً طعما..
عساها البلا من بسة.. أي بسة وجاها العمى جاها.. وصار بها أعمى
تموت ـ وتحيا حين تجلس.. بيننا لتنسل من أيدي بزورتنا.. اللحما
وتفرم أصابعي.. وقد شلت وصلة من العيش.. ترمي العيش.. تعرفه شما
وتهبشني في الضهر غدراً.. وغيلة فلم يثمر المعروف في طبعها.. حتما
فإن قلت: هيا! نونوت لي.. ورقصت لي الذيل مبروماً.. تبغى الشر تطلبه.. ظلما
وإن قلت: يا اللا! خربشتني وما استحت ولا راعت العشرا.. وكوني لها.. عما
كذاك.. وتلك.. العمر بستنا مضت تريني فعلاً من نوادرها.. جما
تذكرني في كل يوم.. وليلة ببعض بني أمي.. عدمت بهم أما

فيـامـا.. ويـامـا فـي الـنـهـار أوادم وفي الليل.. حاكوا بستي هذه الدقما
شرحت بـهـا الأخلاق طبعاً وفطرة لبعض ذوي الأخلاق نثراً.. تلا نظما
وذلـك فـن فـي الـتـسـالـي مـهـندم لأجل التسالي.. أو إحاطتكم علما

* * *

ـ ٤٨ ـ

في مثل هذا اليوم بالضبط.. كان مقرراً كأمر مفروغ منه.. أن استقل الطائرة من بلد إلى بلد آخر، فيه بعض أهلي.. فالتذكرة جاهزة.. ومشروح عليها.. محدداً.. وقت السفر وميعاده بالتوقيت الإفرنجي من الشركة.. وبالعربي.. مني.. زيادة في الاحتياط..

وفعلاً أرسلت حقيبتي المحتوية على ملابسي وأمتعتي التي هي دون حياء عبارة عن بدلة إفرنجي ونصف.. وثلاثة كتب.. ودوسيهتين.. وشوية أوراق في ظرف. وعلبة حلاوة.. وقرطاس فستق كهدية للأولاد.. وأخيراً فوطتي الحبيبة ملفوفة في جريدة مستعملة خشية من افتضاح أمرها لدى مفتش الجمارك.. باعتباره إياها.. جونله.. حريمي طبعاً..

وبالمناسبة ـ فإنني قد أفرط.. في السفر.. في أي شيء.. حتى ولو كان فرشة الأسنان.. اكتفاء بالسؤال المرفق دائماً معها.. كاحتياط.. ولكنني لا أفرط أبداً في الفوطة.. حيث أضعها بالحقيبة لدى أية رحلة.. قبل كل متاع!

وقد أوصيت من أرسلت معه الحقيبة إلى المطار أن يتكفل بإنهاء كل

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢١هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢٦م.

الإجراءات الكفيلة بأخذها طريقها الميمون إلى نقطة تجمع عفش الركاب.. ولأني لم أدفع له شيئاً مقابل هذه الخدمة.. فقد عرضت عليه أن يساوم مأمور وزن عفش الركاب ـ لخفتها ـ ولأن وزنها حوالى نصف المقرر لكل راكب.. بأخذ الفرق.. ومشاطرته إياه.. مستلماً من راكب زائد الوزن!

ورأيت.. على خلاف عادتي.. أن أتمهل في الفندق.. استزادة من نعيم الراحة،وبرودة المكيف فقد كان الوقت صيفاً.. وحباً في امتداد الدردشة مع صديق مودع.. على أن أذهب في الوقت المناسب.. بدل أن أذهب قبل موعد سفر الطائرة بوقت كبير.. فاضطر لارتياد البوفيه وما يترتب عليه لأنني دفعت تقريباً آخر ما امتلك من نقود لحساب الأوتيل.. وحتى لا يكون لدي من الزمن لدى وصول المطار إلا المرور من بوابة المسافرين الأمامية.. فبوابة الخروج لركوب الطائرة..

وعلى ذلك.. وطبقاً للخطة المرسومة.. فقد وصلت في وقت مناسب إلا أنه ضيق بعض الشيء.. ولم تلتقط للأسف طبلة أذني.. وقد طرطقتها.. نداء الركاب المعتاد والخاص بي كواحد منهم.. فقد أصابت المايكروفون أو المنادية به خرفشة.. أو بحة كريهة مشوّشة لم أتبين معها شيئاً أبداً.. ولكني.. ومن قبل الاحتياط هرعت بأقصى سرعة ممكنة لأمكنة اللزوم هذه.. وشد ما كانت صدمتي.. بعد أن أكملت لازم البوابة الأولى حين أخبرني أحد الموظفين لدى وصولي البوابة الأخيرة أن الأتوبيس قد ذهب بالركاب من دقائق.. وأن الأمر قد انتهى.. ولا سبيل لسفري بطائرة ـ اليوم ـ إطلاقاً!!

وتصوّر.. وعلى طريقتي الحلمنتيشية.. في صدر بيت شعري أضيق

من صدري.. وتصور.. من غير فوتو.. تصور!! تصور مبلغ الصدمة.. ووقع المفاجأة غير السارة.. وأنا واقف أمام الموظف على عتبة البوابة الخارجية. انظر للطائرة ـ وبها حقيبتي ـ وبالحقيبة فوطتي.. وقد أصبحت بدون هاتيك.. وتلك.. يا مولاي كما خلقتني.. وقد تهيأت الطائرة.. للإقلاع!!

ودفعة واحدة.. من مرارة الصدمة.. ومن حلاوة الروح.. اندفعت إلى الموظف أمامي.. أعانقه بشدة.. وأضمه لصدري.. وأنا أشبعه لثماً في وجنتيه وعلى عنقه.. وقرب شفتيه.. دون سابق معرفة.. أو قيام علاقة مشروعة معه.. من قبل..

وقد كانت تخرج من حلقي.. وبصوت غير صوتي الذي أعهده.. عبارات رجاء مسبوكة.. ممطوطة.. ومتلاحقة.. امتزجت بعناقي له.. ووسط قبلاتي المترادفة.. فكنت في حينها.. وبنت ساعتها.. أروع صورة دراماتيكية.. تمثل خير تمثيل وأصدقه.. أروع مشهد من مشاهد الحب.. المفجوع!

ولا أطيل.. فقد أثرت الحالة.. وما صحبها.. على الموظف الذاهل من موقفي.. فتأثر المسكين فعلاً.. ومد يده بسرعة إلى تلفون المحطة المطارية.. وبعد ثوان تخلص من عناقي.. وقبلاتي بدفعي إلى سيارة جيب مقبلة.. أقلتني.. حيث التصق السلم من جديد بباب الطائرة بعد أن كان قد انفك منها!

ولم أصدق ما تم.. حتى دخلت من باب الطائرة.. وأنا ألهث.. وأناهج.. ومن فرحتي أسلم على من أعرف ومن لا أعرف من الركاب.. وكأنني بالتسليم غير المقبول.. أقول لكم منهم.. هنئني.. فقد نجوت

من ألـم الفراق.. ومن وحشة البعد عن حقيبتي التي بها عزيزتي.. فوطتي!

ولقد احتملت بشجاعة.. وبجلد النظرات الملتهبة التي كان يرميني بها الركاب.. وهم يرمونني في حرد واستنكار لتأخيري إياهم قليلاً من الوقت.. ربما بلغ في مجموعه ثلاث أو خمس دقائق على الكثير.. ولم يدروا إنهم بها لا يخسرون شيئاً.. في حين إنني كنت سأخسر كل شيء..

والحكاية صادقة بكل جزئياتها.. دون حاجة لقسم.. ولقد كان هذا الدرس «أربة» لي.. وتوبة صادقة.. وإيماناً صميمياً مني بأن البركة.. دائماً في البكور!!

* * *

ـ ٤٩ ـ

لفتت نظري.. على صباح العالمين.. كما نقول.. جملة انطلقت من فم إحدى سيدات البيت.. في قرف.. واشمئزاز.. وصفاً موجزاً لجارة لنا.. إنها.. فضولية.. تتفيضل يختي على الصغيرة.. وعلى الكبيرة.. وهذا عيب!!

ولما كنت بطبعي.. وبالصراحة بحكم إرثي التقليدي لطبع هذه السيدة من عائلتنا.. أكره مثلها الفضول.. نزولاً على قانون الوراثة والبيئة التي هي وأنا منها.. فقد وقعت هذه الجملة منها موقعاً حسناً من نفسي.. في بادئ الأمر.. إلا أنني على كره من طبيعتي رأيت أن أسمح لعقلي الواعي في التدخل المباشر وغير المباشر في حكاية «الفضول» هذه.. وأن أناقشها على الواسع..

فتبين لي.. بعد ترتيب أجزائها.. وتركيب الأصول والفروع لها ومنها.. إن الفضول أنواع.. منه ما ينحدر إلى ورطة التحسس والتجسس لغاية دنيئة.. أو لغرض رديء.. ومنه ما يرقى لدرجة طلب المعرفة الذاتية البريئة.. طبقاً لتسمية المرور البريء في الملاحة الدولية!.. لاستكمال العلم المجرد.. ومنه ما هو ضروري للاستفادة بتجربة الغير..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢٢هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢٧م.

وممارساته التي يحرص على نوع من السرية لها.. ومنه ـ ومنه.. إلى آخر ما تبين لي من أنواع الفضول البعيدة المدى.. أو القصيرة الخطوات!..

وقررت أن أنزع عن طبعي الذي يكره الفضول.. قشرته الجلدية.. وأن أخوض التجربة للممارسة.. ولاكتشاف بعض أنواعه.. وبموجب هذا القرار المتخذ عفو الساعة.. فإنني لما ركبت هذا اليوم.. مع أحد سائقي التاكسيات.. لم أطق على خلاف عادتي أن استمر طيلة المشوار بجانبه.. كتلة لحم تملأ فراغاً آدمياً.. أو على الأصح.. مقعداً جلدياً بجواره.. فنكشته.. حسب أصول الفضول.. وحتى أسلم من مقايضته هو من مثل ذلك النوع الصامت من الركاب.. بسؤال.. تلاه سؤال فأسئلة.. وتركته يتحدث.. وأنا أطل على نفسه.. وخواطره.. وأتطفل فضولاً على حوادث.. ومعلومات جديدة..

ولقد خرجت فعلاً بحصيلة مذهلة.. عن عالم التكاسي.. ودنيا السائقين لها.. ولولا أن أغلبها يعتبر في قلم السريات.. والأسرار التي ليس لها محل إلا تقرير خاص عنها للمسؤولين لجازفت ببسط دقائق مثيرة عنها.. ولكنني أكتفي.. لائتمان الرجل إياي عليها.. بالكلام عما عداها من العموميات.. فهو يقول.. مثلاً ـ إن البلدة.. ويعني بها جدة.. أصبحت تعج بكثير من التاكسيات الوافدة إليها فعلاً.. أو بلوحاتها اسماً فقط.. من كثير من مدن المملكة.. ومن مناطقها المختلفة..

ويرى هذا السائق.. أو نرى معاً للحقيقة فقد ساحت بيننا الأقوال والأفكار.. إن من الأولى أن يحدد عمل كل تاكسي بمنطقته ذاتها.. أو بمدينته وهو الأفضل.. على أن يكون لتاكسيه لونه الخاص.. ولوحته

المتسلسلة الرقم.. وألا يسمح بعد وصوله إلى المنطقة أو المدينة التي لا تدخل في نطاق عمله بتجواله.. عاملاً فيها..

وبهذا الترتيب.. نمنع التكدس.. والبوار.. ونيسر الوجود حيث العدم.. بالإضافة إلى تقنين المسؤولية وحصرها بالنسبة للأمن العام.. ومستلزماته.. طالما كان لكل منطقة.. أو لكل مدينة كبرى تاكسياتها ذات اللون.. والرقم الخاصين بها.. عملاً مباحاً فيها.. وممنوعاً.. بل محرماً في سواها..

وتكلم ـ مثلاً ـ عن الرخص.. وكيفية قطعها.. وله في هذا الباب نوادر تؤكد أنه على اطلاع واسع بما يجري في هذا المجال.. وإن أكد لي أنه أخذ الرخصة بجدارة وبحق.. وبعد امتحان عسير.. وشاق.. وأنه سائق قديم.. كما له اقتراحات عملية.. تجعل من الصعب الحصول على رخصة قيادة واعتبرته متطرفاً في كثير منها.. لولا تأكيده بأن ذلك لازم جداً لأن في الحرص عليه حرصاً على الأرواح.. وهي غالية..

ويقترح أن يشتمل دفتر كل سائق على مخالفاته.. كشهادة ذهبية له إن كان الدفتر نظيفاً من المخالفات الصغيرة.. أو الكبيرة.. كما يرى أن تعين مدارس لهذا النوع من العلم.. وهو قيادة السيارات.. فإنها فوق أنها علم مادي.. فن جميل.. أو فن خطير.. وخطر..

واستمر البحث.. فضولاً مني.. وأن له لبحثاً طويل النفس.. وقد اقترحت عليه أن يكتب بيده أو بالواسطة تقريراً مفصلاً يرفعه للمسؤولين بالإضافة إلى ما هو لديهم مما هو معمول به ومتبع في كل أنحاء العالم بما في ذلك المرور العام وأهلوه.. ليسيروا بكل ما لديه ولديهم على ضوء.. أو بدون هذا الضوء.. إن لم يكن هناك داعٍ له..

وبنزولي من التاكسي.. وخوضي أول تجربة فضولية.. فقد ساءلت نفسي من جديد هل عادة الفضول.. من حيث هو فضول.. خلة محمودة في جملتها وتفاصيلها.. أم أنها صفة مذمومة مرفوضة.. ككل؟!

لعلّها.. في الغالب.. غير محمودة بالنسبة للجيران.. ولأسرار الأصدقاء.. وللحالات المستورة الخاصة.. ولكل ما يري صاحبه أن يبقى.. في حرز مثله..

ولكنها.. عادة الفضول.. بالنسبة للكاتب الاجتماعي ـ مثلاً ـ أو للصحفي.. أو للباحث.. أو لمن إليهم.. نكشاً.. أو دردشة.. أو أسئلة.. أو تتبعاً معيناً لحالات معينة.. أو لأشخاص معينين.. ضرورة لازمة.. لازبة..

وعلى ذلك.. فلن أعتبر.. في هذا الباب وحده.. بعد اليوم.. كلمة.. فضولي.. شتيمة.. أو عيباً.. تلصقه بسهولة تامة قرينتنا على جارتنا التي تبينت أنها.. باحثة اجتماعية!!

* * *

ـ ٥٠ ـ

صادفتني ـ في هذا اليوم ـ بعض المصادفات العجيبة،، جاءت على منوال واحد.. في البداية والختام.. فهنا صدام بين سيارتين.. وهنا مضاربة بين اثنين على خفيف.. وهناك مخالفة رسمية من موظف ضبطه متلبساً بها مديره المسؤول.. ومخالفة فظيعة.. من سائق متهور!..

وفي كل واحدة من هذه الحوادث.. أو المخالفات الهينة مادياً.. والخطيرة قانونياً مهما كانت بساطتها كانت زحمة أفراد.. وأصوات مختلطة.. وعالية في البداية.. إلا أنها كانت تنادي كلها في النهاية بجملة واحدة.. موجهة إلى المعتدى عليه.. وتتردد كأنها «مارش» محفوظ.. وهي لا يراك الله إلا محسناً.. لا يراك الله إلا محسناً.. لا يراك الله إلا محسناً!..

ويعنون بهذا المارش الوطني البلدي الشعبي المصون أن يتنازل المعتدي عليه عن حقه إكراماً للخاطر.. ومنعاً للأخذ والرد.. واجتناباً لشهادة الشهود.. وأولاً وأخيراً الحرص على الشيمة والمروءة والتراث القومي الخالد.. بتقدير تلك اللحى الغانمة.. والوجوه الغالية.. وذلك بمسح الأمر في أحدهما كما يقولون نصاً.. أمسحها في وجهي.. يا

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢٣هـ ـ ١٩٦٧/٨/٢٨م.

سيدي.. ولا يراك الله إلا محسناً..

ونحن بهذا المارش المصطلح عليه نحدد نوع الإحسان الذي لا يرانا الله إلا به.. وهو التنازل عن الحق مهما كان هذا الحق.. أو مهما ترتب على إطلاق سراح المطالب به قانوناً.. لردع.. أو للأجر أو للتنبيه.. على الأقل.. بأن لكل مخالفة جزاء يذكر المطبق عليه بعدم التكرار له.. لو فكر في تكراره..

ومن الغريب جداً.. فيما رأيت اليوم.. أنه كان لهذا المارش التقليدي أثره السحري في فض النزاع دون أن يصل في مداه إلى جهة الاختصاص.. فما هو إلا أن تردد الجوقة في وجه صاحب الحق.. لا يراك الله إلا محسناً.. حتى.. ينجيه.. أخيراً.. وينزل على رأي الجماعة، فيؤدي لها ولمارشها التحية اللازمة.. ويتم السماح.. فالتنازل!!

ولقد كان يركبني عفريت «الأصول» في كل مرة.. راغباً في أن يسجل الحادث رسمياً.. وألا يتدخل في فضه بسرعة هذا المارش الموروث.. ولكن كان الجواب على رغبتي هذه في كل مرة على سؤالي.. لماذا لا تأخذ الأمور مجراها؟.. من كل الحاضرين.. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ بأسلوب أغنية فيروز الحلوة.. لماذا نحن أغراب؟

وكان كل الحاضرين ـ أو المجتمعين يرددون كأجزاء متفق عليه.. يا عمي سيبك.. الإجراء اللي بالك فيه طويل.. طويل.. والناس ما عندها وقت. لا للشكوى نفسها من الحادثة.. ولا للشهادة.. من مشاهديها..

وفي الليل.. كنت أروي ذلك.. فأمن جميع الحضور.. على سلامة «أصول» النغم في هذا المارش.. وأفضليته على سلامة «الأصول» التي أدعو لها. ويعقب كل منهم بحادثة تؤكد ذلك.. ولقد كان أطرفها الآتي:

قال أحدهم.. وهو صاحب مطبعة شهيرة وله شهرة في عمل المقالب بسواه.. تصوّر إنني أنا الذي أخذت مقلباً هذه المرة.. فقد كان لدي عامل سيء الطباع.. وصاحب يد طويلة.. وخفيفة.. وصادف مرة أنني رغم خفة يده سبقتها عيني.. فرأتها وهي تمتد إلى ظرف بداخله حوالى خمسين ريالاً.. فضبطتها.. وبالتالي ضبطت صاحبها.. فلم أشعر وأنا بسبيل اتخاذ الإجراء الرسمي إلا وقد بدأ المارش من بقية العمال.. ومن زوّار المطبعة.. بألا يراني الله إلا محسناً.. وقد كان.. فسامحت.. وضربت التحية للمارش المألوف!

فهل تدري ماذا كانت النتيجة بعد عشرة أيام فقط.. من حادثة الظرف؟ قلت لا.. قال لقد امتدت اليد الطويلة الخفيفة.. ولكن في غفلة من عيني هذه المرة.. فأخذت موجود الصندوق.. وكان به رواتب زملائه جميعها..

وتجاسرت.. وقررت سد أذني عن سماع المارش إذا عزف.. ولكن.. لم يتجاسر أحد منهم بعزفه إطلاقاً.. لأنها رواتبهم. وكانت الشكوى.. وكان التحقيق.. وكان في النهاية أن أعيد المبلغ.. إلا أنه جاء ناقصاً مبلغ مائة ريال.. فما كان.. برضو.. من بعض المسؤولين أيضاً والحاضرين حين رد المبلغ إلا أن قالوا: لا بأس سامحه في الباقي.. ولا يراك الله إلاّ محسناً.. أيضاً!

فعقبت على روايته في سخرية لا تخلو من المرارة.. كما كنت أعقب بعد كل حادثة تنفض بهذا المارش.. يا بخت كل من وفق بين راسين.. في الحلال!!

* * *

ـ ٥١ ـ

لقد أخبرني اليوم.. إنه قضى يوم أمس.. مع أهله وأولاده.. في إحدى القرى.. أو المحطات الرئيسية بطريق المدينة المنورة.. بين البحر.. وعلى الرمل.. ومع الشمس.. ووسط الخيمة..

ولأول مرة.. يكتشف أنه عرف معنى كلمة.. الطبيعة.. الأم أو الأب.. معرفة جديدة.. تخول له حق التعامل.. مثلاً.. مع الصخرة.. رغم شهرتها بالقسوة.. فرأى لها وجوهاً طيبة بلغ بعضها حد الجمال الهندسي المفرط.. بالإضافة إلى حنانها كذلك.. فقد اتخذ وأهله من جوفها أو جرفها وقاء من حرارة الشمس لأحد ما.. فوجد أن الجلسة بها أهنا وأحلى من المقام بالخيمة لعبت بها الريح.. وأحمت جوفها حرارة الظهيرة..

ورأى نوعاً من الحجارة الدقيقة.. والكبيرة الحجم.. حصى متنوعاً.. حلواً.. ومزركشاً أغراه جماله أن يحتفظ.. للذكرى.. بمجموعة منها.

كما كان له حق الأخذ.. دون عطاء.. من عطايا الشاطئ أحجاراً

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢٤هـ ١٩٦٧/٨/٢٩م.

وأصدافاً.. تفاوتت درجات الحسن في كل صنف من أصنافها.. مما دفعه إلى مراقبة بعض الأحياء.. البرمائية داخل وخارج بيوتها.. غير أنها.. مطلقة السراح في ذهابها للبحر أو إيابها منه.. تملك كل حريتها.. وعبثها ولهوها.. بل ومعاكسة بعضها معاكسة تصل حد الغزل الجديد عليه.. تتعداه أحياناً إلى ضرب من ضروب الحب.. أو الجنس.. كما يطلق عليه علمياً.. مما دفعه إلى قضاء بعض الزمن مراقباً.. أو عذولاً بشرياً لها دون أن تشعر أو تحفل بمراقبته أو بمزاحمته لها في عالمها الخاص..

وإنه!! وإنه!! وإنهم.. وهذا هو المهم.. طعموا بلذة.. وبجوع وبشهية جديدة.. المأكول.. وتلذذوا بالماء المثلّج حفظوه في.. ترمس كبير.. وإن الأولاد على خلاف عادتهم.. ومع ضعف بنيتهم.. أكلوا وجبات خفيفة متقطعة.. متعددة.. حتى لقد أتوا جميعاً على جميع ما أخذوه معهم من ساندويتشات.. ومعلبات.. وبسكويتات.. و.. و.. إلى آخر بيان الأطعمة الخفيفة يصحبها مثلهم في مثل هذه الرحلات..

وأطنب في القول مما لا أستطيع متابعته الآن.. تسجيلاً له.. ولكل ما قال.. وأختتم محدثي قوله.. ولقد كان مسك الختام كما يقول التعبير التقليدي القديم.. إنهم شاهدوا.. لدى عودتهم إلى جدة.. القمر.. فتملوا طويلاً بمنظره.. وبضوئه الساجي.. حتى لكأنهم كانوا يستحمون.. أو تستحم أعينهم في نور القمر.. كما كانت أجسادهم تستحم نهاراً.. في ماء البحر..

فقلت.. لقد أصبح الأولاد.. وسيصبحون .. بهذه الرحلة وبأمثالها التي قررت أن تضع لها برنامجاً أسبوعياً منذ الآن فصاعداً.. رياضيين..

أصحاء.. وإنك أنت.. ومن معك.. وهم أيضاً سوف تصبحون.. وهذا أخطر ما في الأمر.. شعراء.. تنافسوننا في الميدان الوحيد الذي لم يبق لأمثالنا ميدان سواه..

ومع تهنئتي لك بهذا الاكتشاف.. وبتصميمك على أن يكون لك وللعائلة يوم في الأسبوع.. تعرفون فيه أنفسكم.. وتتعرفون فيه على معنى كلمة.. الطبيعة.. الأم أو الأب أو الجد.. فإنني للأسف الشديد قضيت يوم أمس بالبيت..

ولهذا.. فإنني لم أستعمل من الوجبات اليومية المستحقة.. إلا واحدة.. تناولتها وسط النهار.. بعد أن قرصني بعضهم لأتناولها.. وحين لم يقرصني مثلكم الجوع الحقيقي.. الجوع الذي تشعر معه بلذة الأكل.. بل وبلذة الجوع نفسه.. فإن للجوع لذة تكتشف معها معنى من معاني الحياة التي قام الصوم حكمة.. وعبادة.. وفلسفة.. على دعامة منها..

بل وأزيدك علماً.. إنني لمكوثي طيلة يوم أمس حبيس البيت.. فقد بت خفيفاً.. على طريقة البلد المشهور أهله بالبخل.. يقولون لضيفهم في أول الليل توفيراً للوجبة الأخيرة:

تحب تتعشى.. وإلا تبات خفيف؟.. وضحكنا..

* * *

ـ ٥٢ ـ

قرأت في مثل هذا اليوم تقريباً منذ عام.. في جريدة بيروتية دفع بها إلي صديق كريم لأن بها خبراً عن الشعر والشعراء.. قرأت خبراً قصيراً بها يقول: إن وفداً من نقابة الصحافة اللبنانية زار الشاعر العربي الرقيق «بشارة الخوري».. بداره.. للمجاملة بمناسبة مرور خمس سنوات على إمارته للشعر.. وأشير بها إلى قصيدة ألقاها آنذاك.. ومنها هذه الأبيات الحلوة:

اليوم أصبحت لا شمسي.. ولا قمري
من ذا يغني.. على عود.. بلا وتر
ما للقوافي.. إذا جاذبتها.. نفرت
رعت شبابي.. وخانتني على كبر
إن المواهب لا فضل لصاحبها
كالصوت للطير.. أو كالنشر للزهر

ومع إعجابي برقة الأبيات وبحلاوتها.. فقد أثار الخبر برأسي.. وفي نفسي.. فكرة وذكرى.. أما الفكرة فهي بدعة أمارة الشعر.. ورأيي

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢٥هـ ـ ١٩٦٧/٨/٣٠م.

الخاص بها وفيها واعتبرتها من لبنان تقليداً أعمى للأمارة الشعرية القديمة ذات الأغراض المتنوعة بمصر في عهد من عهودها السابقة.. حين اجتمعت بالقاهرة وفود شعراء من معظم البلاد العربية.. باستثناء بلادنا.. وذلك لمبايعة المرحوم أحمد شوقي أميراً للشعراء.. وحيث تقدم الشاعر الكبير أحمد حافظ إبراهيم.. على كره داخلي منه بقصيدته التي يقول مطلعها:

أمـيـر الـقـوافـي.. قـد أتـيـت مـبـايـعـاً
وهـذي وفـود الـشـعـر.. قـد بـايـعـت مـعـي!

كما قال شوقي يومها غامزاً إيانا:

وافتقدنا الحجاز فيه.. فلم نعثر على قسه.. ولا سحبانه!

ومع احترامنا للشاعرين الأميرين العربيين العظيمين: شوقي.. والخوري، فإن فكرتنا نحو إمارة الشعر ما زالت حيث نبتت في الرأس!.. ولقد أكدناها ببعض الشرح.. والمناقشة.. والتعليل.. في إجابة من سلسلة إجابات لبعض شعرائنا على أسئلة ذكية وكريمة من الأديب البعيد الأستاذ عثمان شوقي على صفحات جريدة البلاد..

وأما الذكرى.. فقد أثارتها قراءتي لهذه الأبيات الرقيقة.. فقد صادف من حوالي ربع قرن أن نشرت قصيدتي التي أقول في مطلعها:

لـسـنـا مـن الـمـجـد فـي أعـلـى مـنـارتـه
ولا الـطـريـق.. قـطـعـنـا مـنـه مـا عـظـمـا

لـكـنـمـا نـحـن شـعـب يـرتـجـي أمـلاً
ضـخـمـاً.. وأرقـى أمـانـي الـشـعـب مـا ضـخـمـا!

وجاء في ختامها هذا البيت:

سيان عند اكتساب المجد.. من قدم
من شرع الرمح.. أو من فوق القلما!

وبعد مدة أسبوعين.. أو تزيد.. من نشرها بجريدة صوت الحجاز.. وصل البريد بالباخرة كالعادة.. فقرأنا ومعنا بعض الأخوان قصيدة للشاعر العربي بشاره الخوري.. قصيدة ورد في ختامها البيت نفسه مع اختلاف القافية وحدها.. فهو يقول:

من شرع الرمح.. أو من فوق القصبا!

ولقد أثبتت هذه الحادثة.. أو المصادفة.. بطريقة عملية.. جواز توارد الخاطر رغم بعد الشقة.. وتوافر الأدلة وأركانها المادية على أثناء وجود سرقة أدبية تبلغ النصاب الشرعي أو لا تبلغه..

وأبادر.. وإن كانت المبادرة قفلة للحديث.. فأقول إنني لا أريد بسرد هذه الذكرى الدفاع عن عملية الاقتباس السائدة.. اليوم.. عن عمد سابق وسائد.. بالمسطرة.. والبيكار!

* * *

ـ ٥٣ ـ

كان لنا صاحب اشتهر بيننا بلازمة ثابتة في أحاديثه.. يعتبرها بإيمان عميق.. قفلته الختامية لكل عمل منتوى.. أو أمر سيقوم به.. وهي جملة ـ إن شاء الله ـ فقد كان يقفل قوله ـ مثلاً ـ وسنجتمع غداً الساعة كذا.. إن شاء الله.. أو وسأحضر لكم الكتاب الفلاني.. إن شاء الله.. أو.. وربما أسافر لمكة.. إن شاء الله أو.. وسوف أعمل.. أو أنجز أو أنهي كذا.. أو كذا.. إن شاء الله..

ومع أننا مثله من القائلين لها.. باعتدال.. ومع إعجابنا بتمسكه بهذه الجملة اليقينية العتيدة.. إلا أننا من باب التمييز له فقد أطلقنا عليه دون حفلة تدشين للتسمية.. اسم الأخ.. إن شاء الله..

ومرت الأيام.. وكان صاحبنا هذا رقيق الحال.. بل هو فقير معدم.. ودارت العجلة.. فأمسى.. وأصبح! كما نقول في تعبيرنا الدال بإيجاز على من كان في حال بائس.. فبدل الله حاله هذا القديم البائس.. بحال جديد.. سعيد..

وتعبير أمسى.. فأصبح.. تعبير حلو وعميق.. وهو يرمز إلى

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢٦هـ ـ ١٩٦٧/٨/٣١م.

السرعة الخاطفة يتم فيها التبديل.. أو التحوّل من حال لحال.. في وقت قصير جداً.. أو في لحظة.. كاللحظة التي يشبه فيها الشاعر الرسام الماهر ابن الرومي انتقال العجينة إلى فطيرة في يد موصوفه الخباز بقوله عن العجينة واللحظة!

ما بين رؤيتها في كفة كرة   وبين رؤيتها قدراء.. كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة   في باطن الماء.. يرمى فيه بالحجر

ولما حدث فجأة لصاحبنا.. وبعد انقطاعه عنا كجاري العادة مع أمثاله.. فقد قررنا ذات ليلة أن نجتمع لإلغاء اسمه القديم.. الأخ ـ إن شاء الله ـ لإطلاق اسم ـ أمسى فأصبح.. عليه ـ وقد كان.. فصرنا إذا جاء ذكره لا نعرفه أو نعرفه إلا بهذا الاسم التعبيري الجميل!

والواقع أننا كنا كمن يقرأ بعض سطور الغيب حين ألغينا اسمه القديم الأخ إن شاء الله.. فقد تحقق لنا صواب ما فعلناه.. عقب حادثة اليوم.. وخلاصتها ـ إننا ذهبنا اليوم أنا وصديق من أفراد البشكة للسلام عليه بمناسبة قدومه من إحدى رحلاته التجارية التي صارت جزءاً من حياته الجديدة.. وبرنامجاً ثابتاً فيها..

ولقد رحب بنا ـ بقدر ما اتسع وقته ـ ترحيباً أخوياً.. وحاراً.. ولم ننكر عليه شيئاً أبداً.. إلا أننا لاحظنا.. ويا لهول ما لاحظناه.. إنه أضحى.. وصار.. وما برح.. وما انفك.. وما فتئ أيضاً .. في أحاديثه كلها.. لا يستعمل إطلاقاً قفلته الشهيرة.. إن شاء الله.. فهو يقول.. ويردد بالتلفون.. ومشافهة.. نعم سوف أسافر إلى الرياض غداً.. وسأكون في بيروت الساعة الخامسة.. وأعود إلى جدة الخميس

الساعة الواحدة.. وقابلني في المكتب يوم السبت الساعة الرابعة ـ عربي!! دون أن يغلط ـ ولو مرة واحدة ـ فيقول.. إن شاء الله!

وأقرر صادقاً إنني لم أكن صاحب الملاحظة.. وإنما لفت نظري لها صديقي حين قال هامساً ـ ألم تر أن الأخ أمسى.. فأصبح.. قد طلق عادته القديمة.. فلم يعد يقول في أعقاب أحاديثه.. وأعماله المنتواه.. ومواعيده القادمة للسفر.. أو مع الناس.. قفلته الختامية الحلوة ـ إن شاء الله..

وكأنما كنا نقرأ سطراً من سطور الغيب يوم أبطلناها مسمى قديماً له! فسكت احتراماً للمواقف ـ وخشية من أن تسنح لصاحبنا فرصة هدوء من مشغولياتنا فيسألنا عن موضوع الهمس.. وإن قام في نفسي فعلاً أن أواجهه بالسؤال عن السبب في إلغائها.. قفلة ختامية لصقت به.. واشتهر بها في ماضي أيامه الخاليات.. وربما فعلتها يوماً فوجهت له هذا السؤال:

وقضينا مدة الزيارة ـ وصافحناه مودعين ـ فقال أحب أن أراكم لولا أنني مسافر الليلة إلى بيروت ثانية ـ وسأمكث بها حوالي يومين ـ ومنها سأسافر الاثنين القادم إلى أوروبا لأسبوع.. على أنني سوف أكون في جدة يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى.. الساعة كذا.. ويمكن أن أراكما وبقية الأخوان.. مساء اليوم ذاته الساعة كذا.. وانتظرنا.. دون جدوى.. أن يقول.. إن شاء الله ـ كما تعوّدنا.. ولكن لم ينطق بها.. فخرجنا آسفين.. محرومين من سماعها المعتاد من صاحب القفلة الختامية اللاصقة به.. والمشهور بها.. فيما سبق من حياة ـ وحال ـ وأيام.

ولم نكد نخرج من مجلس صاحبنا.. حتى مال على صديقي صاحب الملاحظة وقال.. ما رأيك؟ وما تقول؟

أجبته إن لم يقلها الأخ.. أمسى.. فأصبح.. كعادته القديمة.. فإننا لا زلنا نقولها نيابة عنه.. لعلّ وعسى.. وامتثالاً كذلك لما ورد في الكتاب الكريم.. ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله..

وسبحان مغير الأحوال.. والعادت!!

* * *

ـ ٥٤ ـ

حدث لي ضحى هذا اليوم أنني طلبت موظفاً مرموقاً.. بواسطة السنترال الخاص في مقر عمله.. لأجل أن أحادثه في موضوع تعهد هو.. كمسؤول مباشر.. بإنجازه.. وذلك بعد أن لمس من بعض موظفيه الثانويين مدى التهاون.. طالت معه مراجعاتي لهم دون نتيجة لي.. ودون مبرر رسمي منهم لهذا التهاون..

وكان الموظف الرئيسي المرموق. قد أعطاني منذ أسبوع.. مع الوعد القاطع بالإنجاز.. موعداً هذا اليوم لمراجعته.. على أن اتصل به تلفونياً قبل حضوري لمقر عمله ليخبرني عما كان من تعقيبه الشخصي على أوراق المعاملة.. أو الموضوع.. وسيكون الأمر منتهياً بحضوري.. بوضع الخاتمة له.. سلباً أو إيجاباً.. حسب النظام!..

وهكذا كانت مخابرتي أو طلبي التلفوني له اليوم.. نزولاً على موعد محدد منه.. ومقرر.. ولقد أخبرني مأمور السنترال الخاص في بادئ الأمر أنه موجود.. ولكنه يتكلم.. فأجبته إنني معك على التلفون في انتظار انتهاء محادثته لأكلمه.. أو ليكلمني هو على الأصح.. وإلى هنا والوضع.. والموضوع طبيعيان جداً..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢٨هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢م.

ولكن الشاذ جداً.. بل وألف جداً.. إن مأمور السنترال الخاص عاد ليخبرني بعد ثواني.. أن المذكور خرج من مكتبه ولا يعلم المأمور إلى أي المكاتب قد اتجه.. وهنا شعرت بأن دمي يطالبني بأن أتصرف تصرفاً ما لأنني تيقنت أنها اللعبة القديمة يمارسها بعضهم.. للتهرب من دائن لهم بشيء ما.. أو من تقبل فارغ يهدر أوقاتهم الهانئة.. ولما لم أكن واحداً من هذين الصنفين.. فضلاً عن أنني مواطن صاحب حق في المراجعة المباشرة للمصلحة.. حتى بدون اتصال تلفوني سابق.. فقد بادرت بالذهاب حالاً للمصلحة التي لم يكن لحسن الحظ يفصل بينها وبين مكان السؤال أو المكالمة أكثر من أمتار معدودات..

وبوغت سعادته بوقوفي على رأسه.. وهو.. هو بمكتبه نفسه.. لم يغادره إلى سواه كما قال لي مأمور السنترال.. كما أنه ليس بمعقول أن يكون قد غادره.. وعاد إليه خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة..

وأشهد أن الرجل كان خامة طيبة العرق.. فقد تناثر خجله.. حبات من العرق الهاطلة من جبينه على وجهه المحمر.. وأسرف في المعذرة باعتبار أن هذه الفعلة الشنعاء لا تليق منه.. ولا تجوز.. كما لا يجوز مرورها على مثلي.. وبقدر إسرافه.. من اللخمة في الكلام.. في المعذرة مكررة بأساليب متعثرة طائشة كبعض السهام المتتالية تخطئ الهدف إرسالها في الهواء لمجرد الانطلاق.. والحركة.. فقد أوجزت الإجابة عليها.. وعليه في كلمات قلائل.. إنني أخاطبك هنا.. لا بصفتك الشخصية بل بوصفك مسؤولاً رسمياً.. وضعته الدولة لتصريف شؤون المراجعين كافة.. وبصفتي مراجعاً ذا مصلحة.. في هذه المصلحة..

أريد أن أعرف بالضبط مكان موضوعي بين هذه الأيدي.. وتلك الأدراج من المكاتب.. الآن..

ولقد تقيدت أدباً بطلبك التلفوني قبل الحضور.. شاكراً لك من قبل تلك الرقة في حينها.. بقدر ما ذممت منك وفيك الآن استعمال هذه اللعبة القديمة والمتوالية للأسف بيننا.. لا تليق بنا.. ولا بأمثالك على الأخص..

وانصرفت.. فوراً.. معلّق النظر الحائر بين الأرض والسقف من الغيظ.. تاركاً الموضوع معلقاً.. فوق أكتافه.. للذكرى.. للعظة.. للعبرة.. للتذكير الدائم بما حدث مما لا يليق أن يحدث.. للمراجع.. من مسؤول!!..

* * *

ـ ٥٥ ـ

سمعت اليوم حديثاً تلفزيونياً ممتازاً في عباراته الإنشائية أجاد صاحبه فيه الفصحى.. بالإضافة إلى ميزة التجويد.. غنة وإدغاماً.. وقلقلة.. ولكن ما افتقدته جوهراً للحديث أنه كان يتناول رسم حياتنا.. وكأنه يعيشها.. بالسماع..

وهالني الأمر ـ رغم معرفتي أن صاحب الحديث جلس في مكتب يؤدي فيه واجباته الأدبية تقريباً.. ثم هو مقيد ببيت.. لا يعرف أبداً ما هو مثلاً سوق الخضار.. أو بعض الأسواق الشعبية ترتادها فإذا أنت على علم وملامسة وحس بالنبضات الحية لا يستغنى عنها راعي قلم.. أو صاحب فكر.. أو دارس اجتماع!

وتذكرت أنني في مثل هذا اليوم بالذات.. ومع البشكة إياها.. كنت في ـ الهدا ـ في خيمة بين صفوف الخيام المنبثة هناك وقد نصبت كسواها.. على بقايا ركيب كان يوماً أخضر زاهياً بزرعه وبقلته.. فعاد كما هو الآن أرضاً جرداء للإيجار لنصب الخيام عليها!

ونعمت مع سواه بالبرد.. أو بالبراد كما ينطقونه ـ بفتح الباء ـ

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٢٩هـ ١٩٦٧/٩/٣م.

هناك.. نسمات لطيفة حلوة تمسح وضر الحرارة.. وآثار العرق الغزيز.. كما نعمنا بمزايا الاستجمام والراحة بما تشملان عليه من اجتماعات إخوانية.. ومن ضحك.. ولهو بريء تدفعك العودي بذلك وبما فيه إلى أن تكون كالناس ومعهم وبينهم ضاحكاً هانئاً.. مرتاح القلب والجسم.. تعيش أو تحيا الحياة على الطبيعة.. بدمها ولحمها.. كما هي كائنة..

وليس هذا المدار هنا فأمره سهل ومعروف.. ولكن المدار الحقيقي أنني وكبير جماعتنا قد رأينا أن نرتاد السوق.. كمسؤولين رئيسيين واستجابة لطبيعتنا القديمة المستمرة.. وذلك لتجهيز الغداء للرفقة ولمن معنا من عوائل.. وقادتنا القوة الكامنة في نفوسنا نلتمس وصل الذكريات إلى أن نغشى السوق الخاص ببيع الراص المندى.. والمنداه.. والأوصال.. والمضبي.. و.. بقية أكلاتنا الشعبية الخاصة بالغداء لنباشر ذلك بأنفسنا.. وفي المجال المخصص لها.. حوانيت متلاصقة في ضيق.. وفي تلاحم.. وفي إصرار عى أن تبقى كما هي.. لإتاحة الفرصة لبلادنا حتى تفاخر سواها من المدن التي تبقي على بعض أسواقها العتيقةِ كرمز تاريخي عتيد.

وحتى نستطيع أن نقول مثلاً.. لن تنفرد روما القديمة.. أو باريس.. أو القاهرة.. أو لندن أو سواها بأن تقول وحدها ما تقوله في هذا الشأن فإننا يمكن أن نشير إلى الطائف القديم كذلك.. وندلل عليه بهذا السوق وسواه وما حوته من أصناف الأكل الشعبي في وجباته الرئيسية.. فما سبق ذكره من الأنواع للغداء ـ والهريسة الطائفية للفطور إلى آخر ما يرد شواهد ـ في هذا المجال.

ما لنا ولهذه الاستطرادة السخيفة ـ عائدين لما كنا فيه ـ فما إن

غشينا السوق إياه ـ حتى حفتنا ولفتنا سحب الدخان المعبقة بروائح الشواء ـ التصقت كمواد دهنية لزجة بملابسنا.. وجرفتنا صفوف الآكلين.. فزاحمنا بينها بالمناكب وبالظهور.. بل وبالكروش كذلك ـ لم يحجزنا الشباب عن حجز دورنا فيما نبغيه.

وقضينا لوازمنا موضوعة في القدور والأوعية.. وخرجنا من الزحام وتوابعه خروج القائد من معركة ذات جو ـ ولون ـ وطعم خاص.. شاعرين بحيثيتنا المتحركة ـ راضين الرضا كله عن نصيبنا أحسنا الاختيار فيه كما يجب أن يحسنه كل مجرب زوّاق..

وعلق رفيقي على دوري ـ وكان رئيسنا ـ بعض الشيء.. لقد كان بعضهم يشير إليك قائلاً.. ما الذي جاء «بهذا» إلى هنا؟ ومحله الجريدة.. أو الإذاعة.. أو التلفزيون ـ وكنت آنذاك على صلة هوائية بالناس مع عدم الإغراق في الفصحى وبالتجويد غنة.. وإدغاماً.. وقلقلة!..

وقد أجبته بدوري قائلاً.. إنني أولاً لست حيث يفرضونه قيمة لي.. شاكراً ومقدراً لهم على كل حال مضمون استنكارهم الشبيه لحد بعيد بقاعدة.. الذم في ثوب المدح ـ وثانياً فإن طابعي الأدبي ـ أو «تيبي» ـ كما يقول المودرنزم ـ يقتضي أن أكون حيث أنا الآن يا صديقي ـ إن من لم يلتصق بالحياة الحقيقية ـ يعاركها وتعاركه بين الصفوف ـ ووسط الدخان والأقبية الدكاكينية هذه وأمثالها لهو المرء لا يملك في قوله إلا ما تملكه الببغاء في ترديد محفوظاتها.. وإن الإنسان العادي لا يأنف في سيره اليومي بخطه الواحد.. إلا السير في الجادة المرسومة.. أو الطريق السلطاني لهو الكائن الرابورطي.

وها نحن قد عدنا من مشوارنا الحي ـ دون أن ينقص منا شيء.. بل لقد زوّدنا الجماعة.. وتزودنا نحن ذاتياً بأشياء.. وبأشياء إدغاماً بغنه بين ـ ومع ـ الناس!

* * *

ـ ٥٦ ـ

قابلت اليوم صاحباً ذكياً.. لبقاً.. جمع مع الوعي والإدراك خلة التأني والصبر.. فهو من النمط الذي انطلق عليه: يحفر البير بإبرة..

وكنت أعرفه محدود الحال ممن نسميهم.. المستورين.. بل لقد كان في بعض حالاته من المكشوفين.. إلا مما يستر العورة.. في أضيق حدودها العرفية.. ولكنني رأيت وعلمت منه أنه اليوم في أكثر من البحبوحة مساحة.. وكياناً.. وتعبيراً.. وحدثني حامداً المولى على ما أنعم به عليه.. إنه قضى معظم عمره.. صابراً.. حتى لقد أصبح الصبر جزءاً لا يتجزأ من طبيعته وكيانه.. وضرب لي عدة أمثلة على ذلك.. ولست في حل من إذاعتها لالتصاقها به حالات شخصية مميزة له..

ولكنه.. كمثل بسيط على صبره.. وقف طويلاً عند قوله.. أتذكر قطعتي الأرض اللتين تقعان في طريق كذا.. وبالكيلو كذا من جدة.. واللتين كانتا بمناسبة خاصة جداً ملكاً لي.. ولفلان.. قلت نعم.. وأتذكر أن هذا كان من زمن ربما تجاوز الخمسة عشر عاماً.. فقال أجل.. ولقد باع أخونا فلان القطعة الخاصة به منذ عشرة أعوام تقريباً.. ولم يطق صبراً على بقائها ملكاً له واعتبر الثمن الذي باعها به آنذاك نعمة.. وبنتها.. كما يقولون..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٥/٣٠هـ ـ ١٩٦٧/٩/٤م.

أما أنا.. فرغم الإغراءات المتواترة ربحاً متواتراً.. ولكنه غير كاف في ظني.. فقد صبرت.. وصبرت.. وصبرت.. وقد جئت الآن من حيث أقيم حالياً لأجل إنجاز إجراءات بيعها.. بيعها بما يذهلك رقماً حالياً بالنسبة لأرقام الربح القديمة المتواترة.

ثم استرسل.. يعدد مزايا الصبر في حياته.. وفي الحياة عامة حيثية مجسدة له ولها.. وللتاريخ نفسه.. فهو يعتبر التاريخ ذاته في تطوراته الأممية الكبرى إنما يرتكز ويدور مع الصبر.. وعليه فلكم تبدل وجه الأرض.. ممالك.. وشعوباً.. وجغرافية سياسية وطبيعية واجتماعية بالزمن الصابر.. أو بالصبر الزمني البصير.. وضرب على ما سبق عدة أمثلة ليس موضوعنا من مواضيعها.

والمهم أنه ختم استرساله بقوله.. عليك وأن تعالج بعض ما تعالج.. أن تنصح الشباب بالأناة.. وبالصبر.. فقد لاحظت أن الموظف الصغير الليلة يريد أن يكون كبيراً في مطلع الصباح.. وإن ذا العشرة يريدها أن تغدو ألفاً في مدة لا تكفي للتفريخ تحت الدجاجة.. وبالطبع حتى لو كانت البيضات بين كوم من النخالة.. والرماد.. وقال لي.. وبالمناسبة هل تذكر أيام صبانا حينما كنا نعمد إلى أسلوب التفريخ النخالي تارة.. والرمادي تارات أخرى؟!.. إنك من هنا تستطيع أن تستلم طرف الحبل من حيث موضوع الصبر ومزاياه..

قلت ـ من ضمن محاورات سقراطية كعادتي معه.. في الموضوع ـ إنه عصر مكائن التفريخ.. وأنه عصر السرعة مسمى أصبح قديماً هو الآخر.. ويجب أن يبدل ليسمى العصر الصاروخي..

أما حكاية الأرض.. الواردة مثلاً.. فإنها حكاية الظرف والحظ

معاً.. فصاحبك الذي باع واكتفى بالربح الذي اعتبره نعمة وبنتها إنما ساير واقعه المادي.. ولا شك.. لأنه لو كان في حالة استغناء تام.. لصبر عليها مثلك.. وذلك نصيبه المقدر.. وأما أنت فقد صبرت لأن ظرفاً يسمح لك بالانتظار وفي يومك هذا إنما أنت مثل حي للقول بأن الفلوس تجيب الفلوس..

وقد أكون معك في أن على الشباب أن يتعلم التأني والصبر.. ولا أظنه في أيامنا بغافل من المنشأ عن هذه الصفة الفريدة النادرة لأنه يبدأحياته بها.. طالباً عصرياً داخل بلاده.. صابراً على .. قائمة.. المواد الدراسية المضنية.. أو خارج البلاد يعاني الغربة والسعي والدراسة صابراً على كل ما تقضي به هاتيك وتلك من عناء ومثابرة وارتقاب وحرمان..

وليس هذا دفاعاً عن الشباب بقدر ما هو تدليل على اصطباره.. فضلاً عن أن القاعدة العصرية الآن هي التحكم في التاريخ.. تشكيلاً فردياً أو أممياً.. يصنعه المرء بتخطيط ودراسة في تكوين حيثيته وحياته.. كما يصنعه المسؤولون الكبار في القفز.. بعد العدو.. بشعوبهم.. دون التزام بالزمنية السلبية..

ولم أنس ـ في النهاية ـ أن أطري في صاحبي هذا انفراده دوننا بميزة الصبر المعروفة عنه.. كحافر البئر بإبرة.. واختتمت الحديث الضاحك الجامع بين الصبر والأرض قائلاً له إن هناك أغنية يقول مطلعها:

يا عطارين دلوني.. الصبر.. فين أراضيه!!

* * *

ـ ٥٧ ـ

رفضت اليوم لولدي طلباً مكتوباً .. لم أر لتحقيقه مسوغاً معقولاً.. أو مبرراً مقبولاً.. على أساس من التعنت التربوي المسبب في نفسي.. ومن الحرد المقصود.. لأنني أردت بإصرار أن أقف منه موقف الواعظ.. والمرشد..

ويقول عقل الدارس إن كل ما بررت به رفضي ظاهرياً أمام نفسي المتقلبة إنما هو انعكاس لشعور لئيم خفي ـ فقد استيقظ في داخلي شبابي الآفل.. وقام طيفه البعيد الناشئ يعاتبني.. ويوبخني هامساً مرة.. ومجلجلاً مرة أخرى.. في رقة.. ثم في هياج.. ثم في استكانة تقطع نياط القلب.. قائلاً:

هل حصلت أنت في يوم من أيام شبابك القاحل على بعض ما يحصل هو عليه اليوم؟ ألم تكن تتلوع في سبيل أن تحصل على ثوب راشوان مرة.. دون أن تجرأ على طلبه من والدك لمعرفتك بالحال.. وبت تبكي سراً وبينك وبين نفسك؟.. أنسيت أنك كنت تتمنى لو اقتنيت حماراً فارهاً تتعهده بما يكفل له الرضا. ولك الإعجاب بزهوه على بقية الحمير؟! ألا تذكر أنك اشتهيت في ليلة عيد من أعياد الفطر أن تكون

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٣هـ ـ ١٩٦٧/٩/٧م.

لك «بقشة كشميري» مثل التي رأيت زميلك في الحارة يحملها ليرتديها يوم العيد.. دون أن تنالها؟..

ثم ألم تكن يوماً تذهب إلى المدرسة ـ راجلاً! ـ وتعود كذلك في أربعة مشاوير؟.. هل غاب عن خيالك منظرك وأنت تحمل لوح العيش لتخبزه ظهر كل يوم في فرن الحنبوسي قبل الغداء وبين وقت حضورك من المدرسة وعودتك إليها؟

وهل؟.. وهل؟.. إلى آخر السلسلة القديمة التي أستعرض بمواكبها طيف شبابي النائي الكئيب.. مقارناً كل حلقة منها.. بصورة زاهية جميلة ورائعة مما يلاقيه.. ويجده ابني سهلاً.. ليناً.. من أمثال:

ألا يكفيه أنه لم يشعر مرة بالحرمان من أي شيء! أليست لديه من البذلات الممتازة ألوان وأشكال؟.. ألا تراه لا يعرف معنى المشي على القدمين في أي مشوار خاص أو عام؟ ألم يبدل سيارته لمرات؟.. جرياً وراء الموديلات الجديدة منها؟ ألا يستعمل من ألوان الترفيه في الملبس والمأكل وما إليهما مما تحت ذلك أو فوقه ما لم تكن تحلم في حياتك المقفرة ببعض منه؟ ألم تضمن له نمط الدراسة العالية دون أن يحسب. وختمت الرسالة بأن قلت له ـ إن هذا الرفض مني لطلبك إنما يشبه تماماً.. تماماً.. وبالضبط حالة التطعيم الجدري.. مثلاً! وقاية لك منه.. بإذن الله.. فتحمل هذه الإبرة الصغيرة.. تحصنك ضد نفسك.. كما أنها سوف تكون تجربة لعلّها تقيك يوماً ما تتكلفه في سبيله.. ولو على حساب العلم بالشيء.. ولا الجهل به؟.. وهكذا أخذ الطيف اللعين يقارن بين صنف حياتي القاحلة عندما كنت في سن ولدي.. وبين لون حياته الزاهية الحافلة.. دون أن يظهر على حقيقته العارية وبوجهه الكاسح

صراحة.. بل إنه جاء في صورة متخفية باسم الدراسة الفنية بين الجيل السابق.. والجيل الحاضر.. مستعرضاً حالات كثير من زملائي الآباء.. وزملاء ولدي من أبنائهم..

الخلاصة أن الملعون أقنعني شعورياً بضرورة رفض طلب ابني المكتوب دون أن يكون التسليم مني علنياً.. بالطبع.. ولذلك ـ وعليه ـ فقد أجبت ولدي كتابة على طلبه أقول له.. في تبرير فلسفي.. وفي معذرة منطقية مسببة.. ما يأتي:

إنني.. يا بني.. لا أرفض هذا الطلب منك.. ولك.. لا لأنه غير وارد فحسب.. ولكن ليكون هذا الرفض كذلك تمريناً نفسياً لك.. وتجربة صغيرة عابرة.. وذلك حتى تألف في حياتك الهشة من الآن لحياتك الصلبة في المستقبل.. جواز عدم الحصول على.. بعض.. ما ترغب.. وما تتمناه.. فتنشأ ولديك المناعة الكافية ضد بعض الصدمات الوجدانية.. حين لا يساعدك ظرف من ظروفك المقبلة على تحقيق هذا.. البعض.. الذي ترجوه.

إن الابن الذي يدرج على أن يجد كل شيء ميسراً له.. وكل رغبة.. جاهزة بين يديه.. وكل طلب.. تحت الطلب.. إنما يصبح وكأنه صاحب الخاتم السحري الخرافي ـ خاتم سليمان ـ أو عفريت القمقم صاحب.. شبيك.. لبيك.. عبدك وبين يديك.. أطلب تجد.. يا مولاي..

إنه بهذه الصفة ـ ولهذه الأسباب لن يحتمل في مستقبل حياته.. يوم يجد الجد.. ويصبح من العابرين في دروب الحياة.. وحيداً دون عكاز.. معتمداً على نفسه وحدها في مناطق الرجولة.. لن يحتمل

حينذاك أية صدمة تقابله.. حيث.. وحين يكون الاهتزاز طبيعياً.. وخيبة الأمل منطقية.. والفجيعة مقدمة لتخبطه.. فانهياره.. إذا لم يألف في صباه عدم الإمكان.. ولم يعرف المستحيل.. في دنياه السابقة..

* * *

ـ ٥٨ ـ

حضرت في هذا اليوم.. حفلة ضمت كثيراً ممن أعرف.. ومن امتد الأمد الطويل.. دون أن أراهم. وكانت الحفلة... في الواقع.. مناسبة طيبة جداً.. استعدنا فيها مع هؤلاء وأولئك ما رث من علاقة. وربطنا بها حبال الذكريات والأحاديث المقطوعة!

وبمناسبة هذه المناسبة نفسها.. فقد تطرق البحث مع بعض من اجتمعنا به هناك إلى أن الناس هنا.. في جدة مثلاً.. ممن يتميزون في نظر أبناء البلد ذواتهم.. بأنهم السكان الأصليون القدامى بها قد أصبحوا لا يرون بعضهم البعض إلا في مناسبتين رئيسيتين هما نقطتا ارتكاز الحياة.. في دوران عجلتها الكبرى.. وهما الموت.. للعزاء.. والزواج.. للتهنئة!

وإن الملاحظ كذلك أن حضورهم في حالات الموت أوكد.. وأعم من حضورهم في حفلات الزواج مما يؤكد أنّ عواطف الناس هنا وميولهم للمواساة أقوى من الميل للتبريك.. فهم في ليالي العزاء أثبت وجوداً ـ وأكثر عدداً ـ وذلك فيما يبدو يقطع بسوداوية المزاج.. أو بما لا يستطيع قاموس فلسفتي العاجز الآن عن تعليل وتحليل أسباب القطعية..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٥هـ ـ ١٩٦٧/٩/٩م.

وعجبنا.. وإن كان طبيعياً لدى التعمق ـ من أن تكون خاتمة الحياة القديمة.. وفاة.. وفاتحة الحياة الجديدة ـ زواجاً ـ هي صلة الوصل الوحيدة بين أبناء البلد الواحد فرقت بينهم أسباب كثيرة أهمها زوال سور البلدة.. وانتشار العمران.. وتدفق السكان الجدد ـ وتطور الحياة ـ وعصريتها الزاحفة باستمرار صاروخي.. في القياس الزمني المحدود!

واضطرنا البحث.. بدواعي أصوله السابقة.. لاستعراض بعض ما يمنع هذه القطيعة الاضطرارية غير المستحبة.. وجرياً على أصول الدردشة.. أو الهلس كما يقول بعضهم.. أجمعنا على أن الوسيلة الأشد ربطاً ـ والأعم نفعاً ـ والأوفق رابطة للصلة تكوين نادٍ عام ـ أو نوادي مختلفة.. وإن لم ننس.. في غضون هذا البحث.. أن هناك نوادي غير مسماة ممثلة في المقاعد.. أو البلكونات.. أو الدكاك التي تجتمع فيها كل بشكة.. ليلياً.. للسمر تقوم أساساً على الدستة والصن..

وكما يقول أصحاب الفصحى القدماء والأقحاح.. فقد أدلى كل من المشتركين في البحث بدلوه.. وتبين بعد المتح.. والكدح للأذهان أن هناك ممانعة نفسية ثابتة الجذور ضد النوادي والإقبال عليها.. حيث فشلت كل الترتيبات محاولة كانت.. أو تجربة مجسّدة ماتت.. في أن تقوم أندية اجتماعية يكتب لها النجاح بضمان الإقبال.. والمواظبة عليها:

وللمرة الثانية.. أؤكد أننا لم ننس الأندية الرياضية ـ أو كرة القدم وحدها.. ولكننا استبعدناها لاقتصار روّادها على نمط خاص أولاً ـ ولارتباط وجودهم ودوامهم بها بموسم الكرة ـ في دوريها العام ـ أو المباريات على الكؤوس ـ والدروع المعتادة.. وإن كانت فكرة إلقاء المحاضرات بها جاءت ببعض الثمار.

وأخيراً.. حك بعض الباحثين رأسه.. وقال .. لقد وجدتها!.. لقد عرفت السر في عدم نجاح النوادي أو الإقبال عليها.. ببلادنا إقبالاً يضمن لأبناء البلد اتصالهم ببعضهم اتصالاً يقوي الروابط بينهم.. ويساعد على الاستمرار على رؤية بعضهم بصورة أعم وأضمن من حالتي الموت.. للعزاء.. والزواج.. للتبريك!

وحين طالبناه.. بالإجماع.. بالإفصاح.. اعتصم بالصمت ـ قائلاً: سوف أكتب في هذا الموضوع كتابات متوالية في حلقات أتناول بها العادات والتقاليد ـ وارتطام عصرية الحياة وتطورها بالتشبث بالقديم ـ القديم الذي عناه الشاعر جميل صدقي الزهاوي بقوله:

سئمت كل قديم عرفته في حياتي
إن كان عندك شيء من الجديد.. فهاتي!

ولزم مكانه ـ من موقفه الصامت ـ لم يصرح بما يراه مكتفياً بأن الشكوى في الانقطاع تقتصر على الرجال وحدهم.. بل إن النساء يعانين من انقطاعهن عن بعضهن نفس ما تعانيه.. وإنهن يتحملن الوزر..

❊ ❊ ❊

ـ ٥٩ ـ

ركبت اليوم سيارة أجرة.. كجاري العادة.. وأشهد أن سائقها كان خفيف الروح كما تبين فيما بعد.. وإنه كان كذلك من ذوي التقوى.. والورع المقبول.. واللحى الغائمة..

ولقد أفزعني بادئ الأمر حين قال لي بجفاء .. وبأسلوب خشن ما معناه.. لماذا لم تقرئني السلام.. وتحييني بتحية الإسلام قبل أن تستقر بمقعدك بجانبي.. وقبل أن تذكر لي المكان الذي تريد مني أن أوصلك إليه في مشواري هذا؟.. فتفرست ملياً في سحنته الطيبة والتي يقول مثلنا الشعبي على لسانها.. إن راح الزين تبقى رسومو.. ثم قلت له.. لقد ذكرت لك العنوان فوراً كيلا أنسى المكان الذي أقصده.. فإنني أصبحت كثير النسيان.. وطالما سرح بي سائقو الأجرة إخوانك فسرحت معهم.. في حديث طويل عريض.. فنسيت مقصدي حتى إذا لاح لهم من بعيد زبون جديد أنزلوني حيث يريدون أن يستلموا الأجرة مضاعفة بدعوى أنهم عملوا ما يساوي عدة مشاوير!

هذا من جهة مبادرتي لك بذكر المكان المقصود حال دخولي سيارتك المبجلة.. أما عن التحية وتوابعها ـ فخذ عندك: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٦هـ ـ ١٩٦٧/٩/١٠م.

وصباح الخير.. يا اللي معانا..

وكيف الصحة؟ وإيش الأحوال؟

وأوحشتنا ـ أوحشتنا كثير..

وخلينا نشوفك دايماً.. يا هوه!

ومع آخر مقطع انحلت عقدته.. ومن عنده لعنده أخذ يسرد عليَّ دون مناسبة واضحة أو مفهومة عندي على الأقل.. بعض الحكايات.. ومنها حكاية سائق كان تاركاً للصلاة وظل على تركه إياها زمناً طويلاً جداً.. ثم رجع عن ضلاله.. فذهب إلى الفقيه.. يسأله ماذا يصنع إزاء الصلوات التي ترك أداءها في ماضيه الكئيب المظلم؟ فقال له: عليك أن تؤدي مع كل فرض جديد فرضاً قديماً. وأن تتصدق بمبلغ وقدره تسعة وتسعون ريالاً.. ولا أدري لماذا حدد هذا الرقم المماثل لعدد النعاج في الآية الكريمة ـ وعليك أن تخلص التوبة لله ـ وقد فعل كل ذلك.. وأنه الآن مواظب على الصلوات في أوقاتها.. بل في أوائل الأوقات.. وإنه دائم الاستغفار والحزن على ما فات..

وأخذتنا غمرة روحية ودينية ساذجة وطبيعية.. وقد قلت له.. مثلاً.. من ناحية إهمالي أقراءك السلام وإفشاؤه لازم.. فقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) ومعذرتي النسيان، أما من ناحية سائقك التارك للصلاة ماضياً والمواظب عليها حاضراً فإن المولى جل وعلا.. يقول.. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).. فأخبره بذلك.. مع إفادة إخوانك السائقين الباقين إن باب التوبة مفتوح دائماً وهو واسع المدخل ورحيب الداخل. هدانا الله

وإياهم إلى طاعته.. فالصلاة عماد الدين.

وفي خفة روح.. ونطة بارعة.. غير مجرى الحديث.. وذكر لي أنه ليس مالكاً للسيارة بل يشتغل عليها مقابل عشرة ريالات يومياً.. وإن المبلغ في حدود الكفاية لولا زيادة عدد المحافيظ بإصرار سنوي.. حتى لقد بلغوا عشرة! ثم هو يود لو عاد للعمل معي كما كان.. فأنا رجل طيب عرفني كذلك وتماماً من السابق حينما كان في سالف العصر والأوان يعمل سائقاً في مديرية كنت على رأسها!!

حينذاك التفت بكليتي إليه وعدت أتفرس في وجهه من جديد.. وتذكرته بعد أن حذفت دون استئذان منه هذا الطارئ الجديد بعارفيه غطاهما فحجب عني ملامح وجهه القديم.. وقلت له ـ ألم يكن من الأصلح لكلينا أن تذكر لي ذلك من الأول؟

فأجاب.. لقد كانت لذتي كبيرة وأنا أتحدث لمن أعرفه جيداً وقد أصبح لا يعرفني.. وذلك في مزاجي اختلاس فني لطيف.. فأذكرني بكلمة اختلاس فني ما ورد في فصل غزلي بهذين البيتين:

وقالوا يا جميل.. تسل عنها وداو عليل صبرك بالسلو
فكيف.. ونظرة منها.. اختلاساً ألذ من الشماتة بالعدو!

وكان المشوار قد تضاعف.. كالعادة.. فوعدته خيراً.. ودعا لي بالخير.. وصافحته.. وبكفي ورقة خضراء بعدد أولاده ضم عليها كفه في ابتسام رائق.. وتواعدنا على لقاء آخر لمشوار جديد.. وقد لقنني دروساً.. مع درسه الخاص بضرورة إفشاء السلام.

* * *

ـ ٦٠ ـ

طالعتنا اليوم صورة البطل الملاكم المسلم الأسود محمد علي كلاي.. وقد قال الحديث عنه مع من كنا نطالع معهم صورته هو وزوجته الجديدة بعد أن حدث له ما حدث مما هو معلوم ومتداول..

ثم تطور الكلام في موضوعه حتى وصل بطبيعته لنقطة التعصب.. تعصب البيض ضد السود.. وتعصب الكافر ضد المسلم كما قال أحدنا في ضيق.. وفي هياج.. واستمر كلامنا في بورصة الصعود التدريجي حتى بلغ الغاية مدار البحث العالمي من حين إلى حين.. وهي عار التفرقة بين الإنسان والإنسان لا لشيء.. إلا لأن هذا أبيض.. وهذا أسود..

وهنا طلب مني أحد المشاركين في الحديث أن أسلفهم بما تسعفني به الذاكرة من قصيدة.. ذا بلاك أند ذا هوايت.. كما يقول الفرنجة.. أو الأسود والأبيض.. كما يقول العرب الأقحاح.. فتمنعت أولاً كما يحلو لبعضنا وخصوصاً المغنين.. حين الطلب.. ولكنني بالإلحاح استجبت على أساس إيراد نتف منها ليس إلا.. وذلك منعاً للإرهاق والملل.. ومسايرة لضعف الذاكرة الطارئ..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٧هـ ـ ١٩٦٧/٩/١١م.

وقوام هذه القصيدة.. للعلم.. محاورة تمت بين مراسل من مراسلي جريدة من جرائد بلادنا وبين واحدة من بلاد بره.. والواحدة هذه من عاداتها أنها تمضغ اللبان الشحري باستمرار.. وتقول: ياه.. بمناسبة وبدون مناسبة.. وتكره الزنوج كراهية تحريم.. وتخاف موت من الهنود الحمر.. وتحتقر اليهود في قرارة نفسها.. ولكن ذقنها في أيديهم لأن كل سنداتها المالية وثروتها من أبها والتي لا تدري شيئاً عنها في جيوبهم.. يتشطرون بها لحساب مسز رودي.. وهذا هو اسمها الوارد بالقصيدة.. أما اسم المراسل المحلي فهو الشيخ عبودي.. ويقول في مطلعها:

بعد التحية نهديكم رسالتنا
لا شفرة.. أو كلاماً غير محدود
بل خطبة.. وحديثاً شيقاً لبقاً
عبوا له كل مانشت وعامود
مسلِّمين على الأولاد كلهمو
وبالأخص على المحفوظ مسعود
أما الجماعة فالرحمن يكلؤهم
لقد رسلت لهم قرشين.. موجودي!
يا سيدي.. حسبما قلتم لنا.. ولكم
طول البقاء.. وكل الشكر يا سيدي
أمس الذي قبل أمسي كان موعدنا
صبحاً.. لأخذ حديث من مسز رودي
قلنا لها.. كيف حال الجو عندكمو
كيف العيال؟ ومن أنتي؟ ومن ديدي؟

أما أنا «فسئودي»[١].. ومهنتنا
جمع النيوز.. واسمي «الشيك أبودي»[٢]

قالت لنا.. «ثانك يو»[٣].. فالطقس معتدل
«نوكولد»[٤].. «نوهوت»[٥].. فيفتي[٦].. غير منقود

أما العيال فشقر كلهم.. وأنا
«أوف كورس»[٧].. شقراء.. من رجلي إلى إيدي

فقلت.. شوفي هداك اللّه إن لنا
ديناً هو الحق.. والإسلام.. يا رودي

ما فرَّق الدين بين الناس أسودهم
كحلي.. وأبيضهم كالفل في العود

ما الفرق يا ست عيني.. يا مدامتنا
بين المواليد.. مولود.. ومولود؟

ولو نظرت إلينا.. في مساجدنا
لشفت جمعاً كله دا.. غير معدود

الأحمر الأسمر الكحلي جاوره
الأبيضاني.. بها.. من كل أملود

(١) سعودي.
(٢) الشيخ عبودي.
(٣) شكراً بالإنكليزية.
(٤) (٥) لا بارد ولا حار.
(٦) ٥٠.
(٧) طبعاً.

لا فــرق بــيــن بــرنــس[١] فــي عــبــاءتــه
أو بــيــن راعٍ وســيــرفــنــت[٢] وذي نــيــدى[٣]
قــودبــاي.. قــودبــاي.. إنــي راحــل لــغــدي
إلــى بــلاد بــلا عــبــد.. ولا ســيــد!!

والقصيدة في طولها المفرط ترسم صوراً عديدة لحالات العار الإنساني في هذا العصر.. وتجلو بجانب ذلك مزايا الإسلام.. وسجايا الطبع العربي المهضوم الحق.. فليرجع إليها في المركاز من شاء على أسلوب المحققين المتبع..

ولقد اختتم بعضنا الحديث بالإشارة إلى ضعف الاعتبار القائمة عليه فكرة التعصب اللوني.. أو العنصري.. مفلسفاً الأمر بنظريته القائمة هي أيضاًعلى التجربة.. وموجزاً إياها في قوله.. إني ألاحظ دائماً تطبيق الشطر الشعري القائل..

وبضدها تتمايز الأشياء..

والضد يظهر حسنه الضد.. في مجال الحياة.. فالأبيض يميل غريزياً للون المضاد للونه.. والطويل للقصيرة.. والنحيف للسمينة.. والناري المزاج للبارد.. وهكذا.. فلماذا لا تخلص المسألة أدبياً بإشاعة.. السلطة ـ بفتح اللام ـ بين الناس فيخلصون ونخلص من وجع القلب والدماغ وإزهاق الأرواح وإسالة الدماء.. وأخيراً من حالة حرماننا

---

(١) أمير.
(٢) خادم.
(٣) محتاج.

من رؤية بطل ملاكم.. وإن كنت أكره الملاكمة.. مثل الأخ محمد علي كلاي.. على الحلبة لا فرق فوقها بين أبيض وأسود.. أو بين زنجي وأمريكي.. أو أوروبي؟

فقلنا له.. إن للحياة منطقها.. منطق القوة والواقع.. لا منطق الشعر.. في خيال الشعراء أمثالك وأمثال ذلك «العبد» لله!!

* * *

ـ ٦١ ـ

استيقظت اليوم.. ونفسي مقبوضة لسبب لا أدريه.. فكأن على قلبي عفريتاً.. كما نقول!.

وعلى هذا.. فقد وصلت.. وجلست بالمكتب الذي أمارس فيه المشغلة بدون شغل حيث أسمي عملي غير الفني دائماً.. لعدم قدرتي على اصطياد الزبائن.. أو على الأدق لعدم قبول الزبائن فكرة، إن من الممكن أن أكون من رجال الأعمال كأنما لأولئك سحنات خاصة بهم ومميزات لا تتوافر لمن هم على شاكلتي تحقيقاً للشطر التاريخي:

لا يجمع الله بين الشعر والمال[1]!

والمهم.. إنني لم أكد استقر على الكرسي.. وهو دوّار بحكم الصنعة.. حتى قال قلبي الذي عليه عفريت.. دن! دن دن!.. ولم ينته قلبي من هذه الدندنة حتى أقبل.. هامة.. وقامة.. وهو يقول إنه جاء يسلم عليَّ فقط لا غير.. زيادة.. لأنني أوحشته.. ولكن لم يطل بنا نفس الحديث حتى باح بسر مجيئه.. فقد أنكفأ عليَّ ونهنه فوق صدري باكياً.. وهو يقول.. إنهم سوف يحيلونني على المعاش.. ولقد جئت

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٨هـ ـ ١٩٦٧/٩/١٢م.

(١) صدر البيت: هوّن عليك وجفف دمعك الغالي.

إليك أطلب وساطتك لدى صديقك المسؤول لتمديد الخدمة.. إنهم يا سيدي يصدقون ورقة التابعية.. الورقة التي لا تودي ولا تجيب.. والتي أنت من أدرى الناس بكيفية إخراجنا لها قديماً حين كان يحلو لنا أن نزيد في أعمارنا.. وإنهم بذلك يكذبون منظري وينكرون خبرتي.. ويتجاهلون تجاربي.. وينسون بإصرار أنهم في بعض المستويات لا يزالون يبقون على من هم أسن مني بكثير.. ولا يستمعون لاحتجاجي الدائم.. أنا.. أنا النشيط المتفاني.. لا تغرك النظارة فإنها للبعد.. ولا تحسب حساب التركيبة فإنها لحماية المعدة فإن السبب الرئيسي في مرض المعدة هو فساد الأسنان ولا بد أنك قرأت عن العلة الوثيقة بين الإنسان وبين عديد من الأمراض..

أما الروماتيزم.. وأما الكرش.. فإنهم هم السبب فيهما.. فلقد حرموني رسمياً من المشي.. وذلك بالإصرار على استعمال السيارة.

* * *

ـ ٦٢ ـ

قادتني اليوم قدماي في إحدى مشياتي السبهللا.. ودون إنذار سابق.. إلى أحد الأسواق الشعبية القديمة والمجاورة لبيتنا القديم. كذلك وما إن أخذت أدرس الملامح الجديدة التي غلبت على كل الحي هناك.. حتى شكرت لغريزتي دوافعها المستورة.. إذ تبينت أنني إنما وصلت حيث أنا لأطمئن. باسم الوفاء.. على وجود العم فلان.. أحسن من كان يعمل الفول في جرته الناصعة.. ونحن شبان!

وتلفت.. لعلّي أعثر عليه.. فإنني لا أعرف الآن أين هو بالضبط.. وأمام مطعم أنيق وعصري من الطراز الممتاز.. لمحته.. جالساً.. فأقبلت عليه بلهفة.. وقد ظننته زبوناً فحييته بتحفظ لاختلاف سحنته وهندامه حتى خشيت أن يكون توأماً لا أعرفه لمن كنت أعرفه.

وربما اختلفت أنا كذلك اختلافاً كبيراً عليه. ولكنا بعد التحية المعتادة لم نكد نستعيد الماضي كله.. حتى أخذ كل منا يشمشم رفيقه.. ويتنشق من أطرافه عرف الأيام البعيدة.. وللأيام رائحة يعرفها ويذوب فيها ذكريات.. ورائي.. وأحاسيس من أخلص للأيام مرّها وحلوها باعتبارها أجزاء حية من عمره ـ لا أرقاماً جامدة.. أو مسميات من شهور وأعوام تحددها نتائج الحوائط الورقية.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٩هـ ـ ١٩٦٧/٩/١٣م.

ولقد كدت أطير فرحاً حينما علمت من العم فلان إن هذا المطعم الذي يعتبر آخر صرخة فنية في مثل هذا الحي الشعبي مطعمه. . وإن القائمين على شئونه هما ولداه. . فلان. فلان. ويحمل أحدهما شهادة الإعدادية. وثانيهما في نهاية الثانوية العامة. . وقد تقاسما العمل بالمطعم بشقيه. . الخدمة بأنواعها. . والحساب بقيوده.

فقلت له: ضمن ما قلت. . أكثر الله من أمثالك المتطورين. . ومن أمثال ولديك المنفذين لمثلنا البلدي القائل ـ صنعة أبوك لا يغلبوك ـ فضحك وأجاب أن التطور هو قانون الحياة. . وواجب البلد. . على أنني لا أنكر أن للمزاحمة الأجنبية من الوافدين من إخواننا علينا أثرها غير المنكور في هذا التبديل.

ولإدخال السرور على نفسك المتعصبة لبلديتها أخبرك أن الولدين قررا العمل باستمرار في المطعم مع الاستمرار على دراستهما من منازلهم. . كما يعبرون عن الدراسة الحرة. . في سبيل مستقبل أفضل لهما حسبما يريان في حينه. .

وعندما أخبرته إنما جئت هنا خضوعاً لطريقتي السبهللا في المشي أحياناً لغير هدف محدد مرسوم. . وإنني مسرور جداً بهذا اللقاء غير المرتب. وربما كان الاطمئنان على وجوده هو الدافع الخفي على ذلك. . باعتباره لاقطاً ريحة من روائح الأيام الماضية. . تأثر الرجل كثيراً وأعاد الشمشمة لأطرافي كما فعلت معه نفس الشيء.

واندفاعاً مع الفرحة الغامرة عرضت عليه عقد اتفاق يقضي بتقديم فوله يومياً إلينا على شرط أتعشم أن يحققه كي يكون قدوة فيه لغيره. . فقال وما هو هذا الشرط المقبول سلف. . قلت. . إيصال الطلبات إلى

المنازل لاتساع العمران.. لي ولسواي من الزبائن الذين سأبشر عنك لديهم قال: غالي وطلب رخيص.. إنني وولداي بسبيل تطبيق هذا المشروع بعد دراسته التي أوشكت على الانتهاء.. فسردت له بعد إعطائه عنوان بيتنا.. عناوين بيوت بعض الأصدقاء.

وعدنا إلى الشمشمة من جديد.. لروائح الماضي.. وعرفني بولديه اللذين أكدا لي حبهما واحترامهما لي.. ولمثلنا القائل صنعة أبوك.. لا يغلبوك!!

* * *

ـ ٦٣ ـ

حدثني أحدهم اليوم حديثاً طال.. حتى لقد راودتني نفسي مراراً أن أقطع حباله حرصاً على مزاج صفة المتواضع الطبيعي.. وخشية من ركوب جني الغرور على متن أكتافي كما يقول أصحاب المتون..

وخلاصة الحديث تدور عن قائل هذا الكلام.. فقد سألني: لماذا أتحرى أن أسجل خواطري المبثوثة هنا وهناك.. وأفكاري المنثورة المقروءة أو غير المقروءة.. باللهجة القريبة من العامية.. أو من لهجة الحديث الدارج.. في مجموعها؟! وذلك في الوقت الذي يعرف فيه أنني أجيد الفصحى إجادة تامة ممتازة.. كما يدل على ذلك شعري العربي الفصيح.. ومقالاتي السابقة.. واللاحقة إن شاء الله؟!

وصاحبي هذا.. صاحب الحديث.. من المستظرفين للأسلوب بل ومن المعجبين به كما ورد ذلك على لسانه وعلى عهدته.. ولكنه يريدني أن أكون غير ما أنا كائن إرضاء لتعصبه الشديد للفصحى.. لا لشيء إلا لأنها.. أكمل في اعتباره وأخلد!

فأجبته: لقد أخجلتم تواضعنا أولاً.. دون مبرر ودون لازم للأثقال

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/١٠هـ ـ ١٩٦٧/٩/١٤م.

على نفوس من سننقل لهم حديثك هذا. بحكم ثرثرتنا المعتادة. وثانياً وللتخفيف عليهم وعليك فإنني أجد أن أسرد عليك بالأسلوب التلغرافي بنص ما يرد عفواً وبسهولة على اللسان من مركز الإرسال:

ـ إنني من أكبر المتعصبين للفصحى والغيورين عليها.

ـ وأنا من عشاق البيان ذي المعنى.

ـ وكنت أحد الحفظة لبعض دواوين الشعراء القدامى والمحدثين من الجلدة للجلدة.

ـ ولكنني يا صاح.. بالترخيم.. وهو مستحسن أحياناً. أصبحت في الخط الآتي:

ـ إنني أجد أن أداعب الموضوع أسمى.. بالكلمة الحية بقدر الإمكان.

ـ أرى أن يسعى الموضوع ماشياً على قدميه للقارئ أو للسامع بدل أن ينصب كلاهما بالسعي المضني إليه.. وفي ذلك تخفيف ورحمة على الأكثرية الساحقة.

ـ وفي بعض المجالات.. لا كلها.. أفضل الأخذ بالأثر.. خاطبوا الناس على قدر عقولهم.

ـ استحسن المراعاة بقدر الإمكان للتوزيع العادل بين أصناف الكتاب والشعراء تمشياً مع العجز القائل.. للتين قوم وللجميز أقوام.

ـ استسخف جداً من يقول بأن المستعمل بعض الألفاظ العامِّية إنما هو من القطيع الأحمر.. لأنني من الأعداء الألداء لهذا اللون ولأتباعه!

وقفلت الحديث مع صاحبي هذا.. بالترخيم.. برواية القائل لابن

الرومي لم لا تستعمل في شعرك ما يستعمله ابن المعتز في مثل قوله يصف البدر.

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فأجابه: إنه إنما يستعمل آنية بيته!

وللعلم الكريم.. فقد كان حديثي مع أخينا هذا كعادتي باللغة الفصحى لا ينقصها التجويد ولا تضيق بها المخارج الواسعة مع احتفاظها بأدب السلوك.. في رنين.. وتلحين يبلغان حد التطريب بنغم الموشحات الأندلسية الفصيحة..

طبعاً!!

* * *

ـ ٦٤ ـ

لقد اجتمعت اليوم.. مصادفة.. حيث أقيم الآن.. ببعض المواطنين وفرحت بهذا الاجتماع فرحاً يؤكد صدق ما قاله أمير شعرائنا الجاهليين العم امرؤ القيس.. وكل غريب للغريب نسيب..

ودار الحديث هادئاً ومرتباً ـ حسب المألوف.. وبلهجتنا المألوفة عن الحياة.. وعن اختلاف تكاليفها المادية في بلد عن بلد آخر.. وانصبت الشكوى من الغلاء الفاحش في هذا البلد العربي ومقارنة التكاليف فيه مرتفعة مثله بأوروبا.. أو منخفضة عنه بمراحل ببلد عربي آخر.

وتنوّعت وجهات النظر في الأمر.. إلا أنها كادت تجمع في مجموعها مقرراً بالأسلوب التقريري في الآتي:

أولاً ـ لقد درج مواطنونا على أن يعيشوا حيث كانوا. بأسلوبهم الذي لا يتغير.. صرفاً لا يقوم على برنامج مدروس الأرقام..

ثانياً ـ صعوبة أقلمتهم.. مهما كانت الظروف.. بروح البلد الذي ينتقلون إليه لأمد قصير.. أو طويل..

ثالثاً ـ وإن من حق كل مجاز.. أو مسافر في رحلة ترفيهية أن

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/١٢هـ ١٩٦٧/٩/١٦م.

يعطي واجب الكفاية حقه من «البحبحة» المستحبة..

رابعاً ـ وأنه قد آن لنا أن ننظر إلى كلمة «ميزانية» نظرة جدية.. وجديدة.. فإن في مفهومها التطبيقي صمام الأمان.. وحفظ الكيان.

ولقد تعددت الأمثلة الفردية من كل مدلٍ بدلوه في الحديث عن حالات السكن والمواصلات وما يلحقهما من بنود الحياة اليومية.. وتطرق البحث بحكم صلة القرابة الوثيقة بينه وبيني الجيب.. إلى ذكر المثل القائل: أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب.. وهنا سرد أحدهم تجربة شخصية عاناها بنفسه.. وتقول:

درجت في حياتي على أن أصرف على نفسي وأهلي ما يصل إلى يدي الكريمة.. دون ألتفات أو علم بأن هناك طريقة أخرى تقابل طريقتي التي هي طريقة البلد التي نشأنا ودرجنا عليها وصادف إن كان لي صديق من محبي الأرقام ونتائجها.. وقد أحب بدافع من حبه إياي أن يلفت نظري إلى الطريقة الخاطئة التي أسير عليها.. وإنه يجب علي أن أقيد في دفتر صغير واردي ـ كأصل ـ ون أدوّن منصرفاتي بدقة.. حتى لا أؤخذ على غرة آخر الشهر من حيث المبدأ أولاً.. وحتى أستطيع ثانياً أن أتوفق لخير الطرق للتوفير وللضبط.. عملاً بالحكمة القائلة بأن القرش الأبيض لليوم الأسود.. وقد صوّر لي فعلاً هذا اليوم الأسود من خلال رسم كروكي بالأرقام للوارد والمنصرف صورة كريهة.. مفزعة.. حتى أقنعني تماماً بوجوب العدول عن أسلوبي القديم لأسلوبه الجديد.. ومضى أمد طويل وأنا في هلوسة حسابية.. ومضاجعة ليلية للأرقام في دفتري الصغير الخاص.. حتى لقد نشأت صداقات.. وبرزت عداوات.. لبعض الأرقام في خانات العشرات.. والمئات..

وتصوّر ماذا كانت النتيجة بعد بضعة أشهر؟.. لقد تحدد الأصل فعلاً بأصله الطيب.. واختفت بعض الحسابات الخفية والتي لا أدري كيف كانت تصل إليَّ.. وثبت المنصرف على حاله.. بل تعداه تحت اسم بند جديد أسميته.. عموميات.. وباختصار فقد اقتصر الأمر على ما في الجيب.. فقط لا غير زيادة. ولم يأتني ما في الغيب رغم حرارة الانتظار.. ومرارته..

وضقت أخيراً بما أن فيه من كرب.. وكنت قد عرفت الدين لأول مرة تحت خانة.. ذمامات.. وفي يوم صاخب قابلت فيه صديقي الحسيب.. صاحب المشورة.. وابتدأ هو يشكو لي سوء الحال.. فلم أدعه يكمل ما بدا يسهب في شرحه حتى أخرجت دفتري الصغير الخاص ومزقته إرباً.. إرباً.. وقذفت به في وجهه.. منذراً إياه.. بأنني عائد.. إلى عوائدي.. غير محدد الرزق برقم وقيد ودفتر منحوس..

وضحكنا باعتبار الرواية مبرراً كاذباً لما نحن فيه!! ووارثه..

* * *

ـ ٦٥ ـ

قابلني اليوم في مكتب خطوطنا الجوية السعودية.. صديق كريم.. تفضل إثباتاً لكرمه بأن طبع على خدي الشائك لمقاطعتي أياماً لشفرة جيليت.. قبلة.. أعتقد أنه أحس بوخز في شفتيه منها عقاباً له على تسرعه العاطفي غير البصير.. وقال إنه إنما يفعل هذه الفعلة الفاضحة شرعاً أمام الناس.. إعجاباً بما قرأه في يوم.. ورا.. يوم.. عن الفوطة!..

واستقر جالساً على كرسيه.. بعد استقرارنا نحن الذين كنا وقوفاً نمارس حالة السلام عليه.. والترحيب بمقدمه .. طازجاً من جدة.. متابعين الأسئلة كالعادة عن الجو بها.. وفي مكة.. وبالرياض.. وعن الأحوال الخاص منها والعام في الحدود المرسومة لا جديد فيها إلاّ الالتزام بها كحالة تعبيرية تقليدية عما يجب أن يقال في مثل هذا المجال.. مما لا يتعدى المناخ.. والطقس.. والوفيات.

ولكنه أهمل في إصرار عنيد كل ذلك.. وتشبث بقصر الحديث عن موضوع.. الفوطه.. ومدى الإخلاص لها من أمثالنا القدامى لا يعدلون بها.. في مباذلهم البيتية لباساً يرتاحون إليه.. وفيه.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣/٦/١٣٨٧هـ ١٧/٩/ ١٩٦٧م.

وقد استعرضنا تاريخ.. الفوطه.. في بلادنا.. زياً أندنوسي الأصل ـ أو على حد تعبيرنا الذاتي ـ جاوياً.. متنوّع الأصناف من السمرندة.. إلى الفليكت.. إلى ما عداهما.. وكيف أننا بالعادة وبغلبة الاستعمال المستقل الشخصية.. قد أحلنا الفوطه في الحجاز.. وبالأخص بمكة.. وفي جدة.. والمدينة.. إلى لباس بلدي أهلي كجزء من تقليدنا البيتي التليد.

وكيف كان التفاخر في الماضي بالنوع الممتاز من الفوط.. والسمرندا منها بالذات موضع تنافس.. وزهو.. واعتداد.. وإن منها.. وقد يلوح أنه مندرج في باب المبالغة.. ما يمكنك أن تسلكه في الخاتم ليمر منه كأنه خيط حريري رفيع.. وإن منها ما يمكنك جمعه في قبضة اليد السخية طبعاً.. وإن منها ما يعيش السنوات الطوال العديدة ولا يبلغ منه كر الجديدين.. بل إنما يزيده على الأيام رونقاً وبهاء..

ووصلنا إلى ما وصل إليه تاريخ.. الفوطه.. في بلادنا.. إهمالاً شنيعاً من الجيل الجديد.. وسطوة عليه من الدخيل التقليد.. وانقطاعاً يكاد يكون تاماً عن وروده من مسقط وسطه.. لا رأسه بالطبع.

وذكر الصديق الكريم تعزيزاً لموقفي من الفوطة.. أعزه الله.. إنه يلبسهما في أوروبا.. وبأرقى الفنادق.. وتطرف على سبيل المداعبة.. فسرد بعض الفصول التي لاقاها من خدم الأوتيلات من الجنسين على السواء.. وعدم تصديقهما أن هذه الجونلا.. يمكن أن تكون لباس.. رجال..

وختاماً وقصراً للحديث عن الفوطة وعن تاريخها الملتصق بتاريخنا البيتي التصاقاً بنصفنا التحتي. والحديث طويل ومتشعب في هذا الباب..

فقد سردت له وللحاضرين ـ بطلب كالعادة.. زجلاً خاصاً بها ومصوّراً لحالة أحد أبنائنا من أبناء الجيل الحديث يصوّر كيف أنه أخطأ حين طلبت أمه منه إحضار الفوطة لأبيه.. فأحضر له المنشفة.. باعتبار مسماها المصري حيث كان يدرس هناك.. وقد نشر بجريدة عكاظ في حينه تحت توقيع. مودرن..

ومن القناديل القديمة.. اقتصرت على ما يخص الفوطة من حلمنتيشية تقول أبياتها في سبيل المقارنة بينها.. وبين البيجاما.. والزي البيتي المودرن لآن.. وبعد تحوير مرتجل اقتضاه الموقف:

وتبيجمت بعدما قد تفوطت   وليس التبجيم كالتفويط
رب بيجامة تقرطس فيها المرء   حراً في الجري والتنطيط
قد لهتني عن فوطتي ذات يوم   وحمتني من حالة التشبيط
بيد أني بفوطتي طول عمري   عشت عمري في خير طاط وطيطي
أنا منها.. كالموز لباً.. بقشر   أنا فيها.. كلفَّة القرنبيط!

* * *

ـ ٦٦ ـ

تستطيع الزوجة أن تجعل البيت جحيماً لا يطاق.. والعياذ بالله.. كما تستطيع أن تجعله جنة وارفة الظلال.. ولقد اضطررت اليوم لأشاهد نمطاً من النوع الأول.. حيث دعيت بحكم الجوار والقرابة لأن أكون مطفئ حريقة مؤقتة.. وصانع سلام قصير الأجل بين زوجين عشيري عمر.. أو أن أكون شاهد نعش.. وحامل جنازة.. إن تعذر ذلك!

والموضوع.. مدار الخصام.. تافه الأسباب في ذاته الرئيسية في نظر النصف الخشن.. ولكنه عصب الحياة اليومية في نظر النصف الناعم.. ومع هذا الاعتبار وذلك فإن دوام النز الذي لا ينقطع.. والفر المتواصل جعله مشكلة نابتة أدت يومياً إلى تطاير الشرر حتى بلغ درجة الحريق العاصف بكل شيء.. في يومهما هذا..

ولقد وصلت جملة أبغض الحلال إلى الله.. إلى طرطوفة لسان الزوج الذي كان لا يفتأ يكرر.. يا ستي قلت لك ألف مرة.. ومرة.. إنني ما لقيت الخدامة وحيث.. وحيث.. ودورت.. ودورت.. ودورت.. ودورت ـ ولكن بلا فائدة ـ ما فش.. ما فش.. حتى الصنف أبو المية والخمسين والثلثماية معدوم هادي الأيام.. و.. و..!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/١٤هـ ـ ١٩٦٧/٩/١٨م.

ودخلت عليهما.. في وقتي.. فقد بلغ الزوج بقدرة قادر.. وبدخولي تلك الجملة البغيضة.. وجرى ناحيتي مستشهداً بي على صحة كل ما قال متصلاً بشؤون الخدامات والخدامين.. فهززت رأسي وأطراف أكتافي بحركات لا تحمل معنى التأييد له.. أو الإنكار لما قال.. وبذلك كسبت ربع الجولة الأولى.

وبعد أن طلبت أن يكون اجتماعنا الثلاثي حول براد متقون من الشاي من صنع أيدينا نحن الثلاثة.. عقدنا جلستنا للمناقشة الهادئة في الموضوع.. وقد تقدمت متطوعاً بمشروع مبوّب ينص مع ديباجته على الآتي:

أ ـ أزمة الصنف العامل بالمنازل بجنسيه أزمة تكاد تكون عالمية.. حتى لقد استطاعت بعض البلدان التغلب عليها بالأزرار الكهربائية.. أو بالإنسان الرابورطي.. كما استعانت عليها بلاد أخرى بتقسيم شغل البيت مناصفة بين الزوج والزوجة.. فرأينا رجالاً يحملون.. المريلة.. ويقومون بتنظيف الصحون والقدور في المطابخ.. وهم يهزجون بآخر أغنية تلفزيونية!

ب ـ في باديتنا أعداد هائلة متعطلة بحياتها التي ليس لها فيها إلا نصيب.. الوجود.. الرقمي.. ولكنها بالعنعنات الموروثة.. والخنزوانية التقليدية تستنكف الخدمة.. تحقيقاً للمثل الشائع.. الفقر فقر زيلع.. والتيه تيه قريش!

ج ـ لقد كنت شخصياً.. على طريقة شخص معروف بأولياته.. أول المطالبين من حوالى ربع قرن وأكثر لو راجعنا الحساب بدقة.. بعمل مكتب تخديم.. نثراً.. ونظماً.. حتى لقد شكاني بعضهم رسمياً لأنني

قلت:

العويلا عز الجواد عليهم بعد أن فك با ـ وبن ـ دكانه

وحتى أنني تلقيت في أيام سالفة عدة خطابات تتناول سنسفيل أجدادي وآبائي من الجيل الجديد من أبناء جبل الحجاز فيما لا يجوز النص عليه لأنني قلت في الموضوع:

غامدي مكحل ومحني حامل في يمينه خيزرانه!

دعى أبناء البادية جملة وتصيلاً:

والبداوين في الأزقة داروا كل شحط منهم يمد بنانه!

إلى آخر ما سال سمناً وعسلاً ـ في نظري الضعيف .. وسماً وقطراناً.. في نظر أولئك المحرفين الكلم عن مواضعه..

د ـ مما سلف ذكره ـ ومن واقعكما اليومي حول الخصام الأزلى بشأن الخدمة البيتية وأزمة الأيدي العاملة بقطاعها.. فإنني أقترح أن نقوم ثلاثتنا بعقد حلف منزلي يتصدى للدعاية للمشروع القديم إياه.. ولعمل قرار مبوّب في الموضوع لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل والعمال.. ولإصدار نشرات شفهية بتجييد الأعمال المنزلية إلى الأزواج القدامى والمحدثين دون تفرقة جنسية.. في الأعمال..

وأخيراً.. وحتى تجدوا الخادمة المطلوبة.. أو الخادم المضمون.. تقومان باشتراكي معكما بحكم الجوار والحاجة للمطالب البيتية اليومية.. الحي.. والقدوة النافعة بتوزيع الأدوار المنزلية علينا ثلاثتنا.. تحت عنوان.. الثلاثي العامل.

وقد تم التوقيع أدناه على ما تقرر أعلاه.. وتأجل إطلاق مدفع.. أبغض الحلال إلى الله.. بسبب عدم العثور على خادمة. إلى أجل غير مسمى!

* * *

ـ ٦٧ ـ

وخرجت اليوم نفسي من صدفتها.. وبالمناسبة فإنني أتخيل دائماً أن لنفس كل منا صدفتها المحاربة تقبع فيها كما يقبع أبو جلمبو ـ مثلاً ـ داخل محارته الصدفية لا يعلم ما في داخلها إلا هو وحده!..

وقد قالت لي.. في صوت غير مسموع إلا مني.. لقد عشت حياتك القديمة معي لا تكتم عني سراً، ولا تفعل إلا ما نحن متفقان متفاهمان عليه.. فأعطيتك حريتك التامة في أن تكون دائماً خارج الصدفة وحدك كما أنت داخلها.. تحيا بما لا تحيا بدونه.. وتقول ما تعتقد فعلاً أنه الحق باعتباره صادراً عن عقيدتك ذاتها..

ولقد ألفتك.. كما ألفك الناس.. كذلك.. فعشنا لا يفصل بيننا حاجز.. ولا يشوه صداقتنا المتينة خلاف أو انحراف.. فكنت كما أريدك.. وكما تريدني أنت.. أن تكون.. وأن أكون.

ولكنني.. من عهد غير بعيد.. في اكتشافي الجديد بك.. أرى أنك أخذت تسلك.. بعيداً عني.. طريقاً مغايراً لما كنت عليه.. فإنني ألاحظ أحياناً أنك تساير محدثك على ما لم تؤمن به.. بل وتذهب ـ

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/١٥هـ ـ ١٩٦٧/٩/١٩م.

نفاقاً ـ إلى آخر الشوط مزكياً ما يقوله وما لا تؤمن به معي.. بأدلة قوية من لديك تؤكد بها وتؤيد مذهبه المغير تماماً لمذهبك المعروف مني!

كما بت ألاحظ عليك أنك لم تعد ثابتاً كما كنت على آرائك التي بنيناها معاً على أساس من التجربة واليقين والميل الطبيعي إليها.. فقد طرأ نوع من الذبذبة عليك نحوها.. بل لقد عصفت عصفاً كاملاً ببعضها.. حيث أصبحت تدين ببعض الآرء المناقضة تماماً لآرائك الأصيلة الأولى!..

كما أنني أمسيت أنكر منك أنك لم تعد كعادتك القديمة.. تأخذ وتعطي معي فيما يهمنا الأخذ والعطاء فيه.. فقد كثرت مصادقتك لجسدك الصدفي هذا بداعي الخوف عليه.. فلم تعد تجرؤ على الجهر بما تؤمن به.. ولا على التشبث اللازب بالحرية المقدسة لمعتقداتك المقدسة.. باسم التقية التي صار لها المقام الأول لديك.. تتشكل باللون المؤمن لجانب السلامة.. والاطمئنان..

ولقد سمعت همساً طويلاً حولك.. وفي خلوتي بعيدة في الأيام الأخيرة عنك.. همساً يقول في جملته.. إنك لم تعد كما كنت.. فربما قضى لك البعض بالمعذرة.. لا تعدم المبرر والتسويغ.. ولكن الأغلبية تنقم عليك ما أنت فيه.. وما قد آل إليه حالك الحديث..

وأصغيت إلى نفسي خرجت اليوم عن الصدفة التي تلمنا سوية.. لا يسمع كلامها القاسي سواي.. فقلت لها في سفسطة ملتوية لا يهمها إلا تبرير المنكر منها في شخصي:

ـ يقول بعض المفكرين أن علينا دائماً أن نغير آرائنا وأفكارنا بنفس الطريقة التي نبدل بها ملابسنا.. كلما اتسخت.. أو كلما شعرنا بحاجة

إلى تبديلها بسواها.. وهذا دليل التطور.. والحياة!

ـ لم أعد احتمل أن أتحدث مع سواي بلغة انقرض أداؤها ومفهومها كلياً.. على وجه التقريب.. بل لم أعد أجد من يفهم تلك اللغة.

ـ لقد أصبح من الشائع أن يكون لكل إنسان خارج الصدفة الزي السائد اليوم بين الناس.. وأنا منهم مهما كابرت..

* * *

ـ ٦٨ ـ

كان يومي هذا شاعراً.. حيث صحوت على المناظر الساحرة.. ينطق بها الإصباح الجميل في الوادي.. وبالجبل.. وفي الأغوار.. خضرة ممتدة.. وأشجاراً يانعة.. ووروداً وزهوراً متفتحة مبتسمة.. ترقرق بينها الماء باعث الحياة.. في كل شيء.. حتى في قلب الصخور.

وتذكرت زيارتي الأولى لهذا الجبل.. حيث هزتني مع الحنين لبلدي في يوم كهذا ومن سنوات طويلة.. نفس المناظر.. بالإضافة إلى أنني كنت يومها مع رفقة من إخوان لي نقطع المسافة بسيارتنا إلى مقيال مرتب.. وكان الرذاذ المتقطع رفيق رحلتنا تلك.. فقلت في مدى قصير متناسب والاهتزازة الشعرية والاستجابة لها قصيدة كان عنوانها.. بلد الهوى.. ومما جاء فيها:

لبنان.. يا بلد الهوى.. وهوى الفؤاد

يا باعثاً شتى فنون السحر ليس لها نفاد

يا وقدة الفن المضيء.. وثورة الفن المجاد

يا بسمة بفم الطبيعة.. للطبيعة خير زاد

يا وردة بيد الزمان لها الزمان شدا وشاد

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/١٦هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢٠م.

ومنها:

هذا هواي مفلح الأطراف.. رقرقه النسيم

هامت به الأطياف صورت الجديد أخا القديم

ما بين ناقلة صدى (صنين) والجبل العظيم

أو بين جالية المشاعر (بالصفا) أو بالحطيم

وصدى به أمد (ورضوى) ردداه فلن يهيم

ورؤى تطوف.. هنا هناك منتشرات كالغيوم

يبدو بها وادي الحرير كأنه وادي الجموم

وكان (عاليه).. (السلامة) في الكرامة والكروم

وكأن ظهر البيدر المرموق مثل كرى القويم

وكأنما الشاغور من سيل العقيق صدى الهزيم

وكأن بيروتاً.. لجدة.. لمحة الذهن الهزيم

والقصيدة طويلة ومتنوعة الصور.. والمشاعر.. وإن كانت في ميلادها بنت ساعتها.. لم تمر بأدوار الحمل وتوابعه المعتادة..

والمهم في يومي هذا.. ومع تذكري الزيارة الأولى لهذا الجبل.. وقصيدتي تلك.. المهم إنني اليوم تمتعت وارتويت بهذه المناظر.. ولكنني وبمقدار المتعة والارتواء أحسست باطراد الاسترخاء الجسدي بل والذهني.. دون انبثاق الذبذبات الشعورية التي يفترض حدوثها.. نتيجة مقررة في مفهوم وعرف الكثيرين القائلين باستيحاء الشعر من أمثال هذه المناظر.. قطعاً.. وطبعاً.. بالتأكيد.

وبذلك اطمأننت إلى صحة مفهومي الخاص بأن إيجابية الشعور الداخلية كحالة نفسية لا ترتبط إطلاقاً بالمناظر الخارجية المجردة بمقدار ارتباطها بالانفعال فيها.. مهما كان المنظر أو الجو المادي المقفر أو المحروم من الهياكل الجمالية.

ولهذا.. تطرفت مرة.. فقررت أنه ربما كان الحرمان ذاته وبكل معانيه المهماز الأقوى.. في تحريك دوافع التجربة أو الاستجابة الشعورية.

وكعزاء لحالة الجمود أمام ما رأيت اليوم.. فقد أسميت ما أراه وما أعيشه.. وصفاً لحالتي بأنني أعيش الشعر الحي نفسه.. لا الشعر المكتوب.

وعدت إلى بيت يتيم كنت قلته في يوم مشابه لهذا اليوم.. بل لقد كان أحفل بما ضم.. وجمع من شتيت المفاتن والمناظر.. ويقول:

عشنا هنا الشعر حياً لا نمارسه على الطروس.. ولكن في وداعية

* * *

ـ ٦٩ ـ

في هذا اليوم دعونا.. حيث ننزل ونقيم الصيف.. بعض المعارف من هذا البلد الذي نحن فيه.. إلى أكلة من أكلاتنا الشعبية التي تقوم مادتها الأساسية على السمك أو على نوع ممتاز منه على الأصح.. يتبعه كمكمل إضافي خشية العيب.. وإظهاراً للفنجرة.. لحم ضأن مربرب..

ويبدو لي أن الدافع لنا على اختيار هذه الأكلة الشعبية الدسمة وعلى دعوتنا هؤلاء الأغراب المعارف لتناولها كان الدافع الوطني لإظهار مبلغ اعتزازنا بلذة أكلاتنا.. وأن لنا مثل بقية الناس من أمم الأرض أصنافاً من الأطعمة خاصة بنا.. وذلك هو الحافز المستور.. وإن كان الغرض الظاهر هو رد الدعوة لهم على عزومتهم لنا قبل أيام على أكلة شعبية خاصة بهم.. ويعتبرونها مصدر اعتزاز كبير..

ولقد اجتهدت ربات البيت في الضبط والإتقان والتفنن في الطهي ذاته وفي تنوع الأطباق.. وحضرت العائلة المدعوة ـ ودارت بحكم العادة.. كما تدور كؤوس المرطبات.. عبارات الاستحسان والمجاملة والمدح المتطرف من جانب المعزومين لأكلتنا الشعبية ولذتها..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٧هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢١م.

بل.. وزيادة في إظهار الإعجاب.. فقد أخذت السيدات المدعوات يستفسرن عن الطريقة التي يتم بها صنع كل طبق.. وعن المقادير والنسب التي تلزم من كل مادة لصنعه ـ وتولت السيدة الأولى شرح ما يلزم في فرح مشوب بإسهاب ودقة علمية مما يرشحها لوضع كتاب مستقبلاً.. في الموضوع.

وقمنا معها.. مساندة للشرح من جانب.. ولعبارات الإطراء المتواترة بالإجابات المناسبة عليها.. على طريقة أجوبة المجسات.. ولكن في تواضع يصل إلى حد نفي المقدرة أو التفوق.. وعدم استحقاق الموضوع لكل ما قوبل به من تهليل وامتداح..

وإلى هنا ـ والأمر عادي جداً ـ يحصل في أكبر العوائل ـ كما يقولون.. ولكن الطريف الذي حدث أن أحد المدعوين.. وهو ممن ينتمون إلى قائمة الأطباء.. حين أخذت أتحادث معه بعد انتهاء تناول الطعام في ود صريح.. وفي صراحة ودودة.. فاجأني بقوله إن مثل هذه الأطعمة الدسمة رغم لذتها التي لا تنكر الخطر على صحتكم بما تحويه من أسمان.. وزيوت.. وأبازير.. و.. و.. إلى آخر ما تشتمل عليه أكلاتنا.. وما هو معتاد منا.. وأضاف وبالأخص وأن بلادكم من البلاد الحارة.. لا الباردة مثل بلادنا..

ومع تسليمي العقلي بالصواب كله أو بعضه فيما قال.. إلا أن النعرة البلدية إياها جعلتني أناقشه موضوعياً في نشوء فن الطعام وتطوره عالمياً.. وفي البواعث والمسببات المناخية والاجتماعية لتشكيل كل بلد كيانها الغذائي حسب مقتضياتها.

وتدرجت إلى أن هناك ظاهرة غريبة في الموضوع ذاته تدحض قوام

ما أشار إليه محدثي الطبيب.. وهي أن بعض الجاليات لدينا وبلادهم الأصلية أشد حرارة من بلادنا تعود أفرادها على تناول ما لا نستطيع نحن هضمه.. وإن صحتهم تفوق المعدل العالي بيننا.. بل وبين أفراد بلادكم.. بعشرات المرات..

ولإضفاء الروح الأدبية عن البحث ذكرت له أن هناك مثلاً شعبياً متداولاً لدينا يقول.. ولف الجساد بما تعتاد.. ومن هنا يمكن كذلك هضم فكرة ما سمعته مرة من أن الإنسان إذا تعود على تناول السم نفسه بنسبة جزئية فإنه لا يؤثر عليه بمرور الأيام.. وسألته رأيه في جواز صحة المسموع من عدم ذلك؟..

ولقد أطرق الطبيب هنيهة.. ثم هزهز رأسه يميناً وشمالاً على طريقة الموحومين في حلقات الذكر البائدة.. ولكنه ثبت نظراته أخيراً واستعاد المثل الشعبي لحفظه.. فأجبته إنه يقول.. ولف الأجساد بما تعتاد؟؟..

* * *

ـ ٧٠ ـ

صحوت اليوم.. وليست في رأسي أية فكرة عن نوع العمل الذي يجب أن أمارسه فيه.. إذ لم يكن في مخططي اليومي أي برنامج أسير بموجبه.. وأنا أعرف بالتجربة الذاتية أولاً.. ومن خلال الممارسات العامة المسموعة والمنقولة ثانياً.. عن أي إجراء غير مخطط له من قبل مكتوب عليه الفشل والخيبة معاً.. حتى المشي المطلق دون غاية.. ونسميه بالفصحى سبهللا.. أي الذهاب والمجيء في غير شيء.. لا بد أن يكون لغاية ولو كانت هذه الغاية من السبهللا الرياضة مثلاً فإن المشي باسم الرياضة هدف مقصود!

وبحكم العادة.. فقد أفطرت.. وتهيأت للخروج من الدار.. ولعدم وجود أية خطة مرسومة لنهاري هذا.. فقد رأيت على طريقة صديقي المرحوم الشاعر ابن الرومي أن آخذ حسابي قبل مغادرة البيت تفاؤلاً أو تشاؤماً حتى أسير على بصيرة من أمري بموجب ما يقول به الفأل الحسن أو السيء.. حتى لو اقتضى الأمر العدول عن الخروج..

فلقد كان الفقيد إذا وقع نظره على منظر كريه.. أو سمع كلمة ذات مدلول كئيب عدل عن تخطي العتبة وأقام نهاره في بيته.. وربما كانت

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/١٩هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢٣م.

هذه الطبيعة نفسها في طبيعته الحافزة له على أن يعرف مسبقاً ما سيقع له هي الدافع لأن يقول بيته الشعري المتداول بين الناس:

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين؟! والغايات بعد المذاهب!

كما أنني تذكرت كذلك أن بعض الناس وربما معظمهم في غير بلادنا.. مولعون بأن يقرأوا في صباحهم اليومي بجرائدهم وصحفهم ما يضعه بعض الفلكيين الذين كذبوا وإن صدقوا.. عما يقول به حظ الإنسان المطلق.. أو الممدد حسب فصل ميلاده.. ثوراً.. أو أسداً.. أو جدياً.. أو عقرباً.. أو حملاً.. إلى آخر تلك الفصول الحيوانية وغير الحيوانية التي يولدون بها ثم يرتبطون بها نتيجة الميلاد فيها في تصرفات حياتهم.. أو على الأقل لمعرفة ما يتسم به صاحب كل فصل في باب التفاؤل والتشاؤم..

وحاولت أخيراً.. أن ألجأ إلى أسلوب خفيف.. ومتوسط السعر بين طريقة ابن الرومي القديمة.. والطريقة الحديثة لقارئ البخت في الجرائد العصرية.. حيث تذكرت أنني قرأت في إحدى الروايات العالمية من زمن بعيد ما أشار إليه الروائي الكبير صاحبها.. إن واحداً من أبطال روايته كان يرى قبل أن يقول كلمته النهائية الخاصة بمهنته القانونية أن يلجأ إلى عد الدرجات التي يصعدها فإذا كان مجموعها فردياً فإنه سيكون موفقاً في الحكم الذي قرره أما إذا كان العدد زوجياً فإن عليه أن يعيد النظر في ذلك.

وانشرحت نفسي لهذه الطريقة ورأيت للتمرين عليها أن أبدأ بعد حبات البلاط في الممر طولاً وعرضاً.. وكانت نتيجة العدد لحبات البلاط في صالحي مائة بالمائة.. فتشجعت.. وأخذت أحسب عدد الدرجان..

ولما لم يكن العدد في صالحي للأسف الشديد هذه المرة فقد اتهمت نفسي بضعف الحساب وقلت فلأقيد الفرق على حسابي وأعتبر أن البداية كانت من البسطة الأولى لا من عتبة الغرفة نفسها، وبذلك يصبح العدد فردياً ومناسباً لما أريد فقد كان حرصي على الخروج أكبر من البقاء بالبيت.. وطاف بذاكرتي بيت شوقي:

إن المغالط في الحقيقة نفسه   جان على النفس الضعيفة باغي!

ولكنني لم أر جواز الغش الكامل لذاتي.. فقررت في النهاية أن أعمد لحيلة لطيفة في الأمر.. فبدلاً من العدد من الدور الثاني حيث أقطن.. فقد صعدت للدور الثالث من بيتنا بدعوى أنني سأكلم بعض من فيه عن موضوع قديم..

وفعلتها حالاً.. وكلمت من أريد هناك.. وابتدأت عدد الدرجات من الطابق الثالث.. ولكن حدث أثناء نزولي وانهماكي في العملية أنني ذهلت قليلاً.. فزلت قدمي.. وسقطت فعلاً.. وبصوت مسموع..

وكانت نتيجة هذه الفعلة الحمقاء.. والعادة الرومية السيئة.. وطبيعة التردد واستكشاف الغيب أنني أصبت في ظهري.. وفي عقب قدمي ـ حتى الرجل!

وأثناء صراخي للاستنجاد.. وحملي حيث يجب أن أكون في السرير أخذت أزجر نفسي الأمَّارة بالسوء والمعلِّقة على الفأل أحلى الآمال.. مكرراً في صوت واضح النبرات والتصميم على الإقلاع عنها.. أتوب.. أتوب.. أتوب..

وهكذا.. فإنني لم أغادر الدار.. يومي هذا.. بالطبع!!

* * *

ـ ٧١ ـ

عادني صباح هذا اليوم من علم بعدم مغادرتي الدار يوم أمس.. بسبب إصابتي الدرجانية.. ولقد فرحت بقدومه.. وأَنِسْتُ به فعلاً.. فقد كان العائد الكريم من ذوي الثقافات الفكرية المتنوعة.. ومن أصحاب الأرواح الخفيفة.

وابتدأ البحث أولاً من نقطة البداية المنظورة بالسؤال عن أسباب الإصابة ومواضعها.. وبالمناقشة للفكرة السيئة التي كان الأخذ بقبولها لممارسة عادة التفاؤل والتشاؤم السرية.. ثم تطور الحديث لما ارتبط بها وتعداها لأبحاث متلاحقة.. متشعبة.. واعية.

والحق أنني قضيت مع هذا العائد المثقف وقتاً لذيذاً وحاراً شعرت به ومعه.. وفيه أنني حي.. فحديثنا.. بأبحاثنا المشتركة أفسح المجال لتلاقي الأذهان باستعراضها ممثلة فيما قيل.. وفي المناقشة له.. وبنقد أصحابها تحبيذاً لنظريات.. أو تسفيهاً.. ورفضاً لها.

كما تناولنا الأوضاع الحاضرة هنا.. وهناك في محيطنا الداخلي.. وفي جونا العربي العام، ثم العالمي.. والإنساني المطلق حيث جالت

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢٠هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢٤م.

الأفكار وصالت في أمداء.. وأمداء.. لعلّها إن فقدت ماهية التركيز الموحدة في باب أو أبواب بذاتها.. لم تفقد القدرة على المعالجة الموضوعية في إطارها الأدبي الحلو.. لكل منها.

وأخيراً.. بخروج صديقنا.. وبشعوري بالسرور الزائد.. ولدى انفرادي بنفسي وحيداً تذكرت أنني قرأت ذات يوم بعيد جداً في مجلة المختار مقالاً مترجماً لأحد الكتّاب الأمريكيين.. وكان عنوانه: «هل أنت حي؟!» وخلاصته المضغوطة هنا.. مع بعض الرتوش المعوّضة لبعض ما غاب عن الذاكرة منه.. أننا نحن الناس عامة نعيش.. أي أننا نأكل.. نشرب نلبس.. نعمل.. إلى آخر ما يزاوله الفرد منا في حياته المجردة التي نكررها يومياً.. وتلك في تقديره هي المعيشة.. أو هو العيش.. أي الوجود المكرور.. ولكننا متى نحيا؟!

عندما تقطع مشواراً طويلاً على قدميك.. وعندما تعمل عملاً طويلاً تحبه.. أو تميل إليه ميلاً روحياً.. وعندما تجهد في أمر تعانيه وأنت تريده بكل مشاعرك.. وتحس بحاجتك الماسة إلى الراحة بعدما بذلت.. فأنت في راحتك هذه تحيا وبذلك وبما أسلفت فأنت حي!

وعندما يغلبك الظمأ الشديد.. ثم تتناول كأس الماء البارد الزلال ترشفه قليلاً قليلاً في لذة وفي نشوة راوية لهذا الظمأ.. فأنت تحيا.. وأنت حي!..

وحينما تقرأ كتاباً يملك عليك وجدانك.. ومشاعرك.. وأفكارك متجاوباً مع ما فيه.. ومندمجاً بكل حواسك فأنت تحيا به.. وأنت حي!.

كذلك حينما تجمعك الصدفة.. أو الحظ.. أو العادة.. بزميل..

بصديق بإنسان من عشاق البحث الفكري.. والرشاقة الروحية.. وتندمجان معاً في أحاديث وأبحاث طويلة حارة متنوعة تتجاوب فيها الآراء والأفكار أو تحتك وتتعارض بها النظريات.. ويمتد فيها نفس المناقشات تضيف إلى ذهنك جديداً من معرفة أو تجود بها قريحتك بما يتولد ويظهر للوجود منها ما كان قابعاً في زوايا المخ.. متجسداً.. أو معلباً كالكونسروة.. فأنت تحي تهذي وأنت حي!

وعلى قياس النماذج السالفة فأنت تحيا.. وأنت حي.. في كل ما تحس إحساساً متحركاً.. وعميقاً من البسيط المتداول في يومياتك.. إلى النادر الطارئ عليها فسحة أو نزهة أو رحلة مادية أو ذهنية..

في هذا المجال من مدى المناقشة لتعريف المعيشة والحياة قضيت يومي الذهني تقريباً.. وبحثت عامداً عن عمل بسيط أمارسه.. ثم عن كتاب مختار أقرؤه لأشعر بعد الفراغ من كل منهما.. أنني حي!!

❊ ❊ ❊

ـ ٧٢ ـ

نحن نقول دائماً في المناسبة الداعية.. الموت علينا حق.. ولكن الرجة في الأعصاب.. والاستحضار السريع لصورة من نفقد.. والاستعراض الخاطف لشريط حياته.. وكأنه ما يزال بيننا أو أمام أعيننا كما رأيناه آخر مرة قبل سماعنا نبأ فقدانه يدفعنا إلى التردد في تصديق النبأ عن موت من نحب ومن لا نود غيابه عنا..

تبدو هذه الحالة واضحة ومكررة كل الوضوح ومع دوام التكرار.. وبالأخص إذا جاء الموت فجأة أو قريباً من حالة المفاجأة.. فكأننا بهذا التردد بل والإنكار أحياناً إنما نمسح بأستيكة مدرسية جملتنا التقليدية السابقة.. الموت علينا حق..

وشهيدنا على شيوع تلك الحالة وقِدَمها استنجاداً بأقرب مذكور.. للاستشهاد والتزكية بيت أبي الطيب المتنبي:

طوى الجزيرة حتى جاءني نبأ فزعت.. منه بآمالي.. إلى الكذب!

فهو لا يريد أن يصدق موت قريبته.. ويفزع أملاً في بقائها كما تصورها حين ورود النبأ إليه صورة حية.. وحياة مجسدة.. يفزع إلى

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢١هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢٥م.

كذب الخبر.. وينسى أو يتناسى أن الموت علينا حق.

في المعنى السالف وفي متفرعاته دارت صباح هذا اليوم خواطري قسراً حين كنت أصفي بعض أوراقي القديمة.. وكانت من بينها أوراق كثيرة لزميل الدراسة.. فالصبا.. ورفيق الشباب.. وصديق الكهولة والعمر المتوفي غريباً بالقاهرة الشيخ.. كما كنا نسميه..

والطريف في الأمر الآن.. أنني وجدت صورة فوتوغرافية له وعلى ظهرها الإهداء ومناسبته وتذكرت بعثوري عليها صدفة ما كان متبعاً من الجيل السابق لجيلنا.. بل ومن جيلنا ذاته في أيام الصبا والشباب..

لقد درج الأصدقاء والمعارف فيما بينهم أن يقدم كل صاحب لصاحبه في أقرب مناسبة رسمه وأن يكتب خلف الرسم بيتاً أو بيتين من الشعر.. أو سطرين من النثر.. تذكاراً يبقى ممثلاً له في حياته وبعد انتهائها.. ومن الأمثلة.. ارتجالاً مني الآن مصوراً لروح الموضوع دون حرفيته:

إليك رسمي.. ليبقى لديك.. تذكار حبي.

أو: هذه صورتي دليل وفاء من محب ورمز أصدق ود..

والبحث في موضوع تلك العادة اللطيفة لطيف وشيّق لمن يتصدى له من القدامى الممارسين له نثراً ونظماً.. في حينه..

هذا.. ولقد ماتت:. كمتبع عام.. هذه العادة الفوتوغرافية مع من مات من أجيالها..

واندثرت تماماً بين من بقي منهم.. والموت عليهم وعلينا حق!

* * *

ـ ٧٣ ـ

منذ وقعت النكسة.. كما يسمونها.. أو النكبة داهية الدواهي.. وقاصمة الظهر.. كما أسميها.. ولا حديث للناس إلا عنها.. إعادة لبدايتها بعد سماع خبر جديد.. أو امتداداً لظروفها تخميناً لاحتمال حدث أو تفسيراً لحركة متوقعة..

وذلك في واقع حياتنا معها واقع محمود.. إذ ينبغي ألا نفتر عن الحديث الإيجابي عنها.. لتبقى حية الأحداث.. ولنبقى معها أحياء بها.. حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

وفي كل يوم أعبئ لساني.. وأحشو أطرافه بالطلقات السريعة الطلقات.. باعتباره المسدس المرخص لي بحمله باستمرار.. ودون الحاجة لأخذ تصريح باستعماله من جهات الاختصاص.. استعداداً للدخول في المعارك الكلامية اليومية عن هذه النكبة العربية التي أتت على الأخضر واليابس من الأفكار والمذاهب والمعتقدات.. بعثرة لها.. وتنقية مستمرة لاختيار أفضلها استبقاء لكيان.. واستهداء لمخرج مرغوب.. واطمئناناً على وجود مرجوج.. مضطرب.. فوّار.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢٢هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢٦م.

واليوم.. تطرق البحث.. ككل يوم.. إلى ما كان.. وما يجب أن يكون.. وذلك بعد مرور خاطف وسريع لتاريخنا العربي قديمه.. وحديثه.. ومع استعراض بطيء ومركّز لكينونتنا الإسلامية على أساس أنها المنطلق الأول لوجودنا العالمي.. ولحضارتنا.. دون نزاع..

ولقد قيل ما يقال في هذه المناسبة مما لا يتعدى دائماً مما تحفل به الصحف والإذاعات من أخبار.. وأبحاث.. وتعليقات.. ومما لا يخرج في مسماه وارتكازه عن النقد الذاتي المغلّف والمكشوف..

وجاء دوري.. فتذكرت.. ثم ذكرت مناسبة قديمة مكرورة مني.. وإيجازها.. بالسماع عن أحدهم.. أن جمعية تألفت في فرنسا وضعت شعاراً مثلثاً لها.. وهو الإرادة.. والسعي.. والإيمان.. وكان القارئ الراوي معجباً بهذا الشعار أشد الإعجاب.

وإنني قلت له وللحاضرين.. يومها.. إننا قوم تلاوة لا تنفيذ لما نتلو.. ودليلي هذا الجديد الذي يعجب به الأخ وتعجبون به معه.. وهو قديم يأمرنا به ويحثنا عليه ديننا القويم.. وتلوت لهم الآية الكريمة.. والعظيمة في قانونها أمراً.. وحثا عليه.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩).

وكانت في يومي هذا الطلقة السريعة النافذة.. وصمت.. وصمتنا.. مفكرين.. غير مبربرين..

* * *

ـ ٧٤ ـ

أحسست عقب استيقاظي من النوم اليوم بنغمشة في رأسي أو في موضع التفكير فيه بحيث شغلت حيزاً كبيراً من هذا الموضع وهي تدور وتدور لتقف أخيراً عند نقطة معينة تقول.. ترى ما هي الطريقة السليمة والمضمونة واقعاً عملياً معتمداً لتسعير قيمة العادة.. أو العرف.. أو التقليد.. في السوق الاجتماعية؟ لتداولها بنفس السعر على نطاق واسع وباطمئنان وثقة.. على أنها فضائل للاتباع.. أو لرفضها.. على أنها رذائل.. للاجتناب.. هل المدار هو التلقين والتلاوة للمحفوظات الواردة والمقررة منذ الصغر بالبيت.. وبالمدرسة.. وبالمسموع في مجالات الاجتماع الشخصي.. والاحتكاك اليومي؟

أم هل المكرر هو الممارسة الفعلية من الناس في حياتهم العملية تقنن وتقدر عملياً القيمة لتلك العادات والأعراف والتقاليد؟..

إنني أميل إلى ترك التسعيرة للممارسة الفعلية لكل عادة أو عرف أو تقليد.. دون اعتبار للتلقين البيتي أو المدرسي المحفوظ.. لأن في تقرير قيمة أي من ذلك كمتبع.. أو مصطلح بالممارسة رحمة كبرى.. وذلك لتطور المفهوم والأداء من جيل إلى جيل آخر بما تفرضه الحياة المتحركة

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢٣هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢٧م.

وظروفها المختلفة من حين.. لحين..

إننا.. مثلاً.. لو أخذنا العادة والتقليد المتبعين في الزواج بخطوطهما المرسومة ابتداء من النصوص الشرعية الواردة بشأنه.. والمبيحة لرؤية الوجه لتقدير الجمال.. والكفين لمعرفة الخصوبة البدنية.. وانتهاء إلى حالة التطبيق العملي بين الناس من جيل لجيل لوجدنا اختلافاً بيناً.. وتناقضاً واضحاً في ظاهر الأمر فمثلاً:

ـ كان الزواج غالباً.. على العمياني.. وربما شذ أفراد فاكتفوا بالوصف لزوجة عن طريق الأم أو الأخت أو العمة.. واعتبر أولئك الأفراد في جيلهم روّادا تقدميين.. متمردين على العادة السابقة تقضي باحترام كلمة الوالدين تنفيذاً دون بحث أو جدل أو ملاحظة.. مع الإصرار دائماً على إغفال كيان النصف الحلو جملة وتفصيلاً.. وعدم أخذ رأي البنت في كل ما يتعلق بزواجها..

ـ كانت التسعيرة الخاصة بالمهور قائمة على حيثية العائلة برمتها.. دون تقدير إمكانية الزوج وحده.. فكأنما فرض التقليد أو العرف أن مسؤولية حياة الشاب بعد زواجه موكولة إلى العائلة كلها والتي سد من زواجه بحيثيتها!!

ـ كان الروتين المرتب بالنسبة لعملية الزواج.. حالات متعاقبة من قراءة الفاتحة.. أو ليلة الملكة.. فليلة الدخله.. فنهار الصبحة.. قامت جميعها على أساس من التكاليف المادية والجسدية من الرفود.. إلى المصاغ.. إلى السهر المتواصل..

هكذا كان هذا البند من الحياة.. وهو الزواج.. في موازين العادة والعرف والتقليد.. ثم تطور مفهوماً وأداء.. فانقلبت موازينه.. فهل

أصبح الزواج شيئاً غير ما كان؟.. ولماذا؟.. وهل لم يكن الزواج هو إلا نفسه قصداً.. وغاية؟..

أبداً.. إنه هو.. هو.. ولكن عملية ممارسة الحياة بظروفها المتطورة بحكمها.. فمحت.. بل وداست على الخط الأحمر الكبير المرعب والمرسومة في كل جزء منه كلمة.. عيب.. عيب.. عيب دون التفات لخطورة معناها. ولقد قيل قديماً تزكية للتمشي مع تطور الحياة وممارستها بظروفها.. قيل بفلسفة عميقة وخطيرة.. الضرورات تبيح المحظورات.. وهناك حدوتة صغيرة تقول إن رجلاً أراد تزويج ابنه فكانت امرأته كلما ناقشها في عدم إمكانه بعمل كذا.. أو كذا.. تقول.. عيب.. ألا نقدم الشيء الفلاني.. وعيب أن نهمل الوضع العلاني.. فقال لها أخيراً.. أرى أن نزوجه في حدود إمكانياتنا.. أما عيوبك المتفرقة هذه فنجمعها كلها في.. عيب واحد!.. ونرتكبه..

* * *

ـ ٧٥ ـ

لم يكد يستقر بي الجلوس بجانب سائق تاكسي هذا اليوم ـ حتى بدأ هو مباشرة عملية فتح الصدور.. لأقوم بدوري بالاشتراك فيها معه.. بنهم.. وبنشاط.. وتجدد البحث كما ينطرح بعضنا على الرمل في طريق المدينة مثلاً.. ثم انكمش في نفسه حتى تكوّم جملة وتفصيلاً في جملة انتهت كمرد عام له:

لا يزال الكثير من سائقي الأجرة أو الخصوصي.. شغوفين إلى حد بعيد بممارسة لعبة.. كسر النظام.. وذلك بعدم احترامهم كلياً الوقوف حال ظهور النور الأحمر في إشارات المرور..

والموضوع في ذاته موصول ومكرور.. ولكن الجدة والطرافة فيه أن البحث المشترك انتهى فيه إلى هذه الأسئلة التي تدير الرأس بعض الشيء إليها..

هل الانفراد بالخروج عن الخط العام أو عن الإجماع دليل شذوذ شخصي؟ وهل يعتبر ذلك شجاعة فردية.. أم جبنا.. وليد مركب نقص؟.. ولماذا يغرم بعض الناس الغرام كله أو بعضه بألا يكونوا مثل بقية الناس؟

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢٥هـ ـ ١٩٦٧/٩/٢٩م.

ثم.. هل تبيح الضرورة الشخصية.. وحالات الاستعجال أن يتخطى المضطر الحدود المقامة نظاماً.. أو عرفاً.. أو عادة متبعة في كل شيء؟.

إن لعربات الحريق.. بالنسبة للمرور.. دوياً مزعجاً.. ولكن هذا الدوي مع أنه إنذار إنساني لمن في الطريق بإخلائه.. إلا أنه في نفس الوقت خرق صريح لعلاقات المرور.. ولكنه يحمل في ذاته ترخيصاً رسمياً له.. بكسر النظام..

وكذلك الأمر تماماً بالنسبة لعربات الإسعاف ولأجراسها المتراسية الإنذار.. والحاملة لنفس الترخيص بكسر النظام الرسمي.. رسمياً..

والحال هو الحال أيضاً لسيارات النجدة.. عدم خضوع للصف.. وعدم إذعان للنور الأحمر.. وكسر رسمي للنظام الرسمي.. فهل يجوز قياساً على ذلك أن يقدر المضطر المستعجل في حالاته الشخصية الضيقة ظروفه.. ويمنح من نفسه لنفسه هذا الترخيص؟..

أعتقد عدم جواز ذلك.. وعلى كل فلم يكن موضوع البحث المشترك الخوض فيه.. أو الحكم له أو عليه.. بقدر ما كان تركيزه منصباً على الشذوذ الفردي غراماً بممارسة لعبة.. كسر النظام.. لذاتها!

وأذكر بالمناسبة.. أنني عندما كنت أعمل مدير حج عامّاً.. وكانت أصعب عملية هي تفويج الحجاج في مكة لسفرهم منها بنظام الأفواج حسب قدومها وتبعاً لوسائط النقل.. وكنت أجد كل ساعة بل وكل دقيقة عنتاً متصلاً من الراغبين في السفر قبل فوجهم من المغرمين دون ضرورة بكسر النظام.. وكنت أسأل بعضهم ولماذا تصر بنفسك وبالواسطة على أن تسافر قبل فوجك ولا ضرورة ملحة أو داعية فعلاً لذلك.. أهي الرغبة

منك فقط.. في كسر النظام؟.. فكان يجيب بصراحة هذا البعض الشاذ!

أيوه، أنا عاوز أسافر قبل فوجي وجماعتي.. عاوز أكسر النظام لأن في كسره امتيازاً شخصياً لي.. وانفراداً ذاتياً بعمل يشعرني وأشعر معه بالتفوق على من عداي.. من الخاضعين للنظام..

* * *

ـ ٧٦ ـ

كنت هذا اليوم مع صورة من صور المستقبل الجديد المتطور والمنظور لبلادنا.. أتخيلها.. نتيجة لمقدمات.. في حدود وآفاق ما كنت معه.. كما لا بد وأن تكون.. فقد استمعت من إذاعتنا إلى برنامج ـ تحية وسلام ـ برنامج حي كريم توصل به وزارة الإعلام مشكورة في جهد.. وتضحية.. ومعاناة بين الطلاب من أبنائنا في الخارج.. وبين ذويهم في الداخل.. مهيئة لأولئك ولهؤلاء فرصة اللقاء الصوتي ـ يتبادلون فيه التمنيات والأشواق.. والأخبار..

وإذا كنا قديماً نقول في رسائلنا لبعضنا.. لا تقطعوا عنا رسائلكم فإن.. الكتاب نصف المواجهة فماذا عسانا نقول اليوم عن هذه المواجهة المسموعة؟

ولقد هزتني أصوات أبنائنا الطلبة.. حيث هم في الدنيا الجديدة.. الطويلة العريضة بأوروبا.. وبأمريكا.. وبسواهما من القارات.. يخططون بعون كبير من الحكومة بواسطة وزارة المعارف أو على حساب أولياء أمورهم مستقبل بلادهم.. بتخطيطهم لأنفسهم في كل علم وفن من علوم وفنون المعرفة والتجربة والتكوين..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢٦هـ ـ ١٩٦٧/٩/٣٠م.

وقفزت بي الأفكار والذكريات بالمناسبة قفزة كبرى شملت أول ما شملت المقارنة بين ما كنا عليه وبالأخص النساء من الأمهات وسواهن من الخوف والفزع الشديد من فراق أبنائنا.. وبين ما آل إليه حالنا من الحرص الشديد على الترحيب بغربتهم في سبيل الدرس والتحصيل وتربية النفوس.. فلقد كنا نادي بالويل وبالثبور حين تحكم الظروف.. أو طبيعة العمل على الفرد منا بمغادرة بلدته بعيداً عن أهله رغم أنه في السن التي تسمع له بالاعتماد على نفسه.. ولنا بالاطمئنان عليه ما دام كذلك.. وكيف كنا نسعى جهدنا بشتى الوسائل للاحتفاظ بالولد.. بله البنت معنا وبين ظهرانينا حتى لو تم ذلك كما نعرف على حساب مصلحته ومستقبله..

وربما لا زال معظمنا.. في هذا المجال.. يضحي في سبيل بقائه بين ذويه نزولاً على رغبتهم ورغبته بما هو مأمور له من مستقبل وشأو مرموقين.. أما البحث في أمر الغربة الطويلة في سبيل التعليم الخارجي فلقد كان الجدل به من المستحيلات.. وتعتبر الأم.. ويشاركها الوالد أحياناً.. أن سفر ابنها لبلاد بعيدة عنها وعن بلدها المصيبة الكبرى التي لا تحتملها خيالاً.. لا واقعاً محسوساً في حياتها وحياة البيت كله من دونه..

وأذكر بانتهاء دراستي تقريباً بمدرسة الفلاح بجدة وكان الوقت زمن عطلة مدرسية كانت تقع مرة في العام ولشهر واحد هو شهر ذي الحجة.. أذكر أن قريباً لنا ممن يقطنون السودان عرض على والدي أخذي معه بعد أدائه مناسك الحج لإكمال الدراسة هناك.. وإن من أبرز المميزات التي ستوفرها لي فرصة التعليم العالي هناك. رجوعي.. بلسان ثانٍ.. مع احتفاظي بلساني الأول.. فسأتقن اللغة الإنجليزية.. وقليل..

أو نادر من ينطقون بها آنذاك. وإن في ذلك ضماناً لبناء مستقبلي على أسس قوية ثابتة..

وفرحت بالعرض السخي من هذا القريب المبارك الأصل.. والنبيل العرق.. وتخيلت نفسي أرطن بين من لم يفهموا ما أقول.. وإنني سأقرأ مباشرة.. لا بالواسطة.. شعر شكسبير الإنكليزي.. أو الشيخ زبير العربي الأصل كما يحلو لبعضهم إدراجه في شجرة أبناء العرب.. وإنني.. وإنني.. مما تستدعي الحالة وتوابعها توفره لي ملوناً لحيتي.. مكوّناً لها التكوين المتخيل الكبير..

وزاد من فرحتي.. ومن تضخم الخيالات.. والآمال المعقودة على دراستي في السودان الإنجليزي ـ حينذاك ـ موافقة أبي مبدئياً وفي حذر على هذا الاقتراح المشكور، ولكن العقبة جاءت من الأم التي لم تسمح نفسُها.. أو لم تصفط بتعبيرها ـ بأن يسافر ولدها بعيداً عنها يفصل بينها وبينه بحر طويل عريض سيقطعه به.. بابور.. من تلك البوابير التي ينادي عليها المنادي في سوق العلوي كل أسبوع.. أو كل شهر..

وبين ضمة حانية منها.. وبلبلة خدية من دمعها.. ثم من مدمعي السائل بالعدوى.. تبخر أضخم مشروع في حياتي بسبب العادة السائدة ببلادنا.. أيام زمان من عدم السماح للأهل بتغريب أولادهم..

وهكذا عوّضني اليوم ما فقدته بالأمس أصوات أبنائنا يخاطبون ذويهم من عواصم العالم الكبرى مؤكدين لهم أنهم على الطريق الطويل.. وفي الطريق إلينا.. أفواجاً تحمل لنا الأمل الباسم.. والوجه المشرق لصورة المستقبل الضخم الضاحك.. وغبطة أبناء هذا الجيل المحظوظ!..

❊ ❊ ❊

ـ ٧٧ ـ

تقوم بعض أو معظم الفكاهات العربية.. على الجناس اللفظي.. مثل جبة.. وجنة.. وما لي.. ومالي.. والأولى من: ليس لي شغل أو دخل.. والثانية نسبة إلى المال..

ومن المتداول لدينا في قافية الموظفين مثلاً أن يسأل أحدهم.. متى ميعاد الدوام؟ فيجيبه الثاني الدوام لله!! أو لدى غيرنا ما يروى عن المرحوم عبد العزيز البشري مطابقة بين نوع من السمك يسمى .. شالا.. وبين الشال المعروف.. أن أحدهم غطس في البحر.. وطلع متعمم بشال!! وعن حافظ إبراهيم مع إمام العبد.. وكان الثاني يدعي أنه الخالق الأدبي للأول ويروج ذلك بين الأدباء مع الاستدانة غير المنتظمة منه كلما أفلس..

فأتى إمام العبد مرة لحافظ وطلب منه السلفة المعتادة.. فأجابه والله.. يا مولاي كما خلقتني..

وترتكز النوادر.. كما يسمونها.. على أساس كبير من التلاعب اللفظي جناساً.. ومطابقة.. ومقابلة بين معنى كلمة في مؤداها العام

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢٧هـ ـ ١٩٦٧/١٠/١م.

والخاص.. أسوة بالنكتة.. أو بالفكاهة يحرص جوهرها على إبراز المفارقة لتكوين الصورة أو الموقف المضحك نتيجة هذه العملية الكلامية.

وقد قرأت اليوم خطفاً.. شيئاً من هذا.. وتقول النادرة:

اختصمت قبيلتا بني طفاوة.. وبني راسب في رجل ادعى كل من الفريقين أنه منهم.. فقال هبنقة المشهور بغفلته وبحمقه:

إن حكمي أن يلقى بهذا الرجل في الماء.. فإن «طفا» فوق سطح الماء.. فهو من طفاوة..

وإن «رسب» فهو من راسب!

فصاح الرجل قائلاً إن كان الحكم ـ هكذا.. فقد زهدت في كلتا الطائفين!

وأذكر أنني قلت مرة للأستاذ.. الخياط.. إليك هذا الخبر عن فلان.. وفلان من كبار أدبائنا.. وعليك أن تقوم أنت «بتشليله» أو درزه!..

* * *

ـ ٧٨ ـ

لبعض الكلمات.. والجمل المتداولة على أقلام الكتاب.. وألسنة الشعراء.. سحنات وملامح تكاد ترسم لك جوها مألوفة لديك.. لا تثير فيك جديداً من شعور.. أو تحرك فيك غريباً من إحساس.

فهي بهذا لا تفترق عن الوجوه المرئية منك من الناس مألوفة عادية لا تستلفتك أو يلفتك إليها وجه معبر داعٍ للتأمل أو التقدير أو بعث حالة ذهنية أو نفسية تشعر معها بالمغايرة.. وبالندرة.

ولهذا درج دلالو الحروف اليوميون.. من حقبة لأخرى.. لابتكار كلمات وتعابير حديثة.. أسوة بالموديلات النسائية.. لإحداث الانفعال المطلوب وللإقبال على استعمالها.. سائغة صانعة الأثر النادر المطلوب..

وللمثال الخاطف.. جمل.. وضع النقط فوق الحروف.. الاستقطاب.. أبعاد الموضوع.. الحقائق العارية. فيما يجري كذا.. يدور كذا.. وتلك ما تسيل على لعاب الصحفيين.. والزورق الحالم. والجناح المكسور.. والضباب الأزرق.. والبخور.. والترانيم.. مما تنشره براعات الشعراء.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢٨هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢م.

ويسرف البعض في سبيل الجديد.. فيعمد إلى تغليف لفظ عامي في جملة زاهية دون اهتمام بالمضمون.. أو أي تعبير لا هم له في وضعه إلا أنه ذو رنين موسيقي.

ولقد قرأت اليوم أشياء من ذلك.. وتلك.. وهذه.. فرأيت الكلمة وكأنها بنت ليل قد ربطت على وسطها حزامها وأخذت ترقص عشرة بلدي أو.. على وحدة ونص كما يقولون.. للفت الأنظار إليها..

ومع أن للرقص البلدي عشاقه.. وبه الإثارة والتشويق.. إلا أن توالي الصيحات بأن يكون معبراً وغائباً في ذاته قد دعا محترفيه أو هواته لأن يجهلوه كذلك.. وتبدل أو يكاد يتبدّل معنى الرقص فعلاً في الأداء.. وفي بذلة الرقص نفسها باعتبارها للأداء الإطار المنظور.

ومن هذه النقطة البسيطة.. تعتبر مفرق طريق واسع.. هممهمت بيني وبين نفسي بما رثّ من كثرة التداول.. ترى هل يغني التعبير ذاته عن المضمون المستهدف والمرغوب؟.. وهل نكتفي أحياناً بالمتعة بالعبارات البيانية المشرقة نعليها من المطالبة بالمضمون المادي.. أي الموضوعية.. باعتبارها صورة بيانية لا تكليف عليها؟.. وهل نقدر المضمون الحار في كلمات باردة باعتباره الهدف الأول منها؟.. وهل المطلب إثارة القارئ.. لا غير؟

وأخذت هذه «الهلات» تتقاطر في نغمشات ذهنية تكاد تحدث حكة أو جرباً في النخاع الأدبي من رأسي.. ولكنني قطعت الطريق عليها للأصل.. كداء.. ودواء.. وببساطة تامة رأيت أن الغرض من نشر قول الناثر.. أو سبك كلام الشاعر أن يجمع بين الأقانيم الثلاثة.. الهدف.. التأثير.. الإطار.. أي بين الموضوعية.. والاجتذاب.. والرداء الناصع.

أومأت مرة للجفري في حالة إظهار إعجابي بما يكتبه عن رحلته إلى لندن.. أنني انفعلت بكلمة الولوج في باب الفندق.. ولكنني أستنكرها.. استنكاري لكلمة قعر الموضوع التي رددها في مجال آخر، وقد يكون لبرود الكهولة دخل في هذا الرفض والاستنكار لاستعمال هاتين الكلمتين الراقصتين المحترفتين ولكن أعتقد أن المرد العام دون استفتاء في صفي!

وأعجبت بمقطوعة شعرية لأحد إخواننا من حيث موضوعيتها وصورها ولكن ذهب بكل هذا الإعجاب عدم هدايته وتوفيقه في استعمال كلمات ليست من الشعر في شيء.. وزادت المصيبة أن كانت تلك الكلمات في أعجاز وقوافي.. وما قيمة الصدر المرمري الناهد أن أطاح به عجز نافر!

لعلّني.. بما دار في رأسي اليوم أشبه بالدجاجة تنبش الثرى.. أو تقوقئ لدعوة سواها للمشاركة في النبش به.. تحصيلاً للرزق في فطانة.. أما الدردشة المطلقة نملأ بها فراغاً.. أو الكجكجة الشعرية نفرد لها إطاراً فليست من بحثي.. فقد أراحني دائماً منها المثل الشعبي القائل.. قول يسيدي.. قول!! هو الكلام عليه جمرك؟!

❊ ❊ ❊

ـ ٧٩ ـ

في أعقاب سهر طويل فزعت من النوم بعد فجر هذا اليوم بقليل.. وتم ذلك بفعل فاعل معلوم الهوية.. هو خادم البيت المشوبة طيبته ببعض البلاهة.. فقد قطع عليَّ مشاهدة بقية فيلم من أفلام الأحلام اللذيذة حيث كنت مندمجاً في دوري به تمام الاندماج.. صائحاً في وجهي وعلى مقربة من سرير منامي.. قم.. قم.. فإن بباب الدار من يريدك لأمر هام..

وعلى الواقف.. وبالفوطة إياها.. قابلت صاحب الذوق الرفيع الذي جاءني في مثل هذا الوقت ليقول عن موضوعه الخطير.. إنني منذ تسع سنوات.. حينما كنت مديراً عاماً.. كتبت له ورقة للمحاسب لإنهاء معاملة رواتبه المنكسرة.. وإنه سافر بعيداً.. وعاد من زمن طويل ولما تنته المعاملة..

ولم يسعني بعد أن قرطت على أسناني.. وبعد لأي طويل أيضاً.. إلا أن أصرفه مؤكداً له بأنني لم أعد ذا موضوع في موضوعه.. ولا صاحب دالة على المحاسب.. وإن هناك مسؤولين جداً أنصح بمراجعتك لهم في مثل هذا الوقت تماماً وفي بيت كل منهم.. وعلى الريق في نفس موعد مجيئك لي الآن..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٦/٢٩هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٣م.

وما إن غادر الباب.. مكسور الخاطر.. كرواتبه المنكسرة حتى قندلته أعتبرها موجهة لكل صاحب ذوق رفيع مثله.. وتقول:

يا حبيبي.. يا ابن هاداك الكلام   لم طيرت على الفجر منامي؟
لم تزل شمسك نونو في سماها   بين بطن الغيب.. في عب الظلام
وديوك الحي والجيران صاحت   كوكو.. كوكو.. كاكا.. كاكا في نظام
والبراميل.. ويا دوب استعدت   تطلب الأومبة الحلوا.. لظامي
وأنا يا دوبني خشيت فعلا   سنما الحلم بلاشاً.. في انسجام
هل ترى سلطك اليوم علينا   من له ثأر ورائي.. أو أمامي
أنا مالي؟.. أنا مالي؟.. يا حبيبي   بل أنا لست بمالي.. أو محامي
أنا سهران وما باليد حيلا   بين أوراق.. وكتب.. وزكام
عندك المركاز فيه العمدا.. أيضاً   جنبك النجدة.. من غير زحام
أو لديك الشرطا في الخلقة برضو   بابها غربي.. لها الطاقة شامي
إنما بيتي.. على الريق.. فلا.. لا   ثم لا.. لا.. في اختصار للكلام!
قل لمن لم يعرفوا الذوق بلاشي   قلة الذوق وتعكير المنام
أحلال مثل هذا الشغل منكم   أم حرام.. في حرام.. في حرام!!

ولقد أدركت بهذه الفعلة الشنعاء من صاحب الرواتب القديمة المنكسرة.. الموقف القديم المماثل لهذا الموقف والذي دعا الشاعر الغلبان لأن يصرخ بهذا الشطر الناري:

وإنما الذوق شيء ليس في الكتب!!

* * *

ـ ٨٠ ـ

قابلت اليوم صديقاً قادماً من بلد جُلِدَ فيه على قفاه مرات.. ومرات حتى أصبح وبكل جزء منه دبرة لا يتميز فضل وجودها بأنها حمته الإحساس الكامل بألم الجلد باعتبارها مراكز التخدير في هذه الأجزاء من قفاه المهري..

وحتى يعرب لي عملياً عن فرحته الكبرى بالفرار من ذلك المسمط الذي كان فيه فقد ألمح أن نتغدى سوية في الفندق المطل على البحر والذي ينزل به.. وضغط طويلاً على كلمة البحر ليضعف مقاومتي فأقبل الدعوة.. لعلمه بأنني من عشاق منظر اليم..

وتحقق له ما أراد.. وانطلق الحديث هادئاً ومائجاً بحكم الجو.. ولما كان الصديق من ممارسي الأدب.. والشعر بالذات.. قديماً فقد كان ذلك المدار والمرد.. وفجأة انتصبت أمامنا علامة استفهام كبرى بسبب استعراضنا أسماء بعض الكتّاب والشعراء.. والصحفيين المدرسين. وما بين هؤلاء وأولئك مما ترد التسمية لهم بصيغة.. فويصل.. للتصغير.. أو للتحبيب..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/١هـ ١٩٦٧/١٠/٤م.

والعلامة إياها تقول.. هل الأسلم في طريق الأدب.. السير على الخط الواحد؟.. وهل المشي في شتى دروبه يعتبر محققاً للامتياز المنفرد؟.. أم دليل قوة خارقة وطبيعة شاملة؟..

والأمثلة الحية.. مثلاً.. تقول لقد بدأ بعض الروائيين العالميين شاعراً أو صحفياً.. أو كاتب مقال قصير أو طويل.. ولكنه استقر أخيراً على خطه الواحد في عالم الأدب الواسع.. روائياً.. لم يعد يمارس الشعر.. مستقلاً.. ولا كذلك الصحافة.. أو الكتابة بمعناها المعروف.

كما تقول تلك الأمثلة كذلك.. إن لبعض الشعراء الممتازين مشاركات دائمة تسلكهم في عداد الكتّاب المرموقين.. وإن لبعضهم بالإضافة إلى ذينك الخطين الرئيسين مسارات واضحة المعالم في دروب أخرى.. للمقابلة مع المغايرة..

فقلت.. لقد سألني من أيام بحضور بعض الأخوان مطرب ذو صيت.. إنه يجد من نفسه حنيناً واستعداداً للتمثيل المسرحي والسينمائي.. بل وتراود ذاته النزاعة إلى الممارسات الفنية بأنواعها أن ينخرط في سلك المؤلفين بكل ما تنطوي عليه كلمة التأليف..

وأجبته أنه لا حرج على تلك النفس في تلك المراودة وألاّ تثريب عليه في أن يجرب ويباشر كل ذلك.. فإن في محيطنا العربي الأمثال الحية لا تحصى على ما تريد.. ويريد.. أما الاختصاص بالتعبير الدقيق.. أو السير على الخط الواحد بمسمانا.. فصفة غربية محضة في التقدير.. أو المعدل العام.. لما يكتب لها لدنيا الشيوع المطلق..

واستثنى الروائي العالمي الممتاز.. باعتبار الرواية اليوم في عالم

الأدب هي الوعاء الكبير. يستطيع بها الروائي التمكن من ممارسة الشعر روحاً.. والنثر علماً.. والصحافة ثقافة.. والرواية فناً.. في وقت واحد..

وتقول التجارب.. كاستدراك لا بد منه.. إن حد الطاقات وتحديد الموهبة في مجالها الأشد إلحاحاً لا شك أنه مصدر تفوق وامتياز.. على عكس تبديد المواهب هنا.. وهناك.. على أنه مهما تنوّعت مجالات وصفات الأديب بأخذه من كل شيء بطرف كما يقول الجاحظ.. فستظل شهرته محدودة بباب منها.. أو بما نسميه الخط الواحد..

وعندما أخذ الصديق برأسي ليفليها.. وليحدد ماهية مخيخها الصغير.. قفزت واقفاً ومودعاً بمعذرة ارتباطي بموعد.. قد حان!

* * *

ـ ٨١ ـ

صحوت يومي هذا على يدي وهي تأكلني.. فتفاءلت وانشرح خاطري.. وقد ألغيت عقلي المدرسي منساقاً ببلاهة وببساطة وراء الخرافة البلدية القائلة بأن كل من تأكله يده سوف يقبض فلوساً بالتأكيد!..

وكان في جيبي مبلغ محترم بالنسبة لمثلي.. فصرفته.. بل فرتكته فرتكة.. بانشراح صدر.. وإصرار قفر.. وذلك اعتماداً على المبلغ المنتظر.. المبلغ الذي وعدتني به نغمشة يدي أو أكلانها المتواصل على الأصح.

هذا.. وقد انقضى اليوم حسب التوقيتين العربي والإفرنجي دون أن أقبض أي مبلغ.. ولم أجد وسيلة للانتقام لإفلاسي الحاضر وفش غلي إلا أن أرجع لليد اليمنى ذاتها التي تحددها الخرافة بالأكلان مصدراً للمنظور قبضه.. فأخذت أعضها المرة بالمرة في حرد وعتب وغضب مستعيناً ببعض الكمادات اللازمة لتوالي العض.. دون رحمة أو إشفاق..

واقتضى الموقف بطبيعته أن أراجع قاموس خرافاتنا التي تزدحم بأمثال أكل اليد.. كرف العين اليمنى مثلاً وإنك سترى غريباً.. وكركوب

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٥م.

إحدى فردتي الحذاء على الأخرى ركوباً من النصف كدليل على سفر قريب.. وكزن الأذنين زناً ثقيلاً.. دليلاً على أن عزرائيل يقيس الواحد.. أو في رواية أخرى.. دليلاً على سماعه خبراً مكروهاً.. وهكذا إلى آخر القائمة..

ولقد أطلقنا في السابق على هذه الخرافات التي يتشبث بها.. ويخضع لها معظمنا لا فرق بين مدرسي.. وكتابي.. وأمي.. اسم الخردوات الوجدانية.. تشبيهاً لها بكراكيب البيت القديم وخردواته.. وقمنا ببحث بلدي عقدنا فيه مقارنة شيّقة بين كراكيب بيتنا القديم بمجلسه وبصفته.. وبخزانته.. وبالدقيسي.. وبما تحت الكراويت فليرجع إليه من حظي بسماعه.. في حينه..

أما اليوم فشاهدنا الوحيد هذه النغمشة التي نسميها أكلان اليد وما جرته علينا من جرائر رغم قرارنا إسقاط وارد الخرافات من حسابه دخلاً غير منظور.. فليست هذه المرة هي الزيارة الأولى منها لنا.. فقد سبق أن عملت فينا نفس الفصل ولم نتب عن الاستجابة لها ثانية.. مع العلم بأننا قد قندلناها حينذاك بما يعتبر هجواً فاحشاً مقذعاً لها ولنا.. وإليك عينة بسيطة منه حيث قلنا لها:

بلاشي الأكل.. يا إيدي.. بلاشي على كل العمى.. بعض الطشاش
بنغمشة تدب بوسط كفي دبيب الواغش المدعو.. بغاشي
لقد طيرت نومي حين قلتي ألا قم.. ناقزاً وسط الفراش
لتقبض حسبة.. لا شك فيها وتسبق راكباً في جنب ماشي
ففرتكت القروش بوسط جيب غدا بك فاضياً.. ملعون خاشي!
ألا تدرين يعني إن حظي من الدنيا هنا.. باقي معاشي

لقد صدق الأوائل حين مازوا على كل العمر.. بعض الطشاشي
كذلك كل من في الكون يسعى وراء خرافة.. سعي المواشي
سيلقى في النهاية ما لقينا بهذا اليوم مسود الحواشي
كفاية كدا.. فقولوها معانا تكاثرت الظباء على فراشي!

* * *

ـ ٨٢ ـ

قضيت وقتاً كبيراً هذا اليوم.. باحثاً عن ديوان الشاعر ابن الرومي.. وقد انتهيت بما يصل إلى مرتبة اليقين فالتأكيد بأن هذا الديوان نادر الوجود.. بل هو في علمي فعلاً غير معروض للبيع.. أو للتداول المعتاد بين الكتب وبين الناس..

وحين عجبت لذلك بعض العجب أو كله عللت السبب كما لاح لي.. فالملاحظ أن هذا الشاعر الذي عاش حياته يتشاءم من الناس.. من كلمة شؤم تقال عند خروجه من بيته.. فيعود إليه.. أو من منظر مزعج يراه.. فينفر منه ليقبع يومه كله في داره.. قد أصبح هو ذاته فيما التصق به فمثله.. وهو ديوانه.. مصدر شؤم وتشاؤم يخاف الناس من اصطحابه اقتناء.. أو رحلة فكرية للكتابة عنه من ناقد.. أو من باحث شاعر مثله..

فالمعروف يقيناً.. أن الأستاذ العقاد يرحمه الله حينما كان مشتغلاً بتأليف كتابه عن حياة ابن الرومي وشعره دخل السجن.. في تلك الأثناء.. وإن فلاناً.. وفلاناً سواه قد عانى سواء على نحو ما.. حين مصاحبته أو كتابته عن هذا الشاعر..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٤هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٧م.

ومع ما سبق.. فقد عثرت أخيراً على نسخة من ديوانه لدى السيد الفاضل أبي تراب الظاهري والباطني معاً.. فاستعرته منه لأطالع بعض القصائد.. رغبة في الاستشهاد ببعض المقطوعات.. وكنت مقشعر البدن والنفس من بقائه لديَّ مدة تطول عن الزمن اللازم لغرضي ـ وذلك بحكم تجربة ذاتية لي مع هذا الشاعر.. فقد حدث لي حادث مكروه فعلاً.. وتخلصت من الديوان حال انتهائه..

وصادف ليلاً أن قابلت عرضاً أخانا الشاعر أبا زمخشر كما أسميه ـ أو بابا طاهر كما يطلق عليه الأطفال الإذاعيون.. وكان معي أبونا الأستاذ الأديب الأب عزيز وجرى البحث عن تحديات كل منهما لفكرة التشاؤم الشائعة من صحبة ابن الرومي بلون ما.. وخروجهما بنفس النتيجة.. فقد حدث لكل منهما ما لا تحمد ذكراه.. لذلك كله أو بعضه.. فإنني لم أكد أنتهي من الغرض المؤقت من الديوان المستدار حتى أعدته لصاحبه صاحبنا الظاهري الباطني الذي كان يلح في إبقائه لديَّ أطول مدة مناسبة.. فأحسست من هذا الإلحاح أن بنفس المذكور نفس العقدة لدى سواه.. وإن لم أسأله.. مكتفياً بتخريج خاص عن ذلك وتفسيره أن مجرد الاقتناء للديوان دون معاشرة مقتنيه له معاشرة فكرية ومتداولة يعفي من سريان قانون التشاؤم السائد.. والمشهور عنه..

وخرجت أخيراً.. ككل.. من هذا الذي ذكرته عن هذا الشاعر العملاق بصدق مثلنا الشعبي القائل بأن.. كثر الدوي يغلب السحر.. وإن جواز الأخذ بالتسامح في بعض الحالات الفقهية له من الواقع وفيه ما يبرره..

وقلت في نفسي غفر الله لهذا الشاعر العربي اللسان.. عاش حياته تلعب به رياح الشؤم والتشاؤم.. فأصبح بعد مماته عنواناً عليها بحق.. أو بدون حق..

* * *

ـ ٨٣ ـ

أصبحت اليوم ومعي لبطة.. أو زكام كما كنا نسميه.. ورشح كما يقول له بعض المهاجرين منا.. وانفلونزا كما صرنا ندعوه.. وأنف العنزا كما رده لأصله العربي بعض المشتغلين بصناعة الكلام والألفاظ.. وهكذا فإن كثرة الأسماء هنا تدل على قرف المسمى.

وزكامي أنا بالذات.. من باب العلم بالشيء ولا الجهل به.. من النوع الرذيل الثقيل.. فخلال فترة قصيرة من طرق الفيروس لفتحتَيْ باب خيشومي يبدأ هذان البابان وكأنهما ميزابا سطح علق في يوم مطير.. في الصبيب المنهمة.. دون انقطاع.. مما كنت أضطر معه إلى وضع منشفة غليظة تلو أخرى عليهما.. باستمرار..

ولكن طبقاً للتطورات الأخيرة في حياتنا الزكامية المودرن.. وحسب إرشادات بعضهم فقد وضعت اليوم بجانبي علباً من أوراق الكلينكس وقذف الواحدة منها وراء أختها حتى لا يتضاعف الميكروب كما قيل..

وباعتباري ضيفاً حتى الآن في بيت أهلي الذي أقيم فيه فقد كان الاهتمام بضيفي الطارئ.. وهو زكامي.. شيئاً تفرضه آداب اللياقة

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٥هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٨م.

والمجاملة، فلضيف الضيف معزة مضاعفة.. وهكذا فقد انهالت الوصفات البلدية والعصرية والطبية الحديثة على رأسي لمحاصرة هذا الوبال الذي اضطرني بمضاعفاته السريعة لملازمة الدار.. ثم الفراش.. وقد أكدت لكل منهم حسب ممارساتي الزكامية السابقة.. أن كل جهد يبذل في هذا الأمر عبث في عبث.. فإن للزكام أياماً معينة لا بد أن يبقاها وألا سبيل للهرب منه قبل انتهاء موعده المقرر ويتراوح بين الخمسة والسبعة أيام.. وفي بعض المرات يراعى العدد المستحب شرعاً فيزول في مساء اليوم الثالث من قدومه.. إن شاء الله.

ومن هنا يتبين لنا أن الزكام فردي في مدة الإصابة منه.. زوجي فيما عداه وبالأخص في فتحات الآناف.. وإنه ممن يحترمون المواعيد المقررة للقدوم وللذهاب.

وطريقتي القديمة لا لمعالجته.. بل لمسايرته.. ولأخذه على قدر عقله.. تتلخص في الأخذ بعدة أمور أهمها الآتي:

أولاً ـ العطس في وجه كل من بيني وبينه ثأر قديم أو جديد.. على شرط أن يكون على مقربة مني.. لأضمن وصول العدوى إليه.. بالتأكيد..

ثانياً ـ ويقتضي ذلك عدم الراحة متى أحسست بالقدرة على مغادرتي المنزل لأضمن اصطياد أكبر ممكن ممن بيني وبينهم تارات.. وأحياناً يتم ذلك لمجرد المعاكسة البريئة ولضمان أكبر عدد من الزملاء المزكومين.

ثالثاً ـ الإصرار مني على بقائه والتشبث به باعتباره الوسيلة المضمونة لنزح هذا المخزون المخاطي المحشور في جميع الأركان

الداخلية بالرأس لأنني والحق يقال أشعر براحة وبصحة وبنظافة بعد انتهاء دورته الأسبوعية وأحتفظ لنفسي وحدها بباقي الأمور.. ومنها استعمال الليمون على شرط أن يكون بنزهيراً.. وإن انعدم فليكن شعيرياً.. والأمر لله.. ولقد قلت الآن بالمناسبة على الماشي:

طب الزكام فيتامين وليمون

فحرف.. س .. بها يا صاح مضمون

وراحة البيت شرط لازم لهما

بذاك أفتى.. وقال العم ميمون!!

* * *

ـ ٨٤ ـ

ووصلا لما سبق أمس عن ابن الرومي.. فقد قرأت يومي هذا خطفاً بعض قصائده الشعرية التصويرية.. وأغلب شعره يقوم على الصورة المرسومة بدقة ومهارة.. وعلى تكامل الملامح والقسمات لا ينقص من سماتها شيء.. فقد كان أبرز ما فيه استقصاؤه الشامل لأي موضوع يتناوله في قصيدة مطوّلة أو في مقطوعة قصيرة.. وبجملة بلدية قحة فهو من أكبر أبطال.. التصفية والتحتيل..

وأشعر أن من الواجب علي قبل أن أشرك سواي معي في الاستمتاع بالرمز المختار له أن أوجز خطفاً كذلك ترجمة بسيطة للشاعر..

ـ فاسمه علي بن العباس بن جريج.. أو جورجيس.. موسى عبد الله بن عيسى بن جعفر وكنيته أبو الحسن.. ويعرف بابن الرومي.. نسبة إلى أهله..

ـ وقد ولد في بغداد في الثاني من رجب عام مائتين وواحد وعشرين هجرياً.. ومات في الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام مائتين وثلاثة وثمانين.. وأظلته ثماني خلافات عباسية..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٦هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٩م.

ـ ولم يسلم من هجائه ومن شتمه أحد.. وكانت زفارة لسانه هذه سبباً في موته.. فقد هجا وزير المعتضد أبا الحسين القاسم بن عبيد الله والذي عرف فيما عرف من استبداد وإقدام.. بجرأته على سفك الدماء.. فأوعز إلى ابن فراس حيث دس له السم حين أطعمه خشتكانة وهو في مجلس الوزير.. فلما أكل ابن الرومي أحس بالسم.. فقام من المجلس.. فقال له الوزير.. إلى أين تذهب؟.. فأجابه إلى الموضع الذي بعثتني إليه.. فقال له الوزير سلم لي على والدي!! فقال له ابن الرومي.. ما طريقي على النار!!

ـ وخرج من المجلس وأتى منزله وأقام فيه أياماً.. حتى مات.. أما ما يسمح به المقام من صوره الشعرية والتي طالما رددناها مع من رددها فقوله وصفاً لرجل أحدب:

فصرت أخادعه.. وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه.. مرة وأحس ثانية لها.. فتجمعا..

علماً بأن الأفادع والقذال مما هما ما نسميه بالعامية.. حبال الرقبة.. وكذلك قوله في خباز ورقاقة:

ما أنسى لا أنسى خبازاً مررت به يدحو الرقاقة.. وشك اللمح.. بالبصر
ما بين رؤيتها.. في كفه.. كرة وبين رؤيتها.. قوراء.. كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء.. يلقى فيه بالحجر

وليس بعد دقة هذا التشبيه من دقة:

ومن قوله في قصيدته عن مغنية اسمها وحيد:

لست أدري إذا أطال إليها كرة الطرف مبدئي ومعيد

أهي شيء.. لا تسأم العين منه أم لها.. كل ساعة.. تجديد؟

* * *

ـ ٨٥ ـ

في صباح هذا اليوم ـ ولأول مرة في حياتي ـ أخذ هو يقرأ.. وأنا أسمع.. وألممت بموضوع القراءة جملة.. ولم أستوعبه تفصيلاً كعادتي لما أقرأ.

وخرجت من الأمر بتجربة جديدة.. إلا أنها كانت تجربة قاسية ومريرة على نفسي وذهني.. واعتبرتها محنة أتعشم ألا تتكرر.. كقاعدة تدعو إليها الضرورة العارضة.. أو الدائمة لا قدر الله ذلك..

وكان السبب في قراءتي ـ بالواسطة ـ اليوم.. أن نظارة النظر حبيبتي.. ورفيقة أرنبة أنفي قد تاهت بعيداً عني حيث سقطت دون استئذان مني خلف السرير.. ولما كنت بها أعرف مكان نظارة القراءة فقد تعذر عليَّ معرفة مقر هذه الأخرى التي استلقت دون تقدير المسؤولية فوق المكتب.. أو تحت الكرسي.. وبحرقة من التجربة أخذت أتفلسف للعزاء وحده في الأمر.. فتيقنت.. أن في الاعتماد على الواسطة.. ضياعاً يصل إلى درجة التيه لا تعرف به برك من بحرك.. وإن قائل القولة المشهورة.. إن ذقن فلان بيد غيره.. لا بد أنه مر بتجربة الاعتماد على.. الواسطة.. مثل اليوم.. ليصوّر في هذه الجملة البسيطة في

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٧هـ ـ ١٩٦٧/١٠/١٠م.

مفرداتها والعميقة في مغزاها ما يجر إليه عدم الاعتماد المباشر على النفس ـ أو على العين ـ من جرائر!

كما عرفت فضل مثلنا المعروف.. اللي ما يأكل بيدو ما يشبع.. فقياساً عليه.. اللي ما يقرأ بعينو ما يفهم.. فضلاً عن الحرمان المقام من المتابعة المباشرة للسطور ولمح ما وراءها.. وبالأخص للمؤمنين بقراءة ما وراء السطور وأنا واحد منهم للأسف الشديد!

وعقدت مقارنة بسيطة بين الأكل بالواسطة.. واسطة الشوكة والملعقة والسكين تصل كل واحدة منها بين الطبق وبين الفم.. دون تحسس الصنف تحسساً مباشراً بالكف وبالأصابع وبين الأكل بيده تكتمل له حالة التلذذ لمساً مباشراً.. وامتلاكاً طبيعياً للقمة ذاتها جملة.. وللطعام بها تفصيلاً.. يجنبه ذلك دون شك تسلل شوكة من السمك أو عظمة دقيقة من اللحم بالطعام..

وخرجت في التفلسف والمقارنة من حدود الذاتية إلى محيط المجتمع نفسه.. وأدركت الفرق بين من يقوم بقضاء حاجاته وأغراضه رأساً وشخصياً وبين من يعتمد في ذلك على الواسطة استعانة بسواه من الناس.. ورددت في ترجيع منغم على طريقة بعض الطقاطيق العصرية والملحنة محلياً بالسليقة ودون نوتة موسيقية.. قول القائل:

ما حك جلدك مثل ظفرك   فتول أنت جميع أمرك!

ويظهر أن ورود كلمة الحك.. في هذا البيت الشعري استنفرت موضع الحساسية في الأجزاء المعتادة على نظارتيَّ الاثنتين.. فأخذت أدلك أرنبة أنفي في حنين متواصل.. وأدعك أطراف جفوني في صبابة..

وأفتح عيني وأغمضها مما دفع بالقارئ إلى الشك بأنني أتغامز مع نفسي عليه.. فسكت عن القراءة دفعة واحدة.. وقال: لعلّي كثير الخطأ.. أو قبيح الصوت.. فأجبته: لا هذا ولا ذاك.. وإنني لشاكر لك تطوعك بالقراءة ولكنني أكون أكثر امتناناً وأعظم شكراً لو بحثت لي عن نظارة النظر لأجد بها نظارة القراءة..

وقد فعل.. ووجدتها.. حيث خطفتها من يده في لهفة واكتشفت بها موضع أختها الغادرة وأخذت ـ دون استئذان منه ـ أعيد قراءة ما سمعته منه بعيني.. لا بعين عمرو!

❊ ❊ ❊

ـ ٨٦ ـ

قال لي ضحى هذا اليوم ـ وهو يحاورني ويداورني لأمر في نفسه.. ترى هل تعتقد بالالتزام في الصداقة وبين الأصدقاء؟ وفسر ما أراد بقوله:

أنت تعرف أن للقرابة بين الأقرباء. أباً. أماً.. أخاً.. عماً، خالاً.. إلى آخر المفردات العائلية، التزاماً لحمياً ودموياً يفرض على القريب نحو قريبه القريب و البعيد حقوقاً لا معدى ولا محيص من أدائها.. توجب عليه أن يفرح لفرحه. وأن يأسى لأساه.

وأخطر وأهم ما في هذا الالتزام وجوب العون وقت الضيق.. والوقوف بجانبه، وشد أزره. نزولاً على قانون القرابة المكتوب بقطرات من الدم على صفحات من اللحم.. ومن العظام كذلك.

ولذلك.. فقد كان من الطبيعي البديهي أن تكون الإساءة من القريب لقريبه خرقاً فاضحاً لهذا القانون.. وشذوذاً نابياً فيه.. مما دفع الشاعر العربي القديم لأن يصرخ من جمجمة رأسه قائلاً:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة.. على النفس من وقع الحسام المهند

وعليه.. فهل يطالب الصديق صديقه بما يطالب به القريب قريبه؟

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٨هـ ـ ١٩٦٧/١٠/١١م.

بحكم أن الصداقة نوع من القرابة مما دفع بعضهم لإرسال مثله السائر ـ رب أخ لك لم تلده أمك ـ إيماناً منه بعمق رابطة الصداقة.. وفرضها قانوناً حتمياً على الصديق نحو صديقه.. يسر بسروره ويترح لترحه.. ويقف بجواره وقت الشدائد. ويسنده عند الضيق.. ويفزع له وقت الفزعة.

فاستمهلت السائل المحاور.. وأغمضت عيني لأستعرض أشرطة طويلة متنوعة.. ولأسترجع فصولاً متباينة من تاريخ الصداقات والأصدقاء. علماً بأنني من أشد المؤمنين المتعزين بتواريخ أصدقائي فعلاً.. وإن الأمر كله متوقف على الألفة والمعاشرة.. وربما قضى الصديق مع صديقه من الزمن اليومي.. أكثر ما يقضيه مع أقربائه.. أو بعض أهله.. ثم قلت:

نعم.. بالفم المليان.. وبالصوت الحياني كما يقولون إنني من المعتقدين والمؤمنين إيماناً أعمى.. كإيمان العجائز. بالالتزام في الصداقة وبين الأصدقاء. وأرجح أن ذلك بالنسبة لي يعود إلى عدة عوامل أهمها.. فيما يلوح الآتي:

أولاً: ربما يرجع إيماني بالالتزام في الصداقة إلى أنني رجل بلدي قح.. والناس البلديون عاطفيون صادقون في عواطفهم ببساطة وعمق.. وحتى لقد بلغوا في هذا الباب حداً جعلهم يتوارثون في مغالاة ودون حكم قضائي شرعي مثلهم الشعبي الدارج.. والقائل مع حذف ما قبح منه:

للصاحب على الصاحب ثلاثة: كيس.. و.. وشهادة ما يوجب الحد شرعاً.

ثانياً: معظم أصدقائي إما ممن جمعتني وإياهم مناضد الدراسة لم أغيرهم ولم يستبدلوا بي سواي.. وإما ممن ربطت بيني وبينهم مناسبات

قوية زادت على الأيام رسوخاً.. ولعلّك تدهش إذا عرفت أن عمر صداقاتي مع معظمهم تتجاوز الربع قرن.. ويشرف بعضها بعد قليل على ضواحي النصف قرن.

ثالثاً: ومقياس إنسانية الإنسان عندي مبلغ التزامه بصداقاته.. ووفائه لأصدقائه.. وأبغض شيء إلى نفسي تنكُّر الصديق لماضيه.. أو مجافاته لمن كان يألفهم في الموضع الخشن.

ولولا ضيق المجال لسردت عليك العبر في هذا الباب تفرغت له نثراً.. وشعراً.

وأخيراً.. فمهما كان رأيي فيما سألتني فيه الرأي فإنني سوف أدبر لك السلفة الأخوية المطلوبة.. ولكن بعد أن أبيع النسخ الباقية من كتاب المركاز.. وتعانقنا.. دون أن أمكنه من إدخال يده في جيب الثوب.. رغم خلوه تماماً.. وذلك حتى لا يعتاد على ما لم يعتد عليه!.

❊ ❊ ❊

ـ ٨٧ ـ

وضمنا اليوم مجلس جمع بعض ذوي الرأي والفكر من حملة الأقلام كما سماهم أحد الموجودين.. وكان ذلك في دار أديب شاعر احتفاء بأديب كاتب..

وجرى الحديث متقطعاً خاوياً قبل الغداء خواء المعدة.. ولكنه أصبح بعد الطعام جماعياً دسماً دسم الطعام نفسه.. وعرض تقدمي معروف فكرة الاستعانة بالسينما في إبراز بعض المواقف والمعارك الإسلامية ابتداء من غزوة بدر الكبرى.. وانتهاء بالفتوحات الإسلامية الأخرى..

وكان طبيعياً أن يتطرق البحث للتمثيل للموضوع.. وللشخصيات جوازاً من عدمه.. ولأشخاص الممثلين ومستوياتهم المعلومة.. وللقدرة المالية لا يتم شيء من هذا إلا بها.. إلى غير ذلك مما لا تتصل وتتلاحق أنفاس البحث إلا به..

وقيل ما قيل.. وانتهى الحديث كما تنتهي به كل أحاديث المجالس العابرة مبتوراً.. متناثراً.. طائراً في الفضاء مع الهواء كسحب الدخان ترمز

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٩هـ ـ ١٩٦٧/١٠/١٢م.

إلى لذة من لذات الكيوف الوقتية لا يعدم بها صاحبها إزجاء فراغ.. ولا يأسى بعدها على ما فات..

وتذكرت بالمناسبة ليلة قديمة ضمتني وأحد إخواننا المولعين بعمليات استنفار بنات المخ في مهارشات فكرية تشبه صراع الديكة.. دون متفرجين ـ إلى حد بعيد ـ فقد كان الموضوع الرئيسي بها آنذاك.. السينما.. أداة جبارة مسيطرة في عصرنا الحاضر على النفوس والأفكار.. والأسواق..

ومن بعض ما ورد بها على لساني مرة ولسانه مرات فقد اختلط اللسانان ليلتها اختلاطاً يصعب معه التفريق بين قصير وطويل.. وطرطوفة وطرف الآتي:

لقد كان للكلمة المقروءة سلطانها الجائر المنفرد والمعتز بوحدانيته بين الناس.. وأعني بهم القرّاء بالطبع.. فقامت دولة الكتاب والمكتبات.. ثم دالت دولته قليلاً أو كثيراً بالكلمة المسموعة لا تعدم مصادرها بالنهار طوله وعرضه.. وبالليل يصلك من جديد بصاحب الطول والعرض.. فكانت محطات الإذاعات يقصر عنها العد ويضيق بها الحد..

وأخيراً استقرت عظمة الكلمة مسموعة ـ مقروءة ـ مرئية ـ مصوّرة ـ ملوّنة.. تنتظم في قوالب موضوعية لا يمكن أن تخلص من بدايتها إلا بكلمة نهاية.. أو فاين!

فقارنت بين ما كان ذات ليلة.. موضوعياً.. وبين ما حدث اليوم.. مؤكداً أنه لا سبيل لاجتذاب الطوائف العديدة المختلفة من أبناء الجيل الحاضر!! نريد صدهم عنه.. ارتباطاً بما نحب ارتباطهم به في مجالاتنا

العربية والإسلامية إلا بما تكتمل فيه قوة الجذب وغلبة التأثير.. وسيطرة الهدفية له وفيه وعليه.

وتحاشرت كلمات الموضوع مكتظة في ما ضفى.. يزاحم بعضها بعضاً ليضمن الأولية في السرا.. لنفسه، فقفلت الأمر بأخذي قليلاً من الماء المثلج ضمن لي المضمضة.. فالقذف بها معه.. بقاً واحداً أكدت لي رغاويه المنفرطة حصول البراءة.. والاستيراد من بعض ما قيل ومما لم يقل حتى الآن!

* * *

ـ ٨٨ ـ

منذ صدور البيان الملكي.. ولا حديث للناس إلا عنه.. حديثاً يسمو به الجهر.. حيث يستعصي على مثل فحواه السر.. فقد جمع بين التوقيت زمناً تجار فيه القلوب والنفوس المؤمنة إلى الله رفع هذه الغمة الصهيونية عن العرب وعن المسلمين.. وبين مجابهة التطرف في أعمال وبدع لم يعد يحسن السكوت عليهما. كما وفق بين التنبيه سنة صالحة سامية بها يبتدئ كبار النفوس فاتحة الإشارة.. للإرشاد.. وبن واجب التحذير.. تمشياً مع القاعدة العتيدة تمثلها الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥).

ومسايرة للطبيعة مجازاً في المسميات في قول الشاعر:

والعبد يقرع بالعصا   والحر تكفيه الإشارة

وقبل كل شيء.. فالإجماع قائم من الجميع على أن الخير كل الخير فيما دعا إليه البيان الملكي.. حرصاً على عماد الدين.. صلاة مفروضة لاقية ولا قوام للمسلم إلا بها.. وتمسكاً بتقاليد وعادات لا يتضح الوجه العربي الأصيل.. ولا يستقيم الخلق الإسلامي العتيد إلا في

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/١١هـ ـ ١٩٦٧/١٠/١٤م.

التحلي بها كياناً وقواماً.. ويل أصحابهما من الضياع إن تهاونوا.. أو فرطوا في أي منهما جزءاً .. أو كلاً..

وفي هذا اليوم كما في الأيام التي سلفت منذ صدور البيان جرى الحديث.. وطاب البحث في موضوعه على كافة المستويات.. فقد تواتر السؤال والجواب من الأفراد عما كان عليه الحال وما كان منتظراً أن يؤول إليه لو استمر.. وعما ينبغي أن تكون عليه الأمور.. حجراً على سفاهة.. وصداً لتيار خطير.. ومنعاً للعب بالنار قبل أن يشب حريقها الكبير الواسع الانتشار؟!

وقد جمعتنا اليوم بعض المجالس على مستوى أمير.. ثم وزير.. شارك فيها رفقاء الرحلة من مدير مؤسسة عام.. ورئيس تحرير جريدة محلية كبرى.. والعبد لله.. وحتى لا تختلط المرئيات بالبواعث.. وحتى لا تدور الرأس بين مضمون.. أو شرح.. أو تفسير.. وقطعاً لدابر الغمز واللمز ألفناهما في أمثال هذه المناسبات الضخمة.. فإنني أوجز الخلاصة والجوهر لمادة حديث الأفراد في الأول.. وجوهر المستويات المسماة في الثاني في برشامة.. وأصانص.. كما يعبر عن الخلاصات المركزة بلغة الصيدليات.. والمعارض الفنية بالآتي:

١ ـ لا بد وأن يفتح البيان بمضمونه ومغزاه سؤالاً ضخماً.. ومحاورة دائمة لتعريف معنى المدنية.. والحضارة تعريفاً يفتح العيون على حقيقتهما دون التباس .. ومن غير الأخذ بمقياس المظاهر..

وللمثال.. فبالأسلوب البلدي الدقيق.. هل ينفي اللباس المحتشم الساتر للعورات والمغطي لما جاورها كلاً من جسد الفتاة أو المرأة الكاملة صفة التمدن؟! أم أنه لا مفر لتحوز كلاهما لقب المتمدنة العصرية أن

يكون لباسها أوراق توت تسمى ـ ميني جوب ـ أو ميكرو جوب ـ يعرض بها اللحم رخيصاً مبذولاً للنظرات الوقحة.. والعيون الناهشة لا تجد مجالاً لتشويه جسد عريان بذاته؟!

وللمثال كذلك.. هل ينفي عن الشاب المسلم صفة المودرنية في قاموس التمدن والحضارة أن يكون محافظاً على لباسه التقليدي.. وسمات رجولته الكاملة؟! أم أنه لا بد أن يرخي على جبينه غرته.. وعلى أصداغه خصلات من شعره المتموج أو المنهدل.. وأن يعلق برقبته سلسلة ذهبية.. وأن يطوّق معصمه الرقيق بطوق فضي.. حتى يكون مستحقاً بجدارة لحمل لقب البيتلز.. أو الجيمس بوند.. أو أن يعري صدره نافشاً شعاراته ليكون طرزان اليوم؟

إن المدار الحقيقي لقوام التساؤل والمحاورة ينبغي أن يسير في طريق المعرفة المفتوح للاستقرار على المفهوم الحقيقي الخالص لمعاني المدنية.. والحضارة إلا حيلتين مع تقدير رصين.. ووزن ثابت لروح العصر ومتطلباته.. دون التفات للجزئيات القديمة المشوية يوردها ساخراً.. أو ناقداً.. أو موازناً من يردد مع المتنبي:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غير مجلوب!!

* * *

ـ ٨٩ ـ

وربطاً للموضوع في موضوع البيان الملكي.. وما دار في الجلسة إياها جمعت بين من جمعت استطراداً يقول بضرورة الآتي:

وأن يطول نفس البحث استعراضاً حقيقياً لما يعانيه الموردون الأصليون لهذه البدع المستوردة لا تقتصر على زي في لباس.. أو حركات متثنية مقصمعة في مشية.. واعوجاج بق.. واسترخاء شقة متأوهة في ألفاظ مرجرجة دعاءة في منطوق يدعو لما يستوجب الحد الشرعي.. بشهود منه عليه..

فلقد ابتدأت باريس مدينة النور نفسها أو الحرية كما يسمونها.. تضج من هذا التبذل بلغ المدى حتى اضطر الحاكم بها إلى شن حرب عوان على الميني والميكروجوب ومتفرعاتهما.. استجابة لصرخات التقزز والاستنكار من الجنسين الناعم والخشن على السواء..

كما أخذت بيوت الأزياء وقد أدركت أنها بتجاوزها حدود الركبتين ووصولها إلى ما لا يباح الوصول إليه حتى في المخادع إلى أن تعلن من حوالى أسبوعين أن المودة الجديدة ستكون الستر الطويل ربما بلغ العقب.. أي حق الرجل!..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/١٢هـ ١٩٦٧/١٠/١٥م.

كما تواترت الصيحات.. والنكات.. والسخرية اللاذعة بهؤلاء الفتيان المتخنثين في لباسهم ومظهرهم العام.. وسلوكهم الاجتماعي إلى الدرجة التي يتعذر معها التفريق بين البنت وبين الولد.. وإن أصبحوا اليوم قاب قوسين أو أدنى من نقل أسمائهم من قاموس الرجال.. إلى قائمة البنات والنساء.. حيث ساعدت الفتاة باسترجالها على تقريب الشقة بينها وبين أي من أولئك المستبنتين..

ولعلّه بذلك قد أصبح حقاً لهؤلاء المتخنثين أن يطالبوا قريباً بحق إطلاق نون النسون عليهم بما أكسبته إياهم مظاهرهن.. وحركاتهن.. ورخاوتهن الغلمانية البناتية..

وعلى علماء النحو في العربية.. وأدوات التعريف الذكورية والأنثوية في اللغات الأخرى أن يحسبوا منذ الآن حسابهم لما يترتب على هذا التطور اللغوي الخطير.

ويلتصق كثيراً بمادة إطالة نفس البحث فيما يعانيه المستوردون الأصليون لهذه البدع المستوردة.. أننا لا بد لنا من مصارحة أنفسنا أفراداً وجماعات بمغزى مثلنا السائر.. أهلو سابوه والجن استلقوه!!

كما لا بد لنا من إلقاء نظرة هنا.. وأخرى هناك لنرى مثلاً الفتاة والمرأة الباكستانية واليابانية رغم أخذها لباب المدنية والحضارة العلمية وروحها إلا أنها لا تزال حتى اليوم حريصة كل الحرص على زيها التقليدي وعلى الساري ـ والكيمو.. مصدر اعتزاز.. والتزام بقوميتها.. بل وبآدميتها وإنسانيتها لا ترضى لجسدها الهوان حتى يكون لحم نعجة في فترينة من زجاج يعرضها جزار بائع.. لجزار زبون متقزز متمنع عن الشراء أو الاقتناء!!

والطريقة لضمان هذا قيام الصحف بعمل مقابلات مع أفراد الشعب في كل مدينة وبلد وبأي مجتمع لمباشرة عمليات انفتاح القلوب ودلدلة الألسنة.. على أن يضمن ذلك.. والعارف لا يعرف صدى البيان وأثره.. تصوير الحالة.. طرق معالجتها.. أحسن الأساليب لها.. تعريف المدنية والحضارة في المفهوم الفردي.. التزام كل فرد بما يجب نحو نفسه وأهليه.. ونحو مجتمعه دعوة طيبة بالحسنى ـ ما دام القصد واضحاً ـ والله من وراء القصد.

* * *

ـ ٩٠ ـ

وصلة للوصل في موضوع البيان الملكي ـ وما دار في الجلسات إياها ـ وما تعلق به السؤال، وحدده الجواب.. استطراداً يقول:

ولا يصح لنا في بحث مضمون البيان الملكي أن نفرق بين الذكورة والأنوثة إطلاقاً.. فالسيئات تلحق أياً منهما إنما هي سيئات معطلة لركب المجموع.. باعتبار أن الكيان لأي شعب إنما يقوم فعلاً على مجهود الشاب والفتاة.. ندين لا يستغني هذا الكيان كله عن أي منهما.. كما يقول القائل:

يصعد الشعب بجنسيه إناث.. وذكور

وهل الطائر إلا بجناحيه يطير؟!

فإذا تقطعت أنفسنا حسرات على بداية الانزلاق فيما لا نحب لأولادنا ولبناتنا الانزلاق فيه.. فإنما نحن بهذه الحسرة نشفق على كياننا وعلى مستقبلنا من الضياع.. والتفكك.. والانحلال.. ونحن شعب لما يزل في بداية الطريق أو كما قلنا فيه يوماً:

المصدر: جريدة عكاظ ١٣/٧/١٣٨٧هـ ـ ١٦/١٠/١٩٦٧م.

لسنا من المجد في أعلى منارته
أو في الطريق.. قطعنا منه ما عظما
لكنما نحن شعب يرتجي أملاً
ضخماً.. وأغلى أماني الشعب ما ضخما

وعلى سبيل المثال.. فقد لوحظ من أمد بعيد أن الدليل على مودرنية الشاب و الفتاة أنه لا يحسن الوضوء.. ولا يعرف الصلاة.. ورغم أنه مسلم وذو دين.. وأن الصلاة عماد الدين ـ لا ينكسر وجودها ـ وتوفر الإيمان بأدائها..

ولست اليوم في سبيل الإشارة إلى نظرته للصيام أو للحج مثلاً فإن لذلك مجالاً غير مجال اليوم.. وبالمناسبة فإنني أذكر أنني حين جزت لولدي يوماً أن يصلي بالحذاء ما دام كذا وكذا.. فقد رفع عنه المتندرون به من زملائه لقب سيدنا الشيخ.. والحاج فلان!..

وجاءت المعركة العربية.. فأوضحت بما لا يقبل الجدل أو الشك أننا كنا فاقدين بها أول وأفضل وأقوى سلاح. وهو الإيمان!

ومن المؤكد في مجال البيان الملكي مضموناً.. أنه لا بد وأن تأتي الإجابة والاستجابة تلقائياً من كل فرد.. فالفرق كبير بين المستجيب للشيء والمكره عليه، ولذلك.. فإن على صحافتنا وقد ساهمت في الإبانة والإيضاح والإرشاد لما تضمنه البيان أن تتوخى الرأي العام استهدافاً مباشراً يتيح له القول ويسجل الصدى الحقيقي له، وما قد يراه كل فرد من الوسائل العملية لتحقيق الغاية منه..

فأنا وأنت حين نناقش أنفسا ونتناقش مع سوانا عن موضوع ما.. ويوم نقرر رأينا فيه.. تعاملاً مع واقع.. والتصاقاً مباشراً به سوف نصبح ملتزمين إزاء ذواتنا بما نتكلم عنه التزام تنفيذ طبيعي باليقين به.. وبعدم التلاعب الشخصي يقوم على «النقورة» الفنية التي وصف بها عجائز الفرح..

يأكل ويتنقور..

* * *

ـ ٩١ ـ

واستطراداً للحديث في الجلسات إياها.. في موضوع البيان الملكي اليوم يقول:

ولا بد وأن تتساوى أهمية مضمون البيان بالأهمية الشائعة يضطلع بها مع الأفراد بحثاً ومناقشة.. ورأياً حراً صريحاً فيما يجب أن يباشر ويعالج في هذا الشأن لضمان الغرض النبيل منه.. فإنه يتعيّن كذلك أن تكون العناية كاملة به من الأجهزة الرسمية الإعلامية ـ مثلاً ـ كالإذاعة وكالتلفزيون مساندة للصحف.. بعقد الندوات المسموعة.. والمرئية تنصب إسهاماً طبيعياً لا تكلف ولا تصنع فيه ليتناول المفهوم الصحيح للحضارة وللمدنية.. وللسلوك الإسلامي تقوم قواعده على الجوهر دون احتفال بالقشور.. أصبح معها المسلم مسلماً جغرافياً على حد التعبير القديم لكل مواطن ببلد إسلامي يكتفي بالصفة دون الموصوف..

وأذكر في هذا المجال قول الشيخ المرحوم محمد عبده.. لقد رأيت الإسلام في أوروبا ولم أر المسلمين.. كما رأيت المسلمين في بلادنا ولم أر الإسلام!!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/١٤هـ ـ ١٩٦٧/١٠/١٧م.

وكذلك النادرة الآتية تقول.. ذهب أحدهم لملء خانات استمارة طلب سفر.. فوضع عمره في خانة السن.. كما وضع حالته الاجتماعية في خانتها.. وكذلك محل مولده.. وإقامته.. و.. و.. إلى آخر الخانات المفتوحة في أمثال هاته الحالات.. وحين سأله الموظف المختص عن الديانة لملء خانتها أجابه.. حط فيها صفر!!

وهكذا يكشف الواقع نفسه.. دون استشهاد لما وصل إليه حال التهاون بالعقيدة وقوامها.. اجتناباً للاتصاف بالرجعية أو بالتزمت على أهون الأحوال.. وتمسكاً بالانتساب للعصرية وللمودرنية الحديثة تقومان مظهرياً على التبرؤ من ممارسة واجبات الإيمان وأركان الإسلام..

ويضرب لنا الأمثال الحية في هذا المجال أولئك الرجال الكبار.. والسيدات العظيمات الذين ملأ قلوبهم ونفوسهم وعقولهم الإيمان.. والعلم.. والمحافظة على التراث والكيان لبلدهم.. يعظمون بذلك في أعين الغرباء.. ويبرزون أمثلة فاضلة قويمة يوماً بعد يوم..

كما أنهم بذواتهم القوية وتشبثهم بعاداتهم.. وبأزيائهم.. وبأصالتهم إنما ينتصبون رموزاً عالية راسخة.. يصفع مرآها كل يوم أولئك الممسوخين يعبدون كل جديد.. بدعة عصرية يتمسكون بها مظاهر تبيح لهم صفات المودرنية الحديثة تبرُّءاً من كل قديم مهما كان.. عقيدة.. أو زياً.. أو سلوكاً في الحياة.. ومع الناس.. كأنما ينفذون دون فهم وبأبجدية لفظية قول الزهاوي:

سئمت كل قديم عرفته في حياتي

إن كان عندك شيء من الجديد فهاتي!

* * *

ـ ٩٢ ـ

ويتصل اليوم كسابقه بموضوع البيان الملكي استمراراً مع ما دار في الجلسات إياها جمعت في المستويات الاجتماعية بين أمير.. ثم وزير.. مع مدير مؤسسة عام.. ورئيس تحرير جريدة محلية كبرى.. والعبد لله.. فيقول:

ومن المفروغ منه أن يحمل واجبات توضيح روح البيان ومضمونه وأهدافه أولئك الذين تقع على عواتقهم.. وتجيء في أولى قائمات مهماتهم وظائف التوعية الدينية.. والإرشاد الإسلامي.. والتبصير والتذكير.. تحبيباً إلى الفضائل.. وتحذيراً من الرذائل بمبتدعاتها المحدثات.. لا تصلح جوهراً.. ولا تقيم كياناً.. بل تقف عند حد التبرج والشخلعة.. والجري وراء الزخارف المستوردة بكل أشكالها.. ومجال أصحاب السماحة والفضيلة في هذا المجال معلوم.. ومتفرد.. وأن لهم أن يجددوا فيه مداخل ومخارج ومقامات.. ومنابر.. وهم الأهل لكل ذلك..

ويأتي الرديف لهؤلاء وأولئك.. في مكان التجمعات اليومية والجمعية في المساجد.. نأمل من خطبائها أن يكونوا كالظن بهم في

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/١٥هـ ـ ١٩٦٧/١٠/١٨م.

المستوى الذي يدعو إليه البيان جملة.. ويترك لهم التفصيل.. تبصيراً وتوجيهاً لا ببغاوية فيهما حيث أن النهج واضح.. والطريق كله نور.. ومكشوف..

ولقد بقي أخطر العناصر في مجال الرقابة.. ثم التنفيذ لمضمون البيان الملكي رقابة وتنفيذاً يقومان على المفهوم النظيف والسامي سمو الهدف في رحابة صدر.. وحلاوة لسان.. وبباعث من الإيمان بارتفاع القصد عن الدنيويات الزائلة وحماية المثل العليا لذاتها.. فلم تعد العصا أداة جذب واجتذاب وتآلف ومحبة.. بعد أن أصبحت السجون ذاتها أداة تهذيب وإصلاح.. ولقد قيل قديماً.. رب إشارة أبلغ من عبارة.. والعبارة نفسها مع الإشارة خير ألف مرة في الوصول إلى قاع النفس وحدوث المراد.. من الطويلة أو القصيرة لا يتعدى أثرها حدود الجسد من لحم وعظام!.. تدفع إلى الإصرار وللعناد أكثر مما تقرب بين الداعي باللسان والملبي بالقلب.

ولقد قلت في ذلك الوضع والموضوع أياماً جاهلية الفهم والأداء من الديوان الموءود والمكرور الذكر في المناسبات الداعية إلى نشره بعد طي طال عليه:

قيل.. هذا آمر بالخير.. ناه عن سواه

من عصاه اليوم.. قادته إلى الدرب عصاه!

قلت: عسف الدرب لا ترضاه بالحي الحياه

إنما تخشى عصا الراعي.. فتنقاد الشياه!

❊ ❊ ❊

ـ ٩٣ ـ

وقال لي ضحى هذا اليوم ظريف خبيث.. كأنما اختاره كل من الظرف والخبث يتنازعانه فيما بينهما لتوفر عنصر كل منهما فيه توفراً لم يجداه في غيره من الناس.. فحقق لهما الظن بما أملاه فيه.. وضغط بهما ما يقيم التوازن بين الخير والشر في هذه الحياة بما لا يستقر معه اليقين إلى ترجيح كفة الخير أو الشر بين ميزاني الشريعة والطبيعة مما دفعني يوماً ما للقول:

قيل: حب الخير.. للخير.. شريعة   قلت.. لكن نزعة الشر طبيعة..

قال لي ضحى هذا اليوم هذا الظريف الخبيث.. ترى ماذا أردت وتريد بهذا الحديث عن البيان الملكي توسع به المضامين.. وتلملم فيه الأطراف موضوعاً شغلت نفسك وشغلتنا به؟.. لكأنك في نظري تدخل بذلك قفصاً ذهبياً في دنيا الأدب وعالم الحياة المزدحم بالناس وبالأفكار.. ولقد أحسست بكلامك هرشاً جديداً في ذهني يدفعني للخوض معك في هذا الحديث دفعاً لا أستطيع له رفعاً عنه..

فأجبته.. إن ما أريد من حديثي أن نكون يوماً موضوعيين فيما

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/١٧هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢٠م.

يهمنا من شؤوننا المباشرة تتعلق بنا وجوداً فردياً وكياناً عاماً.. وتربط بيننا وبين أجيالنا الصاعدة أبناء وبناتاً لنا نحيا اليوم ناسين ذواتنا لتكوين ذواتهم.. أما ما هو أصلاً.. وما قيمته الكبرى فإنني أشبهه موضوعاً بمحوّل صغير من محوّلات قطار السكة الحديد المندفع في طريقه الرهيبة الطويل ـ يأتي هذا المحول.. أي البيان الملكي، ليغير اتجاه القطار له من كارثة محققة إلى الوصول في أمان الله إلى محطته الكبرى في الطريق السليم المأمون..

وهذا التشبيه للحقيقة وللتاريخ من تشبيهات رجل دين عظيم كان لي في يوم من الأيام صديقاً صادق الود.. خالص الدعوة والإرشاد في سبيل الله..

قال.. نعم.. إنني كذلك أرى أن تتخذ بلادنا من هذا البيان صيحة عامة في طريق الخير نستعين بما ترتب على الإنابة والاستجابة لمضمونها الكبير عوناً على هذه النكبة زلزت عقيدتنا.. وقلبت كل أفكارنا ومعتقداتنا.. وجعلتنا نعيد النظر ملياً في إدراك الأسباب يعلو بها اليهود رقاب العرب والمسلمين يعتزون في مطالبهم ونتذلل.. ويستكبرون بالقوة فنتخاذل بالضعف ونتوسل.. ولو أننا كنا فعلاً لا قولاً ولا تلاوة نقف عند حدها فحسب منفذين المضمون لهذا البيان الكريم.. مؤمنين بالله عملاً صالحاً مؤدين لصلواتنا أداء العقيدة لا صفتها المنظورة.. متمسكين بعاداتنا الأصيلة.. نابذين البهرج الكاذب في التشبه بسوانا تشبهاً يقف عند حد الزخارف لا تكلف عناء ولا رهقاً في الملبس والزي والسلوك العام.. و.. وإلخ.

لو أننا.. كنا كأسلافنا فعلاً لما كنا على ما نحن عليه اليوم..

ولقلنا في حربنا لكل أعدائنا الأصول والذيول.. غير خجلين.. كم فئة قليلة.. ولأيدنا عملياً أنها ليست معجزة محددة بمرة واحدة.. وبزمن منقرض..

وأفاض حفظه الله.. وأسهب في فضائل التمسك بالله ديناً وبالإسلام نبياً.. وبالفرائض واجبات مرعية العهد والوعد لا نخجل من القيام بأعبائها خشية مسبة تلحقنا باسم الرجعية.. أو التزمت.. أو الخيبة الحقة.

فقلت صدق رسول الله ﷺ.. من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.. امض في طريقك يا شيخ.. وأكثر الله بيننا من أمثالك!!

* * *

ـ ٩٤ ـ

وركبت صباح هذا اليوم ذبابة سوداء فوق أرنبة أنفي الأسمر المفلطح.. وأخذت بأسلوب الكبار للكبار.. على طريقة الفن للفن.. أخذت في وقوفها هذا الموقف تتفلى.. وذلك بأن ترفع يدها اليمنى إلى رأسها تحك بها موضع التفكير فيه.. لتضعها ثانية.. ثم لترفع رجلها إلى ما بين جناحيها وصدرها لإزالة الوضر عن الجناحين.. ولنبش المكنون في الصدر.. تتركه بقعة داكنة على أنفي للذكرى.. أو التذكار..

وأخذت بدوري موقف الدفاع الصامت.. وأنا الإنسان الرجل العملاق أمام هذه الذبابة القميئة.. ماذا أعمل؟.. أأصفعها.. فأصفع أنفي وهو موضع الحساسية في وجهي.. لأسيل منه الدم نسحبه.. «رعافاً» على سبيل العزاء.. باعتباره فائضاً على الكمية اللازمة لأجسادنا؟.. أم أرفع كفي وأقارب مسايرة لديموقراطيتي موضع المحاكمة.. وآخذ وأعطي بينهما رويداً رويداً لأصطادها سليمة.. ثم أضعها أمامي معها.. لأسألها عن الدافع لفعلتها الشنعاء.. وربما أطلقت سراحها ثانية إن أدلت بأقوالها تبرر بها سلوكها باعتبار أن ما فعلته هو الطريقة الوحيدة لكسب رزقها في هذه الحياة، فقد رأت قريباً من أرنبة أنفي بقايا سائل مخاطي ذهلت أنا

المصدر: جريدة عكاظ ١٨/٧/١٣٨٧هـ ٢١/١٠/١٩٦٧م.

عن إزالته.. سهواً.. وجهلاً بقاعدة النظافة من الإيمان؟..

وما هالني ـ والحق يقال ـ ركوب هذه الذبابة هذا المرتقى الصعب.. وإنما هالني ذلك الطنين الزاهي منها كأنها به تشهد الناس جميعاً على قدرتها وعلى انتصارها على هذا المخلوق البشري السليط اللسان.. والطويل اليد.. تعجزه حشرة تافهة مثلها عن أن يفعل شيئاً في هذا الموقف الذبابي العسير؟

ولا أدري لم طافت بذهني رواية الناموسة والفيل.. وربما كان ورودها إلى الذاكرة دحرجة طبيعية للتسليم بمبدأ العزاء فأنا أصغر من الفيل.. وهي أكبر من الناموسة.. والعزاء في حياتنا كلها باعث حذر.. وتحذير.. فأنا وأنت أمام أكبر المصائب وأقلها لا نعدم سبباً للعزاء يحيل المصيبة الفادحة بالصبر والرضا والقبول تدريجياً.. إلى حادث كوني بسيط.. فكأنما هو البلسم الشافي من كل الأدواء ومن جميع المكاره.. بإذن الله..

وكانت لحسن الحظ أو لسوئه أمامنا أنا والذبابة مرآة مكنتني من أن أرى العدو بكل وجوده وبجميع حركاته على صفحتها.. وبفضل نظارة القراءة المكبرة للحروف أقرأها في بنط أكبر من حقيقته.. وللأشياء.. بما في ذلك الحشرات.. تبدو لي أكبر من جرمها الأصلي بعشرات المرات..

وقد حدث أخيراً ما لا يمكن أن يصدق.. فبمتابعتي لكل حركات تلك الذبابة رأيتها بعد أن استشارتني بجميع حركات المشاغبة والاستثارة والاستنفار ورأتني هادئاً بارد الأعصاب.. رأيتها وقد رجعت إلى عقلها بعد أن استزفت منه كل ما لديه من حيل ومكائد لم تقابل إلا بالصبر،

رأيتها تطاطئ رأسها لتقبل رأس الأرنبة من أنفي إكباراً وإعجاباً بحلمي.. وتطير ثانية في الهواء لاصطياد زبون أحمق غيري.. مصفقة بجناحيها.. قائلة في لغة ذبابية ركيكة الأسلوب والمضمون.. لقد قتلتني بالصبر!!

* * *

ـ ٩٥ ـ

وفي مساء هذا اليوم.. وعلى غير عادة مألوفة مني.. وتبديداً لنشاط جسدي طارئ لا يجد سبيلاً حيوياً لتبديده.. قررت أن أتشعلق في عقب الباب.. وأن أنحدر بواسطته كما كنت أفعل وأنا يافع صغير السن..

وحفظاً لماء الوجه من إراقته أمام أطفال البيت.. واحتفاظاً بوقاري لدى نفسي عاملاً بأسلوب والد أبي العلاء المعري الذي وصفه تخيلاً لشدة رزانته.. أنه حين يقوم من قبره يوم المحشر سوف لا يندفع جرياً مع بقية الخلائق فيضيع وقاره بل سوف.. يأبى الزحام فيستأنى!..

فقد رأيت قبل القيام بالشعلقة وبالمدرهة بعقب الباب الداخلي أن أقفل باب الشقة الخارجي، وفعلت ذلك بهدوء وأنا أستعجل لحظة مباشرتي للعبة التي ما أن باشرتها وأحسست بجسمي يتطوح في الهواء..رائحاً غادياً.. وفي الفراغ مدلدلاً ما بين «حلق» الباب حتى شعرت حالاً بلذة طاغيّة جارفة.. أدركت معها مقدار السرور والتلذذ اللذين يتمتع ويستمتع بهما هؤلاء الصغار من بنات وأولاد البيت.. والجيران.. والحارة..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/١٩هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢٢م.

ولقد كنت.. على تهيؤ تام لمتابعة هذه الشعلقة والمدرهة لولا وهن الكهولة لا يستحي من الظهور في أوانه.. فسرعان ما كلت يداي.. وبدا عليَّ الإرهاق.. وأخذت أنفاسي تتلاحق في زفير وشهيق غير رياضيين.. فعدت إلى السرير في تخاذل وارتخاء.. واستلقيت عليه ألفظ أنفاسي متحسراً على عدم القدرة على الموالاة لفعل ما ترغب النفس في موالاته.. ويعجز الجسد عن مسايرتها عليه.

وأخيراً وبعد استراحة طويلة.. قمت ففتحت الباب الخارجي.. وهبطت إلى الدور الأرضي لأشاهد في غيظ مكبوت أولئك الشياطين الصغار وهم يمارسون علانية بغير كسوف.. وفي ضحك متواصل.. وقهقهات عالية نفس العملية دون ملل أو فتور أو إرهاق.. ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ أتوماتيكياً من ممجبة رأس.. بس! بس! كفاية أنت هو! إيش هادي المصخرة؟..

ووجم الصغار.. وتلاصقت أجسادهم كأنما يحتجون في بعضهم بهذا التلاحم الصامت.. وحزنت جداً لانفلات أعصابي.. ولتعكير الجو المريح عليهم وخجلت من تصرفي ومن غيرتي الحمقاء.. فأدبرت قافلاً إلى حيث كنت.. وأنا أتمتم بمثلنا الشعبي الساخر:

إن بعد عليك العنقود.. قول: حامض يا عنب..

وفسرت على ضوء ما ارتكبت في خلوتي.. وما جنيته على هؤلاء الصغار بغيرتي منهم كثيراً من التصرفات الجائرة نسلطها غيظاً ـ وقصر الذيل ـ نحن الكبار في السن على أولئك الصغار في العمر.. من أطفال.. وغلمان وشباب..

* * *

ـ ٩٦ ـ

.. وفي هذا اليوم.. دخلنا عليه.. شخصية بارزة ممتازة مسؤولة.. ولم نكد نتخطى عتبة الغرفة حتى قابلنا هاشاً.. باشاً.. مرحباً بنا بأحلى جمل الترحيب.. وأرشق عبارات الألفة والمؤانسة.. ولما كان الوقت ظهراً تقريباً فقد ورد على لساني.. دون استدعاء له.. مثلنا الشعبي الدارج:

لاقيني.. ولا تغديني!..

ودار الحديث حلواً مضبوطاً.. فناب عن أكواب الشاي التي لم تعد تسمح بنود النثريات الدائرة بتواليها بعد جرس يرن ويطول.. أو تصفيق يتكرر.. فأفسح غيابها المجال للموضوعية وحدها.. دون شفط أو رشف.. وتركّزت نقطته الجوهرية في سؤال هام هو:

هل يكفي أن يكون أحدنا وطنياً أصيلاً من البلد ليحوز الأفضلية في إسناد عملية.. أو مشروع تجاري إليه.. بدلاً من مزاحمة الأجنبي باعتباره غير ذي عرق ممتد في هذه التربة؟..

وتم الإجماع على أن صفة الوطنية وحدها لا ينبغي أن تكون الميزة

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢٠هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢٣م.

الوحيدة ينال بها صاحبها الأولوية في ميدان الفن، والعلم، والاختصاص.. وما إلى ذلك على متصف بها.. خبير فيها.. عالم بموضوعه.. مختص فيه..

وحزقتني الأمثلة القديمة.. فقلت.. لقد كان المعلم ـ البناء البلدي قديماً ـ والسمكري والنجار و.. و.. يرى أنه باعتباره من أهل البلد أحق بالقيام بالعمل من سواه.. ولا يكاد يقوم به ـ بجهل فعلاً ـ حتى يصيبه العجز فيذهب بجماعة من أهل الخير والمروءة ليزيد صاحب العمل له مبلغاً جديداً على المقاولة بعد احتساب الفارغ والمليان بلغة الصنعة.. ولا يكاد صاحب العمل يستلمه منه إلا بعد مرور المدة المتفق عليها مضاعفة.. وفي حالة تنطق بالجهل بفنية عمله!..

وسردت.. وسرد سواي أصنافاً من المقالب البلدية في هذا الباب.. وأضافوا.. وأضفت أن الاحتكاك بالأجنبي المتمكّن من عمله وعلمه وفنه وأصول الكار بشتى أنواعه.. وإفساح المجال له في حياة كل الشعوب أسلوب ناجح للاستفادة بخبرته في شتى المجالات.. والميادين..

وبلغة الخطاطين.. فإنه لا بد من وجود المشق.. يقتبس منه الوطني بحكم المنافسة والغيرة ليقلده في الأحسن في كل شيء.. وهذه البنايات والفلل الحديثة.. وكذلك المطاعم والكازينوهات الجديدة.. والمشاريع المتقنة وسواها.. وسواها.. خير شاهد ودليل على أن الخبرة والعلم سبيلنا الأول حتى تتكوّن عضلاتنا في كل سبيل..

وقفلنا البحث.. وموضوع الحديث هو ما جئنا إليه.. بأن طلبنا كتعقيب نهائي أن تكون القاعدة الذهبية بعد هذا.. أنه في حالة تساوي

الوطني بالأجنبي في العطاء، وفي القدرة، والمهارة، والفن.. أن تعطى حينذاك الأولوية لقمة سائغة هنيئة وشرعية للوطني كتمييز مفروض بعد تكافؤ مؤكد.. وكان ما كان..

❊ ❊ ❊

ـ ٩٧ ـ

صحوت اليوم.. وعلى لساني لعلعة لا أدري كنهها هذا البيت:

ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضال!..

وقد ورد على لساني منغماً جاهزاً.. وحس طبق الأصل من صوت محمد عبد الوهاب يمر في طبلة أذني.. دون أن يركبني الغرور فأخلط بينه وبين اللعلعة الصادرة من حلقي والمختلطة بكحكحة تجبرني على تقطيع كلمات البيت بطريقة مستفعلن فعلن.. في رزانة ـ وتعقل ـ واستسلام لبواعث السعال الصباحي اليومي المألوف..

وبعد أن استنفدت الغرض من ممارسة التطريب.. والاستفعال العروضي بالكلمات.. تاقت نفسي الأمارة بالسوء الأدبي والفكري أن أستعرض معنى البيت.. ومضمونه.. ومغزاه.. فخرجت حالاً بأن الشاعر ـ قبل المغنى ـ يحث على البطالة الذهنية.. ويحرض على قتل الحيوية مذهباً.. أو هدفاً.. أو سعياً لغاية عسيرة المنال في هذه الحياة الدنيا.. بحجة سفسطائية وحيدة أبويها.. ألا وهي أن العمر قصير فلا داعي لبعزقته في أي شأن يتطلب جهداً.. أو معاناة يبلغ أحدهم حد النضال في أية درجة من درجاته!..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢١هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢٤م.

وبصورة أخرى.. فالشاعر يريد من الحياة أن تكون تكية مضمونة الجراية الميسورة.. وخلو البال.. والتمطرق على إحدى دكاكها وولولة الساقين.. ومضغ موضوعها الوجودي.. بطريقة مدمني التامبول.. في الماضي ورقاً يعلك.. وريقاً يتحلب.. وأثر حمرة تشبه الدم على مجاري الشفتين..

وحمى دمي على منوال دنكشوت سرفانتس.. وتخيلت بطريقة الأب عزيز أن الشاعر نفسه قد تقمص صورة عبد الوهاب وأخذ يكايدني بترديد البيت لشيوعه على كل لسان.. فصرخت في وجهه بنفس الجمل التقليدية التي يرددها ممثلو المسرحيات الإذاعية:

أغرب عن وجهي أيها الجبان الرعديد.. إن الحياة تخلو من النضال. أياً كان مستواه.. ليست إلا مرعى سائمة من أمثالك..

إن الحياة بدون هدف تعارك من أجل الوصول إليه ليست إلا هندولاً من هناديل الأطفال.. لم يدخلوا باب الوجود الحقيقي بعد.. ليعرفوا ما معنى الوجود..

وهكذا مضيت في سكب المرازيب إياها على هذا الشاعر الكسول.. أرفع يداً.. وأشرع أخرى.. حتى إذا دخلت شقيقتي بتبسي الشاي ووقع على الأرض بفضل اليد اليمنى.. وقد صرخت من هول المفاجأة.. واعتذرت إليها.. زالت عن عيني صورة أخينا صاحب هذا البيت العتيد.. يريد من سواه أن يأوي مثله إلى ركن من أركان تكية الحياة.. عازفاً عاجزاً عن أداء أي نضال!..

* * *

ـ ٩٨ ـ

وفي سبيل الحصول على لقمة العيش النظيفة.. لاقيته اليوم.. مكافحاً لا يعرف الفلسفة درباً إلى التعقيد.. ولا التعقيد المباشر باعث حسد وتجميد.. تكاد تنطق حبات العرق المبارك عن حبه لعمله.. وعن اغتباطه بالحياة جهداً موصول الأداء لغاية يومية.. معينة ومرسومة..

وتذاكرنا أيام المدرسة.. وكان طالباً واسع الآمال والمطامح.. دؤوباً على الدراسة والاستذكار.. إلى أن أدركته عشقة النجارة.. فأخذ في المواظبة لدى دكان جارهم النجار الشهير أيامها لدى كل صاحب بناية في جدة.. أكثر من مواظبته على المدرسة.. حتى جاء يوم ودعنا نحن زملاءه إلى حيث اختار لنفسه الحرفة التي بلغ عشقها من نفسه حد الصبابة والهيام.. ولم يجد بداً من إطاعة حافزة وإرضاء قلبه..

ووضعت أمامه حزمة من الأسئلة القصيرة المتلاحقة.. مثل: ألم تعد تقرأ؟.. وهل لديك أولاد؟.. وما هو رأيك في حياة اليوم والأمس؟.. وكيف تمارس عملك.. أبالقدوم والفأرة أم المكنة تدار بالكهرباء؟..

وفي بساطة.. وبإيمان.. تناول حزمة الأسئلة وألقاها على جانب..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢٢هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢٥م.

وترسل.. واسترسل في لهجة بلدية ناصعة البياض.. أصيلة الحروف والكلمات يقول ما معناه:

الحمد لله.. فاتني لا زلت في الحياة كما نقول.. أسعى يا عبدي وأنا أسعى معاك.. ولقد تطورت أدوات العمل وصارت لي ورشة تقوم على الأجانب ولي فيها للأسف الشديد ولد بلد.. فكلهم يرغبون أن يكونوا موظفين.. وأنا أقرأ الجرائد لأتابع بعض الإعلانات.. وقليلاً من الأخبار الخارجية.. وأولادي في المدرسة بما فيهم البنت كذلك.. وقد صرت ألبس البنطلون والقميص كما ترى.. وهو التطور الوحيد والخطير في حياتي.. فقد سبب لي الثوب كثيراً من المضايقة والحرج في عملي.. وأتمنى أن يطيعني أحد الأولاد فيواظب على الورشة ليتولى العمل.. عملاً لا إدارة فيها بعدي.. ولكن هيهات!!

أما تلك الأحلام الذهبية التي تعهدها.. وأما الأفكار.. والتطلعات والفتوة الفكرية فقد أنهاها كف المملك يوم عقدت على أم العيال.. وصدق رسول الله.. الزواج مجبنة مبخلة.. وأنا اليوم ـ كما ترى ـ لا أستطيع الضرب بالقدوم.. ولكني أحسن كثيراً المسح بالفارة!!

* * *

ـ ٩٩ ـ

لا زال الأستاذ «قنديل» حايس في مهمته الجديدة التي يضطلع بها، والمجتمع الأدبي كله يمنحه «تعظيم سلام» لهذا النشاط الذي يخيل إلي أنه يحمل في تضاعيفه «آفاقة» للحركة الأدبية!

لقد أصدرت «مؤسسة قنديل للطباعة والنشر» التي أنشأها.. أول عمل أدبي جاد، ومشرِّف، ويكحل العين ليزينها ويزيد اتساعها.. فقدم للقرّاءِ قبل أيام ديوان «نار» من شعره الرصين.. ولهذا السبب ـ فيما يلوح! ـ نسي الأستاذ أن يمد «عكاظ» بعموده اليومي هذا وسافر إلى الرياض وراء مهمة توزيع الديوان.. والعمود يومي.. أو كما العنوان «يوم ورا يوم».. أو يوم في «مؤخرة!» يوم.. وقد اعتاد القارئ كل صباح على قراءة «المزمزة» التي يكتبها الأستاذ الكبير بأسلوبه المرح.. الساخر، وبصوره الأدبية التي لا تجفل من اقتحام أية حارة شعبية لتنبش عن التراث. وتعكس الأصل الأصيل!

و «لم ممكن»! إلا ملء هذا العمود اليومي بسطور.. حتى لا يختنق أحد الأيام المتعاقبة.. تعاقباً على شكل «عمود ونصف» بتعبير الصحافة!!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢٣هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢٦م.

ولا أبتعد.. إني أريد أن يكون هذا الحيز «قنديلاً» كعادته يعطي النور.. والنار!

ونار يا حبيبي نار!

نار.. هو عنوان ديوانه الشعري الجديد، والقنديل ـ كما قرأته ـ قاصٌ أكثر منه شاعر.. إنه يكتب القصة بالشعر.. يسرد عليك حكاية.. تنازعه فكرة الملاحم.. والأساطير.. ولكنه «معجون» بتراثه، وتاريخه.. شعبي يقذف «الإحرام» على كتفه بيد مستطيلة، ويوسع خطواته إلى أمام.. ونخوة ابن البلد تفسح له الدرب!

إن كثيراً من مقطوعات هذا الديوان فيها «نخوة ابن البلد».. وابن البلد من هذه الأرض.. عربي، وفي كل سطر مما صاغه شعراً كنت أسمع صوتاً غريباً يصرخ: نار!! إن مناخ الشعر الذي كتبه ونشره ضمن هذا الديوان مناخ حار.. صيفاً وشتاء.. وصيف وشتاء هذا العام كله لهيب أمام عدوان إسرائيل.. فالشعر الذي قرأته هنا يعكس ملامح الصورة الحاضرة المعاصرة التي نعيشها هذه الأيام تحفزاً للثأر!

إن ما قرأته هو ـ بحق ـ أدب الواقع.. تعبير عن الحاضر الصميمي..

إن الكلمات لهب له ألسنة ممتدة.. تملأ الصدى:

لكنه هذا الصدى..

لكنه بك أنت.. بي

وبكل دار..

عربية الأنوار.. عالية المنار

سيظل ناراً سوف تحرق كل عار

سيظل مهما طال..

بالكون المدار.. سيظل نار

ويعيش في دمنا

يعيش الدهر.. نار!!

وكل قصائد الديوان على هذا النهج.. تتخذ درباً متقداً، ولقد اندفعت في ليلة واحدة إلى قراءة المحتوى كله بحماسي.. تصوروا قارئاً يتحمس وهو يقرأ شعراً.. لكن الشعر ينبغي أن يلامس الوجود الإنساني ويستشرف القضايا الإنسانية، والصميمية.. ليس كله غزلاً، وهجاء، ووصفاً.. إننا لكي نقول شعراً.. يجب أن «نشعر»!

وأصدقكم.. إنني شعرت بإعصار يجتاح رتابتي، ويفتت كرات التثاؤب في فمي.. فإذا أنا أكثر إحساساً!

إن مشاعر الناس هذه الأيام «حايسة» في مشكلتنا الكبيرة فلسطين.. تترقب، وتتحفز ويستطيل أملها ويعرض.. لكني.. أرجو أن لا تستمر «حوسة» القنديل حتى يوم غد.. حتى يعود إلى قرائه ويمنع عنهم هذا «الأنا» الذي أعجبته جداً حكاية «لضم» الأيام.. يوم ورا يوم!!

* * *

ـ ١٠٠ ـ

وكما تنكش الدجاجة التربة بمنقارها.. أو تنبشها برجليها.. بحثاً عن حبة تأكلها لنفسها.. أو عن فتافيت تدعو إليها كتاكيتها.. فقد مارست مساء اليوم عملية النكش والنبش الدجاجية.. ولكن بأسلوب البني آدم نسميه.. هرشاً في موضع الهرش من الرأس بالأظافر.. أو حكاً بموضع الحك في حبل الرقبة.. بالأصابع بعضها أو براحة اليد كلها.. ويجمع الكل على تسميته بأنواعه في هذه الحالة.. فحصاً.. ومنه الفحص بالرجلين في الفصحى كما نعلم..

والفرق الوحيد بيني وبين الدجاجة أنها طالبة رزق من الأرض.. ومستجدية لقمة عيش من التراب.. أما أنا فإنني باحث عن رأي أو مقصد فكرة.. أو مستذكر بيت شعر غاب عني صورة بعد أن أذكرتني المناسبة عجزه..

وأسلوبي في الهرش بالرأس.. أو الحك في حبال الرقبة.. أو الفحص لجزء من أجزاء الوجه أو القفا.. أو النتف لشعرة زائدة من الشارب أو العنفقة.. أسلوب بشري معترف بشرعيته في جميع حالات التفكير.. والاستغراق فيه..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢٥هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢٨م.

ولقد يتساءل أحد الخبثاء.. ولكن ما هو الدافع لك على ما فعلت اليوم.. ولأنه سؤال وارد فعلاً في بابه.. فإني مضطر أن أذكر السبب في الأمر.. وخلاصته إنني كنت صباحاً مع رئيس التحرير إياه ومع كاتب كبير من كتابنا في زيارة مجاملة أخوية لسفير من سفرائنا بالخارج.. وتلكأ البحث فترة طويلة بيننا دون أن يقدم أوراق اعتماده لأخذ مركزه في السلك الطويل المعترف به من الكلام المرسل.. واستقر أخيراً عند موضوع التفكير!..

وقالوا.. وقلت.. وانتهينا جميعاً إلى أن التفكير في الحياة ـ هو الحياة ـ وأن الذهن المسلم بالأشباه دون تفكير فيها هو الذهن الأصلع.. وروى أحدنا أترابه معروفاً يبيح لأحدنا أن يسأل حتى عن أسباب وجوده.. وأورد آخر الآية الكريمة .. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).. وقال السفير ومع أنني من جماعة اللهم إيماناً كإيمان العجائز إلا أنني أحب التفكير.. ولا أعيش إلا به.. وله..

وخشيت ألا يكون لدي أنا الآخر ما أقوله في معرض الرأي فقرصت رئيس التحرير في كتفه ولكزت الكاتب الكبير في بطنه ليعطياني فرصة الكلام ونوّهت بأن لي قصيدة من أول منشوراتي تحت توقيع الصموت الحساس مطلعها:

جاسر برأيك في الحياة ولا تخف

غداً.. تذرَّع بالسفاهة.. أو حسود

ومنها هذا البيت.. وهو الشاهد:

والشك في الأشياء ميزان به الأشياء توزن كي تخلد.. أو تبيد!

باعتبار أن الشك هو الأصل في التفكير.. والبداية لوجوده..

وانتهت الجلسة وأنا أستعجل الوقت لأختلي بنفسي في ركني المعتاد من غرفتي.. لأفكر.. وهكذا أخذت الآن أهرش.. وأحك.. وأفحص مواضع التفكير لاستجلابه..

وآمنت أخيراً بعد ممارسة عملية النكش والنبش الدجاجية بأن الإنسان ـ أحياناً ـ دجاجة مفكرة!

* * *

ـ ١٠١ ـ

وتعلقت صباح اليوم في الفضاء.. قاصداً الرياض.. ولا أستطيع أن أحدد الفوقية.. جاذبية.. بالنسبة للأرض.. ولا التحتية.. علمياً.. بالنسبة للسماء.. فنحن ننام الليل حين يعيش سوانا فيه.. النهار.. من سكان هذه الكرة.. وليس هذا بالهدف الآن.. على كل حال.

ورغم تعلقي بالفضاء.. وعدم تعلقي الشديد بركوب الطائرات.. فما إن أعلن المذيع أن قائد الطائرة البوينج هو الكابتن نهار.. وإنه سعودي كما علمت.. حتى شعرت أن لي يداً مباشراً في قيادة الطائرة وذلك بحكم الجنسية الواحدة.. والفخر بها.. على أنني لاحظت أن وجه أحدهم قد تكرمش لأنه كان يحب أن يكون اسم القائد لها أعجمياً ممنوعاً من الصرف العربي.. فتطوعت بالتعبير له عن احتجاجي على حسن ظنه بالفرنجة وسوء ظنه بالعرب.. وقابلته بتكشيرة من وجهي جعلت وجهه في لون قوس قزح.. ولم أكتف بذلك.. بل مطيت بوزي.. ورقصت له حواجبي.. فلم يسعه إلا أن يقلب وجهه عني إلى الناحية المضادة.. دون رجعة..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢٦هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٢٩م.

ولقد عوّضني الله خيراً.. جزاءً لي على وطنيتي وحماسي الشديد لها.. فقد صادف أن كان جاري في الكرسي الثالث على يمين الماشي في الممر من يسار الداخل من الباب.. شاباً يرتدي البزة العسكرية.. فتقرطست في مقعدي أول الأمر.. ولم أتنحنح إلا لماماً وبقدر الضرورة.. ولكنه.. كالعادة بين الجيران.. بدأ بالحديث عن الجو وعن المقارنة بين القهوة والشاي.. وبحكم عداوتي المزمنة للصمت.. وحبي للمحادثة ولو بالأجرة.. إن لم أجد من أحادثه.. بدونها.. فإنه لم يكد يكلمني حتى فردت ساقي.. ودلدلت لساني.. وأخذنا وأعطينا الأحاديث بيننا..

ثم جاء تعارفنا عابراً.. وبسيطاً.. وطبيعياً في نفس الوقت.. فرحب بي بحرارة.. كشاعر مفروغ منه.. والعهدة في هذا عليه.. وهكذا اقتصر الحديث بحكم الكار على الشعر.. وقلت له: لا تستغرب إن قلت لك إن هناك تلازماً تاماً وقديماً ومستمراً بين الجندية وقول الشعر.. أو قراءته.. أو سماعه.. رغم البون الشاسع ظاهرياً بين الضارب بالمدفع.. وبين الضارب باللسان مثلي.. ولم يفتح الله علي للاستدلال للأسف الشديد إلا باسمي.. سامي البارودي وحافظ إبراهيم.. ولكنني بمرونة خبيثة أضفت.. وسواهما!!

وكلمة سوى ـ أو غير.. نعمة كبرى لذوي الذاكرة الضعيفة في حفظ الأسماء.. وإلا فكيف غاب عني عنترة بن شداد وزملاؤه العسكريون من شجعان العرب الأشاوس؟..

ولأول مرة.. في التاريخ.. رضيت عن شارة الشعر على لساني.. يهش لها صاحب شارة على الكتفين.. ووصلنا الرياض سالمين غانمين..

غير «شاعرين» بأية مضايقة.. أو أي مكروه.. وأعطيت لجاري كتفون السلاح اللازم.. غبطة وفرحاً به.. وبأمثاله الشبان.. يقبلون على الجندية بإقدام.. ويقفون نيابة عنا.. على خطوط النار؟!

❊ ❊ ❊

ـ ١٠٢ ـ

لقد تأكدت اليوم بصفة قاطعة للشك أنه قد تكون لدى الواحد من الناس جبلة فنية.. أو أن يكون صاحب موهبة، وموهبات متعددة دون أن يعلم عنها أو بوجودها طبيعة فيه.. حيث لم تتح له الفرصة لاكتشافها بالتجربة، أو بإفساح المجال.. لاكتمال ظهورها.. بالممارسة..

ولذلك.. فنحن نقرأ في سير بعض الفنانين أو معظمهم أنهم اكتشفوا مواهبهم الذاتية.. بطريق الصدفة!.. فبعد أن كان أحدهم كاتب بقال.. مثلاً ـ أو سايساً في اصطبل.. أو محاسباً في مغلق.. أو أستاذاً مبتدئاً في مدرسة ابتدائية.. وأنه بمصادفة محضة حاول كتابة القصص.. أو نظم الشعر.. أو الرسم.. أو الرقص.. أو.. أو.. فإذا هو يكتشف تلك الموهبة.. أو المواهب معاً.. تزكيها التجربة الآملة. وتصقلها الممارسة بإصرار.. ليصبح على مدى الأيام والأعوام.. شيئاً ضخماً مذكوراً في عالم الأدب.. أو الموسيقى.. أو التصوير!!

والمناسبة الداعية لهذا التأكد من أن للإنسان عدة مواهب.. ومن أن الله قد حباني على جهل مني.. بموهبة غفلت عنها طول هذا العمر الضائع هدراً دون اكتشاف مبكر لها مني.. مناسبة تافهة.. وعابرة.. فقد

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢٧هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٣٠م.

صحوت من نومي بالفندق الذي أنزل فيه بالرياض.. فأنكرت مبدئياً وجودي بهذه الغرفة الغريبة عني.. ولكني سرعان ما تذكرت أنني انتقلت هوائياً من جدة إلى الرياض صباح يوم أمس..

ولا أطيل.. فالتفاصيل عديدة ومتشعبة.. لقد سألت من أجاب على الجرس من موظفي الفندق هل بالحمام ماء ساخن؟.. أجاب.. نعم.. نعم.. نعم.. وكررها ثلاثاً.. وزاد على ذلك بأن رفع حاجبه الأيسر لفوق.. وهبط بالشفة السفلى لتحت.. قطعاً للشك ـ باليقين ـ بل وكاد يقسم أن الماء الحار بهذا الفندق، لا ينقطع إطلاقاً.. ولا لدقيقة واحدة!!

وعلى ذلك فقد أتممت الإجراءات التي لا يمكن التراجع بعدها.. وبعد أن أصبحت يا مولاي كما خلقتني ـ وتوسطت البانيو ـ فتحت الدش حسب أصوله.. الأحمر للحار ففتحته والأخضر للبارد فقفلته.. وأخذت بق ماء في بقي لاحتمال الصدمة الأولى من الماء البارد.. وذلك كما علمتني عمتي العزيزة من صغري.. حتى يهطل حاراً فأحتمله أو أمزجه بقليل من البارد ولكن الماء استمر يهطل بارداً صرفاً شديد البرودة.. ويتوالى رشات وزخات على جسدي العاري دون رحمة..

ومن هذه الصدفة الواردة بهذا الفصل البارد من الفندق وجرسونه ـ اكتشفت بنفسي موهبة الرقص الأكروباتيكي وهو المعلم من أصعب أنواع الراقصات حديثها ـ وقديمها، فأخذت أتلوى.. وأتلملم.. وأنفرد.. وأقفز.. وأركع.. وأرفع الرأس يا أخي وأخفضه.. وأشفط بطني بخضخضتها.. وأدفعها للأمام.. بنفخها زيادة عما هي عليه!!

وهكذا بقدرة قادر.. وبالمصادفة وحدها.. وبجميع الحركات التي كنت أتقي بها برودة الماء.. برزت على جسدي فنون كلاسيكية رائعة

وحركات عصرية صاروخية في عالم الرقص الأكروباتيكي!

وهكذا.. مرة ثانية ـ اكتشفت أن عندي ـ وعندي وعندك الخير ـ موهبة جديدة.. قديمة.. كالفتنة تماماً.. كانت نائمة.. فرحم الله ـ أو لعن من أيقظها!!

* * *

ـ ١٠٣ ـ

وفي أثناء جلستي وحيداً مساء اليوم في المكتب حيث المشغلة، ولا شغل.. دخل علي شابان يحمل أحدهما بيده ظرفاً أوسع من ظرفي الحاضر.. وثانيهما برأسه مجموعة أسئلة يظهر من كبرها أنها أصبحت على لسانه.. مويه.. مويه!.. كما يقول أبناء المدرسة في تعريف الحفظ غيباً لأية مادة دراسية..

وفرحت بمقدمهما.. صيداً ثميناً لتحريك لساني الذي كاد يتيبس من صمتي الطويل.. وأشهد أنهما في البداية كنا سميعين فتبين لما تهاطل من ثرثرة سمياها تلطفاً منهما.. فنية.. كذلك.. وأطعمني فيهما الموضوع الذي جاءا من أجله فهما موظفان بالإحصاء العام.. وبيني بين قضية.. الإحصاء.. ثأر قديم، فقد أدمنت الكتابة فيه.. والإذاعة عنه مراراً حتى أصبح عقدة بحث مألوف.. ومرغوب.. ومحبوب..

وتذاكرنا أن الإحصاء في كل بلاد العالم الأصل والمرد لكل تخطيط حكومي.. أو تعريف شعبي.. أو بحث من أي لون من الأبحاث الاقتصادية.. والاجتماعية بل والأدبية.. وأن هناك على سبيل المثال نشرات مختلفة في كل بلد ومدينة تعرف منها وبواسطتها جميع ما تريد معرفته.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢٨هـ ـ ١٩٦٧/١٠/٣١م.

ومن المراجع كذلك إمعاناً في الدقة والشمول تستطيع أن تعرف في كل مدينة عدد المتاحف والمطاعم.. والمقاهي.. وصالونات الحلاقة.. والخياطة.. وكل ما يخطر على بالك في جميع مجالات العمل والحياة على الصعيدين الرسمي والشعبي إفرادياً.. ودون تخصيص..

واستطردنا كتاريخ لفكرة.. أو لمبدأ الأخذ بالإحصاء في بلادنا لكل شيء ما وسعنا.. مصحوباً بحسرة على ما فات من إهمال لهذه القاعدة لا يستغني عن الارتكاز عليها واقع.. أو كيان.. أو عمل.. أو بحث.. أو مشروع.. وإن كان الشفيع أو المبرر في الماضي الغابر مسايرة المثل القائل:

عد غنمك يا جحا.. قال له وحدة قايمة.. ووحدة نايمة!!

كما قاله لي يوماً قديماً موظف قديم حين أشرت إليه كملاحظة عابرة عن ضرورة.. وأثر الإحصاء العام المتكامل في حياة الشعوب والحكومات..

وباستيفاء ما جاء لأجله الشابان شحات.. وحسين وخروجهما.. بكلمة ونصف في الموضوع.. بمعرفة غنمتي جحا أكدت وأكدا في حرارة وحماس أنهما يحسان تماماً كلما فرغا من عملية إحصاء باكتشافهما جزءاً من دنيا واسعة مجهولة.. ومنظراً من كون عامر جديد!

* * *

ـ ١٠٤ ـ

وطالعتني صباح هذا اليوم في إحدى جرائدنا المحلية ـ الندوة ـ صورة كاريكاتيرية لموقف الشرق الأوسط.. تمثل بساط الريح التابع لكتاب ألف ليلة وليلة.. هائماً في الجو.. وطائرة نفاثة محلقة على ارتفاع كبير عنه.. وكان التعليق عليهما هو:

.. بين الواقع.. والخيال!

وتجاوزت المغزى السياسي المراد من الرسم مع إعجابي الشديد بالموضوعية فيه لذاتها.. حيث طرت أنا الآخر بفكري بعيداً.. بعيداً.. مستجيباً لنغمشة ذهنية أبت إلا المقارنة بين الواقع والخيال.. منطوقاً ومدلولاً لكل منهما. وذلك رغبة مني في الجمع بين رأسين في الحلال.. باعتبار أن لفظة الواقع أصبحت تمثل العقل والمصلحة المادية.. وفهم الحياة على الطبيعة كما يقول المهندسون.. في حين أصبح الخيال في هذا العالم النقدي.. الشيكي.. البنكي.. مصدر استهزاء.. ومدار عبث به وبأهله السابحين في دنياه الفانية.. مما جعل للواقع حق امتلاك وتسخير الخيال لمصالحه.. عبداً ذليلاً.. أو محتكراً لدى الطامعين في استغلال الضعفاء وذوي الحاجة من أهله وكلهم كذلك ودون استثناء!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٢٩هـ ـ ١٩٦٧/١١/١م.

وتصورت بالتجسيد الأصل منهما والفرع.. وجوداً محدوداً ملموساً.. وامتداداً غير محدود ولا ملموس.. وابتدأت بالبيت الذي أنا فيه.. فماذا كان قبل أن يكون؟! لقد كان بالتأكيد خيالاً في ذهن.. فصورة مرسومة على ورقة فوق مكتب المهندس .. فعاد بالمادة واقعاً مسكوناً من أهليه.. مثله في ذلك.. كمثال.. وكسكن.. مثل الأزياء المتطورة.. ملبساً.. والأصناف الشهية.. مطعماً، والمواصلات الحديثة.. مركباً فوق الأرض.

وتدرجت بهذا القياس نفسه.. بعد السيارة والطائرة.. للصاروخ فالمركبة الفضائية.. فالرحلة المزمعة للكواكب والأقمار وما دون ذلك وما فوقه.. نسباً موصولاً بالواقع المحسوس. فإذا أنا أجد بالمتابعة.. وبالتدقيق.. وبالتفلية أن كلاً من ذلك ليس إلا وجوداً محدوداً دعا إليه الخيال أصلاً امتداداً لوجود محدود.

وعند هذه النقطة بالذات تلاشت كلمتا الواقع والخيال لتحل محلهما بقدرة قادر كلمتا العلم والفن.. أولاهما مسمى للواقع وثانيتهما مسمى للخيال.. مع استمرار المقارنة على حالها.. متصلة بينهما دون خروج عن دائرة النغمشة الذهنية إياها.

وهكذا.. فلم يكد العلم بوقاره يشير للمختبر.. وللأرقام وللمعادلات الرياضية الحسابية.. حتى مد له الفن لسانه معدداً مصادرها الأولى وعالته عليه وعليها.. مما اعتبره.. في حالة انفعال.. سرقات أدبية فنية خفية.. سواء بلغت من حرز مثلها.. في الأصل.. حد النصاب أو لم تبلغه.

وللحق.. والحق يقال.. تذكرت والذكرى تنفع المؤمنين أن الفن

كان أول مصدر جاز العوالم الفضائية الأخرى خيالاً واسعاً في قصص لروائيين عالميين.. أو في ملاحم شعرية لعباقرة من الشعراء المحلقين.. قبل أن يكون للعلم ـ التجريبي مركزه الحاضر.. أو المضارع؟!

وهنا.. دار رأسي.. وابتلعتني الدوامة حتى مشارب الماء ومخارج الأنفاس العليا.. ولكني تحاملت على نفسي عائداً إلى حيث كنت غير متحيز لأي من الواقع أو الخيال تسمية دارجة.. أو لأي من العلم والفن مسمى فوق المستوى العادي.. مكتفياً.. بهذا القدر العائم!

* * *

ـ ١٠٥ ـ

.. وكنا جماعة في مساء هذا اليوم ـ يصح أن تطلق عليها كلمة.. تشكيلة.. باعتبار أن منا القصير المدردم ـ والطويل المفرط في النحافة جعلت منه جلداً على عظم، وذا الكرش البارز بروزاً لا تسمح البلدية بمثله.. باعتباره خروجاً ملحقاً بباب التعديات على الفضاء الخارجي.. ومنا من لا يفتر عن الحديث، لا يقتصر على سميع واحد في وقت واحد ـ ومنا من يكتفي بهز رأسه.. أو بقوله.. وهو كذلك.. على أسلوب المرحوم صاحب العجز المشهور:

إذا ما أتى وقت الفتاوى.. فكذلك!..

وتنوّع البحث متصلاً غير منفصل.. ومطلقاً غير مقيد بموضوع.. على طريقة المدعو.. حمار الشيطان.. الذي هو لمعرفة من لم يتشرف بمعرفته من قبل.. حشرة جرادية الشكل.. نطناطة.. نقازة.. لا تكاد تستقر بنقطة معينة إلا لمدة انتقالها سريعاً.. لسواها..

ورغبة مني في الخروج بالبحث بنتيجة مشرفة.. للتاريخ الشعبي.. فقد أقدمت على سرد ذكريات قديمة ومماثلة عن مركاز الحقل بالمسفلة

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٧/٣٠هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢م.

أو البيبان بمدخل مكة.. وكيف كان الأخ عبد الله عريف كلما اختلطت الأصوات وتبلبلت الآراء يسارع برفع الخنصر على نحو يشبه نحو أولاد الكتاتيب والمدارس طلباً للأذن.. بفك حصر ـ ويصرخ قائلاً ـ التركيز.. التركيز.. أطلب التركيز للبحث..

وعلى بقية الرماد من ذكريات الماضي واستعارتي أسلوب العريف للتركيز.. وخدمة لحسن نيتي في الموضوع.. دخل علينا صدفة صاحب دار للنشر.. ولم يكد يلتقط أنفاسه حتى فاجأنا على حين غرة بالمعلومات الآتية:

أولاً ـ اكتشافه بحكم عمله الجديد عزوف الطبقات العالية الدرجات من الموظفين الكبار عن القراءة بتاتاً.. ويلحق بهم الوجهاء.. والأعيان.. والتجار.. ويأتي.. ويا للمصيبة بينهم وقبلهم أحياناً.. الأدباء من الكتّاب والشعراء.. والصحفيين الذين هم أهل الكار.. وحملة الأقلام وأولى الناس بالقراءة لكل جديد.. ولأي كتاب..

ثانياً ـ ثبت لديه بصفة حاسمة أن غالبية القرّاء فعلاً هم الموظفون ذوو الرواتب الصغيرة من أصحاب الدرجات لا بسطات فيها.. ويليهم الناشئة.. ويلحق بهم الملازمون، والسعاة، والفراشون، وبعض العمال الفنيين ومن ماثل أولئك وهؤلاء.

ثالثاً ـ وهذا.. ويا للهول بطريقة أبي حجاج.. أفظع ما في الرواية المركزة البحث.. أن بعض المكتبات ترفض عرض المؤلفات السعودية لديها!!..

وهنا تكأكأ المجتمعون.. وبادر رئيس التحرير بدق الجرس معلناً طلب الشاي فوراً وعلى حسابه الخاص كما فهمت من غمزة عينه

للمباشر.. وانتهى البحث المركز بالقرارات الشفهية بانتهاء آخر قطرة من كل فنجال ـ بالتالي:

أ ـ لأهمية المعلومات السالفة وخطورتها يجب أن توليها الصحافة عنايتها التامة.. وذلك بالسكوت عن الإشارة إليها إطلاقاً.. اكتفاء بالتسامع الشفهي بالمجالس عنها.. وعلى مسؤولية رواتها..

ب ـ حث المؤلفين على الإقبال على توزيع مؤلفاتهم مجاناً على الطبقات القادرة على الشراء.. امتحاناً جيبياً ومذهبياً لإيمانهم الأدبي وإصرارهم على التأليف ومراعاة لعدم تعويد القادرين منا على الشراء على ارتياد الأسواق وزيارة المكتبات بذواتهم أو بواسطة السعاة والسائقين الخصوصيين.

ج ـ الإعجاب التام بشجاعة أصحاب المكتبات الذين يرفضون قبول و عرض المؤلفات السعودية بالعمولة وبدونها.. واعتبارهم نقاداً كباراً من الدرجة الأولى..

هذا.. وقد انتهى الاجتماع المومَأ إليه أعلاه ـ همساً ـ بتمتمة كل عضو في سره.. سورة: اقرأ!! حتى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥)..

* * *

ـ ١٠٦ ـ

وبعد غياب كلَيْلِ العاشق المهجور في طوله.. ونهار الكادح المشغول في قصره.. قرأت اليوم رسالة كريمة جاءت في وقتها.. وحفظت في حرز مثلها.. مصونة في غلافها الأبيض النقي نقاء قلب كاتبها.. تقول تعقيباً على كلمة قلتها يوماً في هذا الركن عن الصديق الفقيد المرحوم الشيخ محمد سعيد صاحب مركازنا القديم العتيد:

لقد نقلتني بكلمتك إلى مركازكم الذي كنت أنعم فيه بكم.. حين أغسل سموم مكة بندى جدة.. وأرطب نفسي وأنفاسي ببرد حديث البشكة إياها.. لا يتعدى المناقشة في الأدب شعره ونثره أو النادرة بطرافتها وظرافتها.. نكتة تتراوح حرارتها بين السخرية لا تخدش ولا تجرح.. وبين المغزى يلهو بما به يمرح.. بعيدين أبداً عن أكل اللحوم البشرية غيبة أو نميمة.. أو تشنيعاً!

وإنني لأقدر لك وفيك هذا الوفاء لا يزول بموت.. أو يقطعه فقدان.. ولعلّك تتكرّم فتسمح لي بالصورة التي ذكرتها لآخذ لها نسخة أحتفظ بها تذكاراً لرجل.. وذكرى لعزيز.. وبرثائك له..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢هـ ـ ١٩٦٧/١١/٤م.

وأشهد صادقاً أنني لم أكن أظن حين عبرت بكلمتي عن حادث عابر.. في ذكرى لفقيد عزيز.. وغريب أن هناك قلباً رقيقاً يخفق للأيام تعيش حية فيه.. حيث لم تعد الآن وفي زحمة المادة تطغى وتستكبر.. وتزيد في عنفوانها لتجرف المعاني.. وتكنس ما علق بالنفوس منها من آثار.. كما كانت لنا.. ومعنا.. أياماً ذات عطر.. وحلاوة.. وتاريخ.

وتجديداً لعهد.. وتحديداً لوعد تالٍ ومقطوع لصاحب الرسالة الأخ عبد الرحمن هرساني.. أوجز من القصيدة بعض الأبيات التي قلتها في رثاء أخي وصديقي الراحل:

هذي المواجع.. منشور بها كبدي ... من الفواجع.. موهون بها جلدي
يا صاحبي.. وأخي في كل حادثة ... مشى بها اليوم من أمسى ليوم غدي
شهدت بها العمر موصولاً طفولته ... حتى كهولتنا.. كفاك وسط يدي
عشنا أليفين في الدنيا يطوقنا ... من راحتيها الوفاء الحق للأبد
وعشت أبصر في عينيك.. خالدة ... في غربتينا وقد طالت بها.. بلدي!

أما الصورة.. فأرجو بالعودة إلى «الوبر» المهمل في ركن من أركان الدقيسي بالبيت القديم المقفل الذي ضاع مفتاحه مني.. أن أجدها فأبعث بها أو نسخة منها إليك في يوم من الأيام.. وفاء صغيراً لوفاء كبير!..

* * *

ـ ١٠٧ ـ

وفي صباح هذا اليوم قضينا صحبة أخوان كرام لنا بعض الوقت في جامعة الملك عبد العزيز الأهلية.. زيارة حبية.. كان دافعي لها.. ولا أحمل إلا وزر نفسي.. الفضول.. وقتل بعض الوقت قتلاً شرعياً على القبلة.. والرغبة الجامحة في رؤية وجوه جديدة..

وبالمناسبة.. وقبل الدخول في وضع الزيارة وموضوعها.. فإنني من عشاق رؤية الوجوه الجديدة أستقرئ بها وفيها بعض الحيوات الشاعرة.. وربما كان ذلك باعثي الأول لخطف الرجل من آن لآخر من بلد لآخر وما وسعتني القدرة والإمكان.

ولجامعة الملك عبد العزيز الأهلية معنى كبير يجسد بحيثيته في شرف وصدق وأمانة الاندماج الكلي بين الشعب والحكومة اندماجاً رفيع المغزى وعظيم الدلالة.. وتلك في تاريخ الحكومات وشعوبها نموذجية لا تليق إلا بهذا الشعب الآمل الطموح بمبادئه وبأخلاقه الجسام..

ولعلّ أسمى ما قيل في هذا الموضوع لمساً وإيماء كلمة جلالة الملك المعظّم كما رواه لنا الدينمو المتحرك ورئيس اللجنة التنفيذية

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٣هـ ١٩٦٧/١١/١٥م.

الأستاذ الصديق السيد أحمد عبيد.. وهي: «لقد أتت هذه الجامعة أهلية وستظل كما أتت».. والمضمون العالي في هذا الأداء الكريم أجل من الشرح.. وأوفى من البيان..

بقي على أفراد الشعب.. والقادرين منهم على وجه الخصوص أن يحققوا ما هدف إليه الراعي الأول.. فهذه الفرصة العظمى مهيأة لهم لإثبات الوجود المستهدف.. إذ ليست الحكومة.. ولله الحمد والمنّة.. بعاجزة عن سد حاجة أو حاجات الجامعة.. ولكنها على لسان مليكها تبيح وتتيح لنا المناسبة الواسعة إيماناً بنا.. يسعدها.. ولا شك.. أن تكون عند حسن الظن وكفاءة الوزن والتقدير..

ومن الزاوية المادية.. بعد الجانب المعنوي الرفيع.. فإن في قيام واستمرار جامعة الملك عبد العزيز وتكاملها من شتى المنافع العديدة.. والمصالح الذاتية ما يشمل الأفراد بالنص.. وبالتخصيص.. فبدلاً من أن يتكلف كل شخص بالواسطة أو مباشرة ما تقتضيه دراسة أبنائه من غربة وتكليف مادي.. سيجد على المدى القريب والبعيد أن الجامعة في بلاده وفرت عليه ذلك كله.. بكل ما تشتمل عليه وتحويه وتحتويه..

* * *

ـ ١٠٨ ـ

استيقظت اليوم.. وأمام عيني صورة واحدة ثابتة من بقايا حلم رهيب.. متعدد المناظر والحوادث والحركات.. حلم ضاعت مع الواقع الصباحي معالمه الكاملة لتترك هذه الصورة الثابتة وحدها.. دليلاً ثابتاً وأكيداً على أنني عشت أهواله المتلاحقة.. حرباً.. وضرباً.. ودماء لها حمرة اللهب.. وغزارة مياه الأمطار!

ومع أن الشعراء خاصة.. لا يحبون الحرب ممارسة عملية وذاتية منهم.. إلا أنهم خير من يجيد وصفها لحساب سواهم والمبالغة في هذا الوصف اللذيذ.. بل وربما أزوا عليها.. أو دفعوا إلى التلذذ ببعض المشاهد الدموية الفردية عوضاً عنها معركة شاملة طاحنة.. وذلك مثلاً كما فعل صاحبنا:

أرى خلل الدماء وميض نار وأخشى أن يكون لها ضرام

و:

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٤هـ ـ ١٩٦٧/١١/٦م.

تمامـاً كما فعل ويفعل الكثير سواهما من الشعراء وممن ألفوا ممارسة عملية كش التراب.. شعراً.. في الجاهلية وفي الإسلام.. على السواء.

وتساءلت.. ترى هل الشعراء وحدهم هم هواة الحرب يفضلون مشاهدتها ويغرقون من الخوض في غمارها؟!.. ثم هل الحرب ضرورة طبيعية اجتماعية للتصفية البشرية المناسبة.. نزولاً على تعليل حالات التضخم العددي.. والنقص الغذائي.. والضائقات الاقتصادية؟!

وهنا تمثلت معظم الناس.. رداً على السؤال الأول.. وهم يذوبون وجداً وهياماً لمشاهدة أفلام رعاة البقر والكاوبوي لسماع طلقات الرصاص ورؤية ضحاياها وهم يتخبطون في دمائهم.. لتنحدر الهرمية من ذلك لنرى إقبالهم على الملاكمة.. ومهارشة الديكة.. والمصارعة.. ومباريات كرة القدم لا تطيب لهم إلا بحدوث الإصابات فيها.. وكذلك الزحام لمشاهدة الهوشات الصغيرة.. والمقاتلة الزوجية لا تحلو إلا برؤيتهم لآثارها الدموية..

كما تذكرت ـ جواباً على السؤال الثاني ـ أن الحروب في مجالاتها الكونية الواسعة.. أو في حدودها الإقليمية والفيتنامية المثل والشبه.. لم تنقطع أبداً في تاريخ الكون.. ضرورة أو هواية بشرية لا.. ولن تزول مهما ترددت ترانيم السلم.. والدعوة المتصلة للسلام!..

واجتهدت إرواء لغليلي البشري المتعطش لما شاهدته بالنوم فعلاً.. في فيلم الحلم أن أستعيد بعض المناظر الدموية فيه وربطها ببعضها.. ولكن ذهب اجتهادي.. للأسف الشديد.. في ذلك عبثاً..

واكتفيت.. أخيراً.. وعلى مضض بالقفز من فراشي.. مقلّداً حركات بعض المغاوير القدامى.. وأبطال نجوم.. طاخ طراخ.. المحدثين من مثلي ..

* * *

ـ ١٠٩ ـ

حاولت اليوم أن أقرأ كتاباً.. فلم أستطع أن أتجاوز أكثر من الصفحة السادسة منه.. وبدون أن يثبت في ذهني أي شيء من هذه الصفحات.. أيضاً.. فقلت لا شك أن الله قد ابتلاني بما عبته على غيري.. فقفلت الكتاب.. وأخذت أتابع حركات طفل بريء.. إلا أنه.. اسم الله عليه!.. مربرب وذو نفس رتعة.. كما نقول عن الأكولين من الكبار.. وكذلك من الأطفال!..

وصاح في وجه أمه.. وأصبعه في فمه.. واوا.. واوا.. واوا.. ويظهر أن أمه.. كما عفت أنا القراءة.. قد عافت أسلوبه في التهام الحلوى التي أتى عليها ويطلب جديداً منها.. فصرخت بدورها في وجهه.. بعد أن انتزعت إصبعه من فمه بقسوة.. كخا.. كخا.. واوا بحا.. خلاص.. انطق!.. وجذبته نحوها بشدة وذهبا بعيدين عن نظري..

وكما يبحث الأطفال.. لا يستطيعون السكون دون حركة.. عن شيء ما يتمشغلون به.. فضولاً لمعرفة الحياة.. وعشقاً للحرية ذاتها.. وتبديداً لنشاط صبياني لا يرضى الكبت.. ولا يخضع لنظامه مهما كان..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٥هـ ـ ١٩٦٧/١١/١م.

فقد أخذت أفكر في كلمتيْ.. كخا.. وواوا.. وابتدأت أجمع معهما بعض أخواتهما من ألفاظ الصغار.. للتسلية.. تماماً كما يفعل المشتغلون بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة عمودياً وأفقياً..

وتوفرت لي من لغة الأطفال حصيلة لا بأس بها.. من أمثال الكلمات.. دحا.. أفو.. ننا.. ودسه.. إلى آخر ما يحويه قاموسهم الخاص..

وصنفتها حسب المناسبات التي تقال فيها. محاولاً الرجوع بها إلى أصلها من جهة.. ومن جهة أخرى إلى البحث عن المؤلف الأول لها وعن الطريقة التي مكنته من إشاعتها بين العائلات أرقاماً وأدناها دون تمييز عنصري.. أو طبقي.. أو بشري..

وحتى كتابة هذه السطور اكتشفت مؤقتاً أن اللفظة الواحدة من هذه الألفاظ الصبيانية إما أنها مأخوذة من الحركة الطبيعية التي يدل عليها معناها.. أو أنها جزء من الكلمة الأصلية المستعملة من الكبار.. فمثلاً:

افو: تعني التحذير من النار.. وأنت إذا لسعتك النار.. فإنك تصرخ فطرياً.. بكلمة أف.. أف!! ومثلها.. اح.. اح.

كخا: وتعني التأفف والتنفير من ممارسة حركة شائنة.. أو موالاة منظر كريه.. وأنت لا تملك في الحالتين إلا أن تصرخ.. أخيه.. أخيه!!

* * *

ـ ١١٠ ـ

واليوم.. وبعد إضافة شهر جديد.. على مدة غيبتي السابقة والتي طالت عن البلاد حوالي ثمانين يوماً أو تزيد.. لا حول العالم.. بل في بقعة هادئة بضهور العبادية.. في حضن الجبل الأخضر البارد.. وعلى سطح أحد وديانه السحيقة الخضراء.. كذلك!

قرأت الآن رسالة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوي.. وكلها حسن وشوق.. وحب وحرارة.. ثم إطراء لما كنت أكتبه تحت عنوان.. الجبل الذي صار سهلاً.. ومع الرسالة عدد من جريدة البلاد فيه تشطير لقصيدتي.. كهولة.. بعنوان فحولة لا كهولة..

وخاصمت نفسي.. وأنبتها على هذا الجحود لا معذرة عنه.. وعلى التقصير الشائن لا يحسن السكوت عليه.. وإن كان لا ذنب لها.. ولا لمستلم الرسالة في حينها.. بل هو ذنب الظرف السيء.. والملابسات غير الموفقة..

ومن غير مراطلة مفتعلة كالمراطلات المحلية بين بعض الكتّاب والأدباء.. وبدون مزايدة أدبية.. فإنني وجدت في هذه الرسالة المصونة

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٦هـ ـ ١٩٦٧/١١/٨م.

من غير أن تذهب الأيام الطويلة ببهجتها وفي تشطير تلك القصيدة روح شيخنا الفاضل.. نبيلة كريمة فاضت بها السجية المكية واضحة الدلالة على أثر تأثير التربة والأصل..

وخطر لي فور الانتهاء من قراءتيهما بعض ما كنت نظمته مرة.. وفي أعوام إقامتي الممتدة بمكة المكرمة واحداً من أبنائها.. ولم أكمله.. قصيدة لم تر النور نشراً.. ولم يرها وحدة تامة الموضوع حتى الآن.. ومنه:

أنا مكي بإحساسي.. وبالأعراق ملهم

عشت.. نهب الليل.. والقمراء.. مغرم

فكأني خفقة الأيا م.. أكباداً تترجم

وكأني دفقة الأموا ه.. من أعماق زمزم!

وأتقدم الآن.. لأجد العذر حلاً.. أو الحل ترجمة لشعور عميق بالأثر العميق.. حياء.. وذكرى فقد افتكرت أن لشاعرنا الفحل عليَّ في صدر شبابي يداً شعرية لم تخفها الأعوام.. فلقد كنت ذات صيف في الطائف.. وفي غمرة حب عذري مقتبس نصفه من المجنون ونصفه الآخر من جميل.. وقد سطت به ذات ليلة روح عمرية ربيعية بين خدود هفهفت في فضائها حلاوة الصفاء.. ونقاء الصراحة.. حين سألتني على مشهدة من أهلها وذويها من لا أقدر على رد سؤالها أن أسرد لها بعض ما قاله الحضريون أمثالي في مثيلاتها البدويات.. فأرتج علي كما يحدث ذلك لأطول المحدثين لساناً.. وأسرعهم بديهة.. وجاء الفرج والإنقاذ ببركة شيخنا المبارك وشاعرنا السبّاق الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي..

فقلت.. دون ذكر القائل.. وإنني أعترف الآن دون شهود أو تجليف:

بأبي من رأيتها.. فاسترابت
نظرتي نحوها.. فقالت: علامك؟
قلت.. صب أصيب بالعين.. قالت
روّع اللَّه من على الحب.. لامك!
أنت من «لية» بدارة عوف
حيث فرط العفاف يذكي غرامك!
فاغضض الطرف إن علقت.. وخالس
نظرة الحب.. واستذم آثامك!
لا تغوينك بسمة من كعاب
فتؤاتى.. على غرار..

فكان نصيبي نظرة حانية.. وبسمة ليلتي عليهما.. وأنا أدعو للغزاوي المنقذ.

وهكذا بإضافة ذلك الصنيع القديم إلى الحديث.. أجدني مطالباً له بما لا أستطيع إلا بهذه.. التصبيرة.. سليقاً.. على.. أو ميعاد!..

* * *

ـ ١١١ ـ

وكلمني أحدهم اليوم.. وكان بعض كلماته غمزة من عين.. وبعضها رقصة من حاجب.. يقول: ترى هل يتدخل في دنيا الأدب.. كدنيا الناس المادية.. حسن الحظ فيرتفع بشاعر بذاته ليجعله ملء الأسماع والعصور.. ويهبط سوء الحظ بغيره من الفحول والأنداد ليجعل منهم مجرد أسماء ليس لها إلا مجرد صفات الشعراء.. ذكراً في التاريخ؟!

ولويت رقبتي نحوه لية بطيئة.. وحدجته بنظرة كأنها كف أطبقت على زمارة حلقه لتقول له: لقد ضبطتك بفعلتك.. فإنني أعلم بما تعنيه نصاً.. وأحس بما تشير إليه ضمناً.. لأنني أدري أنك كنت بمكة يوم أمس الأول.. وذهبت إلى حي المعابدة صحبة فلان.. وفلان!..

ومع ذلك.. فقد بدوت ساكناً.. وسألته بصوت هادئ فاتر.. أجل هو كما تقول.. ولكن ما الدافع لسؤالك هذا الآن؟.. فأجابني.. لقد فكرت في صيرورة شعر المتنبي.. مثلاً.. صيرورة شغلت النقاد والكاتبين.. والرواة من قبلهم والمحدثين.. وعامة الناس.. حتى لتكاد تقتصر الأمثال في المناسبات.. والشواهد في الأحوال على البيت.. أو

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٧هـ ١٩٦٧/١١/٩م.

البيتين من شعره.. دون سواء من فناني الشعر اللَّهم إلا في النادر الذين يعنونه بقولهم: لا حكم له!

وقلت له: وأزيدك على هذا.. للتاريخ.. بالنسبة للموضوع نفسه.. لقد بلغ من طغيان هذا الذي تسميه حسن الحظ أن عمد شعراء ضاقت السبل في وجوههم.. وأعيتهم الحيلة حتى لجؤوا بشعرهم اللؤلؤي لينحلوه غيرهم من لاضمي الخرز المجمع.. حتى يتبارك باسم غيرهم.. فيروي.. ويسود.. صدقة مستورة.. لوجه الفن!

وأذكر للمقابلة لما سميته دنيا الناس المادية.. على سبيل المثال وفي عصرنا هذا من وقت ليس ببعيد.. أنه كان هنا بجدة رجل كادح.. والحق يقال.. في سبيل تنمية عمله التجاري المحدود في.. مبسط متواضع.. ثم دار الزمن حين طرق عليه الباب ذات نهار.. أو ذات ليلة لا أدري.. هذا الذي تسميه الحظ.. فإذا الرجل في خلال أعوام قلائل ثري شهير كيماني الحظ كما يقول صاحبك ابن الرومي.. فهو لا يكاد يستورد بضاعة حتى يغلو ثمنها وهي في عرض البحر.. ولا يكاد يعقد صفقة أرض.. أو عقار.. حتى يتصاعد ثمن كل منها إلى حد غير معقول..

وأصبح كثير من التجار الأصلاء.. والمستوردين الأقحاح.. وأصحاب الأراضي والعقار المتمرسين.. يسعون إليه بأقدامهم وبما لديهم يبيعونه بربح بسيط محدود.. بعد أن ضاقوا به وخشوا الكساد عليه.. ليبيعه هو بدوره بما يفوق تقديراتهم وحسابهم التجاري المألوف!

ومع ما ذكرت لك.. فإن في نفسي شيئاً من هذا الذي نسميه الحظ.. فما هو في ظنك؟ وما هي ماهيته؟ وأين تبدأ وتنتهي حدود كنهه

الخفي؟ وهل هو كما قرأت عنه في سبابي.. عبارة عن ظروف متآلفة مترابطة جاءت مناسبة في وقتها المناسب؟.. وأحب أن أسمعها من فيك صريحة النص.. لا رمزية المضمون.. فقد ضقت منك بالتلميح يقتضيني جهداً لأستخرج منه التصريح..

أجاب باختصار.. إن الفرصة تلوح في حينها الموقوف لا يتقدم ولا يتأخر فإن أنت استقبلتها.. وصدتها.. فذلك حظك الحسن.. وإلا.. أبقى استنيني!!

وربما سماه بعضهم.. التوفيق.. وأركانه الشرعية الدأب.. والمثابرة.. والتفرغ.. والإيمان بالنجاح.. والعمل لإحرازه على طريقة حفر البير بإبرة من كثرة الصبر وطول الأناة.. ولعلمك فهو زئبقي رجراج لا يكاد يحس أو يلمس في حالتي الإقبال والتخلي.. وإنه لمن المسميات التي يصعب علينا تعريفها وصبها في قالب واحد.. ولذلك فقد عاش بين الإيمان المطلق بوجوده.. وبين الكفر الصريح به!

وخلصنا.. عند ذلك.. من التراشق بالعبارات المدرسية المنمقة وكأنها طلقات الرصاص المتبادل في صمت كأنما هي صادرة من مسدسات مكتومة الصوت.. وبتعبيرنا الدارج فقد.. درناها بلدي!!.. مستشهدين ببعض الأمثال الدارجة أيضاً:

.. درهم حظ.. ولا قنطار شجاعة!

.. قليل الحظ.. يلاقي في الكرشه عضمه!

.. الحظ يستر ما في المرء من خلل!

.. من لقي بختو.. (عملها) تحتو!

.. عديم الحظ.. يعثر.. في داك الكلام!

وأخيراً.. استعرضنا على منوال النقد الذاتي السائد.. ومجابهة للحقيقة التي لا تنكر.. ملامح أولئك المتسكعين في دروب الحياة يحملون فوق رؤوسهم كالدوادير.. وتحت إباطهم كالحافظ شعار سوء الحظ.. نادبين نصيبهم من الدنيا.. فلم نر بينهم ونحن منهم إلا كل شخص لا نكاد ننطق باسمه حتى نخلع عليه من فورنا أحد الألقاب المستحق لها بجدارة.. مثل: نكد.. عقدة.. غلس.. شكوكي.. معقد.. ما يعجبو العجب.. موسوس.. دغل.. فيلسوف.. بغيض.. راجل متعب.. ملس.. هلاس!

وهنا زفر أخونا زفرة طويلة.. واستأذن .. فصحت به وقد هم بتخطي العتبة حافياً من اللخمة ومع ذلك يا فلان فإن هناك مثلاً بلدياً أحب أن تحفظه.. وأن تعمل به.. كحل وسط بين حسن الحال وسوئه.. دون حاجة لتكرر زياراتك الكريمة لي قال لي هاته.. قلت خذه:

حط رجلك في مداس السعيد.. تسعد!

* * *

ـ ١١٢ ـ

ووفاء لوعد مقطوع من السابق ـ ومسجل بإحدى الحلمنتيشيات المقندلة حيث جاء فيها:

وفي الجمعا.. ومن بعد العصاري نروح لأبحر.. أو للكراع!..

فقد خرجنا اليوم إلى.. أبحر.. وكانت سياراتنا بالنسبة للصف المتلاحق من السيارات.. ولضيق الخط عن استيعاب الذاهب والآيب وتقليداً لغيرها.. أشبه ما تكون في سيرها بثعبان يتلوى في دربه.. كأنما كانت الاستقامة في سلوكها معرة بين سواها.. تماماً كما يحدث في دنيا الناس.. حيث يضطر الفرد المحافظ على النظام.. أو على ذمته وأخلاقه.. بعد أن تضيق به السبل.. أن ينخرط في صف الأكثرية المطلقة ـ غير المستقيمة ـ وأمره لله!!

وقبل أن نمضي في طريقنا ـ فإن الرجاء.. بالمناسبة.. مؤكد بحرارة للجهة المختصة ـ وعلى لسان تلك الأكثرية ـ وبقطرات من دماء بعض ضحاياها الأسبوعية.. أن تنظر فوراً في توسيع الخط هناك ـ وأنها الآن لإشارة أبلغ من عبارة ـ باعتبار ما سلف.. وباعتبار أن الذهاب الأسبوعي

المصدر: جريدة عكاظ ـ ١٣٨٧/٨/٩هـ ـ ١٩٦٧/١١/١١م.

لأبحر بالذات أو للشواطئ المجاورة لشطوطها يكاد يكون المتنفس الوحيد للألوف المؤلفة من الخلق..

أما بالنسبة لسيارتنا هذه.. فلقد صادف أن كان كل المحشورين داخلها طروشاً من طروش البحر.. كما كان يسمي أخواننا المكيون.. أهالي جدة.. في سالف العصر والأوان.. وقبل أن يصبح معظمهم اليوم.. طروش بحر.. أيضاً.. بعد أن انتقلوا إلى جدة.. وأقاموا فيها الإقامة الدائمة المتصلة لدرجة جعلت الواحد منهم لا يطيق السموم.. هواء ذكوري السمة واللفح.. ويهيم وجداً بنسنسة البحري.. هواء أنثوي الهفهفة والملامح.. وقد نسي فعلاً رياضة تسلق الجبال.. على الأقدام!..

وجاءت هذه السيرة نفسها.. استطراداً قصيراً..لكنه جر من أحدنا إلى نقطة.. كشت منها جثتي.. بالبلدي.. أي اقشعر منها بدني.. بالفصحى.. وهي على ندرة وجودها لا تزال تشير إلى راسبة بائدة من رواسب.. النعرة القديمة.. والبائدة كذلك.

فاضطررت أن أذكر لراكبي السيارة رواية تاريخية.. تقول: إن مجلساً في عام ١٣٥٦ هجرية ضم نفراً من النازحين المقيمين بمكة من أهالي جدة موظفين بوزارة المالية وسواها حين كانت جدة أشبه ما تكون بقرية خاوية هامدة الأنفاس.. وكانت مكة.. يعمرها الله.. من المدن التي حدد مركزها الشاعر بقوله:

الرزق حيث تزاحم الأقدام!..

وصادف.. كما ينفلت الريح أحياناً من صاحبه رغم تكعيبه.. بجلوسه جلسة التمكن.. أن انفلت من أحد الحاضرين جملة تعني أن

غزواً وظيفياً جداوياً.. ومدينياً أيضاً.. قد طغا على أبناء وادي إبراهيم الخليل.. وساد السكون.. لتقطعه شخصية كبيرة المقام بقولها: الدين لله والوطن للجميع!..

وهكذا قفلنا البحث بهذه الجملة المقتبسة من الشخصية الكبيرة اقتباساً كاملاً بالمسطرة وبالبيكار لقولة مهجورة لزغلول مصر.. وقد قيلت منه وفي عهده لا لطلب المساواة بين مواطنين كما هو الحال بيننا آنذاك.. ولكن للمساواة في الحقوق بين طائفتين ذواتي ديانتين مختلفتين.. تفترشان الصعيد الواحد..

وعند هذا الحد.. تعهد الجميع وتعاهدوا على ألا يسمح أي واحد منهم في حياته أبداً بأن ينفلت منه ريح خبيث له هذه الرائحة النتنة!..

وهكذا.. كذلك.. وصلنا إلى.. أبحر.. حيث أخذ كل منا يغسل نفسه.. ويرطب جسده بأمواج البحر وبنسماته الهفهافة.. ولما كنت بالنسبة للبحر طرش من طروشه.. ولما كان لي صديق العمر.. حبيته بلهفة.. حيث استقبلني بحرارة وشوق وتناجينا، ولكن.. على طريقة أكل الوجه!.. دون اتصال مباشر.. ومن بعيد لبعيد لأنني في تعاملي معهم من جماعة ابن الرومي القائل:

وأيسر إشفاقي من الماء أنني

أمر به.. في الكوز.. مر المجانب!..

ولقد تمليت من رؤيته طويلاً.. وتغلغلت في صميمه ملياً.. وعشت معه.. وفيه.. وله.. الشعر ـ للشعر ـ مردداً بعض المقاطع من قصيدتي الخيرة فيه:

أحـــب الـــبـــحـــر مـــن قـــلـــبـــي   فـــلـــي قـــلـــب بـــه شـــاعـــر
فـــمـــن أمـــواجـــه حـــبـــي   مـــن الـــســـاكـــن.. لـــلـــهـــادر
وفـــي شـــطـــآنـــه دربـــي   بـــه الأول كـــالآخـــر
تـــلاشـــى دونـــه الـــظـــل   فـــلا عـــال هـــنـــا ـ أو دون

متى انفض بنا السامر!..

* * *

ـ ١١٣ ـ

أصابني البارحة أرق لم تنفع لطرده أية وسيلة.. فقد أغمضت عيني ووضعت الوسادة على رأسي ضاغطاً إياها بشدة أحياناً.. وبحنان حيناً آخر.. لأجعل منها واسطة انفصال عن العالم الخارجي ـ كما حاولت تكرار التلاوة لقصار السور باعتبار أن هذه العملية ذات فائدة مباركة مزدوجة ـ على طريقة ـ حج وبيع مسابح..

ومع اعترافي بقيامي.. لوقت ما.. بالعدد من المائة ـ ومرة من الخمسمائة طرداً وعكساً.. وبالمناسبة فقد اكتشفت أن عملية العود بالمقلوب.. أي خمسمائة أربعمائة تسعة وتسعين.. أربعمائة ثمانية وتسعين ـ وهكذا ـ عملية ليست بالسهولة التي نظنها نحن الكبار.. وتلك تحية مني للأولاد الصغار البارعين.. بعكسنا نحن الكبار ـ في العد بالمقلوب ـ بفضل تمرينهم على المسألة ـ كلعبة محببة لديهم ـ

وباختصار فإنني لم أترك وسيلة مقروءة بالأبصار أو مسموعة من الأفواه.. لطرد الأرق إلا واستعملتها ـ لكن بدون جدوى.. ولقد كنت البارحة في الحقيقة حريصاً كل الحرص على النوم للساعات المقررة والكافية لمثلي لأنني مرتبط بموعد هام وذي نفع مادي لي.. في الصباح

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/١٠هـ ـ ١٩٦٧/١١/١٢م.

ـ وهذا ما جعلني في حالة قلق كبير يضطرني لاستجلاب النوم.. ودحلسته.. بشتى الطرق.

وعلى فكرة.. كما نقول.. فإنني ممن لا يؤمنون بتاتاً بأن تعاطي القهوة والشاي بكمية وافرة.. ما دمت معتاداً عليها.. سبب رئيسي من أسباب الأرق.. فأنا مثلاً أشرب من الشاي ما يمثل في كميته ثلاثة براريد أبو ثمانية أسود ثقيل ـ ومن القهوة ـ أحياناً ـ ما يمثل «دلة» من القطع المتوسط.. دون أن تؤثر تلك الكمية من ذلك أو تلك على حضور النوم ـ أفندي ـ في موعده.

ثم إنني ـ أيضاً ـ ممن لا يقلقون لحدوث الأرق.. إن لم يكن لدي كالبارحة ـ موعد هام يهمني جداً القيام مبكراً لأفي به. لأن مذهبي الرئيسي في الأمر أن النوم في ذاته مطلب جسدي يجيء في أوانه المحتوم دون مطاردة أو تعقيب مطرد له.. فكما أن الإنسان لا يأكل إلا حين يشعر بالجوع ـ ولا يشرب إلا حين يحس بالعطش.. فهو لا ينام إلا إذا غلبه النوم.. ولقد حدث لي مراراً أن قفزت من الفراش لمباشرة عملية أخرى غير النوم.. كالكتابة أو القراءة أو سواهما.. دون أن أعطيه اعتباراً أكثر مما يستحق.. حتى يجيء صاغراً مستسلماً في أوانه الأوتوماتيكي المقرر..

ولقد استعرضت كل معلوماتي ـ وفلسفت النوم ـ حتى لقد ناقشت السؤال البيزنطي الشهير ـ وهو متى نلتذ بالنوم؟ هل يكون الالتذاذ به في أول قدومه وحين غلبته علينا؟ أم أثناء النوم ونحن لا نشعر بممارسته الواعية؟ أم بعده حين نستيقظ لنشعر بالنشاط والحيوية.. نتيجة أخذ الجسم حظه الكافي منه؟ ولقد رأيت أنها عملية ذهنية مسلية فتشبثت

بها.. وقلبتها على جميع وجوهها.. وخرجت مسروراً ـ ولو مؤقتاً ـ بالنتائج الآتية:

أ ـ لا شك أننا نلتذ فعلاً بمقدم النوم حين مداعبته لأجفاننا لذة محسوسة تجعلنا في حالتي خدر حلو ـ واستسلام جميل.

ب ـ كما أننا نلتذ بالنوم ـ سبيلاً إلى دنيا الأحلام التي نحيا فيها حياة ثانية واسعة وملوّنة.. وحارة بالتأكيد.. مهما تخلل أحلامنا أحياناً من مناظر هائلة.. وحوادث مرعبة.. ويستثنى من ذلك كما هو معلوم ما يسمونه ـ الكابوس ـ وهو أقصى درجاتها.. وما يعتبر عرضاً مرضياً في ذاته.. ربما سببت حدوثه أكلة دسمة نمنا على أعقابها فوراً.. وبصرف النظر عن «الشرقة» الحادة لانحدار الرأس عن المخدة الواطية!

ج ـ كما أننا ننتشي بلذة النوم بعد أخذ حظنا منه ويقظتنا يقظة نشيطة ـ ومبهجة.. تولد فينا الاستعداد لمزاولة ومباشرة أي عمل أو أية حركة مهما كان ـ وأياً كانت ـ وعلى هذا القياس فنحن نلتذ بالنوم في كل حالاته الثلاث لذة مزدوجة: التنعم والمنفعة.. على شرط أن نأخذ نصيبنا الكافي منه ـ وهناك جداول طبية تعيّن للمسن ـ وللشاب ـ وللطفل المدة اللازمة له صحياً من النوم.. ومثلي على سبيل المثال ممن يقع معدلهم بين السبع والثماني ساعات متصلة ـ وذلك باستثناء الغفوة الأفيونية المعتادة عقب الغداء مباشرة والتي أحرص عليها رغم تطرف الأوامر الطبية الصارمة ـ تمشياً مع قاعدتنا الطبية الشعبية القائلة «ولف الجساد بما تعتاد».

وأخيراً ـ ودون تطوير أكثر.. انخمدت!.. والخمدة في لهجتنا الشعبية تعبير جاف وغليظ.. إلا أنه رقيق.. ويعني مفاجأة النوم على

غرة.. وكبسه على الشخص دون التوطئة والاستجلاب المألوفين.

وهكذا أكملت صباح هذا اليوم مناقشة موضوع الأرق والنوم.. بعد أن صحوت بعد فوات الميعاد!.. وضياع ما ترتب على فواته مما أرقت بسببه.. وبت أحلم فيه!..

* * *

ـ ١١٤ ـ

زارني ضحى هذا اليوم زميل ممن يطلق على أمثاله وأمثالي شباب اليوم اسم «راجل قديم!!..» وتذاكرنا بحكم صفة القوم المشتركة هذه بعض ذكريات أيام وليالي زمان..

وكان أكثر ما انصبَّ عليه حديثنا بالمناسبة الداعية إليه ما اتصل بألعاب الحواة في تلك الأيام.. وكان همها على عهدنا الراحل ـ أو البائد ـ هو العرض الخاص بما كانوا يسمونه.. راس بلا جته.. في الأعياد ـ وببرحة العيدروس بجدة على وجه التحديد.. حيث تنصب فيها المدارية بأنواعها من الألواح ـ أي الشبارى ـ إلى العقيليات.. وتكتظ البرحة كلها والأزقة المجاورة لها بالأفواج المتلاحقة ـ وبالصفوف المتزاحمة من الأطفال ـ والغلمان ـ والشباب ـ والرجال في أوقاتهم من بعد العصر، حين تمتلئ بهم مراكز المقاهي هناك، للفرجة والمشاركة من بعيد.. لبعيد!

وبالعودة للموضوع الحديث الأم هنا ـ وهو ألعاب الحواة ـ فقد كان مكان العرض للعبة.. راس بلا جتة.. هذه أكثر الأماكن ازدحاماً وطلباً للفرجة.. بل قد يصل الأمر فيه إلى أن يمسك كل متفرج مكانه في

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/١١هـ ـ ١٩٦٧/١١/١٣م.

الصف ـ أو السرا ـ كما يطلقون على أسلوب النظام وترتيب دخول المشاهدين.

على أن الحكاية كلها كانت عبارة عن صندوق زجاجي تبرز منه للعيان ـ أو للعيون البريئة المجلقة رأس رجل تحوطها الحشائش الجافة الخضراء ـ وتتخذ هذه الرأس عدة حركات صبيانية مضحكة.. وذلك دون أن يظهر «الفاعل» لها أو المحرك للرأس الظاهرة للعيان..

ولما كانت بداية الحديث مع زميلي الرجل القديم عما سمي بأزمة الشرق الوسط ـ تعبيراً خبيث الصورة ساد حتى غطى على الأصل، وحقيقة القضية ومسماها الصحيح ـ وذلك باعتباره الحديث اليومي بين العرب ـ كل العرب ـ عن إسرائيل التي شبهها زميلي بأنها .. راص بلا جتة.. من طراز مودرني حديث..

ومن هذا المنطلق.. كما يقولون في التعابير الصحفية والإذاعية الجديدة.. كان الحديث عن الهواة وعن ألعابهم.. ابتداء من اللعب على الحبال ـ وعلى السلوك ـ إلى لعبة البيضة والكتكوت ـ وانتهينا إلى أن قوام الأمر ومداره في موضوع الحواة برمته وبأنواعهم هما خفة اليد ـ والحيلة ـ والضحك على العقول الساذجة بظاهر من الصورة.. وبشعار يخفي الأصل!

وراقني التشبيه.. وحرشت صاحبي.. وأزيت نفسي الأمارة بمتابعة النبش التاريخي والشعبي معاً.. لاستذكار المشابه من تلك الألاعيب ومن كل ما تجمعه عمليات النصب والاحتيال في جملة واحدة كما تجمع الحروف المنفصلة في الإملاء ـ مثلاً ـ جملة: زر.. ذا .. ورد.. أو في القراءة جمل الأبجدية المتتالية في صور ذات نغم وتنسيق.. وترتيل

متساوٍ في قولهم: أبجد ـ هوز ـ حطي ـ كلمن ـ تخذ ـ ضطغ ـ سعفص ـ قرشت.. هكذا ـ أو كما وردت في الأصل.. فقد أصبحت ضعيف الثقة في ذاكرتي الغربالية الصنع..

وهكذا.. استعرضنا بين.. هأهأة.. واستراحة ومعاودة للحديث ما لم يصبح جديداً علينا من الألاعيب العالمية الاختراع ـ لانعدم أن نجد لكل منها شبيهاً.. سواء في الحركات كلعبة.. راس بلا جتة.. أو في النشل المستور كلعبة.. الثلاث ورقات..

والفرق الوحيد الذي خرجنا من المقارنات به بعد العظة والعبرة والاطمئنان.. أن متفرجي اليوم على هذه الألاعيب ـ ليسوا أطفال الأمس!

هذا ـ ولما كان حبل البحث في هذا المجال ـ بعد الحديث عنه ـ طويلاً ـ ورفيعاً ـ وقابلاً لوقوع الرافض عليه على أم رأسه ـ كما يقول التعبير اللغوي الفقيه.. وإن كنت ذاتياً حتى هذه اللحظة لا أستطيع تحديد نقطة مكان الأم من خريطة رأسي..

لما كان كذلك.. فقد اقتنعت وزميلي الراجل القديم بالجلوس لدى طرفه عند هذا الحد.. تماماً ـ كما كان يقف المنظمون لمحل العرض في لعبة ـ راس بلا جتة ـ عند طرف الباب لاستلام النقود أولاً ودفع المتفرجين إلى الداخل.. أو القذف بها إلى الخارج.. عند نهاية العرض!!

* * *

ـ ١١٥ ـ

وحملها إلى البريد.. رسالة رقيقة من كاتب أرق منها أسلوباً.. وأزكى أصلاً في مادته الإنسانية من مادتها الورقية يقول فيها ضمن ما يقول: قرأت كلمتك بجريدة عكاظ.. وبركنك اليومي ـ يوم.. ورا يوم ـ عن الحظ وبالنسبة لمعتقدك الذاتي فيه لم أخرج بنتيجة قاطعة لتؤكد أنك من المؤمنين بالحظ.. أم من الكافرين بوجوده؟

كان بودي أن أسمعها صريحة مدوية في مسألة يهمني الرأي فيها كما يهمني أن تكون من الصف الذي أقف بين أفراده ـ كما كان بودي أن تتناول الإرادة ـ والسعي ـ وما إليهما من عناصر مكملة للموضوع..

وأتجاوز عما جاء بالرسالة مما يدخل مباشرة في باب «المراطلة» وزلزلة خلة التواضع التي أخجلها الكاتب بما قال: لأصل رأساً إلى الأهداف.. ولو بفرض كسب حالة التعادل! دون إهدار وقت لا مبرر لإهداره.. وبغير افتراش مساحة أطول من المقرر.

والحقيقة أن وجود الحظ ـ كما قلت ـ كمفهوم زئبقي رجراج أمر لا سبيل إلى إغفاله أو إنكار وجوده.. وإنما المشكلة كلها تكمن في جعله

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/١٢هـ ـ ١٩٦٧/١١/١٤م.

المحرك الأول والأخير.. بحيث يجوز للمؤمنين والكافرين به على السواء أن يلبثوا فاغري الأفواه.. جامدي الحركة لاستقباله أو استدباره.. دون مقاومة لما يقضي به في حالتي السلب والإيجاب والإرادة الذاتية للشخص موضوع أشبعه علم الكلام والمذاهب المتشعبة منه.. والمتفرغة له بحثاً.. وتقنيناً.. وأمداء تتسع كل السعة وتضيق كل الضيق.. حتى لقد ذكر أن للسكين ـ مثلاً ـ خاصية القطع، وللنار خاصية الحرق، وهما مثالان جماديان للإرادة.. فما بالك بالإنسان وُهِبَ المعرفة.. والبصيرة.. والإدراك لما يضر وينفع..

ويقول الله تعالى.. وهو أصدق القائلين.. ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤) كما يقول جل وعلا ـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٩).

كما يذهب البعض الآخر في سفسطة جدلية إلى فتح بوابات واسعة إن سهل الولوج منها.. فقد تعذر الخروج منها بسهولة على حد قولنا الشائع: مثلاً بالبيت الشعري السائد:

ألقاه في اليم مكتوفاً.. وقال له إياك.. إياك: أن تبتل بالماء!!

وعلى ذلك كله أو بعضه ـ خطفاً وإيجازاً وإيماءً.. فالإرادة والكسب، والسعي، والحظ مسميات مفهومة الأداء والمضمون ثابتة الوجود في حياتنا بكل ما تعنيه الحياة من حركة وممارسة واستمرار وجود إيجابي دائب السعي.. والتطلع والاستهداف..

وبعد.. فلما كنت بطبيعتي أكره تصلب الشرايين في الحديث، ومواضيعه.. وأفرق من أن أبدو في هيئة المزمل بالطيلسان والمدجج

بالقضيب الأبوسي.. فإنني مع المتمثلين بقول الإمام:

آن لأبي حنيفة أن يمد قدميه!

وبالكلام البلدي الدارج فإنني مع جماعة.. أسعى يعبدي وأنا اسعى معاك.. ولست من العذريين في جو الحياة والمتمذهبين بمذهب.. أعشقيني.. وكلي هوا وإلى اللقاء ثانية ـ إذا شئت.. وإن كان.. قصر الشر أحسن من طوله!!

* * *

ـ ١١٦ ـ

وسمعتهم اليوم على مقربة من مجلسي يتحدثون في ـ مركزهم ـ المعتاد عن آثار المطر ـ لم يترك شارعاً مسفلتاً.. أو غير مسفلت دون أن يثبت وجوده فيه وجوداً طويل العمر حتى اليوم.. وكانوا في كل دقيقة من حديث.. أو لدى كل ركزة في جملة يتمنون أن تنعكس آراؤهم.. مع ملاحظات سواهم.. مقروءة على صفحات الجرائد المحلية لدينا للاطمئنان على وجودها وعلى أنها مرآة لحياتنا بما فيها من جفاف أو مطر!

وهذا المطلب.. كسواه من المطالب الأخرى.. يكثر ترداده في حينه.. وفي حينها.. رغبة بشرية اجتماعية تطفو دائماً على القاع للاطمئنان على دوران كل جهاز في نطاقه العام لإثبات الوجود من قبله في محيطه الخاص.. ولعدم انقطاعه عن وظيفته التي وجد من أجلها عضواً عاملاً أو معطلاً إن تخلى عن أدائها فقد فقد مادة خلقه التي قررتها القاعدة العتيدة القائلة: بأن الوظيفة تخلق العضو!..

ويشاء الحظ أن تجمعنا في نفس الليلة حفلة عشاء بيتي خفيفة الروح بذات صاحبها وبمن جمعت من ذوي الفكر.. ومن حماة الصحة ـ

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/١٣هـ ـ ١٩٦٧/١١/١٥م.

وممثلي الصحافة في المنطقة كلها تقريباً.. وأن تثار نفس الآراء والملاحظات ـ ولكن على مستوى أرفع وأشمل..

وتدور الأحاديث نفسها.. وكأنها هنا ـ بخور من ند أو عود.. مجامره نفس الألسنة الطوافة علينا كل صباح.. حيث دافعت الصحافة عن ذاتها دفاع المستميت لم يترك جداراً يستند عليه إلا لجأ له.. وتأرجح الاقتناع بما قالته بين هزة رأس.. أو إبراز طرف لسان أول الأمر حتى انتهى آخره إلى التسليم لها ببعض الحق.. وإنكار معظمه الذي يعتبر الجوهر في الأصل.. وفي المدار..

وبأسلوب التركيز الموضوعي فقد حدد.. ما قيل وما قال. أحد رجال الصف المعارض وهو الأستاذ البوقري من ناحية القصد وانتفائه في النقاط الموجزة التالية:

أولاً ـ كان المأمول في صحافة المؤسسات أن تكون على غير ما هي عليه الآن.. بالنسبة إلى صحافة الأفراد السابقة.

ثانياً ـ لم يكن الهدف إطلاقاً الجهة التي كيف ـ ولم ـ ولمتى يستمر المطر مع وجودها بيننا وجوداً طويل العمر متعدد الآثار.. فإنها لم تتعد بمسماها المثال اليوم على أمثلة من وجود لغيرها على الأيام.

ثالثاً ـ لا بد من أن يتسلح.. أو أن يتحلى.. المسؤولون في كل جهاز بالروح الرياضية تستمع إلى الملاحظات المخلصة.. وتتقبل النقد الهادف.. باعتبار أن البواعث لهما وعليها نظيفة الدوافع والمقاصد ولقد سبق أن رأينا فعلاً نماذج طيبة على ذلك فيما ينشره بعض المسؤولين في صور مذكرات جوابية للرد.. أو للتفسير.. أو للإقناع.. على أضعف الإيمان.. بأسباب بقاء ما كان على ما كان.

وعقب كل ما سلف ظريف من هواة «الصن» فيما تراه الأكثرية ـ وحريف من حرفائه كما يدعي هو ذلك لنفسه إن هذا الكلام وأشباهه لا أرى شبيهاً له إلا دخان المجامر التي هي الألسنة الطوافة علينا صباح مساء وعند نهاية هذا المقطع الأدبي صرخ بأعلى صوته البلدي على خادم الدار.. بقوله:

هات الدستة.. أو مد الصفرة!!

* * *

ـ ١١٧ ـ

وسألني اليوم شاب يتحرى أن يكون موضع الرضا عند الله ـ وعند الناس ـ وعند نفسه.. وتلك في ظن الكثيرين المستحيلات الثلاثة.. أفتوا قديماً بعدم وجودها ـ أو ندوتها ـ وسموها: الغول.. والعنقاء.. والخل الوفي!

سألني ـ لماذا لا يستطيع هو وبعض زملائه أن يحددوا صورة معينة وثابتة لكاتب اجتماعي ـ ولنفرض أنه يعنيني حتى لا يأخذها غيري على نفسه.. تتلوّن صورته الذاتية في كتاباته.. وكأنه إحدى عارضات الأزياء تبدو ساعة وقد ارتدت من الملابس ما لا يسمح للعين أن ترى منها إلا ما أباح الشرع رؤيته لطالب الحلال.. وجهها وكفيها.. ثم تظهر ساعة أخرى مجردة تقريباً.. وكأنها أمناً الأولى لا تستر موضع الحشمة منها إلا ورقة التوت.. في مكانه.

وإنه.. لذلك.. ليؤمن هو وبعض زملائه ببعض ما يقول الكاتب إيماناً يبلغ في صدقه وفي تسليمه المطلق درجة إيمان العجائز ـ وأنه كذب ليكفر ببعض ما يقوله الكاتب كفراً لا يسمح بالجدل.. ولا يقبل التوبة بما يعتبره هو وبعض زملائه كل الإثم.. وذروة المعصية..

المصدر: جريدة عكاظ ١٤/٨/١٣٨٧هـ ١٦/١١/١٩٦٧م.

ومع ذلك فإنه ومن معه.. يريدون أن يبقى لهم الكاتب في زي واحد.. حتى يستطيعوا أن يعيشوا على الإيمان به.. حباً يرون أنه الأليق بهم وبكاتبهم.. فهم.. عاطفياً.. ينفرون النفور كله من حالة الكفر به ـ يرغمهم عليه إرغاماً لا معدى عنه.. ولا محيص..

ولقد تحيرت في الإجابة.. لا يمكن إلا أن تكون شرحاً يطول بالخروج من باب ـ للدخول في غيره.. في دورات متصلة يصل معها لف الدماغ إلى حالة الإغماء الشديد يضمن معها التسليم لا يملك المغمى عليه له دفعاً.. بحكم ضعف المقاومة المضمون.. كما تبينت أن صاحبنا يريدها.. أي الإجابة.. على الطريقة الحسابية لا تقبل الخطأ جمعاً مثل ١ + ١ = ٢ ـ أو الغلط طرحاً مثل ٢ ـ ٢ = صفر!!

ولذلك فقد سألته.. هل تعرف شيئاً عن مذهب .. التقية.. وذلك عن طريق القراءة له.. أو السماع عنه.. مذهباً يشبه الماء في تلونه بلون الإناء؟ فأومأ بالنفي..

قلت.. هل ورد عليك تعبير.. استلاف الشعور.. يعمد إليه الفنان أحياناً ليصف حالة غيره لا تنطبق على حالته هو بالذات إطلاقاً.. وإنما تجبره عليها نزعة فنية ليعيشها إحساساً يغني عن التجربة ذاتها فيصورها أصلاً تجعله الموهبة طبق الأصل.. فأومأ بالنفي..

قلت.. وقد بدأت أضيق بهذه البكارة النفسية والذهنية.. وهلا سمعت يوماً عن حكاية العميان الثلاثة أو الأربعة الذين وصف كل منهم الفيل عن طريق لمس جزء منه.. فكان صادقاً في وصفه بنسبة الجزء الملموس منه.. ويرمزون بهذه الأسطورة إلى الحقيقة.. شيوعاً وتناثر أطراف.. فأومأ كذلك بالنفي..

وهنا أدركت أنه.. غشيم.. في كار الحياة الأكبر.. فحرصت أن أمسك عن الشرح.. واكتفيت بأن ميلت عليه هامساً.. إذاً فإن عليك وعلى بعض زملائك أن تتعاملوا مع كاتبكم هذا.. إن أحببتم دوام الصلة به.. كما تتعاملون ونتعامل مع الحياة بموجب المثل البلدي القائل:

خد ما صفى ـ واترك ما تعكر!!

* * *

ـ ١١٨ ـ

وقرأت اليوم.. في حزن بالغ.. وبقلب دامع.. نبأ الفاجعة في حادثة راح ضحيتها الشبان الجامعيون الثلاثة: خليل إبراهيم سجيني، حسن أحمد حريري، يوسف يحيى دهلوي.. واسترجعت امتثالاً لأمره تعالى ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦).. واستسلمت بإيمان ـ لحكم القضاء والقدر.. في ألم ورثاء.

ولقد تمثلت هول المصيبة في فقدان الشباب الفتى اليانع.. عدة للمستقبل وذخيرة حية للآمال وللأحلام فيمن يمثلون الشباب في أقدس واجباته.. وأشرف معاهده.. نعيش معهم الأيام والأعوام لنسعد ولتسعد معنا البلاد بهم مع إخوانهم وزملائهم الآخرين.. أدوات بشرية عاملة في بناء الصرح العالي لبلادنا الفتية الشابة.

وترجرج أمام عيني الاسم الأول خليل سجيني.. إذ بقدر المعرفة الوثيقة والصلة العميقة يتضخم هول المصاب يلهث معه القلب وترزح تحت أعبائه النفس.. ترجرج اسم خليل طويلاً.. ليستقيم من بعد صوراً حية متنوعة المناظر متعددة المواقف.. دافقة في كل ذلك بالشباب.. وبالأمل. فلقد كان ـ خليل ـ معنا صيف هذا العام في المصيف بالجبل

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/١٦هـ ـ ١٩٦٧/١١/١٨م.

الأخضر بلبنان.. شاباً أخضر العود.. ريان الحياة.. مرح الروح راقص الكلمات الضاحكة والتعابير.. مكي اللهجة الرشيقة والعتيدة لا تقطعها سكين حادة.

وتجسد بشخصه قبالتي ـ أملاً عريضاً واسع المطامح حين ناقشته طويلاً عن دراسته الجامعية بالرياض.. حيث أفاض في سرد تفاصيلها بكل دقائقها.. حياة جد وجهد كفاح.. وحين أسهب في مفارقات لطيفة مضحكة عن نوادره مع مدرّس اللغة الإنجليزية وعن عدم خضوع لسانه المكي أو تنازله عن لهجته الأصيلة في مخارجها العربية للكنة الأجنبية.. أياً كانت..

وضرب لنا مثلاً.. وعززه بآخر وبآخر عن تلك النوادر.. والسيارة تقطع بنا الطريق لمبتغانا.. وأولادنا وهو واسطتهم وقريباته وأهلنا ونحن بين الجميع.. لا تنقطع ضحكاتنا منفصلة أو متصلة بآخر كل مقطع من مقاطع روايات خليل الساخرة الصور نمت عن رسمها بالريشة في ألوان وألوان كلمات حلوة بارعة التصوير زاهية الخطوط..

وانتهى ـ يومها ـ وانتهينا معه إلى قرار حاسم تعهد بموجبه ألا يتكلم حين يكون مع أولادنا إلا بالإنجليزية تمريناً عليها.. ودراسة حية سوف تساعده بعودته المبكرة للمملكة على تذليل دروس هذه اللغة.

وترادفت الآن جملة وتفصيلاً صور خليل أمامي وقد قضينا سوية وصحبة الأهل والمعارف والأقارب والأولاد ـ وكان في المنزلة لدينا واحداً منهم ـ قضينا يوماً من أيام الحياة الباسمة اللاهية بين الماء المترقرق.. وقرب الشلال المتدفق وتحت الأغصان الوارفة المتدلية الثمار.. ونحن الكبار جلوس فوق الصخور الضخمة تنبثق من قلبها ومن

أطرافها الحياة زرعاً أخضر يغالب الوجود لإثبات الوجود حتى في غير مظنته . .

ويذهب خليل مع الأولاد بعيداً عنا يتسلقون صدر الجبل وأكتافه . . ليعود هو قبلهم . . يروي لنا بعض ما شاهد وشاهدوا من مناظر ومن آثار طبيعية . . وما ذلك في لهجة لبنانية يستعين على نقلها بدقة بإشارات من رأسه ومن يديه حتى تستكمل الصور فتنتها التمثيلية.

وبعد ـ فإن الحزن على هؤلاء الشبان الجامعيين المفقودين . . إنما يأتي بمقدار الأمل المعقود عليهم . . وبمبلغ الأسى اللاذع في نفوس ذويهم وإنما يتساوى مع غلاء الحياة الشابة تفتقد فجأة وبدون مقدمات . .

وعلى قدر مرارة العزاء لأهل الراحلين ولذويهم . . نأمل أن يكون الرجاء لزميلهم المصاب . . سامي محمد يغمور . . كتب الله لمن ذهب العفو والغفران . . ولمن بقي السلامة والشفاء . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . .

* * *

ـ ١١٩ ـ

كنت اليوم محتبياً.. في جلستي.. وأنا أحب «الحبوة».. عندما أشتهي القهوة في الصباح وأشربها بقعدتها الخاصة.. ولم يخطر ببالي قط أني أكتب.. على رائحتها.. هذه السطور..

وكان يتحدث من حولي.. القوم من أفراد العائلة وبعض الأقارب ممن قضوا الليل في الدار زواراً وضيوفاً كراماً.. اقتضى مبيتهم في الدار لا في منى! أن تضيق المسؤولة الأولى علي في نفقات الفراش.. فبدلاً من وضعها بفراشي ـ كالعادة ـ ثلاث مخدات.. اثنتان تحت الرأس لرفعها خشية الشرقة اللعينة.. والثالثة بين الركبتين وأسفل الفخذين لحفظ التوازن.. اكتفت بجعل نصيبي لليلة الماضية مخدة واحدة.. فقط لا غير زيادة على طريقة تفقيط المبالغ بالسندات وبالشيكات أحياناً!

وكان حديثهم ينصب بالتوالي عن طيبة قلب فلان وحبه للخير وللمعروف.. بدليل ما فعله مع فلانة وفلان.. تعني نفسها وزوجها.. وكذلك عن دناءة وسفالة وتحجر قلب فلان.. بدليل منعه الرفد والعطاء وعمل الخير مع فلانة وفلان تعني نفسها وأخاها..

وإلى هنا.. والأمر طبيعي ودارج بين المتحدثين والمتحدثات باسم

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/١٧هـ ـ ١٩٦٧/١١/١٩م.

الخصوصيات المباحة.. ولكن لم يكد أحدهم يطلق جزافاً.. كالميزاب.. ما في لسانه من زفارة ذات رائحة كريهة على فلان الشهير بعمل الطيبات.. رغم أنه صنع بي ذاتياً ما صنع مالك بالخمر كما يقولون.. وينعته بأقبح النعوت لأنه ذهب إليه في طلب سلفة فرفض رفضاً باتاً إعطاءه إياها!

أقول.. أطال الله بقاءك ـ لم يكد قريبي يقول ذلك عن الرجل الطيب مع كل الناس.. إلا معي لسوء الحظ.. حتى سارعت بنزع الحبوة.. ونزع الحبوة عند العرب كوضع العمامة سواء بسواء.. والتفت إليه وإليهم.. وإليهن صارخاً في عصبية بالغة بأعلى صوتي.. متسائلاً بأسلوب سقراطي خالد:

إنني أود أن أسأل سؤالاً هاماً وخطيراً.. بل ويترتب عليه مآل الإنسانية المعذبة من الناحية المصيرية لها جمعاء.. فأعيروني آذانكم الطويلة وأفئدتكم الواعية ـ واسمعوا.. وعوا.. وأجيبوا:

ترى.. هل الصحيح أن يقاس الإنسان من أخيه الإنسان في ميادين الطيبة.. والخير.. وسمو السلوك البشري.. أو في مواقف القسوة والشر.. وانحدار السلوك إياه.. بما يصل فقط لذلك الإنسان نفسه المتصدي للقياس.. وللحكم على غيره بمقدار ما ناله وصادفه هو خاصة منه؟!

أم أنه لا بد للحكم على الإنسان من أخيه الإنسان أن يحكم عليه وله بالصفة الغالبة في مجموعها عليه.. أي بغالبية أعمال ومعاملات المحكوم عليه لكل الناس.. بصرف النظر عن نوعيتها الواحدة بالنسبة للمتصدي للحكم بمقدار ما وصله هو وحده منه؟!

وهنا سكتوا جميعاً.. ووجموا وجوماً سائداً حتى لكأن على

رؤوسهم الطير.. الطير الأخضر الناقل دائماً للأخبار السرية، واغتنمت فرصة سكوتهم.. وأعدت الحبوة إلى موضعها.. وأخذت أرشف القهوة في هدوء تام.. وكأنني لم أكن منذ لحظات مصدر تلك الزوبعة الجائحة لهم ولمجلسهم الشبيه بمحكمة أخلاقية تأديبية.. أو بسوق لتسعير ووزن أخلاق إخوانهم في الآدمية بالوطن.. بل وبالعالم كله باعتبار حكمهم الذاتي الضيق تقنيناً دولياً لأخلاق بني البشر.. فالإنسان هو الإنسان في جميع القارات!

ولكل قارئ أو سامع أن يحكم لهم وعليهم.. أو لي وعلي.. فإني أقرر هنا علانية غير هيَّاب ولا وجِل من أي واحد منهم مهما كان.. إنني دائماً أقيس الإنسان وأحكم عليه.. لا بمقدار ما يصلني أنا وحدي من خيره أو من شره.. وإنما أقيسه وأحكم عليه من مجموع أفعاله كلها مع الناس جميعاً.. فإن غلبت على أعماله العامة في مجموعها الأغلب نزعة الخير فهو طيب وابن حلال: وإن غلبت على أعماله العامة في مجموعها الأغلب نزعة الشر والخسة فهو نذل.. وشرير..

وعلى هذا القياس.. أحب للقافلة أن تسير! وما عليكم الآن.. إن اقتنعتم بميزاني.. وإذا أردتم أن تسعروا فلاناً.. أو تزنوا علاناً بموجبه إلا أن تستعرضوا غالبية أفعاله كلها بصرف النظر عما خصكم منها.. حتى يمكن للواحد منكم ـ فيكم ـ وبينكم أن يصيح قائلاً بحق..

وبعدل:

إيش تشهدوا عليه؟!!

* * *

ـ ١٢٠ ـ

وقطعت السيارة الطريق بنا بعد ظهر اليوم لغايتنا.. وكأنها ترقص طرباً.. تعبيراً عن فرحتنا الكبرى بالزهور المتناثرة من فتياتنا وصغيراتنا البنات المغادرات مدارسهن في صفوف متتالية.. وفي جماعات كالأسراب.. طالبات علم في حاضرنا.. وبانيات حضارة في مستقبلنا..

وصمتنا برهة.. مأخوذين إكباراً بحلاوة المنظر.. رأياً.. ومغزى.. ومضموناً.. ثم انطلق صاحبي في حديثه.. جاء في صورة مقارنة بين الرغبة الجامحة لدى البنات إصراراً على النجاح وعلى التفوق.. بالنسبة لأولادنا يمارسون طلب العلم كقدر مفروض.. وكإرادة حياة مقررة عليهم بحكم مسؤولية جنسهم.. على أن هذه العقدة الموروثة لدى بناتنا نقلاً عن الجيل السابق قبلهن لا تحتاج إلى فك رموز هنا ـ أو تحليل ـ .

وتوقف الحديث طويلاً عند النقطة الحساسة والخاصة بالبنات ضياعاً لأكثر من جيل.. مما نشأ عنه وترتب عليه تكدس العانسات الشابات في بيوتنا.. بواراً مفروضاً عليهن بحكم طلب الشباب من جيلهن لزوجات متعلمات.

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/١٨هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢٠م.

ثم انحدر مصوّراً مبلغ الاهتمام بالبنات.. فالعناية والرعاية بهن تُبذَلان من قبل وزارة المعارف بذلاً سخياً ومنقطع النظير كأنما هو تعويض ضخم في يومه الحاضر عن الأمس الغابر.

وقادتني الذكريات طائعاً مختاراً لتسلمني إلى ذكرى خاصة بمجلس خاص بدار المرحوم الشيخ عبد الله السليمان حيث جاءت سيرة تعليم البنت كحديث عابر من أحاديث المجالس.. تعقيباً على ظاهرة خطيرة جاءت كبادرة لها ما بعدها آنذاك وهي إقبال الشباب من بلادنا على الزواج من غير بناتنا خارج المملكة..

ودافع بعضهم عن الأمر بقوله: إن الشباب المتعلم لا يرتاح إلى طريقة «الشختك بختك»! في الزواج أولاً.. ولا إلى المعاشرة ثانياً لأمية.. أو لجاهلة لا تفهمه.. وإن كان المحرض الحقيقي له هو وجوده خارج محيطه طالباً للعلم حيث لا يكون هناك بد من العودة «انقجيه»! مع من خالطها.. وعرفها.. وعرفته!..

وكان ما كان من أمر الحديث يومها.. وقد انتهى بكل ما استتبعه من ذيول وتعقيبات.. وبقي راسبة من الرواسب في خاطري وبنفسي حين طفت اليوم على السطح بمرأى بناتنا وصغيراتنا كالزهور المتناثرة خارجات من مدارسهن توليهن وتوليها الحكومة ما توليها من عناية ورعاية واهتمام..

وتساءلت.. بعلامة استفهام برزت أتوماتيكية الوجود فغطت غضون وجهي.. هل بقي يا ترى عذر لشبابنا مقبول أو وارد في الاستمساك بعقدة الزواج من غير بنات بلدهن؟

وأغضيت بيني وبين نفسي حياء وخجلاً من أن أكون على كره مني

واحداً ممن ساعد حديثاً على استمرار ممارسة تلك العقدة لعزيز عليه.. دون أن يملك الوسيلة للحيلولة دون وقوعها!

إنني مع ما كان.. وما يكون. بنسبة ما شاهدناه اليوم كبير الأمل.. وعظيم التفاؤل في استقامة الوضع.. حتى نجعل كما نقول «سمننا في دقيقنا!».. وبالأخص وأن لوزارة المعارف فيما تشترطه حقاً وعدلاً على الطالب بالخارج.. بنداً يقول في صيغة التعهد:

ولا أتزوج.. بأجنبية!!

***

ـ ١٢١ ـ

ومن الناس من يزنون خطواتهم في الحياة اليومية.. وفي دروب سلوكهم الاجتماعي العام برأي الناس فيهم.. وبما يقولونه عنهم.. وبتقاليدهم لمن يختارونه أنموذجاً ملائماً لهم.. يكادون بذلك يلغون حوافزهم الذاتية.. ونوازع شخصياتهم.. وينقلبون نسخة توشك أن تكون طبق الأصل من سواهم..

فهم.. بما سلف.. كأنما يجعلون غيرهم المرآة لذواتهم يقفون أمامها صباح مساء.. ليكملوا زيهم وزينتهم بما تتلقفه أسماعهم عن الغير.. ملاحظة.. أو فكرة.. أو رأياً.. أو نصيحة متحرين أو تتخذ هيئتهم في مجموعها هيئة من يقلدون!

وسمعت اليوم واحداً من هذا الصنف من الناس يسأل من كان في زيارة لمديره العام.. وحتى أكون أميناً في النقل فقد دار الحوار كالآتي:

قال الزائر للرئيس: ولقد كنت بمكتبه الصباح فوجدت من الرجل لطفاً.. وبشاشة.. وإقبالاً على زوّاره يتكافأ مع إقباله على العمل.. وبالمناسبة.. فقد جاءت سيرتك.. يا فلان!!

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/١٩هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢١م.

وهنا نصب فلان قامته.. وشد حيله.. وحملق في محدثنا قائلاً: ها!! وماذا قال سعادته عني؟ وهل دلدل رجليه عند ذكر اسمي.. أو رفعهما بعد أن كانتا مدلدلتين؟ ونظرته.. نظرته.. هل فاضت رقة وحناناً أم قست بعض الشيء؟.. وكيف رضاؤه عن عملي.. هل ابتسم أم عبس؟ وهل يرى إجمالاً في سلوكي العام شيئاً ينبغي أن يعدل؟ و.. و..

فأجاب الزائر.. إنه لا يعيب عليك إلا إسرافك في سؤاله عن الصغيرة.. وعن الكبيرة من الإجراءات.. غير مكتف بشرحه الموجز على الأوراق.. وإلا فإنك مثاليّ في عملك ونشيط.. ومواظب على الدوام.. وهو راضٍ جداً على العموم عن زيك وعنك.. إلا فيما سلف!

وهكذا استمر الحوار الرئيسي وفروعه على هذا المنوال مما هو مألوف ومعروف.. وكدت أنفجر غيظاً من الأسلوب المسخ لا يضع الرجال بما يختارونه بحريتهم أسلوباً مميزاً لأنفسهم.. كاللحن المميز حتى لأي برنامج مسموع.. ومكرور.

وعندما استدار ناحيتي يسألني كذلك عما يقوله الناس عنه.. لأخذ رأي الشعب فيه.. وما يصفه به المراجعون.. وباختصار يريدني أن أكون له رجع الصدى العام.. فردت وجهي بعد تقطيب وكرمشة وقلت:

إنني أرى بصرف النظر عما يقال عنك وفيك أن تتخذ البرنامج الآتي في حياتك.. فمد عنقه في لهفة وقال هات.. نوّرني يا أستاذ فإنني دائماً بحاجة إلى أن أسمع.. وأستفيد.. وأتعلم.. فاستطردت:

عليك قبل أن تخرج من بيتك أن تتصل بالمراجع إياه.. لتسأله رأيه.. مثلاً.. في أنه من الأفضل أن يكون فطورك فولاً فقط.. وبالسمن

البري.. أو الصناعي.. أو الزيت أم أن تتناول معه قطعة من الجبن.. وحبات من الزيتون.. الأسود أو الأخضر؟.. وهل الأخف على المعدة أن يكون البيض ـ في يوم البيض ـ نمرشتا.. أم مسلوقاً؟ وبمناسبة برودة الجو نوعاً ما فهل يكون الأنيق أن ترتدي المشلح العوري المرينا.. أم تظل بمشلحك الأسود الخفيف هذا؟ وإذا كان الرشح مستمراً معه فهل تصحب معك له علبة من ورق الكلينكس احتياطاً.. أم أنه يفضل الأخذ بنصيحتك من الإكثار من عصير الليمون؟!

أما عن الناس.. فإنهم يقولون عنك أنك تبدو بهندامك الجميل وعشيتك في شكل رائع خصوصاً حين تتلب طرف الغترة من ناحية الشمال على رأسك لتبدو صفحة وجهك اليسرى كاملة.. وكذلك عندما تلملم طرفي المشلح وتجمعهما على صدرك واضعاً كفيك عليهما.. وكأنك تتلو الفاتحة في خشوع ورهبة وأنك.. وأنك.. فواظب على كل ذلك.. فإنك صورة طبيعية وبالألوان من رئيسك حتى أنهم لا يكادون يفرقون بينكما.. في أغلب الأحيان!

هنالك أجاب في طبيعية متلهفة.. وفي ترتيل محفوظ إنني أحرص الحرص كله على أن أكون في الصورة المحبوبة من الكل.. لا أكاد أفعل إلا ما أثق بأنه السلوك المرضي عنه.. لا يُنتقَد من أحد.. وإنني معك في كل ما ذكرت.. إلا من ناحية نوع الفطور.. والأكل.. فأنا أخالفك لأنك تعرف وأنت سيد العارفين المثل القائل:

كل ما يعجبك.. والبس ما يعجب الناس!

فصفقنا لعبقريته الفذة واعتبرنا ما قال فلتة من فلتات الذاتية المعبرة لحساب نفسها.. فارتاحت أعصابه وكرّر الطلب لنا على حسابه شاياً..

وبارداً في آن واحد.. ولكنه ما لبث أن تغيرت أحواله كلها حين سألني عما أراه وعما أسير أنا به في حياتي.. قاعدة ثابتة وسلوكاً يومياً.. وحين أجبته أن لي ثلاثية شعرية أقول فيها.. للأسف الشديد:

وقالوا:

تشبه في حياتك بالذي من الناس قد أحببته الآن أو قبلا

فقلت: وهل مسخ التشبه كافل لشخصي تبديل الذي فيه قد حلا

بشخصي أصلاً عشت ذاتاً ومظهراً وهيهات أرضى أن أعيش به ظلا!

هنالك ساد الصمت.. وتكهرب الجو.. وخرجنا فوراً دون أن نشرب الحار.. من الطلب الجديد أو البارد!!

* * *

ـ ١٢٢ ـ

ولقد زجرت اليوم نفسي الناشزة.. لإقناعها بقبول ما يتيسر.. زجراً شعرياً.. متمسكاً بحقوقي عليها.. مردداً على مسامعها قول الشاعر:

والنفس راغبة.. إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل.. تقنع!

وسألتها في إصرار الرجوع إلى بيت الطاعة.. بالمعروف.. فإن الحسنى خير لها وأبقى من هذ البطر والعناد.. لو تعلم!

وكان السبب الرئيسي فيما فعلت أنها استصغرت شأني.. وأنا أتناول غداء خفيفاً جداً.. بدلاً من أن أوفر لها الوجبة الدسمة التي ألفت تناولها ولم تدر أن العلة فيما فعلت ترجع إلى أن هذا اليوم.. هو «يوم الغسيل» العائلي.. أولاً.. وإلى أنني ثانياً أحببت أن أصون صحتها الغالية من خطر اضطراب المعدة المتزايد معي ومعها من يومين..

وأجابتني في وقاحة واستعلاء ـ ألا فاعلم أنه قد ولى إلى غير رجعة زمن القناعة.. والزهد.. والتنسُّك.. دليلاً على الهرب من ضرائب التطلع لما فوق.. وعلى العجز عن مصارعة الحياة في سبيل المركز الأحسن بها.. وتسليماً بعدم جدوى المقاومة والرضوخ للتحتية.. في هذه الدنيا العاجلة!..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢٠هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢٣م.

ولا تنسى أن هذا السلوك الخانع القانع المتواضع وليد سياسة تخديرية ضحك بها الشبعان.. على مدى أجيال وأجيال. على الجوعان.. وعلى ذلك فإنني أؤثر أن نحدد موقفنا من بعضنا البعض دون مشاركة أولئك الأقدمين لنا في مشاكلنا.. أو تسلطهم علينا بما رتبوه خداعاً لك ولأمثالك من مواعظ.. وأمثال.. وحكم..

واستطردت قائلة إنني بعد اليوم لا أقبل إطلاقاً وأنا أعرف بمقامي الأدبي والدنيوي لدى المجتمع أن أهبط عن مستوياتي.. وسواء في المأكل.. أو في الملبس.. أو في المطعم.. وحتى في المركب هجولة بين التكاسي.. ولن أرضخ لدهدهتك عليَّ ببيت شعر.. أو بمثل.. أو بحكمة قديمة باهتة، فكن على ثقة تامة أنه لم تعد تؤثر في حيثيتي وفهمي أمثالك الشعبية.. وعلى الأخص ما اتصل منها بمطلب الغذاء الذي هو القوام المكين للبدن.. ولعلمك فإن معدتنا المشتركة أيضاً بيننا تؤيدني فيما قلت وبموقفي الصارم.. فهي الأخرى غاضبة منك.. وغير مؤمنة بقول عجائزك الغابرين عنها:

احشيها خروق.. تروق!

هنالك.. وكزتها وكزة خفيفة بجنبها ـ الذي هو جنبي! ـ وسردت عليها للإغراء.. نتفاً حلوة من ماضينا الجميل عندما كنا نلتهم.. لاهين.. لاعبين.. فرحين.. مسرورين.. لقيمات من أقراص الدخن. وقطعات صغيرة من جبن. أو خيار بالشرش.. وما شاكل ذلك من الأطعمة الخفيفة التي يسمونها الآن.. ساندويتشاً.. بغير اللغة العربية.. ولكنها لم ترعو.. أو تَلِنْ قناتها.

ولما كنت أعرف عنها ولعها بالحكايات القصيرة ذات المغزى.. فقد

اضطررت لدحرجتها إلى فهم ما يجب على الرفيق نحو الرفيق أن أسرد لها دون تقيد بحرفية الموضوع نفسها.. الحكاية الآتية:

حكي عن بعض البخلاء أنه حلف يوماً على صديقه.. وأحضر له خبزاً وجبناً.. وقال له: لا تستقل الجبن.. فإن الرطل منه بثلاثة دراهم.. فقال له ضيفه الذكي:

وما قولك فيمن يجعله بدرهم ونصف قال: وكيف ذلك؟ قال:

أكل لقمة بجبن.. ولقمة بلا جبن!!

عند ذلك انفرجت أساريرها نوعاً وابتسمت.. ولكنها قالت لي: عِدني ألا تعود ثانية لما فعلته بي اليوم.. فإنني لم أعد أطيق أن أعود.. دائماً.. كما كنت.. ولما كنت عليه بالأمس..

فأدركت أنها بدأت تفهم معنى سياسات التقشف العالمية.. وأسباب أزمة الأسترليني.. وكساد الكتب الدسمة ـ ورواج الصحف والمطبوعات الهايفة.. وكثرة عدد القراء على خفيف وندرة سواهم.. وفرحت كثيراً لأنها أخذت تحن إلى عوائدها تلميحاً.. ضمنياً.. ودون تصريح!

* * *

ـ ١٢٣ ـ

كنت حريصاً على مشاهدة مباريات كرة القدم حينما كنت متيماً بأحد الأقطار العربية قبل سنوات قصيرة هنا.. لسنوات طويلة هناك.. وقد اخترت مع صديقي ورفيقي الذي كان مواظباً على حضورها معي آنذاك.. اصطلاحاً ليوم كل مباراة باسم.. مع الناس.. وذلك لضمان رؤية وجوه جديدة وكثيرة.. وللانطلاق من حالة التعليب اليومي حيث كنا مثل الكونسروة في رفوف دكاكين البقالة.. ولتحريك المشاعر الراكدة مع المشاعر الهائجة المستجيبة لطبيعتها البشرية دون ثقل.. ومن غير رتوش اجتماعية.. لنحيا ساعة حارة..

ومع أن مشاهداتنا للمباريات كانت مقتصرة على ما يقام منها بالنادي الذي كنا أعضاء منتسبين فيه.. وما أكثر ما كان يقام به من مباريات.. إلا أننا نزولاً على مقررات وواجبات اصطلاحنا الخاص.. مع الناس.. اضطررنا لحفظ جداول الدوري العام.. والكأس.. وللإلمام غير الواسع بأصول اللعبة.. نظرياً لا جسدياً.. كما لا أحتاج أن أقول..

وعلى نغمات هذه التحميلة الموسيقية اللازمة وعلى هدى من هذه

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢١هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢٣م.

الإيماءة المبطنة والماكرة الدلالة على أنني من غير الجهلة بلعبة الكرة.. أو الفضوليين عليها.. فقد رحبت اليوم باقتراح رئيس النادي الأهلي حضورنا سوية مباراة منتخب المنطقة الغربية السعودي مع الفريق التونسي الزائر للمملكة والمقامة في ملعب الصبان العتيد.. والوحيد.. في جدة..

وأول ما رأيت الملعب ورائي.. أدركت أنه لم يزل.. هو.. هو.. على حالته القديمة التي رأيته عليها منذ سنتين لم تطأ أرضه المباركة قدماي خلالهما.. ومنذ أن قلت في وصفه حينذاك:

واغش الملاعب عندنا متفرجاً   إن كنت عاشق كورة ملبوشاً
تجد الملاعب فرجة.. وترابها   ما كان مزروعاً.. ولا مرشوشا
وبملعب الصبان تجلس كاشفاً   للشمس رأسك عارياً.. منكوشا!

وعليه فقد آمنت بهذا الدليل العملي على بقاء كل قديم على قدمه.. إن الدنيا. ولله الحمد.. بخير.. يؤكد ذلك اكتظاظه بالجموع الحاشدة التي ترى في الإقبال عليه رغم بقائه كالعهد به.. عملاً وطنياً وشعبياً يعتبر مثالاً نادراً للتضحية.. وإنكار الذت..

ومن باب ضيق.. كأخلاقي!.. يوم لا أنام بعد الغداء.. دخلت بتصريح خاص شاكراً ومقدراً من أباح لي حق الدخول مما دعاني إلى أن أخرج لساني.. وأفرد مشلحي.. وأمسح نظارتي.. وأبحلق في وجوه المصطفين خارج سياجه الشائك..

وقبل أن أنسى.. فإنني أقترح بناء مقصورة وذلك لإتاحة الفرصة لحضور كثير من ذوات الهيئة.. وأصحاب الجيب المنفوخ.. ولزيادة الدخل بتوفير عدد من المقاعد ذات القيمة العالية ولإلغاء نظام الباب

الضيق.. وما يترتب على ضيقه ونظام المرور به.. من ازدحام.. ومناكبة ومفاخذة.. وتفويل!..

ومع ما قلت.. فإنني أشهد أن النظام كان دقيقاً ورائعاً وهذه كلمة لوجه الحق.. وليست من باب.. أدخل الشخص يحلو اللسان.. معارضة نثرية للمثل.. أطعم الفم.. تستحي العين!..

وابتدأ اللعب.. وانتهى بما دلت عليه البداية. ولأنني لا أحب أن أزاحم المعلقين الرياضيين في فنهم الذي لا أجيده.. ولا في لقمة العيش التي لا أطولها من هذا الباب.. باب التعليق.. فإنني أوجز بالآتي.. حصيلة ما رأيت.. على قصر النظر.. وما سمعت.. رغم طول الأذن.. وما تنبأت به مع إيماني بأنه كذب المنجمون ولو صدقوا:

أولاً: كان واضحاً منذ البداية أن منتخبنا السعودي يصح أن تطلق عليه بالراحة اسم.. الخرز المجمع.. ولقد سميته قبل أن أعرف بالتأكيد أن أفراده لا يمثلون المنطقة الغربية وحدها طبقاً للمسمى.. وإنما شتى المناطق!

ثانياً: وإن خطوط الهجوم.. والوسط.. والدفاع.. ويد الله مع الجماعة.. كانت فردية بحتة في الجهد وفي المجهود في أغلب الأوقات وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية!

ثالثاً: ولهذا كان كل فرد من أفراد الجمهور متابعاً ومشجعاً حركات اللاعب المنتمي لفريقه.. فالمتفرج الأهلاوي مع اللاعب الأهلاوي.. وكذلك الوحدوي.. والاتحادي.. وسواهم.. كل مع هواه الخاص.. وكان الأفضل قياساً على ما ذكرت أن تتم اللعبة مع نادٍ واحد مطعّم ببعض لاعبين سواه..

رابعاً: ولقد لعب الفريق التونسي برجولة.. ولا أوافق على تسميتها خشونة.. فالمجال مجال صراع.. ومزاحمة.. وانتزاع.. ومشاركة بدنية.. لا مجال.. تعاليلي يبطه!

خامساً: وأن علينا أخيراً.. للمباريات الخارجية بأنواعها.. تكوين فريق أهلي للمملكة كلها لا للمناطق وحدها.. على أن ذلك التكوين في المستوى الدولي والعالمي يحتاج لتخطيط مفصل ولأمد طويل جداً.. جداً..

هذا.. ولقد أحسست بدوّار خفيف في رأسي بعد الأهداف الأربعة المتوالية في الشوط الثاني.. كرسم كف مريم!! بالتعبير المحلي الدارج.. كما شعرت بغثيان ثقيل في معدتي من حيثية الإصابتين المضادة..

وعلى طريقة: عوضي وعوضك على الله.. فإن التحكيم الوطني أثبت كفاءة ونزاهة مما دفعني.. حين سنحت فرصة مقابلة الحكم في الاستراحة بين الشوطين.. أن أقول له: أرجو إن فاتنا النصر في مستوى اللعب.. ألا يفوتنا في مستوى التحكيم.. فأجاب في تأتأة ممطوطة:

إننا ملتزمون بما جاء في الكتاب العزيز:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)!

* * *

ـ ١٢٤ ـ

قضيت جزءاً من يومي هذا مع جماعة من الأخوان.. تجمع بيننا كلنا قرابة فكرية.. ويلم شملنا جو ذهني واحد.. تجرد من وضر المادة اللعين تركناه عند عتبة المجلس.. بعيدين عن التباهي بالسيادة وبالجاه ينوبان صفة ومسمى.. عند بعض الناس.. عن الاسم الموروث.. وعن الصفة الإنسانية المكتسبة من الفرد ذاته تميزه عمن عداه..

وأشعر.. والشهادة لله.. أنها كانت بيننا ساعات عمر تحتسب بالدقيقة وبالثانية من العمر وعليه.. حيث أحس كل فرد من الجماعة أنه حي بالمعنى الدقيق للحياة.. حارة.. حلوة.. مديدة ذات رنين وجدوى.. وصاحبة مدى طويل المدى على الأيام بذكرياتها ذات الوجود المتحرك على الأيام الأخرى والتالية مكرورة.. لا يميزها عن بعضها إلا أرقام أوراق النتيجة المقطوعة كل صباح!..

وأعتقد كتفسير مضاد لما ذكرت.. أنه ليس من التعالي الكاذب.. أو الكبرياء الجوفاء التافهة البواعث أن شر ما يبتلى به المفكر الحساس وجوده مع من لا تجمعه به رابطة ذهنية.. أو من لا تنبض بوجوده الإنسانية نبضات الفطرة الذكية النابهة..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢٣هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢٥م.

ومما يروى.. للتاريخ.. في هذا الباب كله أو بعضه.. أن مفكراً جليلاً قضت المناسبة بأن يأمر الحاكم بسجنه.. ولإتمام النكاية به فقد صدر الأمر كذلك بأن يكون رفيق سجنه أحد الدهماء المغلقة قلوبهم.. والمغلقة عليهم نفوسهم داخل جدرانها الأربعة الصماء.. فلم يسع هذا المفكر الحساس إلا أن يبعث للحاكم باستعطاف رقيق.. لا ليطلق سراحه.. بل ليتكرّم فيجعل سجنه انفرادياً ينقل بعيداً عنه رفيقه الأصم القلب والفكر.. غير غافل عما يجره عليه ذلك السجن الانفرادي من عذاب نفسي.. وضيق وجداني ما بعدهما عذاب أو ضيق.. حيث الصمت المطبق.. ليل نهار.. باعتبار أن الإنسان.. أي إنسان.. لا يطيق الصوم عن الكلام بوصفه في التعريف.. وفي الواقع.. كما عبر عنه المناطقة أنه: حيوان ناطق!.

وهكذا ترجم لنا من قديم الزمان هذا المفكر المسكين في أمانة وفي صدق عملي.. ترجمة حية لمثلنا الشعبي الدارج والقائل:

حجر أنيس.. ولا دا الجليس!!

* * *

ـ ١٢٥ ـ

وقال لي ضحى هذا اليوم.. وهو يمضغ الكلمات والحروف على جنب.. في تؤدة وتكاسل.. ولكن بصوت له فرقعة مسموعة.. حتى لقد هممت فعلاً أن أفتح فمه لأتأكد من وجود قطعة اللبان الشحري أو اللامي.. بين فكيه.. قال:

إنني أتهم أدباءنا وشعراءنا الشيوخ منهم والكهول على حد سواء.. فهم بماضيهم وبحاضرهم أصل الداء في توريثنا صفة النفاق الأدبي.. طبيعة غالبة عليهم وعلينا فيما يكتبون ونكتب ـ وفيما يشعرون ونشعر.. فضلاً عن إصرارهم على إثبات الوجود اليومي بما لا يزالون يرددونه هنا.. وهناك من تكرار باهت لشخصياتهم الخابية..

ثم إنهم.. وهذا أخطر ما في اتهاماته.. يحولون بين الشباب المثقف وبين إبراز ذاتيته الجديدة بحكم استيلائهم بالسمعة وبالتسامع على مراكز القوة ـ كما يقولون في التعبير السياسي الجديد.. سواء في الصحف.. أو في المحاضرات بالأندية.. أو في مجالات الإعلام..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢٤هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢٦م.

وإنني أحتكم إلى ضميرك في الأمر.. وأتعشم أن تدلني على ما يجب على الشباب المثقف أن يفعله لكي يؤدي دوره الواجب عليه.. فإنني كشاب أديب مكسوف من خلو الميادين ـ ولا أقول الميدان.. من الوجود الشاب!..

فاستلقيت على قفاي.. متكئاً على وسادة غليظة أسطوانية الشكل من تلك الوسائد الشعبية التي نطلق عليها اسم.. المدفع!.. لأبدو معها كالطوبجي الذي نفدت ذخيرته من القنابل فاكتفى باحتضان أداة إطلاقها للإرهاب.. وللتخويف.. وقلت:

لقد مللت شخصياً من هذا العلك نتحدث به عن الأدباء ـ وعن الوجود الأدبي بدلاً من ممارسة الإنتاج يتحدث عن نفسه.. ولو أن للشباب قوة ذاتية كما ذكرت لما احتاج أن يسأل أين طريق الباب؟.. وأغلظت له القول لا يصح أن ينشر هنا وكأنه الغسيل المنشور على أحد الأسطحة تمتلئ به البيوت البلدية في بعض حوارينا القديمة..

واستطردت أنني مؤمن تمام الإيمان بأن أهم أدوار الشباب المثقف في هذه المرحلة من حياتنا الفكرية هو دور الترجمة.. سبيلاً صحيحاً لتلقيح الأذهان.. ولبث الحرار شرارات متقدة.. شأننا في ذلك شأن كل أمة سبقتنا في مراحل البناء الفكري وتطوره الحديث الفعّال..

وأضفت.. هل تستطيع أن تدلني.. لأجد شباباً مثقفاً على مستوى الكفاءة للترجمة من اللغات الأجنبية للغتنا العربية؟ وأنا أعلم ـ بالسماع وبالتسامع أيضاً.. أنهم في حالة ضعف أو عجز عن المقدرة بالنطق السليم باللسانين..

وهنا كف عن مضغ الكلمات والحروف على جنب.. وقال:

أوكيه!..

داكور!!

استبينا!!

* * *

ـ ١٢٦ ـ

ووصلاً لموضوع الشباب من ركن غير منظور.. فقد دعاني اليوم زميل دراسة.. وصديق عمر.. ورفيق حياة أن أتغدى معه في فيللته الجديدة لما يستكمل فرشها وتأثيثها للمسات الفنية الأخيرة من ربة البيت صاحبة الذوق المشهور لها به..

وكان حديثنا قبل تناول الوجبة الشهية.. أنفاساً متقطعة كالبخار المتصاعد من بعض الأطباق لا هو بالحبل الممدود.. ولا باللهاث المتطوع.. ولكن ما إن امتلأت أجوافنا.. واستقرت قعدتنا في جلسة المتمكن شرعاً حتى انتظم الحديث متصلاً.. وذا موضوع مفهوم.. وإن ورد في إيمائه المستحي وكأنه ضرب من ضروب الأدب الرمزي الحديث.. وحتى قال:

لقد جابهني أحدهم منذ أمد غير طويل عما قالته جماعة من الشباب الولوع بأن يجد ذاته في السطح حتى قبل أن يكمل من صعود الدرجات بعض ما يثبت وجوده في الدار.. عن شأن جماعة منا نحن الكهول أو الشيوخ صادفتنا في آخر المطاف من رحلة العمر ريح طيبة رخاء ذات خير وبركة.. ناقمة أبداً علينا وعلى الحياة الحاضرة أسلوبها لا يتبدل.. ولا

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢٥هـ ١٩٦٧/١١/٢٧م.

يتغير.. بالنسبة لنا.. حتى لكأنما ولدنا.. في نظرهم ـ هكذا ـ فيما نحن فيه.

ولا أدري لم تطاول أحد شياطينهم فخصني خاصة بالحجارة.. وكأنني أحد ثلاثة من زملائه المفروض علينا ـ كمسلمين.. أن نحصيهم تأدية لركن من أركان تلك الفريضة؟! ولست أدري ما هو تعليلك للأمر باعتبارك منتمياً في وضعية حياتك المادية للصف المقابل.. وعفواً في هذا التعبير يجبرني عليه التحديد والتقنين..

فتناولت منه طرف الحبل بنفس يتجاذبها عامل الأمانة في الإجابة بعيدة الغور في أسبابها التعليلية.. وعامل الدفاع بصدق عن النفس فيما ينطوي عليه مضمون البحث بداية ونهاية لأقول:

إن من الحق المجرد والعدالة لذاتها أن نعطي لشاب يريد أن يحكم على مركز صنم منصوب بكامل بذته الدنيوية أمام عينيه هكذا ـ وكما هو.. منذ أن فتح عينيه على الوجود.. دون أن يعلم شيئاً ولو يسيراً عن ماضيه.. وكيف كان في أمسه.. يدب على قدميه.. مثله اليوم.. فوق الحجارة والحصباء.. وبين حرارة الرمضاء.. وشواظ الهجير اليومي.. فلقد سمعت أذناي كثيراً من أمثالك ممن أومأت إليهم لا يتحدثون إلا بلهجة وأسلوب ما هم فيه ـ عما هم فيه.. كأنما هم وحدهم ذوو الأصالة والخبرة في مجال الفوز بفرص الحياة الزاهية..

علماً بأن العرف الذي في حياتنا العصرية ترد في تراجم وسير المرموقين بحرص على أن يصف الواحد منهم عمله في الماضي بكل ما له وما عليه لتسايره بشراً مكافحاً في نهاره وفي ليله ـ عاملاً ـ أو خادماً ـ و بائعاً متجولاً.. أو متكسباً بسيطاً أو ما شئت من صنوف الكفاح يبدأ

السلم من أول درجة فيه حتى النهاية بروح طموح.. وبعزم لا يهدأ ـ أو يفتر لينال في النهاية ما رسم وقرر.. غير جاهد ما لتوفيق الله كما يسميه ـ أو حسن الحظ ـ كما يسمونه.

ولعلمك فإن ذلك هو ما نطلق عليه في العربية اسم العصامية نردد الإشارة بها نثراً وشعراً وأمثالاً خرقت طبول آذاننا من الصفر في قولنا:

نفس عصام سودت عصاماً

و: إن الفتى من يقول: ها أنذا..

و: لا تقل أصلي وفصلي أبداً

إنما أصل الفتى ما قد حصل..

ثم إن هناك شيئاً أحب أن أضغط عليه بصورة خاصة.. وهو أنه ليس الذنب في هذا الذي تقول وأجيبك عليه راجعاً للمذاهب الطارئة تثير الشحناء ـ وتعلي سحب الغبار بقدر ما هو راجع في ظني إلى الجهل بحقيقة منشأ.. وكد.. وكدح.. وماضي أولئك الذين عنيناهم.. وأنت منهم.. وأنهم لم يولدوا بشيء.. أو ببعضه من هذا الذي عم فيه.. جهلاً يذكرنا بالقول البلدي الشائع:

اللي يجهلك.. ينكرك!!

❊ ❊ ❊

ـ ١٢٧ ـ

وسمعتهم اليوم.. يتحدثون على مقربة مني.. وقد رأيت على كره ومضض.. أن أبقى سميعاً فنياً لهم دون مشاركة في الكلام الذي أحبه ولا أسمع فيه كلاماً.. فإنني أشم للساني رائحة غير طيبة إن بقي داخل فمي محبوساً لا يشم الهواء.. ولا يؤدي وظيفته التي خلق لها كعضو عامل..

وقد اكتشفت بهذه المناسبة أن فن الإصغاء فن يتطلب الكثير من ضبط النفس ـ وترويض الأعصاب على السكوت.. وأنه لهذا أطلق عليه قديماً وحديثاً اسم.. أدب الحديث.. يستلزم عدم مقاطعة المتكلم.. والإنصات التام لاستيعاب ما يقول.. والصبر حتى إتمام ما يريد قوله.. وإنهاء ما لديه..

وبالرغم من وحدة الموضوع ومحدوديته.. فإنه لم يكد يمضي بعض الوقت حتى اختلطت الأصوات.. وتماسكت برقاب بعضها.. فلم أعد أفرق بين السائل والمجيب.. وبين البادئ للحديث.. والمنتهي منه.. وانتهى المجلس بسوء تصرف المتكلمين.. وبسبب عدم احترامهم لفن الإصغاء ـ وأدب الحديث.. إلى ما يسمى.. بالبلبلة.. نسبة إلى برج

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢٦هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢٨م.

بابل حيث تعددت الألسنة واللهجات وتزاحمت.. وركب بعضها فوق بعض ركوباً يبيح لأعلى الأصوات أن يدعي لنفسه السيادة على ما عداه بقوة الحنجرة وسلامتها من الفأفأة وبراءتها من الكحة وجفاف الريق.

وصرخ أحدهم بأعلى صوته.. كفى! هل نحن في سوق الحراج؟.. وصمت معظمهم.. لا رغبة في الصمت.. ولا احتراماً لأدب الحديث.. ولكن عجزاً عن مجاراته في الطبقة الصوتية.. ورغبة صادقة في الوصول إلى حل لنقطة الخلاف.. وإنهاء الموضوع.. حرصاً على الوقت من الضياع!!

وهنا اقترح آخر أن يكون الكلام بالسرا.. بعد أن يرفع طالب الكلام على الطريقة البرلمانية أصبعه سبابة.. أو بنصراً حسب مزاجه.. وابتدأ التنظيم مضطرباً أول الأمر حتى استقر على نحو قريب من النحو المطلوب لعملية التصويت اللازمة من اللاعبين ومن المتفرجين على حد سواء.. وترادفت الأقوال ـ يسرد كل من أصحابها حجته في براعة بيانية.. ذاكراً من الأدلة القانونية ـ والأصول، والأمثلة السابقة ما يدعم بكل منها موقفه الذي لا يتنازل عنه..

ونطقت بالشهادتين وحدهما أخيراً.. وذلك حين أعلن المحكمون من المتفرجين على لسان كبيرهم.. وبعد التداول.. قرارهم التالي.. بالإجماع:

أولاً ـ اللعب حكم.. والحكم شيرياً.. وفيه دبل.

ثانياً ـ اللعب فيه مائة.. وفيه سرا. وفيه بلوت.

ثالثاً ـ أصل + مائة + مائة بعشرة + سراباثنين + بلوت باثنين فيكون المجموع ٣٠.

رابعاً ـ الفريق الحاكم جاب في اللعب.. بعدد الورق ـ مائة وعشرين أي ١٢ وعنده ٢ بلوت.. صار له ١٤..

خامساً: الفريق المدبل جاب من برا مائة أي ١٠ + ٢ سرا = ١٢ وجاب في اللعب ـ بعدد الورق اكة كالة وشيبة وبنت وولد كلها بعشرين أي ٢ فيكون عنده ١٠ بالمائة + ٢ السرا + ٢ عدد الورق = ١٤ أيضاً.

وحيث أن الوضع كما سبق تفصيلاً وإجمالاً.. وحيث إننا لا نريد أن نضيع وقتنا الغالي هدراً و إهمالاً.. وحيث إن الحكم لا يرسل إرسالاً ـ بل يخضع للقاعدة الفنية البلوتية لا تقبل صراخاً أو جدالاً.. فيكون الأمر بهذه الحيثيات قد انتهى مشكلة وإشكالاً بالقاعدة نفسها حكمة.. وأمثالاً:

إذا تساوى الطرفان.. فالمدبل خصران!!

وهنا خفتت أصوات النقاش من فريق.. لترتفع من جديد أصوات فريق.. بالتفريق..

* * *

ـ ١٢٨ ـ

وقال لي اليوم.. وهو يصوب نظرته نحو أرض الغرفة حتى لا ألاحظ بها ما يعنيه واضحاً فيها مما استطاعت كلماته أن تخفيه عني بمهارة فائقة:

إنني ألاحظ أنك وفلان الشاعر.. وعلان الكاتب تحرصون على أن يكون لكم في جرائدنا كل صباح كلام يقرأ.. أو شعر يتلى.. أو خبر يروى.. مصدّراً كل ذلك بصوركم الكريمة.. فهل تستطيع بما جبلت عليه من صراحة ساخرة.. أو سخرية نادرة أن تكشف لي الغطاء حتى أرى الرأس الحقيقية بدلاً من الجثة؟ مشيراً بما قال إلى كلمتي السابقة عن لعبة.. راص بلا جتة.. التي كان يتلهى بها الأطفال على أيدي الحواة بالأعياد في برحة العيدروس بجدة..

فصوبت نظرتي إليه لا للأرض كما فعل ـ وغمغمت بكلمات ساخرة المعنى والحروف.. أما عني ذاتياً ـ ولا أسأل إلا عنها.. على طريقتنا الشائعة في كل صغيرة وكبيرة.. اللّهم إني لا أسألك إلا عن روحي! فإنني أرمي من وراء ذلك إلى استمرارية الوجود.. حتى لا أظل غريباً عن بلدي.. كما كنت غريباً عنها وجهاً وقفا.. وصوتاً وصورة..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢٧هـ ـ ١٩٦٧/١١/٢٩م.

لسنوات طويلة مرت سدى.. في رحلة جهنم الحمراء..

ولقد أضربت.. بعد العودة ـ لأسباب يطول شرحها.. عن النشر.. ولكن ما لبثت أن أدركت أنني أصبحت غريباً فعلاً.. بل ومنسياً من أهلي القدماء.. ومن الذين أصبحوا بالتجنس ـ وبالولادة في حكم الأهل المحدثين..

إن الأسماء.. يا صاحبي السائل.. كالنقد الرائج إذا لم تتداولها الأسماع كما تتداوله الأيدي فلسوف تهبط قيمتها في الأسواق.. ثم في ذاتها.. إن كانت خفيفة الوزن ورقية الاستعمال.. ولقد وازنت ذات يوم بين اسمي حمزة شحاته.. وبين السرحان وكعدور.. وبيني وبين الكتلوج.. وبين الأب عزيز والوصلة.. وبين محمد راسم وأبي غنم.. فوجدت الفرق هائلاً في التداول اليومي.. وفي الأسعار!

وبالمناسبة.. فإنني أروي لك رواية يشهد بها للحق وللتاريخ رئيس تحرير جريدة مشهورة كما هو مشهور!

لقد كنت لديه ذات مرة.. حين قال لقد غضب مني الكاتب فلان.. لحذفي أجزاء من مقاله.. واغتم لذلك.. فطمأنته أن هذا الكاتب سوف يعود ثانية للنشر لديك فلا تجزع.. فأخرج لي طرف لسانه استهزاء.. واستبعاداً لما قلت..

وفوجئ.. ولم أفاجأ.. بعودة الكاتب إليه من تلقاء نفسه.. فقال لي لقد صدقت فراستك في الأمر.. فقلت: وإن لدي جديداً أشير به عليك.. ولعلّك لا تحجم عن العمل به.. لزيادة وارد الجريدة.. قال: فهاته..

قلت: إنني أقترح أن تفرض مبلغاً تتقاضاه عن كل مقال يرد للنشر

من هذا الكاتب.. ومن أمثالي.. وثق أن القادر على الدفع منا سوف يقدم لك المطلوب.. ولو باسم صندوق البر ـ أو جمعية الرفق بالقراء!! مهما تغاليت في المقابل.. ولعلّك لصغر سنك لا تعرف أن بعض المغنين في بعض العصور كانوا يؤدون مقابلاً لمن يسمع أصواتهم المنكرة.. ولا جديد تحت الشمس!

وتركته ـ يومها ـ وهو لا يزال يفكر في تنمية وارد الجريدة ـ بالإضافة إلى الإعلانات بها ـ عن طريق المدفوع من بعضنا نحن الكتّاب اليوميين القادرين على الدفع للنشر.. لصندوق جمعية الرفق بالقراء!!

❊ ❊ ❊

ـ ١٢٩ ـ

وفي حديث مسلسل.. من أحاديث المجالس إياها.. سمعت اليوم أن فلاناً من الناس وعمره لا يتجاوز السابعة والثلاثين.. أي أنه في ضواحي سن الكمال.. وهي السن التي أومأ إليها الشاعر التركي الأصل.. والعربي اللسان.. ولي الدين يكن.. في قصيدته الدهرية بأنها الاستراحة في قطار الرجاء العريض الطويل.. على أيامه.. بقوله:

فما أترجى.. والأربعون تصرمت

ولا عيش إلا ينتهي.. حيث يبتدي!

سمعت أن فلاناً هذا قد أصيب بمرض الفالج ـ وأن له من الأبناء ـ أو المحافيظ.. كما يقولون سبعة عشر ولداً.. بين صبي وصبيّة.. فصرخ أحدهم دون أن يلكزه أحد في جنبه قائلاً.. أنا في جاه الله.. وقال سواه: في لهجة الاستفهام الاستنكاري.. يا شيخ؟.. بينما رفع أحد المطلعين على خفايا البلد عقيرته.. قائلاً.. هل تعرفون السيد؟ قالوا.. ومن هو؟ قال السيد فلان الفلاني يهوه.. قالوا.. نعم ـ أجاب أن لديه حتى ساعة سرد هذا الخبر ثلاثة وعشرين ولداً، ومن الأحفاد سبعة..

المصدر: جريدة عكاظ ١٣٨٧/٨/٢٨هـ ـ ١٩٦٧/١١/٣٠م.

وهو في سن الوالد.. والوالد داعس في الواحدة والستين!!

وهكذا تواتر هذا الحديث الأرنبي.. مبتدئاً بأن من عادة الأرنب حين تلقي بحملها القديم.. أن تبدأ الجديد بعد الأربعين مباشرة.. وأنها لا تكتفي بالخمسة أو بالسبعة من الأولاد في الحملة الواحدة.. وكانت عندنا أرنبة.. منفرطة.. و.. و..

وتطوّع مقاطعاً إياه أحدنا للدفاع عن المرأة. وأكد أنها مظلومة في الوضع! مسلوبة حقوق الأنثى لا حول ولا طول لها في هذه الأرنبية لا يتحمل الوزر معها.. فيها.. الأرنب نفسه.. وإنما الحول والطول للذكر إن قنع بواحدة.. أن يعاملها معاملة الأربع.. أو ذواتها.. وإن هو تجاوز المثنى والثلاث راقت له لعبة «قطة الإنجليز».. أو يا مسانكا وديني وانكا.. دون احترام لأصولها الشرعية والفرعية..

وهنا تذكر أحدهم أن هذا المضمار مضماره وحده.. فقد كان محاسباً تجارياً بحوش.. البردسيني.. بالسوق الكبير.. وخبا ضياء عينيه من مطالعة الأرقام الصاعدة والنازلة صباح مساء.. في دفاتر الدوبيا.. والأستاذ .. فقال:

عليكم في هذا الموضوع وحده بالحساب ـ فالحساب اليوم بالريال ـ من غير هللات ـ وما يعادله من الدولار.. والأسترليني قبل التخفيض الجديد.. وحتى بعده.. إنه يقول: إن المعدل للطفل الواحد بين مأكل.. ومشرب.. ومسكن.. وملبس.. وهي البنود الأربعة الثابتة يكلف الوالد يومياً بين أربعة وخمسة ريال. وذلك غير حساب التطبيب.. ابتداء من حالة التسنين.. إلى حين الإصابة.. بأبي كعيب.. فإذا جاء وعد الآخرة التي هي.. المدرسة.. الـ.. الـ..

حينذاك ارتفع صوت جهوري ذو مهابة ووقار.. قاطعاً عليه الاسترسال.. وهاتفاً.. اخرسوا.. قطع الله ألسنتكم.. وعلقناها في رقابكم.. إنكم تهرفون.. مع الملاحدة.. بما لا تعرفون.. وعليكم أن تتبينوا في الموضوع جلال الحكمة.. وسلامة العقيدة.. وصلاح المجتمع.. لو كنتم تعقلون..

لقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا..﴾ (هود: ٦)..

كما قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه:

تناكحوا.. تناسلوا.. فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة.. وهكذا عاد للمجلس هدوؤه.. وللنفوس طمأنينتها.. وللأفكار ثباتها.. وخاض الجميع بعد ذلك في بحث ربما استعرضناه قريباً.. فإن المجلس لا يزال منعقداً فعلاً.. حتى لحظة إعداد هذه الكلمة تقدم رجلاً.. للمطبعة.. وتؤخر أخرى.. للنشر..!

❊ ❊ ❊



فهرس المحتويات